المجلد [illegible]

الروائع من الأدب العربي

الشعر في القرن الثالث الهجري

إشراف: الدكتور عز الدين اسماعيل

المجلس الأعلى للثقافة
لجنة الدراسات الأدبية

الروائع من الأدب العربي

الجزء الرابع

القرن الثالث الهجري

اشراف
الدكتور عز الدين اسماعيل

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
طبعة ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

أعضاء

لجنة الدراسات الأدبية واللغوية
التى اعدت هذا المجلد

أ. د. عز الدين اسماعيل (مقرر اللجنة)

أ. د. ابراهيم عبد الرحمن

أ. د. رجاء عيد

أ. د. رمضان عبد التواب

أ. د. صلاح فضل

أ. د. عاطف جودة نصر

أ. د. عبد الواحد علام

أ. د. محمد زغلول سلام

أ. د. محمد عوني عبد الرؤوف

أ. د. محمد فتوح أحمد

أ. د. محمد مصطفى هدارة

أ. د. مصطفى مندور

أ. د. محمود مكى

روائع الأدب العربى

الجزء الرابع

تقـــديم

بعد أن فرغت لجنة الدراسات الأدبية واللغوية من اصدار الجزء الثالث من هذه الروائع ، مضت قدما فى انجاز هذا المشروع الأدبى الكبير والمهم ، فأعدت الجزء الرابع ، الذى يخرج اليوم فى هذه الطبعة الى جمهور محبى الأدب العربى ، شعره ونثره ، والى كل من ينشد من المختصين وغير المختصين الوقوف على عيون النصوص الأدبية العربية على مدى الزمن وفى البيئات المختلفة ·

وهذا الجزء مخصص أساسا لنصوص مختارة من القرن الثالث الهجرى· ولكن كما حدث فى الجزئين السابقين (الثانى والثالث) ، لم تلتزم اللجنة هنا كذلك بعام ٢٠٠هـ نهاية لمجال اختيارها ، كما لم تلتزم بعام ١٠٠هـ نهاية لاختياراتها فى الجزء الثانى ، أو بعام ٢٠٠ هـ نهاية لاختياراتها فى الجزء الثالث، ولكنها وجدت نفسها مضطرة الى الامتداد الى ما يقارب نهاية الثلث الأول من القرن الخامس ، للأسباب نفسها التى وردت فى مقدمة الجزء الثالث ·

والحق أن القرن الثالث الهجرى يعد امتدادا للقرن الثانى ، فالعباسيون مازالوا هم الخلفاء الذين يتوارثون الحكم ، والذين يعينون الولاة على الأقاليم المختلفة مشرقا ومغربا ، وان كانت القبضة القوية القديمة للحكومة المركزية فى بغداد قد بدأ الوهن يدب فيها ، نتيجة للصراع على السلطة · واذا كان الموالى من الفرس قـد حاولوا الهيمنة على مركز السلطة خلال القرن الثـانى الهجرى ، فقد صارت الهيمنة خلال القرن الثالث للعنصر التركى ، الذى جمع الى الوزارة قيادة الجيش · وقد انعكس هذا على الأوضاع الفكرية والايديولوجية؛ فالصراع الذى سيطر فيه المعتزلة على أهل السنة خلال القرن الثانى وحتى بدايات الثالث ، ينقلب الوضع فيه خلال القرن الثالث لحساب أهل السنة على المعتزلة · كذلك عرف هـذا القـرن نوعا جديدا من الثورات ، غير تلك الثورات السياسية التى عرفت من قبل ، والتى كانت تستهدف الوصول الى كرسى الحكم ، وأعنى بها ثورات الزنج والقرامطة ؛ وهى ثورات اقتصادية واجتماعية فى المحل الأول ·

وفى هذا القرن تكون الحياة العلمية قد صارت أكثر خصوبة ، وتكون المعارف السابقة قد نمت وتطورت، وبدأت تؤتى ثمارها · فالى جانب المتكلمين بفرقهم المختلفة أصبح هناك فلاسفة ومؤرخون ومحدثون (علماء الحديث) ومفسرون للقرآن ، وعلماء فى الفلك والطبيعة والطب ، الى جانب علماء العربية،

فضلا عن نشـاط حركة الترجمة ، التى صبت كثيرا من معـارف الشـعوب الحضارية السابقة فى بوتقة المعارف العربية ٠

وكما استفاض التأليف فى هذه المجالات المعرفية ، ظهرت العناية كذلك بالشعر والشعراء ، القـدامى منهم والمحدثين على السـواء : ظهرت المجاميع الشعرية المختارة المصنفة وغير المصنفة ؛ وظهرت تراجم الشعراء مع مختارات من أحسن ما أنتجوا (ابن سـلام ، ابن قتيبة ، ابن المعتز) ، كمـا ظهرت النظريات الخاصة بالشعر (ابن قتيبة ، الجاحظ ، قدامة بن جعفر) ٠

ولـما كان الشاعران ، أبو تمام والبحترى ، من أبناء هذا القرن ، يمثل أولهما تيار التجديد فى حالة نضجه واكتماله ، بعد المرهصين به فى القـرن المـاضى ، ويمثل آخرهما تيار المحافظة على التقاليد ، أمكننا أن نقول ان الصراع بين المجددين والتقليديين فى مجال الشعر قد بلغ غاية احتدامه فى خلال هذا القرن ٠ ومع ذلك لن يخطىء المتأمل فى أشعار هذا القرن ملاحظة التطور الذى وقع فى لغة هذا الشعر وتراكيبه النحوية وصوره لدى الفريقين على السواء ٠

واذا كانت الحياة العلمية والمعرفية قد اتسع نطاقها فى هذا القرن ــ على نحو ما ذكرنا ــ فقد اتسع بالضرورة مجال التأليف والكتابة ، وصار هناك الى جانب فن كتابة الرسائل ، الديوانية وغير الديوانية ، التى يتحرى فيهـا الكاتب بلاغة العبارة وأناقتها بمنطق ذلك العصر ــ صار هناك الكتابة النثرية التى تعـالج موضـوعا معرفيـا بعينه ، حيث يتحرى الكاتب الدقة ونصاعة التفكير ٠

ومجموعة النصوص الشعرية والنثرية ، التى يضمها هذا المجلد ، هى ما اتفقت اللجنة على أنه يمثل شعر ذلك القرن ونثره ، سواء أقام الشـعراء والكتاب فى قلب الدولة أو فى أطرافها ٠ واللجنة اذ تقدمها على هذا النحو فى هـذا المجلد ، انما ترجو أن تلقى القبول لدى جمهـور القـراء المحبين للأدب العربى ، المتذوقين لروائعه ٠



وبعد ، فقد التزمت اللجنة فى اعداد هذا المجلد كل القواعد الاجرائية التى عملت وفقا لها فى اعداد الأجزاء السابقـة ، ايمانا منهـا بسلامة هـذه القواعد ٠

ويبقى أن تقدم اللجنة الشكر الى كل من أعان على خروج هذا المجلد فى الصورة التى خرج عليها ، لا سيما السيدة عائشة عبد الرحمن ، أمينة اللجنة، التى تأكدت كفاءتها مع مضى الأيام فى هذا المضمار ٠

اللجنـة

الجزء الأول

الشعر

جحظــة البرمكى

(ت ٢٢٤ هـ)

هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك . ويقال إن ابن المعتز الشاعر أطلق عليه هذا اللقب « جحظة » ، وهو من فى عينيه نتوء ، وكان قبيح المنظر ، وكان له لقب آخر يلقبه به المعتمد وهو خَنْياكر أى المغنى بالفارسية . كان حسن الأدب ، كثير الرواية للأخبار ، متصرفاً فى فنون من العلم كالنحو واللغة والنجوم ، مليح الشعر ، مقبول الألفاظ ، حاضر النادرة ، وكان بارعاً فى العزف على الطنبور ، توفى سنة أربع وعشرين ومائتين وقد ترك مؤلفات كثيرة متنوعة الأغراض بعضها فى الموسيقى وبعضها فى الطبخ ، وله ديوان شعر . وقد كتب عنه أبو الفرج الأصفهانى كتاباً أسماه (أخبار جحظة البرمكى) .

أَنْشَدَ جَحْظَةُ فِى أَمَالِيهِ :

١ طَرَقْنَا بَزُوغى [1] حِينَ أَيْنَعَ زَهْرُهَا
وَفِيهَا ، لَعَمْرُ اللهِ ، لِلْعَيْنِ مَنْظَرُ

٢ وَكَمْ مِنْ بَهَارٍ [2] يَبْهَرُ الْعَيْنَ حُسْنُهُ
وَمِنْ جَدْوَلٍ بِالْبَارِدِ الْعَذْبِ يَزْخَرُ

---

(١) بزوغى بفتح الباء وضم الزاى وغين هكذا ضبطها ياقوت فى معجم البلدان وروى لجحظة أبياتا غير هذه وقال إن بينها وبين بغداد فرسخين الا أنه جعل الف بزوغى ممالة ولذا لم يضبط الغين .

(٢) البهار : نبت طيب الرائحة ، ويقال له : عين البقر ، وبهار البر .

٣ وَمِنْ مُسْتَحِثٍّ بِالْمُدَامِ كَأَنَّهُ ،
وَإِنْ كَانَ ذِمِّيًّا(١) ، أَمِيرٌ مُؤَمَّرُ

٤ وَفِي كَفِّهِ الْيُمْنَى شَرَابٌ ، مُوَرَّدٌ
وَفِي كَفِّهِ الْيُسْرَى بَنَانٌ(٢) مُعَصْفَرُ(٣)

٥ شَقَائِقُ(٤) تَنْدَى بِالنَّدَى فَكَأَنَّهَا
خُدُودٌ عَلَيْهِنَّ الْمَدَامِعُ تَقْطُرُ

٦ وَكَمْ سَاقِطٍ سُكْرًا يَلُوكُ(٥) لِسَانَهُ
وَكَمْ قَائِلٍ هُجْرًا(٦) وَمَا كَانَ يَهْجُرُ

٧ وَكَمْ مُنْشِدٍ بَيْتًا وَفِيـهِ بَقِيَّةٌ
مِنَ الْعَقْـلِ إِلَّا أَنَّهُ مُتَحَيِّرُ

٨ وَكَانَ مِجَنِّي(٧) دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَّقِي
ثَلَاثُ شُخُوصٍ كَاعِبَانِ(٨) وَمُعْصِرُ(١١)

(١) الذمى : الذى أعطى الذمة : أى الأمانة فأعطى الجزية وكان يضرب المثل به فى الذلة .
(٢) البنان : أطراف الأصابع .
(٣) المعصفر : المصبوغ بالعصفر ، وهو صبغ أصفر اللون .
(٤) الشقائق : نبات أحمر الزهر مبقع بنقط سوداء .
(٥) يلوك لسانه : يديره فى فمه .
(٦) الهجر : القبيح من الكلام .
(٧) المجن : كل ما وقى من السلاح .
(٨) كعبت الجارية : نهد ثديها وارتفع وأشرف .
(٩) أعصرت المرأة : أدركت والبيت من شعر عمر بن أبى ربيعة القرشى .

٩ وَكَمْ مِنْ حُسَّانٍ[١١] جَسَّ أَوْ تَارَ عُودِهِ
فَأَلْهَبَ نَارًا فِي ٱلْحَشَا تَتَسَعَّرُ

١٠ يُغَنِّي وَأَسْبَابُ ٱلصَّوَابِ تُمِدُّهُ
بِصَوْتٍ جَلِيلٍ ذِكْرُهُ حِينَ يُذْكَرُ

١١ أَحِنُّ حَنِينَ ٱلْوَالِهِ[١٢] ٱلطَّرِبِ ٱلَّذِي
ثَنَى[١٣] شَجْوَهُ[١٤] بَعْدَ ٱلْغَدَاءِ ٱلتَّذَكُّرُ

١٢ أَجَحْظَةُ إِنْ تَجْزَعْ عَلَى فَقْدِ مَعْشَرٍ
فَقَدْتَ بِهِمْ مَنْ كَانَ لِلْكَسْرِ يَجْبُرُ[١٥]

١٣ وَأَصْبَحْتَ فِي قَوْمٍ كَأَنَّ عِظَامَهُمْ
إِذَا جِئْتَهُمْ فِي حَاجَةٍ تَتَكَسَّرُ

١٤ فَصَبْرًا جَمِيلًا ، إِنَّ فِي ٱلصَّبْرِ مَقْنَعاً
عَلَى مَا جَنَاهُ ٱلدَّهْرُ ، وَٱللهُ أَكْبَرُ

---

(١١) الحسان : الجميل والأنثى حسانة .
(١٢) الواله : الحزين ، والمتحير من شدة الوجد .
(١٣) ثنى : رد بعض الشيء على بعض ، أى ضاعف التذكر أشجانه .
(١٤) الشجو : الهم والحزن .
(١٥) جبر العظم : أصلحه من كسر .

وَأَنْشَدَ أَيْضًا لِنَفْسِهِ :

١ يَا مَنْ بَعُدْتُ عَنِ ٱلْكَرَى بِبِعَادِهِ
ٱلصَّبْرُ – مُذْ غُيِّبْتَ – عَنِّى غَائِبُ

٢ أَصْبَحْتُ أَجْحَدُ أَنَّنِى لَكَ عَاشِقٌ
وَٱلْعَيْنُ مُخْبِرَةٌ بِأَنِّى كَاذِبُ

وَأَنْشَدَ لِنَفْسِهِ :

١ أَرَى ٱلْأَيَّامَ تَضْمَنُ لِى بِخَيْرٍ
وَلَـكِنْ ا بَعْـدَ أَيَّامٍ طِوَالِ

٢ فَمَنْ ذَا ضَامِنٌ لِدَوَامِ عُمْرِى
إِلَى دَهْرٍ يُغَيِّرُ سُوءَ حَالِى

٣ هِىَ ٱلتِّسْعُونَ قَدْ عَطَفَتْ[1] قَنَاتِى[2]
وَنَفَّرَتِ ٱلْغَوَانِى[3] عَنْ وِصَالِى

٤ وَفِيهَا – لَوْ عَرَفْتَ ٱلْحَقَّ – شُغْلٌ
عَنِ ٱلْأَمْرِ ٱلَّذِى أَضْحَى اشْتِغَالِى

---

(١) عطف الشيء : أماله .

(٢) القناة : الرمح أو عوده والمراد قوامه .

(٣) الغوانى : جمع الغانية : المرأة الغنية بحسنها وجمالها عن الزينة .

٥ كأنّى بالنّـوادِبِ قائلات ،

وَجِسْمِى فَوْقَ أعْنَـاقِ الرِّجالِ

٦ ألاَ سَقْيًا[1] لِجِسْمِكَ كَيْفَ يَبْلَى

وَذِكْرُكَ فِى الْمَجَالِسِ غَيْرُ بَالِى

وَأَنْشَدَ أيضاً لِنَفْسِهِ :

١ أَنْفِقْ وَلا تَخْشَ إقْلالًا ، فَقَدْ قُسِمَتْ

بَيْنَ الْعِبادِ مَعَ الْآجالِ أَرْزَاقُ

٢ لا يَنْفَعُ الْبُخْلُ مَعْ دُنْيا مُوَلِّيَة

ولاَ يَضُرُّ مَعَ الْإقْبَـالِ إنْفَاقُ

وَأَنْشَدَ أيْضًا لِنَفْسِهِ :

١ تَعَجَّبَتْ إذْ رَأَتْنِى فَوْقَ مَكْسُورِ

مِنَ الْحَمِيرِ عَقِيرِ الظَّهْرِ مَضْرُورِ

٢ مِنْ بَعْدِ كلِّ أَمِينِ الرُّسْغِ[2] مُعْتَرِضٍ[3]

فِى السَّيْرِ تَحْسَبُهُ إحْدَى التَّصَاوِيرِ

٣ فَقُلْتُ لا تَعْجَبِى مِنِّى وَمِنْ زَمَنٍ

أَخْنَى[4] عَلَىَّ بِتَضْيِيقٍ وَتَقْتِيرِ

---

(١) سقيا وسقيا لفلان : دعاء له ، والتقدير : طقاك الله سقيا

(٢) الرسغ : المفصل ما بين الساق والقدم .

(٣) اعترض البعير : ركبه وهو صعب لم تتم رياضته .

(٤) وأخنى عليه الدهر : طال وأهلكه ، أو أنحى بالحا المهملة مال عليه وبالغ فى إيذائه

٤ بَلْ فَاعْجَبِي مِنْ كِلَابٍ قَدْ خَدَمْتُهُمُ
تِسْعِينَ عَاماً بِأَشْعَارِي وَطُنْبُورِي ؟

٥ وَلَمْ يَكُنْ فِي تَنَاهِي حَالِهِمْ بِهِمُ
حُرٌّ يَعُودُ عَلَى حَالِي بِتَغْيِيرِ

* * *

وَقِيلَ لِجَحْظَةَ : كَيْفَ حَالُكَ ؟ فَقَالَ : كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

١ أَيُّ شَيْءٍ رَأَيْتَ أَعْجَبَ مِنْ ذَا
إِنْ تَفَكَّرْتَ سَاعَةً فِي الزَّمَانِ ؟

٢ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ السُّرُورِ بِوَزْنٍ
وَالْبَـــلَايَا تُكَالُ بِالْقُفْزَانِ (١)

* * *

وأَنْشَدَ جَحْظَةُ لِنَفْسِهِ :

١ الْحَمْدُ لِلَّهِ لَيْسَ لِي كَاتِبْ
وَلَا عَلَى بَابِ مَنْزِلِي حَاجِبْ

٢ وَلَا حِمَارٌ إِذَا عَزَمْتُ عَلَى
رُكُوبِهِ ، قِيلَ : جَحْظَةُ رَاكِبْ

---

(١) القفزان : جمع القفيز ، مكيال .

٣ وَلا قَمِيصٌ يَكُونُ لِي بَدَلًا
مَخَافَةً مِنْ قَمِيصِيَ ٱلذَّاهِبْ

٤ وَأُجْرَةُ ٱلْبَيْتِ فَهْيَ مُقْرِحَةٌ[1]
أَجْفَانَ عَيْنِي بِٱلْوَابِلِ ٱلسَّاكِبْ

٥ إِنْ زَارَنِي صَاحِبٌ عَزَمْتُ عَلَى
بَيْعِ كِتَابٍ لِشَبْعَةِ ٱلصَّاحِبْ

٦ أَصْبَحْتُ فِي مَعْشَرٍ تَشَمُّتُهُمْ
فَرْضٌ مِنَ ٱللهِ لازِبٌ[2] وَاجِبْ

٧ فِيهِمْ صَدِيقٌ فِي عُرْمِهِ عَجَبٌ
إِذَا تَأَمَّلْتَ أَمْرَهَا عَاجِبْ

٨ تَحْسِبُهَا حُرَّةً وَحَافِرُهَا
أَرَقُّ مِنْ شِعْرِ خَالِدٍ ٱلْكَاتِبْ

---

(١) قرحه : جرحه فآلمه .

(٢) اللازب : اللازم ، ويقال صار الأمر ضربة لازب ، أى صار لازما واجبا.

حَدَّثَنِي جَحْظَةُ قَالَ : اتَّصَلَتْ عَلَيَّ إِضَاقَةٌ ، أَنْفَقْتُ فِيهَا كُلَّ مَا أَمْلِكُهُ ، حَتَّى بَقِيتُ لَيْسَ فِي دَارِي سِوَى الْبَوَارِي ،⁽¹⁾ فَأَصْبَحْتُ يَوْماً ، وَأَنَا أَفْلَسُ مِنْ طُنْبُورٍ بِلا وَتَرٍ ، كَمَا فِي الْمَثَلِ ، فَفَكَّرْتُ كَيْفَ أَعْمَلُ ، فَوَقَعَ لِي أَنْ أَكْتُبَ إِلَى مَخْبَرَةَ بْنِ أَبِي عَبَّادٍ الْكَاتِبِ ، وَكُنْتُ أُجَاوِرُهُ ، وَكَانَ قَدْ تَرَكَ التَّصَرُّفَ قَبْلَ ذَلِكَ بِسَنَتَيْنِ ، وَحَالَفَهُ النِّقْرِسُ⁽²⁾ ، فَأَزْمَنَهُ حَتَّى صَارَ لا يَتَمَكَّنُ مِنَ التَّصَرُّفِ إِلَّا مَحْمُولاً عَلَى الأَيْدِي أَوْ فِي مِحَفَّةٍ⁽³⁾ ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ عَلَى غَايَةِ الظَّرْفِ ، وَكِبَرِ النَّفْسِ ، وَعِظَمِ الْهِمَّةِ⁽⁴⁾ ، وَمُوَاصَلَةِ الشُّرْبِ وَالْقَصْفِ⁽⁵⁾ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَطَايَبَ عَلَيْهِ لِيَدْعُوَنِي ، فَآخُذَ مِنْهُ مَا أُنْفِقُهُ مُدَّةً ، فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ :

مَاذَا تَرَى فِي جَـــدْيٍ
وَفِي عُقَـــارٍ بَوَارِدْ
وَقَهْـوَةٍ ذَاتِ لَـوْنٍ
يَحْكِي خُدُودَ الْخَرَائِدْ⁽⁶⁾

(١) البوارى : جمع البورية والبورياء : الحصير المنسوج من القصب .

(٢) النقرس : داء يأخذ فى الرجل ، ويقال هو ورم يحدث فى مفاصل القدم وفى إبهامها أكثر .

(٣) المحفة : مركب للنساء كالهودج .

(٤) رويت بالأصل : النعمة ولعلها تصحيف .

(٥) القصف : الإقامة فى الأكل والشرب واللهو .

(٦) الخرائد : جمع الخريدة : الجارية البكر

وَمُسْمِعٍ يَتَغَنَّى مِنْ آلِ يَحْيَى بْنِ خَالِدْ
إِنَّ الْمُضِيعَ لِهَـذَا نَزْرُ[1] الْمُرُوءَةِ بَارِدْ

فَمَا شَعَرْتُ إِلَّا بِمِحَفَّةٍ مُحَبَّرَةٍ يَحْمِلُهَا غِلْمَانُهُ إِلَى دَارِى، وَأَنَا جَالِسٌ عَلَى بَابِى، فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ جِئْتَ وَمَنْ دَعَاكَ؟ فَقَالَ: أَنْتَ، فَقُلْتُ: إِنَّمَا قُلْتُ لَكَ: مَاذَا تَرَى فِى هَذَا؟ وَعَنَيْتُ فِى بَيْتِكَ، وَمَا قُلْتُ لَكَ: إِنَّهُ فِى بَيْتِى، وَبَيْتِى وَاللهِ أَفْرَغُ مِنْ فُؤَادِ أُمِّ مُوسَى. فَقَالَ: الْآنَ قَدْ جِئْتُ وَلَا أَرْجِعُ، وَلَكِنْ أَدْخُلُ إِلَيْكَ، وَأَسْتَدْعِى مِنْ دَارِى مَا أُرِيدُ، قُلْتُ: ذَاكَ إِلَيْكَ، فَدَخَلَ، فَلَمْ يَرَ فِى بَيْتِى إِلَّا بَارِيَةً، فَقَالَ: — يَا أَبَا الْحَسَنِ، هَذَا وَاللهِ فَقْرٌ مُطِيحٌ، هَذَا ضُرٌّ مُدْقِعٌ[2]، مَا هَـذَا؟ قُلْتُ: هُوَ وَاللهِ مَا تَرَى، فَأَنْفَذَ إِلَى دَارِهِ، فَاسْتَدْعَى فَرْشًا وَآلَةً وَقُمَاشًا وَغِلْمَانًا، وَجَاءَ فَرَّاشُوهُ فَفَرَشُوا ذَلِكَ، وَجَاءَ وَافِرُ الصُّفْرِ وَالشَّمْعِ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَجَاءَ طَبَّاخُهُ بِمَا كَانَ فِى مَطْبَخِهِ، وَهُوَ شَيْءٌ كَثِيرٌ، بِآلَاتِ ذَلِكَ، وَجَاءَ شَرَابِيُّهُ بِالْأَوَانِى وَالْمَخْرُوطِ وَالْفَاكِهَةِ وَآلَةِ التَّبْخِيرِ وَالْبَخُورِ وَأَلْوَانِ الْأَنْبِذَةِ، وَجَلَسَ يَوْمَهُ ذَلِكَ وَلَيْلَتَهُ عِنْدِى، يَشْرَبُ عَلَى غِنَائِى وَغِنَاءِ مُغَنِّيَةٍ أَحْضَرَهَا، كُنْتُ أُلَقِّنُهَا، فَلَمَّا كَانَ مِنَ

---

(١) النزر: القليل.

(٢) المدقع: الشديد.

الْغَدِ سَلَّمَ إِلى غُلامِهِ كِيسًا فِيهِ أَلْفُ دِرْهَم ، وَرُزْمَةَ ثِيَابٍ صِحَاحٍ ، وَمَقْطُوعَة مِنْ فَاخِرِ الثِّيَابِ ، وَاسْتَدْعَى مِحَفَّةً فَجَلَسَ فِيهَا ، وَشَيَّعْتُهُ ، فَلَمَّا بَلَغَ آخِرَ الصَّحْنِ ، قَالَ : مَكَانَكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ ، إِحْفَظْ بَابَكَ ، فَكُلُّ مَا فِي دَارِكَ لَكَ ، فَلا تَدَعْ أَحَدًا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْئًا ، وَقَالَ لِلْغِلْمَانِ : اخْرُجُوا ، فَخَرَجُوا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَغْلَقْتُ الْبَابَ عَلَى قُمَاشٍ بِأُلُوفٍ كَثِيرَة.



أبو تمام

(ت ٢٣١)

هو حبيب بن جاسم بن أوس الطائى ، ولد بقرية جاسم بقرب دمشق على الطريق منها إلى طبريا ولقد اختلف الرواة فى سن ولادته ، فمنهم من جعلها عام ١٧٢ وقيل ١٨٢ أو عام ١٨٨ أو عام ١٩٣ وذكر أنه كان يردد أنه ولد عام ١٩٠ ونسبه متدافع فى بنى طئ وزعم أنه كان قبطيًّا أو أنه كان نصرانيًّا من بنى تدوس وذهب طه حسين إلى أنه يونانى الأصل وعلى ذلك ابتنى مذهبه فى شعره إلا أن الأرجح أن نسبه ثابت فى طئ ولقد تباينت آراء الرواة حول نشأته الأولى ، فمنهم من جعلها فى مصر ومنهم من جعلها فى دمشق وقيل إنه عمل فى المساجد أو عند حائك حيث أتقن صنع الثياب ، نهل ثقافته الأولى من المساجد واغترف من بحر اللغة والفلسفة والفقه وبلغ إلى ذروة الثقافة إلى التى عرفها عصره وكانت ثقافته تمتزج امتزاجًا عميقًا بشعره .

وكان أبو تمام متكسبًا بالشعر استهله بمدح عمرو السكسكى وبنى عبد الكريم الطائيين ومال إلى مصر فامتدح عياش بن لهيعة الحضرمى ، ثم ما عتم أن هجاه وربما أقام فى مصر بين عامى ٢١١ ، ٢١٤ ثم عاد إلى بلدته حيث وجد بنى طئ يقيمون جنازة محمد بن حميد الطوسى الذى قتل فى موقعة مع بابك الحزمى فنظم فيه أجمل شعر الرثاء ثم تردد على الرقة والموصل . وامتدح قاضى نصيبين ورأس العين ومال إلى بغداد زمنًا

وكان عندئذ فى السادسة والعشرين من عمره وشرع إثر ذاك بمدح مالك ابن طوق التغلبى والى الجزيرة وامتدح المأمون فى انتصاراته على الروم وقائديه وهما مزيد بن مزيد الشيبانى والى أرمينيا الذى انتصر على تيوفيل امبراطور بيزنطية م وأما القائدالثانى فجعفرالخياط وبعد عام ٢١٨ التقى المعتصم فى بغداد وامتدح كذلك إسحق بن إبراهم ـ المصعبى الذى انتصر على المحمرة وشط من ثمة إلى خراسان فامتدح واليها عبداللهبن طاهر وامتدح رئيس ديوانه محمد بن الهيثم بن شبانة ونزل فى همذان فحبسه الثلج فيها فأكب على كتبه ووضع مجاميع شعره أهمها كتاب الحماسة ، وعاد إلى سامراء وتغنى بانتصارات القواد على بابك الحرمى فامتدح الأفشين وأبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى . وأبا دلف العجلى .

وتوفى عام ٢٣١ هـ .

فى مـدح المعتصم

وقال يمدح المعتصم بالله أبا إسحق محمد بن هارون الرشيد ويذكر حريق عمورية وفتحها :

كان المنجمون قد حكموا أن المعتصم لايفتح عمورية ، وراسلته الروم بأنَّا نجد في كتُبنا أنه لا تُفْتَح مدينتنا إلا فى وقت إدراك التين والعِنَب ، وبيننا وبين ذلك الوقتِ شهورٌ يمنعُك من المُقَام بها البَرْدُ والثلج ، فأَبى أن ينصرف وأكبُّ عليها ففتحها فابطل ما قالوا :

١ السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ
فى حَدِهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِد واللَّعِبِ

٢ بيضُ الصَّفَائِحِ لا سُودُ الصَّحَائِفِ فى
مُتُونِهِنَّ جَلاءُ الشكِّ والرِّيَبِ

٣ وَالعِلْمُ فى شُهُبِ الأَرْمَاحِ لامِعَةً
بَيْنَ الخَمِيسَيْنِ لا فى السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

---

(١) الحد الأول : السيف والثانى : الفاصل بين الشيئين .

(٢) الصحيفة : الكتاب – الصفائح : جمع الصحيفة وهى الحديدة العريضة وتقال أيضا السيف العريض .

(٣) الخميس : الجيش – السبعة الشهب : الكواكب .

٤ أَيْنَ الرِّوايَةُ بَلْ أَيْنَ النُّجُومُ وَمَا
صَاغُوه مِنْ زُخْرُفٍ فِيها ومِنْ كَذِبِ

٥ تَخَرُّصاً وَأَحَادِيثاً مُلَفَّقَةً
لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إِذَا عُدَّتْ وَلا غَرَبِ

٦ عَجَائِباً زَعَمُوا الْأَيَّامَ مُجْفِلَةً
عَنْهُنَّ فى صَفَرِ الْأَصْفَارِ أَوْ رَجَب

٧ وخَوَّفُوا النَّاسَ مِنْ دَهْيَاءَ مُظْلِمَة
إِذَا بَدَا الْكَوْكَبُ الْغَرْبِىُّ ذُو الذَّنَبِ

٨ وَصَيَّرُوا الْأَبْرجَ الْعُلْيَا مُرَتَّبَةً
مَا كَانَ مُنْقَلِباً أَوْ غَيْرَ مُنْقَلِبِ

---

(٤) الزخرف : هنا الكلام الموشى المائل عن الصدق .

(٥) التخرص : افتراء القول – الملفقة : المجموعة دون لحمة أو منطق– النبع :شجر صلب تتخذ منه الأقواس والغرب : نبت خائر ينمو على الأنهار .

(٦) يقول إنهم تنبأوا بدواهى لم تعهد من قبل ، تنزل فتبث الذعر حتى أن الأيام نفسها تجفل منها ، فكيف بالناس ! كما أنهم عينوا زمنها إذ جعلوه فى شهر صفر أورجب ،وقد أضاف لفظة «صفر» إلى جمعها ليوحى بعظم الهول الذى كان هذا الشهر مزمعاً أن يتفرد به .

(٧) الدهياء : الداهية والشدة – المظلمة : هنا التى لا سبيل إلى الخلاص منها .

(٨) الوجه أن يروى «مرتبة» بكسر التاء ، ويكون قوله : «ما كان منقلبا» فى موضع بدل من مرتبة أى صيروا التدبير للنجوم ، فكأنها هى التى تتصرف بمصائر القوم . ويعنى ب «الأبراج» بروج السماء التى أولها الحمل وآخرها الحوت ، والمنجمون يزعمون أنها على ثلاثة أقسام ، أربعة منقلبة ، وهى : الثور والأسد والعقرب والدلو ، وأربعة ذوات جسدين ، وهى : الجوزاء والسنبلة والقوس والحوت.

٩ يَقْضُونَ بالأمْرِ عَنْهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ
مَا دَارَ فِي فلك مِنْهَا وفي قُطُبِ

١٠ لوْ بَيَّنَتْ قط أَمْرًا قَبْلَ مَوْقِعهُ
لَمْ تُخْفِ ما حَلَّ بالأوْثَان والصلب

١١ فَتْحُ الفُتُوحِ تَعَالى أَنْ يُحِيطَ بِهِ
نَظْمٌ مِن الشِّعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الخُطَبِ

١٢ فَتْحٌ تَفَتَّحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ
وتَبْرُزُ الأرْضُ فِي أَثْوَابِهَا القُشُبِ

١٣ يَا يَوْمَ وَقْعَةِ عَمُّورِيَّةَ انْصَرَفَتْ
مِنْكَ المُنَى حُفَّلًا مَعْسُولَةَ الحَلَبِ

١٤ أَبْقَيْتَ جَدَّ بَنِي الإسْلامِ فِي صَعَدٍ
والمُشْرِكِينَ وَدَارَ الشِّرْكِ فِي صَبَبِ

---

(٩) الفلك : هنا مدار النجوم الذى يضمها – القطب : هو ما ثبت فى دورانه على شىء

(١٠) (م) يقول : لو كان لها قبل بالمعرفة ، لأدركت الهزيمة المنكرة التى كانت مزمعة أن تحل بجماعة الروم ، أصحاب الصليب والوثنين ، وفى هذا البيت ملح بالجهاد الدينى .

(١١) (م) يقول إنه فتح لا مثيل له يعرف من قبل ، ولا قبل للشعر أن يفيه حقه من الوصف فهو اقصى من حدود التصور .

(١٢) يقول ان الله ذاته طرب لهذا النصر لما انطوى عليه من مجد للإسلام ، كما أن أبناء الأرض ينتشون به أجمل الزين والاحتفالات .

(١٣) الحفل : جمع الحافل وهى الناقة التى امتلا ضرعها – الحلب : ما حلب واستدر من اللبن .

(م) يتغنى بذلك النصر ، ويقول إن الأمانى كلها تحققت وملأت الأنفس سعادة .

(١٤) الجد : الحظ – الصعد : العلو – الصبب : الانحدار .

(م) يقول إن حظ الدين قد ارتفع به ، فيما انحدر به الملحدين وأهينوا .

١٥ أُمٌّ لَهُمْ لَوْ رَجَوْا أَنْ تُفْتَدى جَعلُوا
فِـداءَهَـا كُلَّ أُمٍّ مِنْهُمْ وَأَبِ

١٦ وَبَرْزَةِ الوَجْـهِ قَدْ أَعْيَتْ رِيَاضَتُهَـا
كِسْرَى وصدَّتْ صُدُودًا عَنْ أَبِي كَرِبِ

١٧ بِكْرٌ فَمَـا افْتَرَعَتْهَـا كَفُّ حَـادِثَةٍ
وَلا تَرَقَّتْ إِلَيْهَـا هِمَّـــةُ النُّـوَبِ

١٨ مِنْ عَهْدِ إِسْكَنْدَرٍ أَوْقَبْل ذَلِكَ قدْ
شَابَتْ نَوَاصِي اللَّيَـالِي وهْيَ لَمْ تَشِبِ

١٩ حَتَّى إِذَا مَخَّضَ اللهُ السِّـنِينَ لَهَا
مَخْضَ البَخِيلَةِ كانَتْ زُبْدَةَالحِقَبِ

---

(١٥) « الأم : أصل الشيء ومعدنه .

(م) يقول : هذه البلدة أمهم ، تجمعوا وتضمهم كما تضم الأم ولدها ، فلو استطاعوا لافتدوا خرابها بكل أم لهم ولدتهم وأب .

(١٦) البرزة : المرأة السافرة التي لا تتستّر عن الرجال — رياضتها : هنا ترويضها وإذلالها . — أبو كرب : : هو أحد الملوك التبابعة الذين تعرضوا لها .

(م) يقرن تلك القلعة بالمرأة التيلاتتستّر للرجال ، وتقول إن أعاظم الفاتحين حاولوا اقتحامها فأعيتهم وتعصت عليهم .

(١٧) افترع : افتض — النوب : جمع النائبة : : المصيبة .

(م) يقول إنه لم تلم الأهوال والحروب قبلا ، فكأنها عذراء لم تمس بكارتها يد أى من الفاتحين .

(١٨) النواصي : جمع الناصية . وهي مقدمة شعر الرأس .

(١٩) مخض اللبن : حركة ليخرج زبده — الحقب : جمع الحقبة : وهي مدة طويلة من الدهر

٢٠ أَتَتْهُمُ الْكُرْبَةُ السَّوْدَاءُ سَادِرَةً
مِنْهَا وَكَانَ اسْمُهَا فَرَّاجَةَ الكُرَبِ

٢١ جَرَى لَهَا الفَأْلُ بَرْحًا يَوْمَ أَنْقِرَةٍ
إِذْ غُودِرَتْ وَحْشَةَ السَّاحَاتِ والرَّحَبِ

٢٢ لَمَّا رَأَتْ أُخْتَهَا بِالأَمْسِ قَدْ خَرِبَتْ
كَانَ الْخَرَابُ لَهَا أَعْدَى من الجَرَبِ

٢٣ كَمْ بَيْنَ حِيطَانِهَا مِنْ فَارِسٍ بَطَلٍ
قَانِى الذَّوَائِبِ مِنْ آنِى دَمٍ سَرِبِ

٢٤ بِسُنَّةِ السَّيْفِ وَالخطِّىِّ مِنْ دَمِهِ
لا سُنَّةِ الدِّينِ والْاسْلَامِ مُخْتَضِبِ

---

(٢٠) السادرة : من سدرت العين إذا أظلمت .
فاذا بها تغدو باعثا لأعظم شدة انتصار المملوح .

(٢١) الفأل : الحظ والخير ومنها التفاؤل — البرح : وهو ضد السانح ، وهو ما ولاك مياسره ، والسانح ما ولاك ميامنه — يوم أنقرة : اسم موقعة فى بلاد الروم — وحشة : موحشة — الرحب : جمع الرحبة : الساحة .

(٢٢) الهاء فى أختها راجعة إلى عمورية . ويريد بأختها انقرة . أى انها لما خربت وهى أخت عمورية أعدتها بالحرب . والجرب يوصف بالعدوى .

(٢٣) الذوائب : جمع الذؤابة وهى طرة شعر الرأس — القانى : الشديد الحمرة ، وهنا اشارة إلى اصطباغ شعره بالدم — الآنى : الحار — السرب : السائل .

(٢٤) م يفيد الشاعر من سنة جرى عليها أئمة المسلمين فى الخضاب . ويقول إنه هو الذى جر الويل على نفسه ، فأعمل بها السيف والرمح ، وليس للاسلام فى ذلك يد ما إليها .

٢٥ لقد تركتَ أميرَ المؤمنينَ بها
لِلنارِ يوماً ذليلَ الصخرِ والخشبِ

٢٦ غادرتَ فيها بهيمَ الليلِ وهو ضحًى
يَشُلُّهُ وسطَها صُبحٌ من اللهبِ

٢٧ حتى كأنَّ جلابيبَ الدُّجى رَغِبَتْ
عن لونِها وكأنَّ الشمسَ لم تَغِبِ

٢٨ ضوءٌ من النارِ والظلماءُ عاكفةٌ
وظُلمةٌ من دُخانٍ في ضُحًى شَحِبِ

(٢٥) نصب « يوما » على أنه مفعول صحيح ، ولا يحتمل أن يكون ظرفا ، والمعنى يوما ذليلا صخره وخشبه . والغرض انها أحرقت فذل صخرها وخشبها النار .

(٢٦) غادرت : تركت : البهيم : الليل الذى لا ضوء فيه — يشله : يطرده .

(م) يقول إن اشتعال النار والتماع السلاح بددا ظلام الليل وجعلاه يتألق كالصبح ، فكأن ذل اللهيب طرد الظلام وأقام من دونه .

(٢٧) الجلابيب : جمع الجلباب ، وهو القميص والرداء .

(م) يكمل المعنى ويقول أن تألق ذلك الصباح من اللهب فى الليل يوهم بأن الليل قد بدل رداءه المظلم أو أن الشمس ظلت مشرقة فيه ، مخالفة نواميس الطبيعة .

(٢٨) يقول : ضوء النار يصير الليل نهارا ، وظلمة الدخان تصير الضحى شيحبا .

(٢٩) أفلت : غابت وجبت الشمس إذا طلعت فى المغرب — ذا الأولى : يعنى بها لهيب النار وذا الثانية يريد بها الدخان .

(م) يكرر المعنى ويقول أن النار جعلت الشمس تطلع فى الظلام ، كما أن الدخان جعلها تغرب وهى فى النهار ، وآية المعنى هى تقريب المتناقضات لاثارة الدهشة والغلو .

٣٠ تَصَرَّحَ الدَّهرُ تَصريحَ الْغَمَامِ لَهَا
عَن يَومِ هَيجَاءَ مِنْهَا طَاهِرٍ جُنُبِ

٣١ لَم تَطلُعِ الشَّمسُ فِيهِ يَومَ ذَاكَ على
بانٍ بِأَهلٍ وَلَم تَغرُب على عَزَبِ

٣٢ مَا رَبْعُ مَيَّةَ مَعمُوراً يُطِيفُ بِهِ
غَيْلانُ أَبْهَى رُبًى مِنْ رَبْعِهَا الخَرِبِ

٣٣ وَلا الْخُدُودُ وَقَدْ أُدْمِينَ مِنْ خَجَلٍ
أَشْهَى إِلى نَاظِرِى مِنْ خَدِّها التَّرِبِ

٣٤ سمَاجَةً غَنِيَتْ مِنَّا العُيُونُ بِهَا
عَنْ كُلِّ حُسْنٍ بَدَا أَوْ مَنْظَرٍ عَجَبِ

---

(٣٠) تصرح : تفعل من الصريح ، وهو الخالص أى تكشف الدهر ، كما يتكشف الغمام عن السماء ويقول : « طاهر جنب » إن هذا اليوم كان ما فعل فيه حلالا لأن الغزو مندوب إليه طاهر من هذا الوجه ، وجنب لأنهم أخذ الشى ، فوطئوه فاحتاجوا إلى الغسل والشاعر يسمت فى ذلك بما قالوه من أعراض المشركين دون أن يصيبهم دنس موقعة السبايا لا تعتبر زنا تعتبر زنى .

(٣١) يقول إنهم قتلوا كل زوج من الأعداء ، فأبادوا الرجال كما أنهم واقعوا نساءهم فلم يبق من المسلمين عازب لم يقع على أمرأة .

(٣٢) غيلان : هو ذو الرمة الشاعر الأموى المعروف الذى خص شعره للتشبيب بمية

(٣٣) يقول إن خدها المتعفر بالتراب أجمل من الخدود المتوردة بالخجل ، وهو إنما يظهر عظم شماتته لما حل بالمشركين .

(٣٤) سماجة : قبح – يقول : خراب عمورية سماجة عند أهلها ، وقد استغنت عيوننا عن كل حسن بها ، لأنها تفوق كل حسن فى عيون المسلمين الظافرين . فهو يستعذب مايستقبحه المشركون .

٣٥ وَحُسْنُ مُنْقَلَبٍ تَبْقَى عَـوَاقِبُـهُ
جَـاءَتْ بَشَـاشَتُهُ مِنْ سُوءِ مُنْقَلَبِ

٣٦ لَوْ يَعْلَمُ الْكُفْرُ كَمْ مِنْ أَعْصُرٍ كَمَنَتْ
لَهُ العَوَاقِبُ بَيْنَ السُّـمْرِ والقُضُبِ

٣٧ تَدْبِيرُ مُعْتَصِـمٍ بِاللهِ مُنْتَقِـمٍ
للهِ مُـرْتَقِبٍ فى اللهِ مُـرْتَغِبِ

٣٨ وَمُطْعَمِ النَّصْـرِ لَمْ تَكْهَمْ أَسِـنَّتُهُ
يَوْمًا وَلا حُجِبَتْ عَنْ رُوحِ مُحْتَجِبِ

٣٩ لَمْ يَغْزُ قَوْمًـا ، وَلَمْ يَنْهَضْ إلى بَلَدٍ
إلَّا تَقَـدَّمَـهُ جَيْشٌ مِنَ الـرُّعُبِ

٤٠ لَوْ لَمْ يَقُدْ جَحْفَلًا ، يَوْمَ الْوَغَى ، لَغَدا
مِنْ نَفْسِهِ ، وَحْدَهَا ، فى جَحْفَلٍ لَجِبِ

---

(٣٥) يقول إنهم آلوا إلى مآل حسن من سوء مال المنهزمين .

(٣٦) السمر : الرماح — القضب : السيوف .

(٣٧) المرتقب الذى يجعل ما يرقبه بين عينيه كأنه ينظر إليه . ومرتغب أى يرغب فيما يقربه إلى الله تعالى .

(٣٨) مطعم النصر : أى الموفق فى حروبه ، يكسب رزقه منها وأصلها فى الصيد إذ يقال مطعم الصيد أى الذى لا يزال يطعم منه . لم تكهم . لم تنب ولم تكل .

(٣٩) يكرر المعنى السابق ويقول إنه لا يكاد يقصد بلدا لحربه حتى يتولى أهله من دونه هربا إذ يتولاهم الرعب لما أثر عن الممدوح من بطش وهول ، فكأن الرعب يقاتل معه فى صفوفه.

(٤٠) الوغى : الحرب — الجحفل : الجيش الهائل المروع — اللجب : الكثير الصخب.
(م) يقول إن له همة أو شجاعة توازى همة جيش عظيم بأكمله .

٤١ رَمَى بِكَ اللهُ بُرْجَيْهَا فَهَدَّمَهَا
وَلَوْ رَمَى بِكَ غَيْرُ اللهِ لَمْ يُصِبِ

٤٢ مِنْ بَعْدِ مَا أَشَّبُوهَا وَاثِقِينَ بِهَا
وَاللهُ مِفْتَاحُ بَابِ المَعْقِلِ الأَشِبِ

٤٣ وَقَالَ ذُو أَمْرِهِمْ لا مَرْتَعٌ صَدَدٌ
لِلسَّارِحِينَ وَلَيْسَ الوِرْدُ مِنْ كَثَبِ

٤٤ أَمَانِيًا سَلَبَتْهُمْ نُجْحَ هَاجِسِهَا
ظُبَى السُّيُوفِ وَأَطْرَافُ القَنَا السُّلُبِ

---

(٤١) (م) يقول : كان قتالك فى الله مستنصراً لدينه ، ولو كان قتالك لغير دين الله لم تنتصر عليهم ولم تصبهم ، وهو إنما يمدحه بالجهاد المقدس الذى ينال به مرضاة الله وموآزرته.

(٤٢) أشب : أصل المعنى فى الغيضة إذا التفت أغصانها ، وهنا كناية عن إحاطتهم بالرماح الكثيرة التى توشك أن تشتبك كأغصان الشجر .

(م) يقول إنهم أحاطوها بالسلاح الكثير ، مطمئنين إلى مناعتها ، فاذا هى تنهار دونهم لأن الله هو الذى فتحها عليهم .

(٤٣) ذو أمرهم : رئيسهم — مرتع : المكان الذى ترتع فيه الراعية — الصدد : المكان الدانى القريب — السارحون : الذين يسرحون دوابهم للمرعى — الكثب : القرب .

(م) يقول إن رئيسهم سكن روعهم بالقول : لا تخافوا ، فانهم لن يجدوا مرعى ولا مسرحاً لدوابهم ولا ماء قريباً يردونه ، ولن يطول أمرهم ، حتى يتولوا إذ ستضيق عليهم سبل البقاء والصمود .

(٤٤) الهاجس : هنا الفكر والمؤمل — ظبى : جمع ظبة وهو حد السيف — السلب : وهو الطويل من الرماح أو جمع سلوب وهو الذى يسلب الناس أرواحهم وأموالهم .

(م) يقول إن فألهم ذاك خاب إذ أخملته فى نفوسهم الرماح والسيوف التى سلبتهم أموالهم وأرواحهم وبددتهم كل تبديد .

٤٥ إنَّ الحِمَـامَيْنِ مِنْ بِيضٍ ومِن سُمُرٍ
دَلْوَا الحَيَـاتَيْنِ مِن مَاءٍ ومِن عُشُبِ

٤٦ لَبَّيْتَ صَـوْتًا زِبَطْرِيا هَـرَقْتَ لَهُ
كَأْسَ الكَرَى وَرُضَـابَ الخُرَّدِ العُرُبِ

٤٧ عَـدَاكَ حَرُّ الثُّغُورِ المُسْـتَضَامَةِ عَنْ
بَرْدِ الثُّغُـورِ وَعَنْ سَلْسَالِهَا الحَصِبِ

٤٨ أَجَبْتَـهُ مُعْلِنًـا بِالسَّيْفِ مُنْصَلِتًا
وَلَوْ أَجَبْتَ بِغَيْرِ السَّيْفِ لَمْ تُجِبِ

---

(٤٥) الحمام : الموت — البيض : الرماح — السمر : السيوف .

(م) يقول إن القوم لا يهنأون فيما يرتعون به من ماء يحمونه أو عشب يرعونه إلا إذا بذلوا من دونهما الأرواح قتلا بالسيوف والرماح وتحرير المعنى إن الراحة والدعة لا يقترنان إلا بالكفاح والتعب .

(٤٦) هرق : لغة فى أراق — الرضاب : الريق — الخرد : جمع الخريدة ، وهى المرأة الحيية — العرب جمع العروب وهى المتحببة إلى زوجها .

«زبطرى» منسوب إلى زبطرة ، وهى بلد فتحه الروم ، فبلغ المعتصم فيما قيل ان امرأة قالت ذلك اليوم وهى مسبيه: وامعتصماه ! فنقل إليه ذلك الحديث ، وفى يده قدح يريد أن يشرب ما فيه ، فوضعه وأمر بأن يحفظ ، فلما رجع من فتح عمورية شرب .

(٤٧) « الثغور» الأولى جمع ثغر ، وهو الموضع الذى يخاف أن يأتى منه العدو .

و« الثغور» الثانية من ثغر الانسان . وأصل « السلسال» الماء الصافى السهل الدخول فى الحلق . و«الحصب» الذى فيه الحصباء وهو صغار الحصى ، وإنما أراد بالسلسال «الريق» ، وجعله حصبا لأن فيه الأسنان . و« عداك» أى صرفك عن برد هذا الريق فى ثغور الحسان ما فى قلبك من أمر الثغور التى أبيحت وتمكن العدو منها . وفى هذا البيت مطابقة ومجانسة فالمطابقة بالحر والبرد ، والمجانسة بالثغور والثغور .

(٤٨) السيف المنصلت : المتجرد .

٤٩ حَتَّى تركْتَ عَمُود الشِّرْكِ مُنْعَفِرًا
وَلَمْ تُعَرِّجْ عَلى الأَوْتَادِ وَالطُّنُبِ
٥٠ لَمَّا رَأَى الحَرْبَ رَأْيَ العَيْنِ تُوفِلسٌ
والحَرْبُ مُشْتَقَّةُ المَعْنَى مِنَ الحَرَبِ
٥١ غَدَا يُصَرِّفُ بِالأَمْوَالِ جِرْيَتَهَا
فَعَزَّهُ الْبَحْرُ ذُو التَّيَّارِ والحَدَبِ
٥٢ هَيْهَاتَ ! زُعْزِعَتِ الْأَرْضُ الوَقُورُ بِهِ
عَن غَزوِ مُحْتَسِبٍ لا غَزو مُكْتَسِبِ
٥٣ لَمْ يُنفِقِ الذهَبَ المُرْبِي بِكَثْرَتِهِ
عَلى الحَصَى وبِهِ فَقْرٌ إلى الذَّهَبِ

(٤٩) عمود : هنا عمود الخيمة — المتعفر : المتمرغ فى التراب . الأوتاد : جمع الوتد خشبة التى تغرز فى الأرض وتربط بها حبال الخيمة — الطنب : جمع الطنب ، وهو الحبل الذى توثق به الخيمة فى الأوتاد.

(٥٠) الحرب : ذهاب المال والهلاك — توفلس : من قواد الروم .

(٥١) الجرية : من جرى الماء ، وقد قرن به زحف الجيش الطظيم — عزة : غلبة — التيار : الموج الذى يجئ تارة بعد الأخرى — الحدب : ارتفاع الماء مرة بعد أخرى .

(م) يقول مكملا المعنى السابق أن قائد الروم إذ شاهد الجيش زاحفا عليه كالسيل حاول أن يدفعه ببذل المال إلا أن المعتصم أبى أن يرتشى به عن الثأر والقتال فى سبيل الله .

(٥٢) هيهات : اسم فعل للدلاله على البعد والنأى — زعزعت : حركت وهنا بمعنى زلزلت — الوقور : بمعنى الصلابه والثبات — المحتسب : من يعمل ليوم الحساب .

(م) يقول إنه زلزل الأرض زلزالا فى غزوه الذى ابتغى منه مرضاة الله من دون أية غاية أخرى فهو يقاتل لاكتساب الأجر لا المال .

(٥٣) المربى : الزائد الكثير .

(م) يخاطب توفلس ، ويقول : لم ينفق الذهب الكثير الذى هو أكثر من الحصى رغبة فيما تبذله من الذهب ، بل لينتقم منك ، ويقابلك بسوء صنيعك أو تسلم .

٥٤ إنَّ الأُسُودَ أُسُودَ الغيلِ همَّتُها
يَوْمَ الكَرِيهَةِ فى المَسْلُوبِ لا السَّلَبِ

٥٥ وَلَّى ، وَقَدْ أَلْجَمَ الخَطِّىُّ مَنْطِقَهُ
بِسَكْتَةٍ تَحْتَهَا الأَحْشَاءُ فى صَخَبِ

٥٦ أَحْذَى قَرَابِينَهُ صَرْفَ الرَّدَى ومَضَى
يَحْتَثُّ أَنْجَى مَطَايَاهُ مِنَ الهَرَبِ

٥٧ مُوَكَّلاً بِيَفَاعِ الأَرْضِ يُشْرِفُهُ
مِنْ خِفَّةِ الخَوْفِ لا مِنْ خِفَّةِ الطَّرَبِ

٥٨ إنْ يَعْدُ مِنْ حَرِّهَا عَدْوَ الظَّلِيمِ ، فَقَدْ
أَوْسَعْتَ جَاحِمَهَا مِنْ كَثْرَةِ الحَطَبِ

---

(٥٤) الكريهة : الحرب الشديدة : الغيل : الغابة الكثيفة التى يلجأ اليها الأسد .

(م) يقول ان جند الممدوح لا يحفلون لما يكسبونه من سبى بل بأصحابه أى أنهم يقتلون المشركين ويعفون عن أملاكهم وأموالهم أو أنهم لا يأبهون لها .

(٥٦) أحذى : أعطى — القرابين : جلساء الملك ، وهى جمع قربان وأصلها من فعل قرب لدنو هؤلاء من صاحب السلطة . يحتث : يدفع ويحض — الأنجى : هنا الأسرع فى النجاة .

(م) يقول إنه بعد أن صرع أتباعه تولى هارباً ، يحث مطاياه الأسرع عدوا ، ناجيا بنفسه هارباً .

(٥٧) الموكل : هنا الدائم التنبه — اليفاع : من الأرض المرتفع — يشرفه : أى يعلوه ويرتفع عليه .

(م) يقول إنه لا يزال يستشرف ما دونه من أراض ، وهو مقيم على مرتفع ليستطلع السبيل إذا كان فيها من يقتفى أثره . ويردف بأنه بد سريعا خفيفا فى علوه واستطلاعه لشدة ذعره لا من شدة حماسه وطربه .

(٥٨) يعدو : يركض — الظليم : ذكر النعام . وهو شديد الذعر ، كثير الهرب أوسعت : أغنت — الجاحم : الذى يضرم النار العظيمة .

٥٩ تِسْعُونَ أَلْفاً كآسادِ الشَّرَى نَضِجتْ
جُلُودُهُمْ قَبْلَ نُضْجِ التِّينِ والعِنَبِ

٦٠ يَا رُبَّ حَوْبَاءَ اجْتُثَّ دَابِرُهُمْ
طَابَتْ وَلَوْ ضُمِّخَتْ بالمِسْكِ لَمْ تَطِبِ

٦١ ومُغْضَبٍ رَجَعَتْ بِيضُ السُّيُوفِ بِهِ
حَيَّ الرِّضَا مِنْ رَدَاهُمْ مَيِّتَ الغَضَبِ

٦٢ والحَرْبُ قَائِمَةٌ في مَأْزِقٍ لَجِجٍ
تَجْثُو القِيَامُ بِهِ صُغْرًا عَلى الرُّكَبِ

٦٣ كَمْ نِيلَ تَحْتَ سَنَاهَا مِن سَنَا قَمَرٍ
وَتَحْتَ عَارِضِهَا مِنْ عَارِضٍ شَنِبِ

٦٤ كَمْ كَانَ فِي قَطْعِ أَسْبَابِ الرِّقَابِ بِهَا
إلى المُخَدَّرَةِ العَذْرَاءِ مِنْ سَبَبِ

٦٥ كَمْ أَحْرَزَتْ قُضُبُ الهِنْدِيِّ مُصْلَتَةً
تَهْتَزُّ مِنْ قُضُبٍ تَهْتَزُّ فِي كُثُبِ

---

(٦٠) الحوباء : النفس – اجتث دابرهم : قطع أصلهم – ضمخ : طلى بالطيب – طابت : أطمأنت .

(٦٢) يصف شدة الحرب ويقول إنها اشتدت حتى لج المتحاربون وتضايقوا وحتى أنهم لم يعودوا يطيقون القيام على أرجلهم ، فجثوا إرهاقا . مكرهين .

(٦٣) سناها : هنا كناية عن نارها المتأججة – سنا القمر : هنا المرأة المتألقة الجمال كالقمر – العارض : أصله في المطر الشديد الانهمار . والعارض الثانية : الأسنان . الشنب : البارد . وهى هنا صفة للثغر .

(٦٤) السبب : الحبل وهنا عرق الرقبة – المخدرة : المرأة الحصان المقيمة فى خدرها العذراء البكر .

(٦٥) قضب الهندى : السيوف .

٦٦ بيضٌ، إذَا انتُضِيَتْ مِن حُجْبِهَا ،رَجَعَتْ
أَحَقَّ بالبِيضِ أَتْرَابًا مِنَ الحُجُب

٦٧ خَلِيفَةَ اللهِ جَازَى اللهُ سَعْيَكَ عَنْ
جُرْثُومَةِ الدِّينِ وَالْإِسْلامِ والحَسَبِ

٦٨ بَصُرْتَ بِالراحَةِ الكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا
تُنَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرٍ مِنَ التعَبِ

٦٩ إِنْ كَانَ بَيْنَ صُرُوفِ الدهْرِ مِن رَحِمٍ
مَوْصُولَةٍ أَوْ ذِمَامٍ غَيْرِ مُنقَضِبِ

٧٠ فَبَيْنَ أَيامِكَ اللَّاتِى نُصِرْتَ بهَا
وبَيْنَ أيامِ بَدْرٍ أَقرَبُ النَسَبِ

٧١ أَبْقَتْ بَنِى الأَصْفَرِ المِمْرَاضِ كاسِمِهِم
صُفْرَ الوُجُوهِ وجَلَّتْ أَوْجُهَ العَرَبِ

---

(٦٦) البيض الأولى : السيوف — انتضيت : سلت — الحجب : الأغماد — البيض الثانية : النساء — الأتراب : جمع الترب وهو الرفيق والصاحب الذى نشأت معه . وله مثل عمرك — الحجب الثانية : مخادع النساء .

(٦٧) الجرثومة : الأصل (م) يكرر مدحه الماله بالجهاد .

(٦٨) يقول لقد أدركت أن الطمأنينة لا تنال إلا بالكفاح والعنى .

(٦٩ — ٧٠) بدر هو اسم الموقعة التى انتصر بها النبى على المشركين .

(م) يقول أن كانت أحداث الدهر التى تنزل الهلاك فى الخصوم تتوالد وتتناسل عبر الزمن فان نصرك فى عمورية هو حفيد نصر النبى فى بدر على كفار قريش .

(٧١) الممراض : الكثير المرض . وبنو الأصفر هم الروم .

مدح المعتصم

وقال يمدح المعتصم :

١ رقَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فَهْيَ تَمَرْمَرُ
وغَدَا الثَّرَى فى حَلْيِهِ يَتَكَسَّرُ

٢ نزَلَتْ مُقَدمَةَ المَصِيفِ حَمِيدَةً
ويَدُ الشِّتاءِ جَدِيدَةٌ لا تُكْفَرُ

٣ لَوْلا الذى غَرَسَ الشتاءُ بِكَفِهِ
لاَقَى المَصِيفُ هَشَائِماً لا تُثْمِرُ

٤ كَمْ لَيْلَة آسَى البِلادَ بِنَفْسِهِ
فيهَا ويَوْمٍ وَبْلُهُ مُثْعَنْجِرُ

٥ مَطَرٌ يَذُوبُ الصحْوُ منه وبَعْدَهُ
صَحْوٌ يَكادُ مِنَ الغَضَارةِ يُمْطِرُ .

---

(١) تمرمر : تموج .

(م) يقول إن الأيام جعلت ترفل وتموج بالزهر ودب الماء فى الأغصان فباتت تتكسر لطراوتها .

(٢) مقدمة المصيف : الربيع .

(م) يحمد الربيع لقدومه بالزهر ولا ينكر فضل الشتاء لأنه هو الذى روى الثرى.

(٣) الهشائم : جمع الهشيمة : الشجرة الوابسه .

(م) لولا أمطار الشتاء ليبست أشجار الصيف .

(٤) المثعنجر : الغزيز المصوت .

(م) يقول أن الشتاء يواسى البلاد من المحل .

(٥) يقول أن مطر الربيع ينكشف من خلاله الصحو لأنه لا يطول ولا يقيم ، كما أن الصحو الذى يعقبه كالمطر فى نواه وطيب مناخه .

٦ غَيْثَانِ فالأَنْوَاءُ غَيْثٌ ظاهِرٌ
لكَ وَجْهُهُ ، والصَّحْوُ غَيْثٌ مُضْمَرُ

٧ وَنَدًى إذَا ادَّهَنَتْ به لِمَمُ الثَّرَى
خِلْتَ السَّحَابَ أَتَاهُ وهو مُعَذِّرُ

أَرَبِيعَنَا فى تِسْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً
حقًّا لَهِنَّكَ لَلرَّبِيعُ الأَزْهَرُ

٩ ما كانتِ الأَيَّامُ تُسْلَبُ بَهجةً
لو أنَّ حُسْنَ الرَّوْضِ كانَ يُعَمَّرُ

١٠ أَوَلا ترى الأَشْياءَ إنْ هى غُيِّرَتْ
سَمُجَتْ وحُسْنُ الأَرْضِ حِينَ تَغَيَّرُ ؟

١١ يا صاحِبَيَّ تَقَصَّيا نَظَرَيْكُمَا
تَرَيَا وُجُوهَ الأَرْضِ كيفَ تَصَوَّرُ

١٢ تَرَيَا نَهَارًا مُشْمِسًا قد شَابَهُ
زَهْرُ الرُّبَا فكأَنَّما هو مُقْمِرُ

١٣ دُنْيا مَعَاشٌ للوَرَى حَتَّى إذَا
جُلِىَ الرَّبِيعُ فإنَّما هى مَنْظَرُ

(٦) يقول إن الصحو غيث مضمر لأنه يكمل ما أداه الغيث إذ ينمى النبت .

(٧) لمم الثرى : النبت . يقول إذا سقط الندى بالليل ورأيت تلك القطرات بالنهار حسبتها قد مر عليها السحاب مقيما لعذره عنده بهذا المطر القليل ، فعل المقصر فى الشئ .

(٨) بعد تسع عشرة سنة من مضى مائتى سنة من الهجرة . يقول : لم يأت ربيع مثله مد هذه المدة ، فى كثرة أمطاره ودلائل إمتاره .

١٤ أَضحَتْ تَصُوغُ بُطونُها لِظُهورِهَا
نَوْرًا تكادُ له القُلوبُ تُنَوِّرُ

١٥ مِنْ كلِّ زَائِرةٍ تَرقْرَقُ بالنَّدَى
فكأنَّهَا عَيْنٌ عليْهِ تَحَــدَّرُ

١٦ تَبْدُو وَيحجُبُها الجَمِيمُ كأنَّهَا
عَذْراءُ تَبْدُو تَارَةً وتَخَفَّــرُ

١٧ حتَّى غَدَتْ وَهَدَاتُهَا ونِجَادُهَــا
فِئَتيْنِ فى خِلَعِ الرَّبيــع تَبَخْتَرُ

١٨ مُصْفَرَّةً مُحْمَرَّةً فكأنَّهَــا
عُصَبٌ تَيَمَّنُ فى الوَغَا وتَمَضَّرُ

١٩ مِنْ فَاقِــعٍ غَضِّ النَّبَاتِ كَأَنَّهُ
دُرٌّ يُشَقَّقُ قَبْلُ ثُمَّ يُزَعْفَــرُ

٢٠ أَوْ سَاطِعٍ فى حُمْرَةٍ ، فكأنَّ ما
يَدْنُو إِليْــه مِنَ الهَــوَاءِ مُعَصْفَرُ

٢١ صُنْعُ الذى لَوْلا بَدَائِعُ صُنْعِهِ
ما عَادَ أَصْفَرَ ، بَعْدَ إِذْ هُوَ أَخْضَرُ

٢٢ خُلُقٌ أَطَلَّ مِنَ الرَّبِيــعِ كأنَّهُ
خُلُقُ الامــامِ وَهَــدْيُهُ المُتَيَسِّرُ

---

(١٧) الوهدء : الأرض المنخفضة . النجاد : جمع نجد : الأرض المرتفعة .
(٢١) كناية عن الله .

٢٣ فى الأَرْضِ مِنْ عَدْلِ الامام وجُـودِهِ
ومِنَ النَّباتِ الغَضِّ سُرْجٌ تَزْهَرُ

٢٤ تُنْسَى الرِّياضُ وما يُرَوِّضُ فِعْلُهُ
أَبَدًا عـــلى مَرِّ اللَّيالى يُذْكَرُ

٢٥ إنَّ الخَلِيفَةَ حينَ يُظْلِمُ حادِثٌ
عَيْنُ الهُــدَى وله الخِلافةُ مَحْجِرُ

٢٦ كَثُرَتْ بِهِ حَرَكاتُها ولقَدْ تُرَى
مِنْ فَتْرَةٍ وكَأَنَّهَـــــــا تَتَفكَّرُ

٢٧ ما زِلْتُ أَعْلَمُ أَنَّ عُقْدَةَ أَمْرِهـا
فى كَفِّهِ مُــذْ خُــلِّيَتْ تَتَخَيَّرُ

٢٨ سَكَنَ الزمَــانُ فــلاَ يَدٌ مَذْمُومَةٌ
للحـــادِثَاتِ ولا سَـــوَامٌ يُذْعَرُ

٢٩ نَظَمَ البِـلادَ فأَصبَحتْ وكأَنها
عِقْدٌ كَأَنَّ العَـــدْلَ فيــهِ جَوهَرُ

٣٠ لم يَبقَ مَبدًى مُوحِشٌ إِلَّا ارتَوَى
مِن ذِكْرِهِ فكأَنَّمَا هُـــوَ مَحضَرُ

---

(٢٨) يقول إن الزمان غدا ميمونا ، كف عن إساءته ، حتى السوام اطمأن ، إذ لم يعد ينفره منفر .

(٢٩) يقول إن عدله انتظم البلاد كلها كانتظام الجوهر .

٣١ مَلِكٌ يَضِلُّ الفَخْرُ فى أيامِهِ
وَيقِلُّ فى نَفَحَاتِهِ مَا يَكثُرُ

٣٢ فَلَيَعسُرَنَّ على الليالى بَعدَهُ
أَنْ يُبتَلى بِصُروفِهِنَّ المُعسِر

* * *

مدح محمد بن حسّان الضّبى

وقال يمدح محمد بن حسّان الضّبى :

١ ما اليَوْمُ أَوَّلَ تَوْدِيعٍ ولا الثّانى
البَيْنُ أَكْثَرُ مِنْ شَوْقى وَأَحْزَانى

٢ دَعِ الفِرَاقَ فإنَّ الدَّهْرَ سَاعدَهُ
فَصَارَ أَمْلَكَ مِنْ رُوحى بِجُثْمَانى

(٣١) النفح : الريح الباردة .

(م) يقول إنه أدرك أقصى غاية الفخر فلا يجد الفخر سبيلا لما دونه وإن عطاءه وإن كثرة يجده قليلا .

(٣٢) يقول إنه منع الليالى من أن تنال الأحباء بعسر ، مادام الممدوح يقيلهم عثراتهم وينيلهم نواله :

(١) الشوق والحزن فى الحب .

(٢) عذاب الفراق يملك ذاته وكأنه جسده .

٣ خَلِيفَةُ الْخِضْرِ مَنْ يَرْبَعْ على وَطَنٍ
في بَلْدَةٍ فظُهُورُ العِيسِ أوطاني

٤ بالشَّامِ أَهْلي وبَغْدَادُ الهَوَى وأنا
بالرَّقَّتَيْنِ وَبالفُسْطاط إخْـوَاني

٥ وَمَا أَظُنُّ النَّوَى تَرْضَى بما صَنَعَتْ
حتَّى تُطَوِّحَ بي أقصَى خُرَاسَان

٦ خَلَّفْتُ بالأُفُقِ الغَرْبى لى سَكَناً
قَدْ كانَ عَيْشِي به حُلْوًا بِحُلْوَان

٧ غُصْنٌ مِنَ البَـانِ مُهْتَزٌّ عَلى قَمَرٍ
يَهْتَزُّ مِثْلَ اهْتِزَازِ الغُصْنِ فى البَان

٨ أَفْنَيْتُ مِنْ بَعْدِهِ فَيْضَ الدُّمُوعِ كما
أَفْنَيْتُ فى هَجْرِهِ صَبْرى وسُلْوَاني

٩ وليسَ يَعْرِفُ كُنْهَ الوَصْلِ صَاحِبُه
حتى يُغَادَى بِنَأْىٍ أَوْ بِهِجْرَانِ

---

(٣) الخضر : هو القديس جاورجيوس عند النصارى وفى الاعتقاد انه لم يمت وإنه مازال يتجول فى كل مكان .

(٥) تطوح : تقذف .

(٦) الحلوان : الوصال الحلو أو اسم موضع .

(٨) السلوان : النسيان .

(٩) الكنه : الجوهر وهنا الحقيقة الفعلية .

١٠ إساءةُ الحادِثاتِ استَبْطِنى نَفَقًا
فقَدْ أظلَّكِ إحسانُ ابنِ حَسَّان

١١ أمسَكْتُ مِنْهُ بِودٍّ شَدَّ لى عُقَدًا
كأنَّما الدَّهْرُ فى كَفِّى بِهَا عَانِ

١٢ إذَا نَوَى الدَّهْرُ أن يُودِى بتالِدِه
لَمْ يَسْتَعِنْ غيرَ كَفَّيْهِ بأعْوَانِ

١٣ لَوْ أنَّ إجماعَنَا فى فَضْلِ سُودُدِهِ
فى الدِّينِ لم يَخْتلِفْ فى الأُمَّةِ اثنَانِ

* * *

رثاء محمد بن حميد الطائى

وقال يرثى مُحمّد بنَ حُمَيد الطائى :

١ كَذَا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الأَمرُ
فليسَ لِعَيْنٍ لم يَفِضْ ماؤُها عُذْرُ

٢ تُوفِّيَتِ الآمالُ بعدَ مُحَمَّدٍ
وأصبحَ فى شُغْلٍ عنِ السَّفرِ السَّفْرُ

(١٠) النفق : هنا الملجأ والملاذ .
(١٢) التالد : المال القديم .
(١) الخطب : المصاب . يفدح : يعظم . ماء العين : الدمع .
(٢) السفر : المسافرون .

٣ وما كانَ إلّا مالَ مَنْ قَلَّ مالُهُ
وذُخْراً لِمَنْ أمسى وليسَ له ذُخْرُ

٤ وما كانَ يَدْرِى مُجْتَدِى جُودِ كَفِّهِ
إذَا ما استهلَّتْ أنَّه خُلِقَ العُسْرُ

٥ ألا فى سَبِيلِ اللهِ مَنْ عُطِّلَتْ له
فِجَاجُ سَبِيلِ اللهِ وانثغَرَ الثَّغْرُ

٦ فَتًى كُلَّما فاضَتْ عُيونُ قَبِيلةٍ
دَماً ضَحِكَتْ عنه الأَحاديثُ والذِّكْرُ

٧ فَتًى ماتَ بينَ الضَّرْبِ والطَّعْنِ مِيتَةً
تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إذْ فاتَه النَّصْرُ

٨ وما ماتَ حتَّى ماتَ مَضْرِبُ سَيْفِهِ
مِنَ الضَّرْبِ واعتلَّتْ عليهِ القَنا السُّمْرُ

٩ وقد كانَ فَوْتُ المَوْتِ سَهْلًا فردَّهُ
إليه الحِفاظُ المُرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ

١٠ ونَفْسٌ تَعَافُ العَارَ حتَّى كأنَّهُ
هوَ الكُفْرُ يومَ الرَّوعِ أوْ دُونَهُ الكُفْرُ

---

(٤) المجتدى : طالب المعروف . استهلت : انهمرت بالعطاء وأصلها فى المطر .

(٥) الفجاج : السبل الوعرة . انثغر الثغر : يقول إن الثغر تفجى حزنا عليه .

(٩) فوت الموت : النجاة منه . الحفاظ : المجالدة . الخلق الوعر : الأخلاق العسيرة .

(١٠) يوم الروع : يوم الحرب الشديدة .

١١ فأَثْبتَ فى مُسْتَنقعِ المَوْتِ رِجْلَه
وقالَ لهَا مِنْ تحت أَخمُصِكِ الحَشْرُ

١٢ غَدَا غَدْوَةً والحمْدُ نَسْجُ رِدائِهِ
فلم يَنْصَرِفْ إلَّا وأكفانُه الاجْرُ

١٣ تَردى ثِيَابَ المَوْتِ حُمْرا فما أَتَى
لها الليلُ إلَّا وهْىَ مِنْ سُنْدُسٍ خضرُ

١٤ كأن بَنِى نَبْهَانَ يومَ وَفاتِه
نجومُ سَمَاءٍ خَرَ مِنْ بَيْنِهَا البَدْرُ

١٥ يُعَزَّوْن عن ثَاوٍ تعَزَّى بِهِ العُلى
ويَبكى عليهِ الجُودُ والبأْسُ والشعْرُ

١٦ وأَنَّى لَهُمْ صَبْرٌ عَلَيْه وقد مَضَى
إلى المَوْتِ حَتَّى استُشهِدَا هُوَ والصبْرُ!

١٧ فَتًى كانَ عَذبَ الرُّوحِ لا مِنْ غَضاضَةٍ
ولكنَّ كِبْرًا أن يُقَالَ بهِ كِبْرُ!

١٨ فَتًى سَلَبَتْهُ الخيلُ وهُوَ حِمًى لها
وبَزَّتهُ نارُ الحَرْبِ وهْوَ لها جَمْرُ

---

(١١) أخمص القدم : المكان الفارغ فى وسطها . الحشر : هنا الموت .

(١٤) بنى نبهان : قوم الميت .

(١٥) ثاو : راقد .

(١٧) الغضاضة : هنا الهوان والضعة . أى أنه كان يعز عليه أن يوصف بالتكبر فكان يظهر التواضع وعذوبه الروح

١٩ وقَدْ كانتِ البِيض المآثيرُ فى الوَغَى
بَواتِرَ فهىَ الآنَ مِن بَعْدِهِ بُتْرُ

٢٠ أمِنْ بَعْدِ طَىِّ الحَادِثَاتِ مُحَمَّدًا
يَكون لِأَثوابِ النَّدَى أبدًا نَشرُ ؟!

٢١ إِذَا شَجَرات العُرْفِ جُذَّت أُصُولُهَا
فَفِى أى فَرْعٍ يُوجدُ الوَرَق النَّضرُ ؟

٢٢ لَئِنْ أُبغِضَ الدَّهْرُ الخَؤُونَ لِفَقدِهِ
لَعَهْدِى بِهِ مِمَّنْ يُحَبُّ له الدَّهْرُ

٢٣ لَئِنْ غَدَرَت فى الرَّوْعِ أَيَّامُه بِهِ
لَمَّا زَالتِ الأَيَّامُ شِيمتُهَا الغَدْرُ

٢٤ لَئِنْ أُلبِسَت فيهِ المُصِيبَةَ طَىِّءٌ
لَمَا عُرِيَت منها تَمِيم ولا بَكرُ

٢٥ كذلكَ ما نَنفَكُّ نَفقدُ هالِكاً
يُشارِكنا فى فَقدِهِ البَدْوُ والحضرُ

٢٦ سَقَى الغَيْث غَيْثاً وارَتِ الأَرْضُ شَخصِه
وإِن لم يَكنْ فيهِ سَحابٌ ولا قَطرُ

---

(١٩) البيض : السيوف . المآثير : التى فيها الأثر وهو الفرند . البواتر : القواطع .

(٢٠) الندى : الكرم .

(٢٥) الهالك : الميت .

(٢٦) الغيث الأول : المطر والغيث الثانى الكرم وهو كناية هنا عن الميت .

٢٧ وكيفَ احتِمالى للسحابِ صَنِيعَةً
بإسقائِها قَبْرًا وفى لَحدِهِ البَحْرُ ؟ !

٢٨ مضَى طاهِرَ الأَثوابِ لم تَبْقَ رَوْضَةٌ
غَداةَ ثوَى إلَّا اشتَهتْ أَنَّها قَبْرُ

٢٩ ثوَى فى الثَّرَى مَنْ كانَ يَحيا به الثَّرَى
ويَغْمُرُ صَرْفَ الدَّهْر نائِلهُ الغَمْرُ

٣٠ عليكَ سَـــلامُ اللهِ وَقفاً فإنَّنِى
رَأَيْت الكريمَ الحُرَّ ليسَ له عُمْرُ

* * *

(٢٩) نائله الغمر : أعطياته الكثيرة .

يا شاعِرًا فى طَرْفِهِ

وقال :

١ أَغمِدْ عنِ المُهْجَاتِ سَيْفَ الناظِرِ
فلقَدْ فَتَرْنَ مِنَ اللّحاظِ الفَاتِرِ

٢ كَيْفَ اعتَدَلْتَ مَعَ اعتدالِ الغُصْنِ فى
حَرَكَاتِه وفَعَلْتَ فِعْلَ الجَائِرِ ؟

٣ وَعَلِمْتَ إِثْمَ السِّحْرِ حين ذَمَمْتَه
وأَرَاكَ مُتَّخِذًا أَداةَ السَّاحِـــرِ

٤ يا شاعِرًا فى طَرْفِهِ وبَهــائِهِ
وجَمَالِهِ عَذَّبتَ قَلْبَ الشَّاعِرِ !

* * *

مؤلقات

وقال :

١ أُبَادِرُها بالشُّكْرِ قبلَ وصالِهَا
وإنْ هَجَرتْ يوماً طَلَبتُ لها عُذْرَا

٢ أَجعَلُهو فى الغَدْرِ عِنْدِى وَفيَّةً
وإنْ زَعَمَتْ أنِّى لها مُضْمِرٌ غَدْرَا

٣ أتَاهَا بِطِيبٍ أهلُهَا فتضَاحكَتْ
وقالَتْ أيَبْغِى العِطْرُ ويحكُمُ العِطْرَا ؟

٤ أحَادِيثُهـــا دُرٌّ ودُرٌّ كَلامُهَـــا
ولم أرَ دُرًّا قبلَهُ يَنظِمُ الدُّرَا

* * *

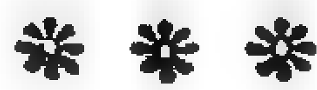
قَلْبِي رَهِينٌ

١ قَدْ صَنَّفَ الحُسْنُ فى خَدَّيْكَ جَوْهَره
وفيهِ قد خَلَّفَ التُّفاحُ أَحمَرَهُ

٢ وكُلُّ حُسْنٍ فَمِنْ عَيْنَيْكَ أَوَّلُه
مُذْ خَطَّ هارُوتُ فى عَيْنَيْكَ عَسْكَرَهُ

٣ وكانَ خَدُّكَ دَهْرًا مُشْرِقاً
فَمُذْ تَمَكَّنَ فيهِ اللَّحْظُ عَصفَرَهُ

٤ قَلْبِى رَهِينٌ بكَفَّىْ شادِنٍ غَنِجٍ
يُميتُه وإذَا ما شاءَ أنشَرَهُ



(١) هاروت : ملاك سقط من السماء . وهو ينفث السحر .
(٢) اليقق : الأحمر القانى : عصفره : جعله أصفر .
(٣) الشادن : ولد الظبية .

هذا هَوَاكَ

وقال :

١ هذا هَوَاكَ وهذِهِ آثارُهُ أَمّا الفُؤادُ فلا يَقِرُّ قَرارُهُ
٢ يَصِلُ الأَنِينَ بِزَفْرَةٍ مَوْصُولَةٍ بِغَلِيلِ شَوْقٍ ليسَ تُطفَا نَارُهُ
٣ ودَعا الدُّموعَ فأَقبلَتْ مُنْهَلَّةً شَوْقاً وذاكَ إِقْصارُهاوقُصارُهُ
٤ مِنْ طَرْفِ مُمْتَنِعِ الرُّقادِ مُتَيَّمٍ أَرِقٍ سَوَاءٌ لَيْلُهُ ونَهارُهُ

* * *

حبل الوصال

١ عَنَّتْ له سَكَنٌ فهَامَ بِذِكْرِها
أَيُّ الدُّموعِ وقَدْ بَدَتْ لم يُجْرِها !
٢ بَيْضاءُ يُحْسَبُ شَعْرُها مِنْ وَجْهِهَا
لَمَّا بَدَا أَوْ وَجْهُهَا مِنْ شعرِهَا
٣ مُتَفَنِّنٌ فى الظَّرْفِ باطِنُ صَدْرِهَا
مُتَفَنِّنٌ فى الحسن ظاهِرُ صَدْرِها
٤ تُعْطِيكَ مَنْطِقَها فتَعلمُ أَنَّهُ
لِجَنَى عُذُوبَتِهِ يَمُرُّ بثَغْرِهــــا
٥ وأَظُنُّ حَبْلَ وصالِها لِمُحِبِّهَـا
أَوْهَى وأَضعَفُ قُوَّةً مِنْ خَصْرِهَا

---

(٤) المنطق : هنا النطق .

وقال ، رَواها حمزةُ وغيرُه :

١ إذَا رَاحَ مَشْهُورُ المَحاسنِ أَوْ غَدَا
بِلينٍ على لَحْظِ العُيونِ الغَوَاوِزِ

٢ فَمَنْ لم تَفُزْ عَيْنَاه منه بِنَظْرَةٍ
فليسَ بخَير فى الحياةِ بفَائِزِ

٣ إذَا ما انتضَى سيفَ المَلاحةِ طَرْفُهُ ونادَى
قُلوبَ القَوْمِ هَلْ مِنْ مُبَارِزِ

٤ عَجَزْتُ فأَلقَى السِّلْمَ قَلْبِى لِطَرفِهِ
على أَنَّهُ عَنْ غيْرِهِ غيرُ عاجزِ

* * *

لم أَزَلْ أُبْغِضُ الخَمِيسَ

وقال :

١ إنَّ يومَ الفِرَاقِ يَوْمٌ عَبُوسُ
أَىُّ سَيْلٍ تَسِيلُ فيهِ النُّفُوسُ !

٢ لم أَزَلْ أُبْغِضُ الخَمِيسَ ولم أَدْ
رِ لماذا حتَّى دَهانى الخَمِيسُ ،

٣ بِأَبِى مَنْ إذَا رَآهَا أَبُوهــا
شَعفا قالَ ليتَ أَنَّا مَجُوسُ

٤ لَوْ تَجَافَى إبليسُ عن لَحْظِ عَيْنَيْ
هـا تَقَرًّا عِبادَةً إبليسُ !

٥ إنْ تُفَارِقْ لَحْظى فَقَدْ كانَ منها
وهْوَ فى كلِّ ساعتينِ عَرُوسُ

* * *

(٣) المجوس يسمحون باقتران الوالد بابنته . وهذا من أقبح الغزل .
(٥) العروس : تستعمل للذكر والأنثى .

يا شارِبَ الكاسِ

وقال :

١ دَعْنِى وشُرْبَ الهَوَى يا شَارِبَ الكاسِ
فإنَّنى للَّذى حُسِّيتُـــه حَاسِى

٢ لا يُوحِشَنَّكَ ما استَسْمجتَ مِن سِقَمى
فإنَّ مُنْزِلَهُ بِى أَحسنُ النَّاسِ

٣ مِنْ خَلْوتى فيهِ مَبْدَا كلِّ جائحة
وفِكْرتى منه مَبْدَا كلِّ وَسوَاسِ

٤ مِنْ قَطْعِ أَلفاظِهِ تَوْصِيلُ مَهْلكَتى
ووَصْلُ أَلحاظِهِ تَقطيعُ أَنفاسى

٥ رُزِقْتُ رِقَّةَ قَلْبٍ منه تَنْغَصهُ
مُنغِّصٌ مِنْ رَقِيب وَلْبُه قاسى

٦ مَتَى أَعِيشُ بتأْميلِ الرَّجاءِ إذا
ما كانَ قَطْعُ رَجائى فى يَدِى ياسى ؟

---

(١) حسيته : أشربته . حاسى : شاربه .
(٢) استسمح : كره .
(٣) الجائحة : المظلمة المهلكة .

قَرِينُ الصِّبا

وقال للحسَن بن وَهْب ، ووَصَفَ مجلِسًا له حَضَره :

١ أَفِيكمْ فَتىً حَىٌّ فيُخْبِرُنى عَنى
بِمَا شَرِبَتْ مَشْروبَةُ الرَّاحِ مِنْ ذِهْنى ؟

٢ غَدَتْ وهْىَ أَوْلَى مِنْ فُؤَادى بِعَزْمَتى
ورُحْتُ بما فى الدَّنِّ أَوْلَى مِن الدَّنِّ

٣ لقَدْ تَرَكَتْنِى كأْسُها وَحَقِيقَتى
مُحَالٌ وحَقٌّ مِنْ فِعَالى كالظَّنِّ

٤ هى اخْتَدَعَتْنى والغَمَامُ ولم أَكُنْ
بِأَوَّلَ مَنْ أَهدَى التَّغَافُلَ للدَّجْنِ

٥ إذا اشْتَعَلَتْ فى الطَّاسِ والكاسِ نارُها
صليتُ بها مِنْ رَاحتَىْ ناعِمٍ لَدْن

٦ قَرِينُ الصِّبا فى وَجْنَتَيْهِ مَلاحَةٌ
ذَكَرْتُ بها أَيَّامَ يُوسُفَ فى الحُسْنِ

٧ إذا نَحْنُ أَوْمَأْنَا إليهِ أَدَارَهــا
سُلافاً كماءِ الجَفْنِ وَهْىَ مِنَ الجَفْنِ

---

(٤) الدجن : النهار القاتم بالسحاب .

(٧) الجفن : ورق الكرم .

٨ تُقَلِّبُ رُوحَ المَرءِ فى كلِّ وِجْهَة
وتَدْخُلُ مِنْهُ حيثُ شاءَت بلا إذْنِ

٩ ومُسْمِعُنَا طَفْلَ الأَنامِلِ عندَه
لنَا كلُّ نَوْع مِنْ قِرَى العَيْنِ والأُذْنِ

١٠ لنا وَتَرٌ منه إذا مـا استَحثَّـهُ
فَصيحٌ ولَحْنٌ فى أمان مِنَ اللَّحْنِ

١١ وفى رَوْضَة نَبْتِيَّة صَبَغَتْ لهـا
جَداوِلَها أنْوَارُهـا صِبْغَةَ الدُّهْنِ

١٢ ظَلِلْنَا بها فى جَنَّةٍ غَابَ نَحْسُهَـا
تُذَكِّرُنا جَنَّاتُهَا جَنَّةَ العَدْنِ

١٣ نَعِمْنَا بِهَا فى بَيْتِ أَرْوَعَ ماجد
مِنَ القَوْمِ آب للدَّناءَةِ والأَفْنِ

١٤ فَتًى شُقَّ مِنْ عُودِ المَحامِدِ عُودُه
كما اشْتَقَّ مُسْمُوهُ له اسماً مِنَ الحُسْنِ

* * *

(٩) الطفل : الرخص .
(١٣) الأفن: الفساد والضلال .

أَلم يَأْنِ تَرْكى

وقال :

١ أَلَمْ يَأْنِ تَرْكى لا عَلَىَّ ولا لِيَا
وعَزْمى على ما فيهِ إصلاحُ حالِيَا ؟

٢ وقَد نالَ منِّى الشَّيْبُ وابيَضَّ مَفْرِقى
وغَالَتْ سَوَادِى شُهْبَةٌ فى قَذَالِيا !

٣ وحالَتْ بِىَ الحَالاتُ عَمَّا عَهِدْتُهَا
بِكَرِّ اللَّيالى واللَّيالى كَمَا هِيَا !

٤ أُصَوِّتُ بالدُّنيا وليستْ تُجِيبُنى
أُحاوِلُ أَنْ أَبقَى وكيفَ بَقَائِيَا ؟

٥ وما تَبْرَحُ الأَيَّامُ تَحْذِفُ مُدَّتى
بعَدِّ حِسابٍ لا كَعَدِّ حِسَابِيَا

٦ لِتَمْحُوَ آثارِى وتُخْلِقَ جِدَّتى
وتُخْلِى مِنْ رَبْعى بكُرْهٍ مَكانِيَا

(٢) الليت : عرق فى العنق . الأخدع : هو عرق آخر فى العنق .

(٦) لتخلق : لتمحق .

٧ كما فَعَلَتْ قَبْلى بِطَسْمٍ وجُرْهُمٍ
وَآلِ ثَمُودِ بعد عادِ بنِ عَادِيا

٨ وأبقَى صَرِيعاً بينَ أَهْلِ جَنَازَةً
وَيَحْوِى ذَوُو المِيراثِ خالِصِ مَالِيَا

٩ أَقُولُ لِنَفْسى حينَ مالَتْ بِصَغْوها
إلى خَطَرات قَدْ نَتَجْنَ أَمانِيَا

١٠ هَبِينِى مِنَ الدُّنْيَا ظَفِرْتُ بكلِّ ما
تَمَنَّيْتُ أَو أُعطِيتُ فوقَ أَمَا نِيَا

١١ أَليسَ اللَّيالى غاصِباتى بِمُهجتى
كما غَصَبَتْ قَبْلِىَ القرونُ الخَوَالِيَا؟

١٢ ومُسْكِنَتى لَحْدًا لَدَى حُفْرةٍ بها
يَطُولُ إلى أُخْرى اللَّيَالى ثَوائِيَا ؟

١٣ كمَا أَسكَنَتْ سَاماً وحاماً ويافثاً
ونُوحاً وَمَنْ أَضحى بِمكَّةَ ثَاوِيَا ؟

١٤ فَقَدْ أَنِسَت بالمَوْتِ نَفْسى لأَنَّنى
رَأَيْتُ المَنَايا يَخْتَرِمنَ الأَحَيَاتِيَا

---

(٧) طسم وجرهم وثمود وعاد : قبائل قديمة أهلك أهلها .
(٩) بصغوها : اصغائها .
(١٢) ثوائى : اقامتى .
(١٤) يخترمن : يمزقن .

١٥ فيا لَيْتَنى مِنْ بَعْدِ مَوْتى ومَبْعَثى
أكونُ رُفاتاً لا عَلىَّ ولا لِيَا

١٦ أَخافُ إلاهِى ثُمَّ أَرجو نَوالَهُ
ولكنَّ خَوْفِى قاهِرٌ لِرَجائِيَا !

١٧ ولَوْلا رَجائى واتكالى على الذى
تَوَحَّدَ لى بالصُّنْعِ كَهْلاً وناشِيَا

١٨ لَمَا ساغَ لى عَذْبٌ مِنَ الماءِ بارِدٌ
ولا طابَ لى عَيْشٌ ولا زِلْتُ باكِيَا

١٩ عَلى إثْرِ ما قَدْ كانَ مِنّى صَبابَةً
ليالىَ فيهـــا كنتُ للهِ عاصِيَا

٢٠ فإنى جَدِيرٌ أَنْ أَخافَ وأَتَّقى
وإنْ كُنْتُ لم أُشرِكْ بِذِى العَرْشِ ثانِيَا

٢١ وأَدَّخِرَ التَّقْوى بِمَجْهُودِ طَاقَتِى
وأَرْكَبَ فى رُشْدِى خِلافَ هَوائِيَا

* * *

تحاول شيئاً

وقال :

١ تُحَاوِلُ شَيْئاً قَدْ تَولَّى فَوَدَّعــا
وهَيْهَاتَ مِنهُ أَنْ يَعُودَ فَيرجِعَا

٢ خَشُنْتَ على التأْديبِ فهْماً ومَنْطِقاً
ولِنْتَ على الأَيَّام لِيناً وأَخدَعا

٣ وأَقبلَتِ الأَيَّامَ تَرتادُ مَصْرَعا
لِجَنْبِكَ فارتَدْ إِذْ تيَقَّنْتَ مَضْجَعا

* * *

يا لابِسًا ثَوْبَ المَلاحَةِ

وقالَ :

١ يَا لابِسًا ثَوْبَ المَلاحَةِ أَبْلِهِ
فَلأَنْتَ أَوْلَى لابِسِيهِ بِلُبْسِهِ

٢ لَمْ يُعْطِكَ اللهُ الَّذِى أَعْطَاكَهُ
حَتَّى اسْتَخَفَّ بِبَدْرِهِ وبِشَمْسِهِ

٣ رَشَأٌ إِذَا مَا كادَ يُطْلِقُ نَفْسَهُ
فى فَتْكِهِ أَمَرَ الحَيَاءُ بِحَبْسِهِ

٤ وَأَنَا الَّذِى أَعْطَيْتُهُ مَحْضَ الهَوَى
وَصَمِيمَهُ وَأَخَذْتُ عُذْرَةَ أُنْسِهِ

٥ فَلَئِنْ جَنَيْتُ ثِمَارَهُ وَغَرَسْتُهُ
ما كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ جَنَى مِنْ غَرْسِهِ

٦ مَوْلاكَ يَا مَوْلاىَ صَاحِبُ لَوْعَةٍ
فى يَوْمِهِ وَصَبَابَةٍ فى أَمْسِهِ

٧ دَنِفٌ يَجُودُ بنَفْسِهِ حَتَّى لَقَدْ
أَمْسَى ضَعِيفًا أَنْ يَجُودَ بِنَفْسِهِ!

* * *

بِنَفْسِى حَبِيبٌ

وقالَ :

١ بِنَفْسِى حَبِيبٌ سَوْفَ يُثْكِلُنِى نَفْسِى
ويَجْعَلُ جِسْمِى تُحْفَةَ اللَّحدِ والرَّمْس

٢ جَحَدْتُ الهَوَى إن كُنْتُ مُذْ جَعَلَ الهَوَى
مَحَاسِنَه شَمْسِى نَظَرْتُ إلى الشَّمْسِ

٣ لَقَدْ ضَاقَتِ الدُّنْيَا عَلَىَّ بِأَسْرِهَا
بهجْرَانِهِ حَتَّى كأَنِّى فى حَبْسِ

٤ أُسكِنُ قَلْبًا هائمًا فيهِ مَأْتَمٌ
مِنَ الشَّوْقِ إلَّا أنَّ عَيْنِى فى عُرْسِ

٥ وإنِّى لأَخْشَى إنْ تَرَاقَتْ أُمُورُه
بِهِ أَنْ يَثُورَ الجِنُّ فيهِ عَلَى الإِنْسِ

* * *

يا شَادِنًا

وقالَ :

١ يا شَادِنًا صِيغَ مِنَ الشَّمْسِ تِهْ بالمَلاحَاتِ عَلى الانْسِ
٢ فى كُل يَوْم أَنْتَ فى صُورَةٍ غيرِ الَّتِى كُنْتَ بها أَمْسِ
٣ تَزْدَادُ طِيبًا كلَّ يَوْم كما يَزْدَادُ غُصْنُ البَانِ فى الغَرْسِ
٤ وَاللهِ لَوْلا اللهُ لا غَـيرُهُ وخَـوْفُ النَّارَ عَلى نَفْسِى
٥ صَلَّيْتُ خَمْسًا لَكَ مِنْ هَيْبَةٍ وازدَدْتُ ثِنْتَيْنِ عَلى الخَمْسِ!

* * *

الأَسهم الخَمْس

وقالَ :

١ يا مَن تَرَدَّى بِحُلَّةِ الشَّمْسِ ومَنْ رَمَـانى بأَسْهُم خَمْسِ
٢ بالطَّرْفِ والثَّغْرِ والسَّوالفِ والنَّحْـ ـرِ وشَىءٍ يَطِيبُ فى اللَّمْسِ !
٣ هَا أَنَا ذَا بالذُّنُوب مُعْتَرِف فهَبْ لِذُلّى جِنَايَتَىْ أَمْسِ
٤ وجُدْ لِمُسْتمطِرِ الجُفُونِ شَغَلْتَه عَن صَلاتِه الخَمْسِ
٥ سأَلْتُ عن وَصْفِكَ الصفَاتِ فما نَطَقْنَ إلَّا بأَلْسُنٍ خُرْسِ

* * *

مدح المعتصم أيضا

وقال يمدحه ويذكر أَمرَ الأَفشين وهو خَيْذر بن كاوُس :

١ الحَقُّ أَبْلَجُ والسُّيُوفُ عَوارِ فَحَذَارِ مِنْ أَسَدِ العَرِينِ حَذَارِ

٢ مَلِكٌ غَدَا جَارَ الخلافَةِ مِنْكُمُ واللهُ قَدْ أَوْصَى بِحِفْظِ الجَارِ

٣ يَا رُبَّ فِتْنَةِ أُمَّةٍ قَدْ بَزَّهَا جَبَّارُها فى طَاعَةِ الجَبَّارِ

٤ جَالَتْ بِخَيْذَرَ جَوْلَةَ المِقْدَارِ فَأَحَلَّهُ الطُّغْيَانُ دَارَ بَوَارِ

٥ كَمْ نِعْمَةٍ للهِ كَانَتْ عِنْدَه فكأَنَّهَا فى غُرْبَةٍ وإِسَارِ

٦ كُسِيَتْ سَبَائِبَ لُومِهِ فَتَضَاءَلَت كَتَضَاؤُلِ الحَسْنَاءِ فى الأَطْمَارِ

٧ مَوْتُورَةً طَلَبَ الالٰهُ بِثَأْرِها وكَفَى بِرَبِّ الثَّأْرِ مُدْرِكَ ثَارِ

٨ صَادَى أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ بِزَبْرِجٍ فى طَيِّهِ حُمَةُ الشُّجَاعِ الصَّارِى

٩ مَكْرًا بَنَى رُكْنَيْهِ ، إِلَّا أَنَّهُ وطَدَ الأَسَاسَ عَلَى شَفِيرٍ هَارِ

---

(١) الأبلج : الواضح كالفجر . أسد العرين : هنا الممدوح .
(٢) منكم : أى من الإفشين ورهطه .
(٣) بزها : غلبها .
(٤) خيذر : اسم الأفشين . يقول إنه أنفذ قدر الله المقدر لعصاته وعاقبه بطيغانه فأودى به إلى الهلاك .
(٦) السبائب : القطع المستطيلة . الأطمار : الخرق .
(٨) صادى : خادع . الزبرج : عمل مزركش لاماء فيه . الشجاع : ضرب من الأفاعى الصارى : السم المتجمع .
(٩) الهارى : المتهدم .

١٠ حتّى إذَا مَا اللهُ شَقَّ ضَمِيرَه عَنْ مُسْتَكِنِّ الكُفْرِ والاضْرَارِ
١١ ونَحَا لِهذَا الدِّينِ شَفْرَتَهُ انثَنَى والحَقُّ مِنْهُ قَانِئُ الأَظْفَارِ
١٢ هَذَا النَّبِيُّ وكَانَ صَفْوَةَ رَبِّهِ مِنْ بَيْنِ بَادٍ فِي الأَنَامِ وَقَارِ
١٣ قَدْ خَصَّ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ عِصَابَةً وَهُمُ أَشَدُّ أَذًى مِنَ الكُفَّارِ
١٤ واخْتَارَ مِنْ سَعْدٍ لَعِينِ بَنِي أَبِي سَرْحٍ لِوَحْيِ اللهِ غَيْرَ خِيَـــارِ
١٥ حَتَّى اسْتَضَاءَ بِشُعْلَةِ السُّورِ الَّتِي رَفَعَتْ لَهُ سَجْفًا عَنِ الأَسْرَارِ
١٦ والهَاشِمِيُّونَ اسْتَقَلَّتْ عِيرُهُمْ مِنْ كَرْبَلاءَ بِأَثْقَلِ الأَوْتَارِ
١٧ فَشَفَاهُمُ المُخْتَارُ مِنْهُ ولَمْ يَكُنْ فِي دِينِهِ المُخْتَارُ بِالمُخْتَارِ
١٨ حَتَّى إذَا انكَشَفَتْ سَرَائِرُه اغْتَدَوْا مِنْــهُ بِرَاءَ السَّمْعِ وَالأَبْصَارِ
١٩ ما كَانَ لَوْلا فُحْشُ غَدْرَةِ خَيْذَرٍ لِيَكُونَ فِي الاسْلامِ عَامُ فِجَارِ
٢٠ ما زَالَ سِرُّ الكُفْرِ بَيْنَ ضُلُوعِه حَتَّى اصطلى سِرَّ الزِّنَادِ الوَارِي
٢١ نَارًا يُساوِرُ جِسْمَهُ مِنْ حَرِّهَا لَهَبٌ كما عَصْفَرَتَ شِقَّ إِزَارِ
٢٢ طَارَتْ لَهَا شُعَلٌ يُهَدِّمُ لَفْحُهَا أَرْكَانَهُ هَدْمًا بِغَيْرِ غُبَـارِ
٢٣ مَشْبُوبَةً رُفِعَتْ لأَعْظَمِ مُشْرِكٍ ما كانَ يَرْفَعُ ضَوْءَهَا لِلسَّارِي

(١٠) يقول إن الله افتضح أمره ونفذ إلى دخيلته حيث كان يضمر الكفر ويصر عليه متظاهراً بالإيمان .

(١٢) البادى : الذى يسكن البدو . والقارئ : الذى يسكن القرى . وقد يجوز أن نسمى المدينة قرية على معنى التوسع .

(١٩) كان سبب الفجار فى الجاهلية أن البراض ابن قيس الكنانى قتل عروة الرحال الكلابى فتكا فى غير حرب ، فاقتتلت كنانة وبنو عامر .

(٢٢) اللفح : الريح الحارة .

٢٤ صَلَّى لَهَا حَيًّا وَكَانَ وَقُودَهَا مَيْتًا وَيَدخُلُهَا مَعَ الفُجَّارِ
٢٥ فَصَّلْنَ منه كُلَّ مَجْمَعِ مَفْصِلٍ وفَعَلْنَ فَاقِرَةً بِكُلِّ فَقَـارِ
٢٦ وكَذَاكَ أَهْلُ النَّارِ فى الدُّنْيَاهُمُ يَوْمَ القِيَامَةِ جُلُّ أَهْلِ النَّارِ
٢٧ يا مَشْهدًا صَدَرَتْ بفرحَتِهِ إلى أَمْصَارِها القُصْوَى بَنُو الأَمْصَارِ
٢٨ رَمَقُوا أَعَالِى جِـذْعِهِ فَكَأَنَّمَا وَجَدُوا الهِلالَ عَشِيَّةَ الإِفْطَارِ
٢٩ واسْتَنشَأُوا منهُ قُتَارًا نَشْرُهُ مِنْ عَنْبَرٍ ذَفِرٍ وَمِسْكٍ دَارى
٣٠ وتَحَدَّثُوا عَنْ هُلْكِهِ كحديثِ مَنْ بالْبَدْوِ عن مُتَتَابِعِ الأَمْطَارِ
٣١ وتَبَاشَرُوا كتبَاشُرِ الحَرَمَيْنِ فى قُحَمِ السِّنِينِ بأَرْخَصِ الأَسْعَارِ
٣٢ كَانَتْ شَمَاتَةُ شامتٍ عارًا فقد صَارَتْ بهِ تَنْضُو ثِيَابَ العَار
٣٣ قَدْ كَانَ بَوَّأَهُ الخَلِيفَةُ جَانِبًا مِنْ قَلْبِهِ حَرَمًا عَلَى الأَقْدَار
٣٤ فَسَقَاهُ مَاءَ الْخَفْضِ غَيْرَ مُصَرَّدٍ وَأَنامهُ فى الأَمْنِ غَيْرَ غِـرَارِ
٣٥ وَرَأَى بهِ ما لم يكُنْ يَوْمًا رَأَى عَمْرُو بنُ شَأْسٍ قَبلَهُ بِعِـرَار

---

(٢٤) الفارسى يعبد النار وأنه أحرق بها وانحدر إليها فى جهنم
(٥٠) الفاقرة : الداهية . الفقار : عظام الظهر .
(٢٦) اهل النار فى الدنيا : المجوس .
(٢٧) صدر : عاد .
(٢٩) القتار : اللحم المشوى . دارى : نسبة إلى دارين .
(٣١) القحم : جمع القحمة . وهى السنة الشديدة –
(٣٣) أى مكانا حراما على حوادث الزمان .
(٣٤) المصرد : المتقطع ، القليل ، الخفض : النعيم . الغرار : القليل .
(٣٥) عمرو بن شأس الأسدى الشاعر وابنه عرار الذى فيه يقول :
أرادت عرارا بالهــوان ومن يرد عرارا لعمرى بالهوان فقــد ظـلم

٣٦ فاذَا ابنُ كافِرَةٍ يُسرُّ بكُفْرِهِ   وَجْـدًا كوَجْدِ فَرزْدَقٍ بِنوارِ
٣٧ وإذَا تذَكَّرَه بَكَاهُ كما بَكَى   كَعْبٌ زَمَانَ رَثَى أَبَا المِغْـوَارِ
٣٨ دَلَّتْ زَخَـارِفُهُ الخليفَةَ أَنَّه   ما كلُّ عُـود ناضِرٍ بِنُضَـارِ
٣٩ ياقابِضًا يَدَ آلِ كاوُسَ عادِلًا   أَتْبِعْ يَمِينًا مِنْهُمُ بِيَسَـار
٤٠ أَلْحِقْ جَبِينًا دَامِيًا رَمَّلْتَهُ   بِقَفًا وَصَدْرًا خَائِنًا بِصدارِ
٤١ وَاعْلَمْ بأَنَّكَ إنَّمَا تُلْقِيهِمُ   فى بَعْضِ ماحَفَرُوا مِنَ الآبارِ
٤٢ لَوْ لَمْ يَكِدْ للسَّامرىِّ قَبِيـلُهُ   ماخَارَ عِجْلُهُمُ بِغَيْرِ خُوَارِ
٤٣ وثَمُودُ لَوْ لَمْ يُدْهِنُوا فى رَبِّهِم   لَمْ تَدْمَ ناقَتُه بِسَيْفِ قُدَارِ
٤٤ وَلَقَدْ شَفَى الأَحْشَاءَ مِنْ بُرَحَائِها   أَنْ صَـارَ بَابَكُ جَـارَ مَازَيَّار
٤٥ ثَانِيهِ فى كَبِدِ السَّماءِ ولَمْ يَكُن   لاثنيْنِ ثانٍ إِذْ هُمَا فى الغَـارِ
٤٦ وكأَنَّمَا انتَبَذَا لِكَيْمَا يَطْوِيَا   عَنْ نَاطِس خبرًا مِنَ الأَخْبَارِ
٤٧ سُودُ الثِّيَابِ كأَنَّمَا نَسَجَتْ لَهُم   أَيْدِى السَّمُوم مَدَارِعًا مِنْ قَارِ
٤٨ بَكَرُوا وأَسْرَوْا فى مُتُونِ ضَوَامِرٍ   قِيدَتْ لَهُمْ مِنْ مَرْبِطِ النَّجارِ

= والأبيات معروفة . يريد أن المعتصم كان قد جعل الأفشين مثل الولد ، واعتقد فيه أكثر من اعتقاد عمرو بن شأس فى ولده .

(٣٦) نوار : زوج الفرزدق .

(٣٧) كعب بن سعد الغنوى ، رثى أخاه شبيب بن سعد أبا المغوار .

(٣٨) زخارفه : ما كان يظهره من نصحه . أى ليس كل من حسن منظره حسن مخبره.

(٤٤) « مازيار » قتله محمد بن إبراهيم ، ثم نكب الواثق محمد بن إبر وأخذ ماله .

(٤٥) والمعنى أن هذا الرجل ثان للاخر ، وهما مذمومان ، واللذان كانا فى الغار — محمودان .

٤٩ لايَبْرَحُونَ ومَن رَآهُمْ خَالَهُم   أبَدًا عَلَى سَفَرٍ مِنَ الأَسْفَارِ
٥٠ كَادُوا النُّبُوَّةَ والهُدَى فَتَقَطَّعَتْ   أعْنَاقُهُمْ فى ذَلِكَ المِضْمَارِ
٥١ جَهِلُوا ،فَلَمْ يَسْتَكْثِرُوا مِنْ طَاعَة   مَعْرُوفَة بِعِمَارَةِ الأَعْمَارِ
٥٢ فاشْدُدْ بِهَارُونَ الْخَلافَةَ إنَّهُ   سَكَنٌ لِوَحْشَتِهَا وَدَارُ قَرَارِ
٥٣ بفَتَى بَنِى العَبَّاسِ والقَمَرِ الَّذِى   حَفَّتْهُ أنْجُمُ يَعْرُبٍ ونِزَارِ !
٥٤ كَرَمُ العُمُومَةِ والخؤولَةِ مَجَّهُ   سَلَفا قُرَيْشٍ فِيهِ وَالأَنْصَارِ
٥٥ هُوَ نَوْءُ يُمْنٍ فِيهِمُ وسَعَادَة   وسِرَاجُ لَيْلٍ فِيهِمُ ونَهَارُ
٥٦ فاقْمَعْ شَيَاطِينَ النِّفَاقِ بِمُهْتَدٍ   تَرْضَى البَرِيَّةُ هَدْيَهُ والبَارِى
٥٧ لِيَسِيرَ فى الآفَاقِ سِيرَةَ رَأْفةٍ   ويَسُوسَها بِسَكِينَةٍ ووَقَارِ
٥٨ فالصِّينُ مَنْظُومٌ بِأنْدَلُسٍ إلى   حِيطَانِ رُومِيةٍ فَمُلْكِ ذَمَارِ
٥٩ وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأنَّ ذَلِك مِعْصَمٌ   ما كُنْتَ تَتْرُكُهُ بِغَيْرِ سِوَارِ
٦٠ فالأَرْضُ دَارٌ أقْفَرت ما لَم يَكُنْ   مِنْ هَاشِمٍ رَبٌّ لِتِلْكَ الدَّارِ
٦١ سُوَرُ القُرانِ الغُرُّ فيكُمُ أُنْزِلَتْ   ولَكُمْ تُصَاغُ مَحَاسِنُ الأَشْعَارِ

---

(٥٠) المضمار : ساحة السباق .

(٥٢) ابن المعتصم الملقب بالواثق ، أى اجعله ولى عهدك فان الخلافة إذا استوحشت من غيره سكنت إليه ، وإذا نفرت من غيره استقرت عليه ، رضا منها به ، وسكونا إليه .

(٥٤) إنما يريد أن عبد المطلب ولدته أم أنصارية وهى سلمى ابنة لبيد من بنى النجار — الخزرجيين ، ولم يلد أحداً من خلفاء بنى العباس أم أنصارية وإنما يعنى هذه الولادة القديمة.

(٥٦) يدعوه أن يبايعه لأنه سيبطش بالمنافقين ويرضى الله والناس .

(٥٧) الآفاق : هنا البلاد .

(٥٨) « ملك ذمار » ملك اليمن يقال لهم الذماريون . أى قد اتصلت طاعته باليمن إلى بلد الروم والصين .

محمد بن عبد الملك الزيات

(ت ٢٣٣ هـ)

هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن أبي حمزة الزيات.

وجَدُّه «أبان» من أسرة عرفت بتجارة الزيت حتى غلبت عليها،
أما أبوه «عبد الملك» فقد ورث هذه التجارة عن أبيه وزادها حتى
أما أبوه «عبد الملك» فقد ورث هذه التجارة عن أبيه وزادها حتى
صار من أكبر تجار «الكرخ» ولم يقصرها على الزيت، بل جعلها لكل ما يلزم قصور الخلفاء.

وقد مالت نفس ابنه «محمد» إلى الأدب، وطمحت إلى المناصب – على خلاف ما كان يود أبوه من إعداده ليخلفه فى تجارته – فأقبل الابن على ثقافات عصره، وأمّ ديوان الخلافة، وفيه يومئذ كبار كتّاب العصر، كما قصد مجالس الأدب التى زخرت بها بغداد وعمرت بها مساجدها.

وعمل ابن الزيات كاتباً مرموقاً من كتاب الديوان فى أواخر خلافة المأمون، كما عمل وزيراً للمعتصم، ثم لابنيه الواثق والمتوكل.

ولم تسلم العلاقة بين ابن الزيات والمتوكل من وشاية جعلت المتوكل يأمر بالقبض على ابن الزيات ومصادرة جميع أمواله. وظل بالسجن حتى مات فى يوم الخميس لاحدى عشرة ليلة بقين من ربيع الأول – لعام ٢٣٣ هـ.

ولابن الزيات ديوان شعر ، نشره وقدمْ له الدكتور جميل سعيد بمصر عام ١٩٤٩ ، كما أن له بعض الرسائل القصيرة ، أورد نماذج منها الأستاذ محمد كرد علي في الجزء الثاني من كتابه : « أمراء البيان » المنشور بمصر عام ١٩٣٧

كان لابن الزيات فرس أشهب أخذه المعتصم بعد أن ذكره عنده أحمد بن خالد ، فأسف ابن الزيات على فراق فرسه وقال :

١ قالوا : جزعتَ ، فعلت إن مصيبةً
جَلَّت رزيتها وضاق المذهبُ

٢ كيف العزاءُ وقَدْ مَضَى لِسَبيله
عَنَّا فودَّعنَا الأَحَمُّ الأَشهب ؟

٣ دَبَّ الوشَاة فباعَدُوهُ ، ورُبَّمَا
بَعُدَ الفتَى وَهُوَ الحَبِيبُ الأَقْرَب

٤ للهِ يَوْمَ غَدَوتَ عَنِّى ظَاعِنًا
وسُلبتُ قربك ، أىَّ عِلْقٍ أُسلَب

٥ نَفْسِى مُقَسَّمَةَ أقامَ فريقُهَا
وَغَدَا لِطِيَّته فريق يُجْنِب

---

(٤) العلق – بكسر العين وسكون اللام : النفيس من كل شئ .

(٥) يقال : أجنب الرجل إذا تباعد .

٦ الْآنَ إِذْ كملتْ أداتك كلها
وَدَعَا العُيُونَ إِلَيْكَ لونٌ مُعْجِب

٧ واختير من سرِّ الحَدَايد خيرها
لَكَ خالصًا ، ومن الحِلَى الأَغْرَب

٨ وغَـدَوْتَ طنَّـان اللجام كأنَّما
فى كلِّ عُضْـو منك صَنْج يُضْرَب

٩ وكأَنَّ سَرْجَك - إذْ علاك - غمـامة
وكأنَّمَـا تحت الغَمَـامة كَوْكَب

١٠ ورأى على بك الصَّـديقُ مهَـابةً
وغَـدَا العَـدُوّ وصدْرُهُ يتلهَّب

١١ أَنَسَاكَ ؟! لا برِحتْ إذن مَنسِيَّةً
نفْسِى ، ولا زالت بمثلك تُنْكَب

١٢ أَضْمَرْت منكَ اليَأْس حِين رأيْتَنى
وقُوى حبالِك من قُوَاى تَقَضَّب

١٣ وَرَجَعْتُ حِين رجعت منك بحَسْرَة
لِلّه مَا صَـنَعَ الأَصَمّ الأَشهب -

---

(٨) الصنج - بتشديد الصاد وفتحها : آله من آلات الموسيقا والعـربى منه هو ما يكون فى الدفوف ونحوها .

(١٢) التقضب - بفتح القاف وسكون الضاد : القطع

١٤ فَلْتَعْلَمنْ أن لا تَزال عَداوة
عِنْدِى مريَّضةٌ وثأر يُطلب

١٥ يا صَاحبيَّ : لمثل ذَا مِن أمره
صحب الفتَى فى دَهْرِه من يصحب

١٦ إن تُسْعَدَا فَصَنيعة مشْكُورة
أو تحذُلا فَصَنيعة لا تَذْهَب

١٧ عُوجَا نُقَضِّى حَاجَة وتجنَّبا
بَثَّ الحَدِيث ، فانَّ ذَلكَ أعْجَب

١٨ لا تُشعرَا بِكُمَا الأَحمَّ فانَّهُ
وأَبِيكُمَا - الصدعُ الَّذِى لايُرأب

١٩ أو تَطْويَا عنهُ الحَديث فانه
أدنى لِأَسْبَابِ الرَّشَاد وأَقْرَب

٢٠ لاتُشْعِرَاهُ بِنَا فَلَيْس لذى هَوَى
نَشْكُو إِلَيْهِ عِنْدَهُ مُسْتَعْتَب

٢١ وقِفَا فَقُولا مرحبًا وتزوَّدَا
نظرًا ، وقَلَّ لمن يُحَبُّ المرْحب

٢٢ منع الرقادَ جوىً تضمَّنه الحَشَا
وهَوًى أكابِدُه وهَمٌّ مُنْصِب

٢٣ وصَبا إلى الحَانِ الفُـؤادُ وشَاقه
شَخْصٌ هُنَاكَ إلى الفؤاد مُحَبَّب

٢٤ فَكَمَا بقيت لتبقينَّ لـذكره
كَبِـد مُفَـرَّثة وعَـين تَسكُب

وقال يرثى زوجه وقد خلفت له ابنًا صغيرًا :

١ ألا مَن رَأى الطِّفل المفَارق أُمَّـه
بُعَيْـد الكرى عَيْنَـاه تَنسِكبانِ

٢ رأى كل أُمٍّ وابنهَـا غير أُمّه
يَبِيتَـانِ تَحْت اللَّيْل يَنتَجِيَـان

٣ وبَاتَ وحِيدًا فى الفِرَاشِ تُجنُّه
بَـلابَل قَلب دائِم الخَفَقَـــان

٤ ألا إنَّ سَجْلًا وَاحِدًا إن هَرَقتـه
مِنَ الدَّمْع أو سجلين قَدْ شفيانى

٥ فَلا تَلْحيـانى إنْ بَكيت فانَّمَـا
أُدَاوِى بِهَـذَا الدَّمْع مَا تَريَان!

٦ وإنَّ مكانًا فى الثرى خُطَّ لحـده
لِمَن كَانَ من قَلْبِى بِكُل مَكَان

---

(٢٤) الكبد المفرثة : التى فتتها الغم والأذى

٥ – لا تلحيانى : لا تلومانى

٧ أحَـقٌّ لإمكان بالزِّيَارَةِ وَالهَـــوَى
فَهَلْ أَنْتُمَا إنْ عجت منتظرانى

٨ فهبنى عَزَمْت الصَّبْر عنْهَا لأَنَّنِى
جَلِيد ، فَمَن بالصَّبر لابن ثمان

٩ ضَعِيفُ القُوَى لايَطْلُبُ الأَجْر حِسْبة
وَلا يأتسى بالنَّـاس فى الحَدَثَان

١٠ ألا مِن أُمَنِّيـه المنى وأعـــده
لعَثْرَة أَيَّامِى وصَـرْف زَمَـانِى

١١ ألا من إذَا جِئْت أَكْرَمَ مَجْلِسى
وَإنْ غبْت عنـهُ حَاطَنِى وَكَفَانِى

١٢ فَلَمْ أرَ كالأَقْـدَار كيفَ تصيبنى
وَلا مثلَ هَـذَا الدَّهْر كيفَ رَمَانِى

١٣ وَلا مثل أَيَام فُجِعْت بِعَهْـــدِهَا
وَلا مِثْل يَوْم بَعْـدَ ذَاكَ دَهَـانِى

١٤ أعينىَّ إنْ لَمْ تُسعدَا اليَوْمَ عِبْرَتى
فَبِئْسَ إذن مافى غـد تَعِـدَانى

١٥ أعينىَّ إن أَنْعَ السـرور وأهله
وعَهـد الرِّضَا عندِى فَقَـدْ نعيانِى

---

٩ — الحدثان : حدثان الدهر : مصائبه وكل ما يحدثه

١٦ أعينَيَّ إن أبكِ البَشَاشة والصبا
فَقَدْ آذنا مِنِّى وقَدْ بكيانِى

١٧ ألا إن مَيْتا لَمْ أزرهُ لشدّ ما
تَدَبَّس مِنْ قَلْبِى بِهِ وعنانى

١٨ ألا إن ميْتا لَمْ أزرهُ لعِزَّ ما
تضمَّنَ منهُ فى الثرى الكفنان

* * *

وقال يتذكر أياماً خلت :

١ ألا مَن عذير النفس ممن يلومها
على حبها جهلاً ، ألا من عذيرها

٢ تذكَّرت أياماً تولىَّ سرورها
فدرَّ لعينى عند ذاك درورها

٣ فبتُّ كأنى بالنجوم موكَّل
أقلِّب فيها مقلتى وأديرها

٤ كأَن بنات النعش باسط كفه
وقد مدّ كفًّا للسؤال فقيرها

(٤) بنات النعش : مجموعة من الكواكب عددها سبعة ، أربعة منها مربعة على هيئة النعش وثلاثة بنات نعش

٥ كان الثريا فى الدجى واجتماعَها
عصابة طير فزّعتها صقورهـا

٦ يُخال بها النّسر الذى هو واقع
أثافىّ لم ينصب عليها قدورها

٧ ألا يالها من ليلة حار نجمها
وغاب الكرى فيها وطال قصيرها

٨ تذكرتُ أياماً تولّت حميـدة
فعاد لنفسى بثّها وزفيرهـا

٩ ليالىَ كانت من تحب أميرة
عليك ومولاة وأنت أميرهـا

١٠ وكانت أسيرًا فى وثاقك ينتهى
إلى كل من تهوى وأنت أسيرهـا

١١ فأعقبت أياماً جرت بمساءتى
قريبة بؤس واستشاط غيورها

١٢ وفى الصدر منى غصة لا أحيرها
وفى الصدر منها غصة لا تحيرها

١٣ دهانى وإياها العداةِ فأصبحت
وقد أسْبِلت دونى عليها ستورها

١٤ وكانت وأبواب لها خمس عشرة
تطول عليها ليلة لا أزورهـا

١٥ وكنت أثيرًا عندهن يرَيْنني
كتفاحة قد فُضَّ فيها عبيرها

١٦ وكانت علاماتى إليهـا تنحنحى
وينذرها من حسّ فعلى صريرها

١٧ وكانت إذا ما جاء غيرى تسترت
وكان لدىَّ بذلها وستورهـــا

١٨ فأصبحت أرضى بالقليل وربما
طلبت فلم يعسر علىّ كثيرهـا

١٩ وأعْزِز عليها أن تكون إشارتى
إليها بطهر لايجاب مُشيرهـا

٢٠ تطاولت الأيَّامُ منذ رأيتهـــا
فكانت علىّ كالسنين شهورهـا

٢١ ولو أن ما ألقى منَ الوجد ساعة
بأجبال رِضوى هُدَّ منها صخورها

٢٢ ولو أن ما ألقى من الوجد ساعة
بركنَىْ ثبير ما أقام ثبيرهـا

٢٣ ولو أننى أدعى لدى الموت باسمها
لعَاد لنفسى بإذن ربى نشورهـا

٢٤ أعلل نفسى بالأمانى مخـــافة
عليها إذا ما الشوق كاد يطيرها

٢٥ وأدعو – إذا ما خفت أن يغلب الهوى
عليها – غرامى باسمها أستجيرها

٢٦ فإن تكن الأيامُ أعشتك نقمة
فقد أدبرتْ أعجازها وصدورها

٢٧ وإنى لآتى الشيء من غير علمها
فيخبّرها عنّى بذاك ضميرها

٢٨ وقد زعمت أنى سمحت لغيرها
بوصل ، ولا والبُدْنِ تدمى نحورها

٢٩ وربِّ المنايا لا أميل زيارتى
إلى غيرها أنتى ولا أستزيرها

٣٠ ولكننى كنّيتُ عنها بغيرها
مخافة عين لاينام بصيرها

٣١ علىّ نذور جمّة فى لقائها
فليت نذورى أوجبت ونذورها

٣٢ أما من مشير سدد الله رأيه
يرى أن فيها حيلة لا يضيرها

* * *

دعبـــل الخـــزاعى

(ت ٢٣٥ هـ)

تعريف بالشاعر :

هو دعبل بن على بن رزين . وقيل دعبل لقبه ، واختلفوا فى اسمه هل هو محمد أو الحسن أو عبد الرحمن . وهو من خزاعة صليبة لاولاء . ومن بيت شعر ، فقد كان أبوه شاعراً متوسطاً ، وكذلك عمه عبد الله وأخواه على ورزين ، وابن عمه محمد بن عبد الله المشهور باسم أبى الشيص . وقد ولد دعبل بالكوفة سنة ١٤٨ هـ . وعندما شب وأنشد الشعر ارتحل إلى خراسان وواليها العباس بن جعفر الخزاعى (١٧٣ — ١٧٥ هـ) فأكرمه وولاه على سمنجان إحدى بلاد طبرستان . ثم عاد إلى بغداد ونزل الكرخ . غير أنه ظل بعيداً عن القصر وأهله ووزرائه . وارتحل إلى مصر مادحاً وإليها المطلب بن عبد الله الخزاعى (١٩٨ — ٢٠٠ هـ) فأغدق عليه الجوائز ، وولاه على أسوان . ولم تلبث الأمور أن فسدت بينه وبين المطلب فهجاه هجاء مقذعا وولى وجهه شطر بغداد وأتاه نبأ عهد المأمون إلى على الرضا بالخلافة من بعده عام ٢٠١ هـ ، وكان المأمون لايزال بخراسان فارتحل إليهما وأنشدهما تائيته المشهورة التى يصور فيها ما نزل بالعلويين من كوارث . وتوفى على الرضا بطوس وهو فى طريقه مع المأمون إلى بغداد سنة ٢٠٣ هـ ودفن بها بجانب قبر

هارون الرشيد. وانقطع دعبل للشعر السياسي الذي ينظمه تشيعاً للعلويين. وأكثر من هجاء أعدائهم مثل الخليفة المعتصم ومن بعده المتوكل الذي هدم قبور الحسين والعلويين. والمرجح أنه مات عام ٢٣٥ هـ.



في القِرى :

١ عللاني بسماعٍ وطِلا وبضيفٍ طارقٍ يبغي القِرَى
٢ نغمات الضيفِ أحلى عندنا من رغاءِ الشاءِ في ذات الرُّغا
٣ نُنزلُ الضيفَ إذا ما حلَّ في حَبَّةِ القلبِ وألواذِ الحشا
٤ رُبَّ ضيفٍ تاجر أخسَرتُهُ بعتُهُ المطعمَ وابتعتُ الثنا
٥ أبغض المالَ إذا جمعتُـه إن بعض المالِ من حب العُلا
٦ إنما العيشُ خلالٌ خمسةٌ حبذا تلك خلالا حبذا
٧ خدمة الضيفِ ،وكأْسٌ لَذَّةٌ ونديمٌ ، وفتاة ، وغِنَا
٨ وإذا فاتك منها واحــدٌ نقص العيش بنقصان الهوى

---

(١) الطلا : الخمر
(٢) الرغاء : صوت ذوات الخف من الحيوان .
(٣) ألواذ : تلافيف

فى هجاء المعتصم العباسى :

١ بكى لشَتَاتِ الدِّينِ مُكْتَئِبٌ صَبُّ
وفاض بفرط الدمع من عينه غَرْبُ

٢ وقام إمامٌ لم يكن ذا هـــداية
فليس له دينٌ وليس له لُبُّ

٣ وما كانت الأنباءُ تأتى بمثـــله
يُمَلَّكُ يوماً أو تدينَ له العُرْبُ

٤ ولكن كما قال الذين تتابعـوا
من السلفِ الماضين إذ عَظُمَ الخَطْبُ

٥ ملوكُ بنى العباسِ فى الكتب سبعةٌ
ولم تأتنا عن ثامن لهمُ الكُتْبُ

٦ كذلك أهل الكهف فى الكهف سبعةٌ
كرامٌ إذا عُدُّوا ، وثامنهمْ كلبُ

٧ وإنى لأُعْلى كلبَهم عنكَ رفعــــةً
لأنَّكَ ذو ذنبٍ ، وليس له ذَنْبُ

٨ كأَنك إذا مُلِّكْتَنَا لشقائنـــــا
عجوزٌ عليها التاجِ والعِقْدُ والإِتْبُ

---

(١) الغرب • عرق فى العين والعلو العظيمة .

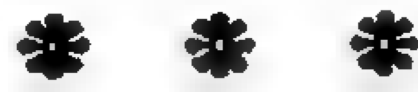
(٨) الإتب • برأد يشق فتلبسه المرأة من غير جيب ولا كمين .

٩ لقد ضاع ملكُ الناس إذ ساس ملكَهم
وَصِيفٌ وأَشْنَاسٌ وقد عَظُمَ الكَرْبُ

١٠ وفضلُ بن مروانٍ ميثلمُ ثُلْمَــةً
يظل لها الإسلامُ ليس له شِعبُ

١١ وهمك تركيٌّ عليـــه مهانةٌ
فأَنت له أُم ، وأنت له أَبٌّ

١٢ وإنى لأَرجو أن يرى من مغيبها
مطالعُ شمسٍ قد يَغُصُّ بها الشَّرْبُ



فى الفخر بكرمه :

١ بانت سُلَيْمَى وأمسى حَبْلُهَا انقضَبَا
وزَوَّدُوكَ ولَمْ يَرْثُوا لَكَ الوَصَبَا

٢ قالت سلامةُ : أَين المالُ ؟ قلتُ لها
المالُ وَيْحَكِ لاقى الحمدَ فاصطحبا

(٩) وصيف وأشناس : غلامان من الأتراك جلبهم المعتصم ليستعين بهم على العرب والفرس ، وقد صارا فيما بعد من قواده المتحكمين فى الدولة .

(١٠) الفضل بن مروان النصرانى : كاتب المعتصم ووزيره . شعب : إصلاح .

(١٢) الشرب : القوم يشربون .

(١) انقضب : انقطع : الوصب : المرض والوجع

٣ الحمدُ فرّق مالى فى الحقوق ، فما
أبقَيْنَ ذَمًّا ولا أبقين لى نشبا

٤ قالت سلامة : دَعْ هذى اللبونَ لنا
لِصِبْيَةٍ مثلِ أفراخِ القطا ، زُغُبَا

٥ قلتُ : احبسيها ففيها متعة لهم
إن لم يُنِخْ طارقٌ يبغى القِرَى سَغِبَا

٦ لما احتبى الضيفُ واعْتَلَّتْ حَلو بَتُها
بكى العيالُ ، وعَنَّتْ قِدْرُنا طربا

٧ هذى سبيلى ، وهذا فاعلمى خُلُقى
فارضَىْ به أوفكوفى بعضَ من غَضَبَا

٨ مالا يفوتُ ، وما قد فاتَ مَطْلَبُهُ
فلن يفوتَنِىَ الرزقُ الذى كُتِبَا

٩ أسعى لأَطلبَه والرزق يطلبنى
والرزقُ أكثرُ لى منى لَهُ طَلَبَا

١٠ هل أنت واجد شىءٍ لو عُنِيتَ به
كالأَجر والحمدِ مُرْتَادًا ومُكْتَسَبَا ؟

١١ قوم جواد هُمُ فردٌ ، وفارسُهمْ
فردٌ ، وشاعِرُهُمْ فَرَدٌ إذَا نُسِبَا

---

(٣) النشب : المال .
(٤) اللبون : ذات اللبن : القطا جمع قطاة : طائر
(٥) السغب : الجائع .
(٦) أحتبى الرجل : ضم رجليه إلى بطنه بثوبه أو بيديه .

في آل البيت :[٣]

١ بكيتُ لرسمِ الدار من عرفاتِ
وأذريتُ دمعَ العين بالعَبَراتِ

٢ وفكَّ عُرى صبري وهاجتْ صبابتي
رسومُ ديارٍ أقفرتْ وعِرَاتِ

٣ مدارسُ آيات خلَتْ من تلاوةٍ
ومنزلُ وَحْيٍ مقفرُ العَرَصاتِ

٤ لآل رسولِ الله بالخَيْفِ من مِنًى
وبالركنِ والتعريفِ والجمراتِ

٥ ديار عليٍّ والحسينِ وجَعْفَرٍ
وحمزةَ والسجادِ ذى الثَّفِنَاتِ

٦ ديارٌ لعبدِ الله والفَضْلِ صِنْوِهِ
نَجِيِّ رسولِ اللهِ فى الخلواتِ

٧ منازلُ ، وَحْيَ اللهِ ينزلُ بينَها
على أَحْمَدَ المذكورِ فى السوراتِ

---

(٤) الخيف : خيف منى الذى ينسب إليه مسجد الخيف . التعريف والجمرات : مواضع فى منى .

(٥) السجاد ذو الثفنات : هو الامام زين العابدين كانت بين عينيه ثفنة كثفنة البعير من كثرة السجود .

(٦) يريد عبد الله بن العباس والفضل أخاه .

٨ منازلُ قومٍ يُهْتَدَى بِهُدَاهُمُ
فَتُؤْمَنُ منهمْ زَلَّةُ العَثَرَاتِ
٩ منازلُ كانت للصلاةِ وللتُّقَى
وللصومِ والتطهيرِ والحسناتِ
١٠ منازلُ جبريلُ الأَمينُ يَحُلُّهـــا
من الله بالتسليم والرَّحَمَاتِ
١١ منازلُ وحى الله معدِنِ علمـــــه
سبيلِ رشادٍ واضِحِ الطرقاتِ
١٢ ديارٌ عفاها جور كُلِّ مُنَابِذٍ
ولم تعف للأَيامِ والسنواتِ
١٣ فيا وارثى عِلْمِ النَّبِىِّ وآلَهُ
عليكُمْ سلامٌ دائمُ النفحات
١٤ قفا نسأَلِ الدارَ التى خَفَّ أَهلُها
متى عهدُها بالصومِ والصلواتِ؟
١٥ وأَينَ الأُلَى شَطَّتْ بِهِمْ غربةُ النوى
أَفانين فى الآفاق مفترقات
١٦ هُمُ أَهلُ ميراثِ النَّبِىِّ إِذَا اعْتَزَوا
وهم خيرُ سادات وخيرُ حُمَاةِ

(١٥) شطت : بعدت : أفانين : مفردها فن بمعنى الحال والضرب من الشىء .

١٧ مطاعِيمُ فى الإعسارِ فى كل مَشْهَدِ
لقد شَرُفُوا بالفَضْلِ والبركاتِ

١٨ وما الناسُ إلا حاسدٌ ومكذِّبٌ
ومُضْطَغِنٌ ذو إحْنَةٍ وتِرَاتِ

١٩ إذا ذكروا قتلى ببدرٍ وخَيْبَرٍ
ويومَ حُنَيْنٍ أسْبَلُوا العبراتِ

٢٠ وكيف يحبون النَّبىَّ ورهطَـهُ
وَهُمْ تركوا أحشاءَهُمْ وغراتِ ؟

٢١ لقد لا ينوه فى المقالِ وأضمروا
قلوباً على الأحقادِ مُنْطَوياتِ

٢٢ فإن لم تَكُنْ إلا بِقُرْبَى محمد
فهرشِمُ أولى من هَنٍ وهناتِ

٢٣ سقى الله قبرًا بالمدينة غيثُـــهُ
فقد حَلَّ فيه الأَمْنُ بالبركاتِ

٢٤ نبى الهدى ، صلى عليه مليكُهُ
وبَلَّغ عنا روحَـــــه التُحفَاتِ

٢٠–الوغرة : شدة الحرارة .

٢٢–هن وهنات : كناية عما لا يمكن التصريح به .

٢٥ وصلى عليه الله ماذَرَّ شارقٌ
ولاحت نجومُ الليل مُبْتَدَراتِ

٢٦ أفاطمُ لو خِلْتِ الحسينَ مُجَدَّلًا
وقد مات عطشاناً بِشَطِّ فُرَاتِ

٢٧ إذن للطمت الخَدَّ فاطِمُ عندَه
وأجريتِ دمعَ العين فى الوجناتِ

٢٨ أفاطِمُ قومى يابنة الخيرِ واندبى
نجومَ سماواتٍ بأرض فلاةِ

٢٩ قبورٌ بكوفانٍ وأخرى بطيبـــة
وأخرى بِفخٍّ نالهـــا صلواتى

٣٠ وقبرٌ بأرض الجوزجـــان محلُّهُ
وقبرٌ ببـــاخمرا؛ لدى الغَرَباتِ

٣١ وقبرٌ ببغـــداد لنفس زكية
تضمنهـــا الرحمنُ فى الغرفات

---

(٢٥) ذر : طلع ، شارق : مشرق صلى الله عليه وسلم.
(٢٦) فاطم : فاطمة الزهراء بنت النبى محمد .
(٢٩) كوفان : الكوفة وفى مسجدها اغتيل الإمام على بن أبى طالب ، وطيبه : المدينة المنورة . فخ : واد بمكة .
(٣٠) الجوزجان : اسم كورة واسعة من كور بلخ فى أرض الفرس : باخمرا : موضع بين الكوفة وواسط .

٣٢ فأمّا المُمِضّاتُ التى لستُ بالغًا
مبالغَها منى بكنه صفاتِ

٣٣ نفوسٌ لدى النهرين من أهل كربلا
مُعَرَّسُهُمْ فيها بشطِّ فراتِ

٣٤ تُوفُّوا عطاشا بالفرات ، فليتنى
توفيتُ فيهمْ قبلَ حينَ وفاتى

٣٥ إلى الله أشكو لوعة عند ذكرهمْ
سَقَتْنِى بكأْسِ الذُّلِّ والفَظَعَاتِ

٣٦ أخاف بأن أَزْدَارَهُمْ فيشوقُنى
مُعَرَّسُهُمْ بالجَزْعِ فالنَّخَلاتِ

٣٧ تَقَسَّمَهُمْ رَيْبُ الزمانِ فما ترى
لهم عقوةً مغشيـة الحجراتِ

٣٨ سوى أن منهم بالمدينة عُصْبَةً
مدى الدهر — أنضاءً من الأَزَمَاتِ

٣٩ قليلةُ زُوَّارٍ ، سوى بعضِ زُوَّرٍ
من الضَّبعِ والعِقبان والرَّخَمَاتِ

(٣٣) المعرس : النزول فى المكان .
(٣٦) أزدارهم : أزورهم . الجزع والنخلات : أماكن .
(٣٧) العقوة : الساحة أو ما حول الدار .
(٣٩) الرخمات : جمع رخمة ، طائر معدود من الخبائث لا يؤكل لحمه .

٤٠ لَهُمْ كلَّ حينٍ نومةٌ بمضاجعٍ
لهم في نواحي الأرضِ مختلفات

٤١ وقد كان منهم بالحجاز وأهلها
مغاوير يُخْتَارون في السَّرَواتِ

٤٢ تَنكَّبُ لأْواءُ السنينَ جوارهم
فلا تصطليهمْ جَمْرةُ الجمراتِ

٤٣ حِمًى لم تَزُرْهُ المذنباتُ ، وَأَوْجُهٌ
تضيءُ لدى الأَستارِ في الظلمات

٤٤ إذا أوردوا خيلاً تَسَعَّرُ بالقنا
مَسَاعِرُ جَمْرِ الموتِ والغَمَراتِ

٤٥ وإن فخروا يوماً أَتَوْا بمحمـدٍ
وجبريلَ والفرقانِ ذي السورات

٤٦ وعدوا عليا ذا المناقبِ والعـلا
وفاطمة الزهراء خير بنـات

٤٧ وحمزةَ والعباسَ ذا الْهُدَى والتُّقى
وجعفراً الطيـارَ في الحجَباتِ

٤٨ أولئك ، لا أشياخُ هندٍ وتربِها
سُمَيَّةَ من نوكى ، ومن قذِراتِ

(٤٢) اللاواء : الشدة
(٤٨) الترب : اللدة والسن : النوك : الحمق والجهل .

٤٩ ستسأل تيمٌ عَنْهمُ وعَديُّهـــا
وبيعتهم من أفجرِ الفَجَرَات

٥٠ وهم عدلوها عن وصى محمـــد
فبيعتهم جاءت على الغدرات

٥١ ملامَكَ فى أهلَ النبى ، فإنهم
أحِبَّاىَ ، ما عاشوا وأهلُ ثقاتى

٥٢ تخيرتُهُمْ رَشدًا لأمرى ، فإنهم
على كل حالٍ خِيرةُ الخيراتِ

٥٣ نبذتُ إليهمْ بالمودةِ صـــادقاً
وسلمت نفس طائعاً لِوُلاتى

٥٤ فيارب زدنى من يقينى بصيرة
وزد حُبُّهم ياربٌ فى حسناتى

٥٥ سأبكيهُمُ ماحج لله راكبٌ
وما ناح قَمْرِىٌّ على الشجراتِ

٥٦ بِنفْسِى أنتمْ من كهولٍ وفتية
لفك عناةٍ أو لحمل رياتِ

٥٧ وللخيل لما قيّد الموتُ خطوهـــا
فأطلقتمُ منهن بالذريات

---

(٥٥) قمرى : ضرب من الحمام .
(٥٦) عناة : جمع عان وهو الأسير .

٥٨ أحب قصى الرحم من أجل حبكم
وأهجر فيكمْ أسرتى وبنـــاتى

٥٩ وأكتمُ حبيكُمْ مخافة كاشحٍ
عنيدٍ لأُهل الحق غير مُوَاتِ

٦٠ فياعين بَكيِّهِمْ وجودى بعبرةٍ!
فقد آن للتسكاب والهملات

٦١ لقد حفت الأيام حولى بشرها
وإنى لأرجو الأمن بعد وفاتى

٦٢ ألم تر أنى من ثلاثين حجــةً
أروح وأغدو دائمَ الحسرات

٦٣ أرى فيئَهم فى غيرهم متقسماً
وأيْدِيَهُمْ من فيئهم صَفِراتِ

٦٤ فكيف أداوى من جوًى لى والجوى
أمية أهل الفسق والتبعات ؟

٦٥ بنات زيادٍ فى القصور مصونةٌ
وآل رسول الله فى الفلوات

٦٦ سابكيهُمُ ماذَرَّ فى الأُرض شارقٌ
ونادى منادى الخير بالصلوات

---

(٥٩) حبيكم : لغة فى حبكم : الكاشح : الذى يضمر العداوة
(٦٣) الفئ : الخراج أو الغنيمة .

٦٧ وما طلعت شمسٌ وحان غروبُها
وبالليل أبكيهم وبالغدواتِ

٦٨ ديار رسول الله أصبحن بلقعا
وآل زيادٍ تسكن الحجراتِ

٦٩ وآل رسول الله تدمى نحورُهم
وآل زيادٍ آمنوا السرباتِ

٧٠ وآل رسول الله تُسْبَى حريمُهم
وآل زيادٍ رَبّةُ الحجلاتِ

٧١ وآل رسول الله نُحفٌ جسومُهم
وآل زياد غُلَّظُ القَصَراتِ

٧٢ إذا وتروا مَدّوا إلى واترتُهُمْ
أكُفًّا عن الأوتارِ منقبضاتِ

٧٣ فلولا الذى أرجوه فى اليوم أوغدٍ
تقطع قلبى إثرهم حسراتِ

٧٤ خروج إمامٍ لامحالة خارجٌ
يقوم على اسم الله والبركاتِ

---

(٦٩) السرب : الإبل وما رعى من المال
(٧٠) الحجلة : كالقبة . أو موضع يزين بالثياب
(٧١) القصره : أصل العنق .

٧٥ يميز فينا كل حق وباطـــلٍ
ويجزى على النعماء والنقماتِ

٧٦ فيا نفس طيبى ثم يا نفس أبشرى
فغير بعيد كل ما هو آتِ

٧٧ ولا تجزعى من مدة الجور ، إننى
أرى قوتى قد آذنت بشتاتِ

٧٨ فإن قرّبَ الرحمن من تلك مُدَّتى
وأخّرَ من عمرى بطول حياتى

٧٩ شفيتُ ولم أترك لنفس رزيّة
ورويت منهمْ مُنْصَلِى وقناتى

٨٠ فإنى من الرحمن أرجـــو بحبهم
حياة لدى الفردوس غير بتات

٨١ عسى الله أن يأوى لذا الخلق إنه
إلى كل قوم دائمُ اللحظات.

٨٢ فإن قلت عرفاً أنكروه بمنكرٍ
وغطّوا على التحقيق بالشبهات

---

(٨٠) البتات : القطع :

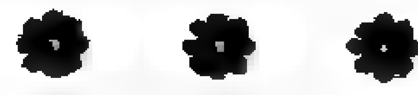
٨٣ سأقصر نفسى جاهدًا عن جدالهم
كفانِى ما ألقى من العبراتِ

٨٤ أحاول نقل الشمس من مستقرها
وإسماعَ أحجارٍ من الصَّلَداتِ

٨٥ فمن عارفٍ لم ينتفعْ ومعاند
يميل مع الأهواء والشهواتِ

٨٦ قصاراى منهم أن أؤوب بغصَّةٍ
تردَّد بين الصدر واللهـوات

٨٧ كأنك بالأضلاع قد ضاق رحبها
لما ضُمِّنت من شدة الزفرات



(٨٦) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق .

فى الفخر وتحذير المأمون :

١ أيسومنى المأمون خِطَّةَ جاهــل
أو ما رأى بالأمس رأس محمَّدِ

٢ توفى على هام الخلائف مثلما
توفى الجبالُ على رؤوس القَرْدَدِ

٣ وتَحُلُّ فى أكناف كل مُمَنَّعٍ
حتى تُذَلِّلَ شاهقاً لم يُصْعَدِ

٤ إن التِّراتِ مُسَهِّدٌ طُلَّابُهــا
فاكفف لعابك عن لعاب الأسودِ

٥ لا تَحْسَبَنْ جهلى كحلم أبى ، فما
حِلْمُ المشايخ مثل جهل الأمرد

٦ إنى من القوم الذين سيوفهم
قتلت أخاك وشرفتكَ بمقْعَدِ

٧ شادوا بذكرك بعد طول خمولِه
واستنقذوك من الحضيض الأوْهَدِ

---

(١) محمد : هو محمد الأمين .
(٢) هام : جمع هامة وهى رأس كل شئ والقردد : ما ارتفع من الأرض وغلظ
(٤) التراث : مفردها ترة وهى الثأر . الأسود : الحية العظيمة .

إلى مسلم بن الوليد بعد جفوة :

١ أبا مخلد كنّا عقيدى مودّةٍ
هوانا وقلبانا جميعًا معًا معًا

٢ أحوطُكَ بالود الّذِى لا تحوطنى
وأفجع إشفاقًا لأن تتوجعًا

٣ فصيرتنى بعد انتحائِكَ مُتْهمًا
لنفسٍ عليها أرهب الخلقَ أجمعًا

٤ غششتَ الهوَى حتّى تداعت أُصولُه
بنا ، وابتذلت الوصلَ حتى تقطعًا

٥ وأنزلت من بين الجوانِحِ والحشَا
ذخيرة ودٍّ طالما قد تَمَنّعَا

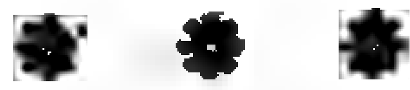
٦ فَلا تَعْذِلَنّى ليس لى فيك مطمعٌ
تَحَرَّقْتَ حتى لَمْ أجد لك مرقعا

٧ فهبكَ يمينى استأكَلَتْ فقطعتُهَا
وشجعتُ قلبى بعدها فَتَشَجَّعَا

(٣) انتحاء : ابتعاد .

في الشيب والشباب :

١ أينَ الشّباب ؟ وأيّةً سلكا   لا ، أينَ يُطْلَبُ؟ ضَلّ بل هلكا
٢ لا تعجبي يا سلمُ من رجلٍ   ضحكَ المشيبُ برأسهِ فبكى
٣ قد كان يضحك في شبيبتِه   وأتى المشيبُ فقلّما ضحكا
٤ يا سلمُ ما بالشيب منقصةٌ   لا سوقةً يُبقي ولا ملكا !
٥ قصر الغوايةَ عن هوى قمرٍ   وجد السّبيل إليهِ مشتركا
٦ وعدًا بأُخرى عزّ مطلَبُهَا   صبًّا يطامن دونها الحَسَكَا
٧ يا ليتَ شعرى كيف نومكما   يا صاحبيّ إذَا دمى سُفِكَا ؟
٨ لا تأْخذَا بظُلامَتي أحدًا   قلبي وطرفي في دمي اشتركا



في الفخر بشعره :

١ دَعَوْني ، ولما ينعني غيرُ شامِتٍ
وغيرُ عدوٍّ قد أصيبت مقاتله
٢ يقولُونَ إنْ ذَاقَ الردى مات شعرُهُ
وهيهات ، عمر الشّعر طالت طوائله

---

(٤) السوقة : الرعية
(٦) الحسك : نبات له شوك .

٣ سأقضى ببيت يحمد النّاس أمره
ويكثُرُ من أهْلِ الرواية حامِلُه

٤ يموتُ رَدِىُّ الشّعر من قبلِ أهلِهِ
وجَيّــدُهُ يبقى وإن ماتَ قائلهِ

* * *

فى الفَخْر :

١ أحببتُ قَــومى ولَمْ أعْدل بحبهمُ
قالُوا تعصبت جهلًا قولَ ذى بَهَتِ

٢ دعنِىَ أَصِلْ رحمى إن كنتَ قاطعها
لابدَّ للرَّحم الدنيــــا من الصِّلةِ

٣ فاحفظ عشيرتك الأدنينَ إن لهم
حقًّــا يُفَرِّق بينَ الزوج والمرةِ

٤ قومى بنو مَذْحَجٍ والأَزْدُ إخوتُهم
وآل كِنْدَةَ والأحيــاءُ من عُلَتِ

٥ ثُبْتُ الحلُوم فإن سُلَّتْ حفائظُهم
سَلُّوا السيوفَ فأرْدَوْا كلَّ ذى عَنَتِ

٦ لا تَعْرِضَنَّ بمــزحٍ لامرئٍ طَبِنٍ
ما راضـهُ قلبُــهُ أجراه فى الشَّفَةِ

٧ إنّى إذا قلتُ بيتًا مــاتَ قائلُهُ
ومن يُقَال لَهُ ، والبيت لَمْ يَمُتِ

فى وصف ما أصاب آل البيت ، وذكر الامام الرضا :

١ تأسّفتْ جارتى لما رأت زَوَرى[1]
وعدت الشيبَ ذنبًا غيرَ مُغْتَفَرِ

٢ ترجو الصِّبا بعد ما شابتْ ذوائبُها
وقد جرَتْ طَلَقًا[2] فى حَلبةِ الكِبَرِ

٣ أجارتى إن شيبَ الرأسِ نفَّلنى[3]
ذكر الغوانى ، وأرضانى من القَـدَرِ

٤ لو كنت أركنُ للدُّنيا وزينتها
إذَنْ بَكَيت عَلى الماضين من نفرى

٥ أخنى الزمانُ على أهلِى فصدَّعهم
تَصَدُّعَ الشعْبِ[4] لاقى صدمة الحجَرِ

٦ بعضٌ أقام وبعضٌ قد أهابَ بهِ
داعى المنيَّةِ ، والباقى على الأثَرِ

٧ أما المقيم فأخشى أن يُفَارقنى
ولستُ أَوْبةَ من وَلَّى بِمُنْتَظِـر

---

(١) الزور : الميل
(٢) جرت طلقا : أى متباعدة
(٣) نفلنى : دفع عنى
(٤) الشعب : الجبل .

٨ أَصبحت أُخبر عن أَهلي وعن ولدي
كَحَالِمٍ قصَّ رؤيا بعد مُدَّكَرِ

٩ لَوْلا تشاغُلُ نفس بالأُولى سلفوا
من أَهل بيت رَسُول الله لم أقرِ

١٠ وفي مواليك للمحزون مَشْغَلَةٌ
من أن تَبيتَ لمفقُودٍ عَلى أثَرِ

١١ كَمْ من ذراعٍ لَهُم بالطَّفِّ بائنة
وعارضٍ ، من صعيد التُّرْبِ ، مُنْعَفِرِ

١٢ أنسى الحُسينَ ومسراهم لمقْتله
وهُمْ يقُولُونَ : هَذَا سيدُ البَشَرِ

١٣ يا أُمَّةَ السوءِ ما جازيت أحمدَ عن
حسين البلاءِ على التنزيلِ والسُّوَرِ

١٤ خَلِفْتُمُوه على الأَنباء حين مضى
خلافَةَ الذِّئبِ في أَبْقَار ذي بَقَرِ

١٥ وليس حَيٌّ من الأَحياءِ نعلمه
من ذي يمانٍ ومن بكرٍ ومن مُضَرِ

١٦ إلَّا وَهُمْ شُركَاءُ في دِمَائِهِمُ
كما تشارك أيسارٌ على جُزُرِ

(١١) بائنة : منقطعة ، العارض : صفحة الخد
(١٦) الأيسار : جمع ياسر وهو الذي يتولى قسمة الجزور

١٧ قَتْلا وأسْرًا وتحريقا ومنهبةً
فِعْلَ الغُزَاةِ بأَرضِ الرومِ والخَزَرِ

١٨ أرى أُمَيَّةَ معذورينَ إن قَتَلُوا
وَلا أرَى لبَنِي العَبَّاسِ من عُذْرِ

١٩ أبناء حربٍ ومروانٍ وأُسرتُهم
بنو معيط وُلاةُ الحقدِ والوَغَر

٢٠ قومٌ قتلتم على الاسْلام أوَّلَهُم
حتى إذا اسْتَمْكَنُوا جَازَوا على الكُفُرِ

٢١ أَرْبَعْ بِطُوسٍ على قبرِ الزكيِّ بها
إن كنتَ تربَعُ من دِينٍ على وَطَرِ

٢٢ قبرانِ فى طوسَ : خيرُ النَّاسِ كُلِّهِمُ
وقبرُ شَرِّهِمُ ، هَـذَا من العِبَرِ

٢٣ ما يَنْفَعُ الرِّجْسَ من قرب الزكيِّ ولا
على الزكيِّ بقربِ الرِّجْسِ من ضَرَرِ

٢٤ هيهات كلُّ امرئٍ رَهْنٌ بما كَسَبَتْ
لَهُ يَدَاهُ ، فَخُذْ ما شِئْتَ أو فَذَرِ

(١٩) الوغر : الغيظ والحقد

(٢١) ربع الرجل : وقف وانتظر ، قبر الزكى : هو قبر على بن موسى الرضا

(٢٢) الرجس : يريد به قبر هارون الرشيد

فى رثاء ابنه ، وذكر الامام الرضا :

١ على الكُرْهِ ما فارقْتُ أحمدَ وانطوى
عليهِ بناءٌ جَنْدَلٌ ورزينُ !

٢ وأسْكَنْتُهُ بيتًا خسيسًا متاعُهُ
وإنِّى – على رغمى – بِهِ لَضَنينُ

٣ ولَوْلا التَّأَسِّى بالنبىِّ وأهلِهِ
لأَسْبَلَ من عَيْنى عليه شُئُونُ

٤ هُوَ النفسُ ، إلَّا أنَّ آل مُحَمَّد
لَهُم دون نَفْسى فى الفُؤادِ كَمِينُ

٥ أَضَرَّ بِهِمْ إرثُ النبى فأَصْبَحُوا
يُسَاهِمُ فيهم ميتةٌ ومَنُونُ

٦ دعتهم ذِئابٌ من أُمَيَّةَ وانتحتْ
عليهم دراكًا أزمةٌ وسنوتُ !

٧ وعاشتْ بنو العبَّاس فى الدين عَيْشَةً
تحكَّمُ فيهمْ ظَالِمٌ وظنينُ

٨ وسموا رشيدًا ليس فيهم لرشدِهِ
وها ذاكَ مأْمُونٌ وذاكَ أَمينُ

---

(١) أحمد : ولده الذى فجع فيه . الجندل : الحجارة . الرزين : الثقيل .

(٣) الشئون : مجارى الدمع .

(٦) الدراك : المداركة والملاحقة . السنون : جمع سنة وهى القحط والشدة .

٩ فَمَا قُبلَتْ بالرشد منهم رعايَةٌ
وَلا لِولِيٍّ بالأَمانَةِ دِينُ !

١٠ رشيدهُمُ غَاوٍ ، وطِفْلاه بعده
لِهَذَا رزايا دون ذاكَ مجونُ

١١ ألا أيُّهَا القبر الغريبُ محلُّهُ
بطوسٍ ، عليك السّارياتُ هتونَ

١٢ شككْتُ فَمَا أدرى أمسقِيٌّ شربةً
فأبكيك ؟ أم ريبُ الردى فيهونُ

١٣ وأيُّهما ما قلت : إن قلت شربةً
وإن قلتُ موتٌ ، إنَّهُ لَقَمِينُ

١٤ أيا عجبًا منهم يسمونكَ الرِّضَا
وتلقاكَ منهم كلمة وغضونُ

١٥ أتَعْجَب للأجلافِ أن يَتَخَيَّفُوا
مَعَالمَ دين الله وهُوَ مبين ؟

١٦ لَقَدْ سَبَقَتْ فيهمْ بِفَضْلك آيَةٌ
لَدَىَّ ، ولكن ما هناك يقينُ

---

(١١) القبر الغريب بطوس : قبر الإمام الرضا

(١٤) الغضون : مكاسر الجلد .

(١٥) تخيفه : تنقصه .

ديك الجن الحمصى

(ت ٢٣٥ هـ)

أبو محمد عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب بن عبد الله ابن رغبان بن يزيد بن تميم الكلبي الحمصى كما ورد فى الأغانى ، وفى أعيان الشيعين : ابن فريد بن تميم الذى أسلم على يدى حبيب بن مسلمة الفهرى ، وأصله من قرية مؤتة بالشام ، وتقول مصادر أخرى إن أصله من سلمية قرب حماة وأنه ولد بحمص سنة ١٦١ هـ ، وكان جده حبيب ابن عبد الله بن رغبان مولى حبيب بن سلمة الفهرى يتقلد عملاً – لأبى جعفر المنصور ، وقيل إنه لم يبرح الشام طول حياته ، وإن كانت بعض المصادر قد ذكرت زيارته لمصر بعد زيارة أبى نواس لها . وتذكر المصادر لقاءً تم بين ديك الجن وأبى نواس وأن أبا تمام كان كثير الزيارة لديك الجن وأنه استفاد بأشعاره وآرائه .

وفى تلقيبه بديك الجن أخبار كثيرة منها تشبيهه بدويبة توجد فى البساتين إذا ألقيت فى خمر معتقة وماتت ثم تركت فى كارة وسدت رأسها ودفنت فى وسط الدار منعت الأرضة ، وذلك لكثرة خروج ديك الجن إلى البساتين وشربه الخمر ، وقيل أنه لقب بذلك بسبب قصيدة كتبها فى رثاء ديك عمير (١) الذى ذبحه وأقام عليه وليمة . وقيل إن اللقب لزمه لأن عينيه كانتا خضراوين كالديك .. إلى غير ذلك .

(١) مطلع أبياتها :

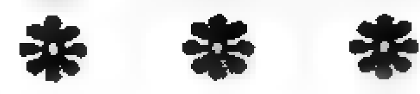
دعانا أبو عمرو عمير بن جعفـــر   على لحم ديك دعوة بعد موعد

وفى حياة ديك الجن مأساة غرامية عنيفة مشهورة فى تاريخ الأدب العربى ، فقد أحب فتاة نصرانية تسمى « ورد بنت الناعمة » وقيل « دنيا » ودعاها إلى الاسلام فاستجابت فتزوجها ، وتركها فى سفر أقام فيه مدة طويلة ، وكان له ابن عم يكرهه فأذاع عن وردبنت الناعمة أنها تهوى غلامًا له ، وأشاع هذا الخبر المكذوب حتى وصل إلى ديك الجن فعاد إلى حمص ودس إليه ابن عمه رجلًا ليقرع الباب بعد وصوله طالبًا إياها فصدق القصة وأهوى عليها بسيفه فقتلها ، وطلبه السلطان فهرب إلى دمشق ، ثم استوهب أصحابه جنايته فعاد إلى حمص وعرف المكيدة التى دبرت له ، فندم ندمًا شديدًا وظل شهرًا لا يفيق من البكاء وكتب فى محبوبته مراثى كثيرة ، وتذكر بعض الروايات أخبارًا بعيدة عن الواقع وهى أن ديك الجن قد ضبط محبوبته مع غلامه فى وضع شائن فقتلهما وأحرق جسديهما وأخذ رمادهما وخلط به شيئًا من التراب وضع وصنع منه كوزين للخمر ، وكان يحضرهما فى مجلس شرابه ، ويضع أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله .

وقد توفى ديك الجن سنة ٢٣٥ هـ على أرجح الأقوال .

ولم يصل إلينا ديوان ديك الجن ولكن جمع شعره عبد المعين الملوحى ومحيي الدين درويش ونشراه بحمص سنة ١٩٦٠م . ثم أعاد مجمع الديوان الدكتور أحمد مطلوب وعبد الله الجبورى ونشرته دار الثقافة فى بيروت سنة ١٩٦٤ م .

ولعل أهم ما فى هذا الديوان المطبوع أشعاره فى آل البيت التى تظهر تشيعه فى غير عصبية أو شذوذ ، وهذه الأشعار هى أطول قصائده ، وليس فيها جديد يميزه عن غيره من شعراء الشيعة فى عصره . ولهذا وجدنا أن أشعاره فى مأساة غرامه الدامية هى التى تميز شعره ، ولهذا اخترنا منها عدداً من المقطعات ، إلى جانب قصيدة له فى الغزل والخمريات وكانت له شهرة فيهما .



قال ديك الجن فى رثائه لزوجته بعد أن ندم على قتلها لمعرفته ببراءتها :

١ يا طَلْعَةً طَلَعَ الحِمَامُ عليها ... وجنى لها ثمر الردى بيديها

٢ رَوَّيْتُ من دمها الثرى ولطالما ... رَوَّى الهَوَى شفتىَّ من شفتيها

٣ قد بَاتَ سَيْفِى فى مجال وشامها ... ومدامِعِى تجرى على خديها

٤ فوحقِّ نعليها وما وَطِىءَ الحصى ... شىءٌ أَعَزُّ علىَّ من نعليها

٥ ما كانَ قَتْلِيها لأنِّى لم أكن ... أبْكِى إذَا سقط الغبار عليها

٦ لكن ضننتُ على العيون بحسنها ... وأَنِفْتُ من نظر الحسود إليها

(١) الحمام : الموت

قال فى التغزل والشراب ووصف الديك الذى ينبه بصياحه عشاق الصبوح :

١ أَمَا تَرَى راهبَ الأسحارِ قد هَتَفَا
وحَثَّ تَغْرِيدَهُ لما عَلا الشَّعَفَا

٢ أَوْفى بصبغ أَبى قابوس مفرقُه
كدُرَّةِ التَّاج لما أن عَلا شَرَفا

٣ مُشَنَّفٌ بعقيق فَوْقَ مَذْبَحِهِ
هل كنت فى غير أُذْنٍ تعرف الشُّنُفا

٤ لَمَّا أراحت رُعَاةُ اللَّيْل عازبةً
من الكواكب كانت ترتعى السُّدُفا

٥ هزَّ اللِّوَاءَ عَلى ما كانَ من سِنَة
فارتجَّ ثُمَّ عَلا واهتَزَّ ثُمَّ هَفَا

٦ ثُمَّ استَمَرَّ كما غَنَّى على طَرَب
مريحُ شَرْبٍ عَلى تغريده وضفا

---

(١) راهب الأسحار : يعنى الديك ، الشعف : جمع شعفة وهو المكان المرتفع

(٢) صبغ أبى قابوس : يعنى اللون الأحمر وهو لون شقائق النعمان وهو هنا يصف عرف الديك ، الشرف : المكان العالى

(٣) مشنف : يلبس الشنوف وهى الأقراط ولهذا يتساءل فى عجب كيف يلبس أقراطا من العقيق الأحمر فوق رقبته ونحن نعلم أن الأقراط مكانها الآذان

(٤) صورة فنية رائعة إذ يجعل من الكواكب رعاة الظلام

(٦) المريح : الشديد المرح ، الشرب : الشاربون ، ضفا : استمر واستطال .

٧ إذَا استهل استهلت فوقه خُصل
كالحيِّ صِيح صبـاحًا فيه فاختلفَا

٨ فاصْرِف بِصَرْفِك وجهَ الماءِ يومكَ ذَا
حتَّى تَرَى نائِمًـا منهم ومنْصَرفا

٩ فَقَـام مختلفًا كالبَـدْر مُطَّلِعا
والظَّبي مُلْتَفِتًـا والغُصْن مُنْعَطفا

١٠ رقَّت غـلالةُ خَـدَّيْه فلو رُمِيَـا
باللحظ أو بالمنى هَمَّـا بأَن يَكِفا

١١ كأَن قافا أديرت فَـوْقَ وجنته
واختط كاتبُهَـا من فوقها أَلفَا

١٢ واستلَّ رَاحًا كَبِيضٍ صادفت حَجَفًا
خلائقًا أو كنارٍ صادفت سَعَفَا

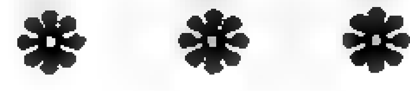
١٣ فَلَمْ أَزل من ثلاث واثنتين ومن
خمس وست وما استعلى وما لطفَا

١٤ حتَّى تَوَهَّمْتُ نوشـروانَ لِي خَوَلًا
وخلتُ أَن نـديمي عاشرُ الخُلَفَا

(٨) الصرف : الخمر غير الممزوجة بالماء
(١٠) يكفا من وكف أى سال .
(١٢) البيض : السيوف اللامعة ، الحجف : التروس ، الخلائق : الملس .
(١٤) خولا : خشما .

وقال فى رثاء ورد بعد أن قتلها :

١ لَيْتَنِى لَمْ أَكُنْ لعطْفِكِ نِلْتُ وإلى ذلك الوِصَال وَصَلْتُ
٢ فالَّذِى مِنِّى اشتملتُ عليه أَلِعَارٍ ما قد عليه اشتملتُ ؟
٣ قالَ ذُو الجهلِ : قد حلُمتَ ، وَلا أعْلَمُ أَنِّى حلُمتُ حتّى جَهِلْتُ
٤ لائم لِى بِجَهْلِهِ ، ولماذا ؟ أَنَا وحدى أَحببتُ ثم قَتَلْتُ ؟
٥ سَوْفَ آسَى طُول الحَيَاة وَأَبْكِيكِ على ما فعلْتِ لا مَا فَعَلْتُ



وقال يتغزَّل :

١ يا كَثِير الدَّلّ والغَنَجِ لكَ سُلْطَانٌ على المُهَجِ
٢ إن بيتًا أنت ساكنُه غير محتاج إلى السُّرُج
٣ وجهكَ المأْمولُ حُجَّتنا يَوْمَ يأْتى الناس بالحُجَج
٤ لا أتاح الله لى فَرَجًا يَوْمَ أَدْعُو منكَ بالفَرَج

---

(١) يقول : ليتنى لم أنل عطفك ولم أبلغ رضاك ، إذن لهان على فراقك
(٢) لقد فعلت ما فعلت من قتلك ، فهل كان ذلك عارا على ؟
(٣) قال الجاهل : قد عضوت عنها وكنت حليما ، ولكننى لم أكد أحلم حتى قتلت .
(٥) آسى : من الأسى وهو الحزن ، ومعنى ذلك أنه سيبكى طول الحياة لما ارتكبته هى من الخيانة ، لا ما ارتكبه هو من القتل .
(١) الغنج : الدلال ، المهج جمع مهجة ، وهى الروح
(٢) السرج : جمع سراج ، وهو القنديل.

وقال أيضاً :

١ أشفقتُ أن يَرِدَ الزمانُ بغدرِهِ
أوْ أبْتَلى بعد الوِصالِ بهجرِهِ

٢ قَمَرٌ أنا استخرجْتُه من دُجْنَةٍ
لِبَلِيَّتِى ، وجلوْتُه من خِدْرِه

٣ فقتَلْتُه وبهِ عــــلىّ كرامــةٌ
مِلْءَ الحَشَى ، ولَهُ الفؤادُ بأَسْرِهِ

٤ عَهْدِى به ميْتًا كأحسنِ نائمٍ
والحزنُ يسفحُ عَبْرتى فى نحرِهِ

٥ لو كان يَدْرِى الميْتُ ماذا بَعْدَهُ
بالحىِّ [حلَّ] ، بكى له فى قبرِهِ

٦ غُصَصٌ تكادُ تَفِيضُ منها نَفْسُهُ
وتكاد تُخْرِجُ قلبَهُ مِن صَدْرِهِ

* * *

(٢) الدجنة : الظلمة ، الخدر : الخباء
(٣) الحشى : مادون الحجاب مما فى البطن
(٤) سفح الدمع والماء : صبهما .
(٦) غصص : جمع غصة ، وهى ما اعترض فى الحلق من طعام أو شراب .

عبد الصمد بن المعذل

(ت ٢٤٠ هـ)

عبد الصمد بن المعذل بن غيلان بن الحكم العبدى من بنى عبد القيس من شعراء الدولة العباسية ، ولد ونشأ بالبصرة ، اشتهر بالهجاء توفى نحو ٢٤٠ هـ .

قال :

١ غدر الزمانُ وليتَهُ لم يَغْدُرِ
وحدا بشهر الصوم فِطْرُ المُفْطِرِ

٢ وثَوت بقلبك يا محمدُ لوعةٌ
تمرى بوَادرَ دمْعَكَ المُنْحَدِرِ

٣ وَتقسَّمتك صَبابتانِ لِبَيْنِهِ
أَسَفُ المَشرِقِ وَخَلَّةُ المُتَفَكِّرِ

٤ فاستبْقِ عَيْنَكَ واحْسُن قلبكبأَسَهُ
واقْرَ السَّلامَ عَلى خِوانِ المُنْذِرِ

(١) حدا : ساق وهو يعنى أن عيد الفطر قد جاء بعد ختام رمضان .

(٢) تمرى : تستدر .

(٣) الخلة : الخصلة .

٥ سقيا لدهرك إذ تروَّحَ يومُـه
والشمس فى عَليائهٓ لم تَتَهوَّرَ

٦ حتى تُنِيخَ بلكلك متزاور
وتَمُدُّ بلْعُوما قَمُوصَ الحَنْجَرَ

٧ وتَرودُ منك على الخوان أناملٌ
تَدَعُ الخِوانَ سرابَ قاعٍ مُقْفِرَ

٨ وَيْحَ الصِّحاف من ابن فَرَّاشٍ إذَا
أنْحَى عليهَا كالهِزَبْرِ الهَيْصَرِ

٩ ذو دُرْبَةٍ طَبٌّ إذا لمعت لـه
بُشُرُ الخِوان بدا بحَلٍّ المئزر

١٠ وَدَّا بنُ فراشٍ وفراشٌ معا
لو أنّ شهر الصوم مُدَّةُ أشهر

١١ يُزْرى على الإسلام قِلّةَ صبره
وتراه بحمد عِدَّةَ المُتَنَصِّر

(٥) تروح : راح وانقضى ، تهور : تسقط .
(٦) تنيخ : تبرك ، الكلكل : الصدر ، متزاور : منحرف ، القموص : السريع
وفى اللسان : يقال للكذاب إنه لقموص الحنجرة .
(٧) ترود : تستكشف .
(٨) الهزبر الهيصر : الأسد يفترس ويكسر
(٩) الطب : الخبير ، بشر الخوان : جمع بشير

١٢ لا تهلكنَّ على الصِّيامِ صبَابَةً
سَيَعُود شهرُك قابلا فاسْتَبْشِر

١٣ لاوَرَّ دَرُّك يا محمــــد من فتى
شَيْنِ المغيب وغيرُ زَيْنِ المحضر

المناسبة :

كان الشاعر يستثقل رجلا يعرف بالفراش ؛ وكان له ابن أثقل منه ، وكانا يفطران خلال شهر رمضان عند المنذر بن عمرو أحد وجهاء البصرة ، وكان الفراش هذا يصلِّي به ثم يجلس فينظر هو وابنه عنده ، فلما مضى شهر رمضان انقطع ذلك عنهما ، فكتب الشاعر هذه القصيدة معبراً عن مشاعرهما .

* * *

ذو النون المصرى

أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الأخميمى

(منتصف القرن الثانى الهجرى الثامن الميلادى – سنة ٢٤٥هـ–٨٥٩)

يعد ذو النون المصرى باكورة من أنتجته مصر من كبار رجال الصوفية ، وقد ولد فى إخميم فى صعيد مصر ، وكان على ما يبدو من أصل نوبى ، وكان يكثر التردد على البرابى المنتشرة فى الصعيد ؛ ويقال إنه كان يقرأ ما على هذه البرابى (أى المعابد المصرية القديمة) من نقوش ، كما كان كثير الاتصال بالرهبان فى أديرتهم المنتشرة فى صحارى مصر ، مما يدل على أنه تشرب عناصر من الثقافة الدينية المصرية القديمة على أنه تثقف ثقافة إسلامية واسعة ؛ فقد انتقل منذ شبابه المبكر إلى الفسطاط ،ودرس على فقهائها ومحدثيها ،فقد أخذ عن الليث بن سعد ، ورحل إلى الحجاز فأخذ عن الإمام مالك بن أنس وكان كثير السياحات : جاب العالم الاسلامى كله من الشام والعراق حتى المغرب لكى يلتقى بالعباد والنساك ، وذاع صيته فى مصر ، وأثار ذلك حسد بعض فقهائها ، فاتهموه بالمروق على الدين ، ووصل أمره إلى بغداد فأمر الخليفة المتوكل بحمله إلى حضرته لكى يتحقق من أمره فلما دخل عليه ذو النون وعظه ونصحه ،مما جعل الخليفة يقتنع ببراءته مما نسب إليه ، فأمر برده إلى مصر معززا مكرما .

ويعد ذو النون صاحب منهج صوفى انفرد به ، وهو يتميز بالاعتدال والبعد عن الشطحات التى عرف بها صوفية العراق وإيران ، ويذكر له أنه أول من تحدث فى « المقامات والأحوال » أى المراتب التى يتدرج فيها الصوفى فى سبيل الارتقاء الروحى ، كما كان من أول من تحدثوا فى الحب الإلهى وفى المعرفة وفى انتهاج أسلوب السياحة الصوفية . وله أقوال كثيرة شعرًا ونثرًا جمعها تلاميذه : وهى تعد من أروع نماذج الأدب الصوفى .

قال ذو النون فى الحب :

أموت وما ماتت إليك صبابتى
ولا رويت من صدق حبك أوطارى
مناى المنى كل المنى أنتَ لى منى
وأنتْ الغِنى كل الغِنى عندَ إقتارى
وأنت مدى سُؤْلى وغاية رغبتى
وموضع آمالى ومكنونَ إضمارى
تحمل قلبى فيك مالا أبثه
وإن طال سرى فيك أوطالَ إظهارى
وبينَ ضلوعِى منكَ مالا أبثه
ولم أبدُ باديه لأهلى ولا جارى

وبى منك فى الأَحشَاء داءُ مخامر
وقد هدَمنى الرُّكنُ فابتث أَسرارى

سرائِرَ لايخفى عليك خفيها
وإنْ لم أَبح حتى التنادى بأَسرَارى

فهب لى نسيماً منكَ أحيا بروحه
وجد لى بيسر منكَ يطرد إعسارِى

أَنرتَ الهُدَى للمهتدين ولم يكن
من العلم فى أَيديهم عشر معشار

وعلمتهم علماً فباتوا بنوره
وبانت لهم منه معالم أَسرار

معانية للغيب حتى كأَنها
لما غاب عنها منه حاضره الدار

وأَبصارهم محجوبة وقلوبهم
تراك بأَوهام حديدات أَبصار

جمعت لها الهم المفرق والتـــقى
على قدر والهم يجرى بمقدار

أَلستُ دليـل الرَّكبِ إن هم تحيروا
وعصمة من أَمسى على جرف هار

ومالى سوى الإطراق والصمت حيلة
ووضعى على خدى يدى عند تذكارى

وإنْ طرقتنى عبرةَ بعد عبرة
تجرعتها حتى إذا عيل تصبارى
أفضت جموعاً جمة مستهـــلة
أطفى بها حَرًّا تضمن أسرارِى
فيا منتهى سؤل المحبين كلهم
أبحنى محل الأُنسِ مع كلٍّ زوارى
ولست أبالى فائتاً بعد فائت
إذا كنت فى الدارين ياواحدى جارى

رجال الله :

رجال أطاعوا الله فى السر والجهر
فما شربوا اللذات حينا من الدهر
أناسٌ عَلَيْهم رَحْمَةِ اللهِ أنزلت
فظلوا سكوناً فى الكهوف وفى القفر
يراعون نجم الليـ ل لا يرقدونه
فباتوا بإدمان التهجد والصبرِ
فأجسامهم فى الأَرْضِ هوناً مقيمةِ
وأرواحهم تسرى إلى معدن الفخر
فهذا نعيم القوم إن كنت تبتغى
وتعقل عن مولاك آداب ذى القدر

العبد الصادق :

توجع ممراض وخوف مطالب
وإشفاق مهموم وحزن كئيب

ولوعة مشتاق وزفرة واله
وسقطة مسقام بغير طبيب

وفكرة جوال وفطنة غائص
ليأخذ من طيب الصفا بنصيب

ألمت بقلب حيرته طوارق
من الشّوق حتى ذَلَّ ذُلَّ غريب

يكاتم لى وجدًا ويخفى محبة
ثوت فاستكنت فى فؤاد لبيب

قلوب العارفين :

مجال قلوب العارفين بروضة
سماوية من دونها حجب الرب

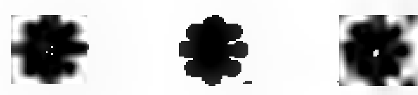
معسكرها فيها ومجنى ثمارها
تنسم روح الأنسِ باللهِ من قرب

تكنفها من عالم السر قربة
فلولا مدى الآجال ماتت من الحب

فيالقلوب قربت فتقربت
لذى العرش ممن زين الملك بالقرب
رضيها فأرضاها فحازت مدى الرضا
وحلت من المحبوب فى المنزل الرحب
لها من لطيف الفهم عزم سرت به
وتهتك بالأفكار ما داخل الحجب
سرى سرها بين الحبيب وبينها
وأضحى مصوناً عن سوى الرب فى القلب

لا أبتغي بحبي بديلاً :

كلهم يعبدون من خوف نار ويرون النجاة حظا جليلا
ليس لى فى الجنان والنار رأى أنا لا أبتغى بحبى بديلا
فإذا لم أجد من الحب وصلا رمت فى النّار منزلاً ومقيلا
ثم أزعجت أهلها ببكائى بكرة فى ضريعها وأصيلا
معشر المشركين نوحوا مليًّا أنا عبد أجبت مولى جليلا
لم أكن فى الذى أدعيت محبا فجزانى منه العذاب الطويلا



على بن الجهم

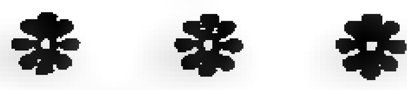
(ت ٢٤٩ هـ)

هو أبو الحسن على بن الجهم بن بدر بن الجهم بن مسعود القرشى كانت أسرته تقيم فى خراسان حتى انتقل والد « على » من خراسان إلى بغداد ، وهذه الخراسانية مما يفتخر به الشاعر ، لا من جهة النسب ، بل من جهة المذهب السياسى ، لأن أهل خراسان هم الذين قاموا بالدعوة العباسية .

وأسرة على بن الجَهْم من علية القوم ، فقد ولّى المأمون أباه على على بريد اليمن ، وكان أخوه الأكبر محمد بن الجهم عالماً أديباً يذكره الجاحظ كثيراً ويروى عنه ويستشهد بكلامه ، وكان معدوداً من كبار المتكلمين الجامعين بين ثقافتى العرب واليونان ، على حين كان « على » شاعراً يميل عن مذاهب الجدل إلى مذهب أهل الحديث ، فكان يختلف إلى الامام أحمد بن حنبل ويسأله مسائل فى القدر والصفات وما إلى ذلك. كما كان يختلف إلى قبة الشعراء فى بغداد بعد انتقاله وأسرته إليها ، وكانت أشبه بمنتدى يجتمع فيه الشعراء أسبوعاً فأسبوعاً .

فى خلافة المأمون (١٩٨ – ٢١٨) يبدأ اسم « على » الشاعر فى الذيوع ، وفى خلافة المتوكل (٢٣٢ – ٢٤٧) تكثر أخباره وتتوالى قصائده ، وأكثر ما بقى من شعره قاله فى هذه الفترة ، وفى المتوكل

بخاصة ، وقد قربه المتوكل واتخذه نديماً رجليسًا ، حتّى أوغر صدور بطانة الخليفة عليه ، وكان منهم كبار الشعراء كالبحترى ، فاتفقوا عليه وأوعزوا إلى الخليفة بأنه يطعن عليه ويعيبه ، فغضب عليه المتوكل وأمر بمصادرة أمواله ونفيه إلى خراسان ٢٣٩ ، حيث صلبه طاهـر بن عبد الله وإليها بالشا ذياخ فى قصـة طويلة ، وحين أستو فى عقابه عاد إلى بغداد حتّى كان مقتل المتوكل سنة ٢٤٧ وفى شعبان سنة ٢٤٩ هـ وردعلى الخليفة المستعين كتاب صاحب البريد يعلمه أن على بن الجَهْم خرج من بيته متوجها إلى الغزو فخرج عليه جماعة قطعوا عليه طريقه ، فقاتلهم حتّى قتل .



تَجْرِبة سَجين

قالَ عليٌّ بن الجهْم يمدح الخليفة جعفرًا المتوكل وهو فى السجن :

١ قالت حُبِسْتَ ، فقلتُ ليس بضائر
حَبْسِى ، وأىُّ مُهَنَّدٍ لا يغمدُ ؟

٢ أو ما رأيت الليثَ يألَفُ غِيلهُ
كِبْرًا ، وأوباشُ السباع تردَّدُ

٣ والشَّمْسُ لَولا أنَّهَا محجوبة ،
عن نا ظرِيْكِ لما أضاءَ الفرقد

٤ والبدْرُ يُدْرِكه السِّرارُ فَتَنْجَلِى
أيَّامُـهُ ، وكأنَّهُ متجدِّدُ ! !

٥ والغَيْثُ يَحصُرُهُ الغمَامُ فما يُرى
إلَّا وَرَيِّقُهُ يُرَاحُ ويَرْعُــدُ

٦ والنَّارُ فى أحجارِهَا مخبُوءةٌ ،
لَا تُصْطَلَى إنْ لم تُثِرْهَـا الأَزْنُدُ

---

(١) الغيل : عرين الأسد . الأوباش : الأخلاط والسفلة .
(٤) السرار : أيام آخر الشهر .
(٥) الريق : هو من كل شئ أوله ، ومن المطر : الشئ اليسير .

٧ والزَّاعِبِيَّةُ لا يقيم كعوبَهـا
إلَّا الثقافُ ، وجذوةٌ تتـوقدُ

٨ غِيَرُ اللَّيَالِي بارثاتٌ عُـوَّدٌ ،
والمال عاريةٌ ؛ يفاد وينفدُ

٩ وَلكل حالٍ مُعْقِبٌ ، ولربما ،
أجْلى لك المكروهُ عما يُحْمَدُ

١٠ لا يُؤيِسنَّكَ مِنْ تفرُّجَ كُرْبة
خَطْبٌ رماك به الزمانُ الأنكدُ

١١ كَمْ من عليلٍ قد تخطَّاهُ الردى
فنجا ، ومات طبيبُهُ : والعُوَّدُ

١٢ صبرًا ؛ فإن الصبرَ يُعْقِبُ راحةً
ويدُ الخليفة لا تطاولها يَدُ ! !

١٣ والحبْسُ ، مالم تَغْشَهُ لِدنِيَّةٍ
مَنْعَاءُ ، نِعْمَ المنزلُ المتورَّد

---

(٧) الزاعبية : نسبة إلى رجل اسمه زاعب ، كان يصنع الأسنة
الثقاف : آلة تقويم السيوف .

(٨) غير الليالي : تقلباتها وأحداثها ، عارية : مستعار .

(٩) معقب : حال يجئ بعده ، أجلى: كشف .

(١٣) والحبس مالم تغشه لدنية : مالم تدخله بسبب ما يشنيك المنزل المتورد : المورود المنزول به .

١٤ بَيْتٌ يجدِّدُ للكريم كرامـةً
وَيُزَارُ فيه ، ولا يزورُ ويُحْفَدُ

١٥ لو لم يكنْ فى السجنِ إلَّا أنَّهُ
لايستذلك بالحجاب الأَعْبُدُ

١٦ يا أحمدُ بنَ أبى دُؤادٍ إنمـا
تُدْعَى لكل عظيمة ، يا أحمدُ !!

١٧ بلِّغْ أميرَ المؤمنين ، ودونهُ
خَوْضُ العِدَى ومخاوفٌ لاتنفدُ

١٨ أنتمْ بنى عمِّ النَّبىِّ محمـدٍ
أَوْلى بما شَرَعَ النَّبىُّ محمـدُ !

١٩ ما كان من حَسَنٍ فأنتم أَهْلُـهُ
طابَتْ مغارِسُهُ وطاب المُحْتَدُ

٢٠ أَمِنَ السَّوِيَّةِ يا بنَ عمِّ محمدٍ ،
خصمٌ تُقَرِّبُهُ ، وآخرُ تُبْعِـدُ

٢١ إنَّ الَّذِينَ سَعَوْا إلَيْكَ بباطلٍ
أَعْدَاءُ نعمتك التى لا تُجْحَـدُ

(١٤) يحفد : يخدم .
(١٩) المحتد : الأصل والطبع

٢٢ شَهِدُوا وغِبْنَا عنهمُ فتحكموا
فينا ، وليس كغائبٍ منَ يَشْهَدُ

٢٣ لو يَجمعُ الخصْمَيْنِ عندكَ مَشْهَدٌ
يوماً ، لبَانَ لك الطريق الأَقْصَدَ

٢٤ فلئنْ بقيتُ على الزمانِ وكان لى
يوماً من الملك الخليفة ، مَقْعَدُ

٢٥ واحتجَّ خَصمى واحتجَجْتُ بحجَّتى
لَفَلَجْتُ فى حُجَجِى ، وخاب الأَبْعَدُ

٢٦ واللهُ بالغُ أمره فى خَلْقِــهِ ،
وإليه مَصْدَرُنا غدًا ، والمَوْرِدُ

٢٧ ولئن مَضَيْتُ لقلَّما يَبْقَى الذى
قد كادنى ، ولِيَجْمَعَنَّا المَوعِدُ

٢٨ فبأَىِّ ذَنْبٍ أصبحتْ أَعْرَاضُنَا
نَهْباً ، يُشَيد بها اللئيمُ الأَوْغَدُ

---

(٢٣) الطريق الأقصد : الأكثر قصدا ورشدا واعتدالا .
(٢٥) فلج فى حجته : أثبتها .
(٢٦) يشيد بها اللئيم : يتناولها ويتبجحها .

الرُّصَافِيَّة

قال عليُّ بن الجهم يمدح الخليفة المتوكل :

١ عُيُونُ المها بين الرصافة والجِسْر
جلبْنَ الهوى مِنْ حيثُ أدرى ولا أدرى

٢ أَعَدْنَ لى الشوقَ القديم ، ولم أكنْ
سلَوْتُ ولكن زدْن جمرًا على جمر

٣ سلمْن وأسلمْنَ القُلُوب ، كأنَّمَا
تَشُكُّ بأطراف المثقفة السُّمْر

٤ وقلْنَ لَنَا نحنُ الأَهِلَّةُ ، إِنَّمَا
تضئُ لمن يَسْرى بليل ، ولا تقرى

٥ فَلا بذْلَ ، إِلَّا ما تَزوَّد ناظرٌ
وَلا وصْل ، إِلَّا بالخيال الذى يسرى

٦ أَزَحْنَ رسيس القلب عن مستقره
وألهيْنَ مَا بينَ الجوانح ، والصَّدْر

---

(١) الرصافة : موضع جميل بالجانب الشرق من بغداد .

(٣) سلمن : مضين سالمات ، أسلمن القلوب : تخلين عنها المثقفة السمر : السيوف المعتدلة القواطع .

(٤) الأهلة : الكواكب ، لا تقرى : لا تقوم شيئا ، وهو كناية عن العفة .

(٦) أزحن رسيس القلب : نزعن عنه صلاحه ورهافته

٧ فلَوْ قبل أن يَبْدُو المشيبُ بدأتني
بيأسٍ مبين ، أو جَنَحْن إلى الغدر

٨ ولكنَّه أوْرَى الشَّبَابُ ، وإنَّمَا
تصاد المها بين الشبيبة ، والوفر

٩ أما ومشيب راعهنَّ ، لَرُبَّمَا
غمزْنَ بنانًا ، بين سَحر إلى نحْرِ

١٠ وبتْنَا على رغم الوَشاة كأنَّنَا
خليطان من ماء الغمامة ، والخَمْر

١١ فإنْ حُلْنَ أوْ أنْكرْن عهدًا عهدْنَهُ
فغيرُ بديع للغواني ، ولانُكْرِ !!

١٢ خَليلَيَّ ما أحْلى الهَوَى ، وأمرَّه
وأعلَمنى بالحلوِ منه ، وبالمرِّ !

١٣ كفَى بالهَوى شغلًا وبالشَّيْبِ زاجرً
لَوْ أنَّ الهَوَى مِمَّا يُنَهْنَهُ بالزَّجر

١٤ بما بينَنَا من حرمةٍ هَلْ رأيتما ،
أرَقَّ من الشَّكْوَى وأقْسَى من الهَجْرِ

---

(٩) راعهن : أفزعهن ، السحر : موضع القلادة من المرأة ، النحر : يطلق على الصدر وهو أيضا موضع القلادة ولكن السحر ، أعم منه .

(١١) حلن : تحولن وتغيرن ، غير بديع : ليس جديداً ولا غريبا .

١٣) ينهنه : يكف ويصرف .

١٥ وأَفْضَح من عين المحبِّ كسِرّهِ
ولاسيَّما ، إنْ أَطلقتْ عَبْرَةً تجرى

١٦ ومَا أَنْسَ م الأَشْياءِ لا أَنْس قولها
لجارتِها ما أَوْلَعَ الحبَّ بالحرِّ !!

١٧ فَقَالَتْ لَهَا الأُخرى : فما لصديقنا
معنًّى ؟ وهَلْ فى قتله لك من عُذْر ؟

١٨ صِلِيهِ ، لَعَلَّ الوصلَ يُحْيِيه ، واعلمى
بأَنَّ أَسير الحبِّ ، فى أَعظم الأَسْرِ

١٩ فَقَالَتْ أذودُ النَّاسَ عنه ، وقلَّما
يطيبُ الهَوَى ، إلَّا لمنهتك السِّتْرِ

٢٠ وأَيقنتا أَنْ قَدْ سمعْتُ ، فقالتا
من الطَّارق المصغى إلينا وما ندرى؟

٢١ فقلتُ فتًى إن شئتما كتم الهَوَى
وإلَّا فخلَّاعُ الأَعنَّة ، والعُذْر

٢٢ على أنه يشكو ظلُومًا ، وبخلَها
عليه بتسليم البشَاشة والبشر

---

(١٥) عبره : دمعة .

(١٩) منهتك السر : من افتضح أمر حبه وشاع .

(٢١) الأعنة : جمع عنان وهو لجام الحصان ، العذر : جمع عذار وهو ما يسيل من اللجام على خد الحصان ، والمقصود إذاعة هذا الحب .

٢٣ فقالت : هُجِينًا ، قلتُ : قد كان بعضُ ما
ذَكَرْتِ ، لعلَّ الشَّرَّ يُدْفَعُ بالشَّرِّ

٢٤ فَقَالت : كأنّى بالقَوَافى سَوَائرًا
يَرِدْنَ بنا مصرًا ، ويَصْدُرْن عن مصر

٢٥ فقلْتُ : أَسَأْتِ الظنَّ بى ؛ لستُ شاعرًا
وإن كان أحيانًا يجيش به صدرى

٢٦ فَمَا كُلُّ من قَادَ الجيادَ يسُوسُها
وَلا كلُّ من أجرى ، يُقَالُ له مُجرى

٢٧ صِلِى واسألى من شِئْتِ يخبركِ أننى
على كل حال ، نِعْمَ مستودَعُ السِّرِّ

٢٨ ومَا أنَا مِمَّنْ سارَ بالشِّعرِ ذكرُهُ
ولكنْ أشعارى يُسَيِّرها ذكرى

٢٩ وللشِّعْرِ أتبَاعٌ كثيرٌ ، ولمْ أكنْ
لَهُ تابعًا فى حال عُسْرٍ ، وَلا يُسْرِ

٣٠ وما الشِّعْرُ مِمَّا أستظلُّ بِظِلِّه
وَلا زادنى قَدْرًا ، ولا حَطَّ من قدرى

٣١ ولكنَّ إحْسَانَ الخليفة «جعْفر»
دَعَانى إلى ما قلتُ فيه من الشِّعْر

٣٢ فَسَار مسيرَ الشَّمس فى كل بـلدة
وهبَّ هُبُوبَ الرِّيح فى البَرِّ والبَحْر

٣٣ ولَوْ جلَّ عن شُكر الصَّنيعة مُنْعِم
لجلَّ أَميرُ المؤمنين عن الشكر !

٣٤ إذَا نحنُ شبَّهْنَاهُ بالبدْر طَالعًا
وبالشَّمس ، قالُوا : حُقَّ للشمس والبدْر

٣٥ ومن قال إنَّ البحر والقَطْرَ أَشْبَهَا
نَدَاهُ ، فقد أَثْنَى على البحر والقطر

٣٦ ولَوْ قُرِنَتْ بالبَحْرِ سَبْعَةُ أَبْحُر
لما بلَغَتْ جَدْوَى أَنَامِلِهِ العشر !

٣٧ ولا يجمعُ الأَمْوَالَ إلَّا لبذْلها
كما لا يُسَاقُ الهَدْىُ إلَّا إلى النَّحْر

٣٨ وفَرَّقَ شَمْلَ المال ، جورُ يمينه
على أَنَّهُ أَبْقَى لَهُ أَحْسَنَ الذكر

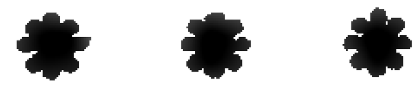
٣٩ إذَا ما أَجَالَ الرَّأْىَ أدْركَ فِكْرُهُ
غَرَائِبَ ، لَمْ تَخْطرْ ببال ولا فكر!

٤٠ أَغَيْرَ كتاب الله تَبْغُونَ شَاهِدًا
لَكُمْ يا بنى العَبَّاس بالمجْد والفَخْر

٤١ كَفَـاكُمْ بـأَنَّ الله فوَّض أمره ،
إليكم ، وأَوْحَى : أَنْ أَطِيعُوا أُولى الأمر

٤٢ ولن يُقْبَـلَ الإِيمانُ إِلَّا بحبّكُمْ
وهَلْ يَقْبَلُ اللهُ الصَّـلاة بلا طُهْرِ

٤٣ ومَنْ كانَ مَجْهُـولَ المكان فإنَّمَـا
مَنَـازلكم بَيْنَ الحَجُون إلى الحِجْر



زَفْرَةُ مَصْـلُوب

حَبَسَ المتوكلُ عَلِيَّ بن الجهم ، ثم نفاه إلى خراسان ، وكتب إلى أميرها ، طاهر بن عبد الله بن طاهر ، بأَن يُصْلَبَ إذا وردها ، يومًا إلى الليل ، فلمَّا وصل إلى « الشَّاذياخ » ، حبسه « طاهر » بها ، ثم أُخرج فَصُلب يومًا إلى الليل ، مجردًا ، ثم أُنزل ، فقال :

١ لَمْ ينْصِبُوا بالشَّاذياخ صَبيحة الاثنين مغمُورًا وَلا مَجْهُـولا

٢ نصبُوا بحمد الله ملءَ عيُـونهم
شرفًا ، وملءَ صـدورهمْ تبجيلا

٣ ما ازداد إلَّا رفعَـةً بنكوله
وازدادت الأَعْـداءُ عنـهُ نكولا

(١) الشاذياخ : بلدة بخراسان من ضواحي نيسابور .
(٢) نكول (الأولى) : التنكيل به ، والثانية : الفرار والأحجام .

٤ هل كانَ إلّا اللَّيثَ فارَقَ غِيلَه
فرأَيْتَهُ فى مَحْمَلٍ ، محمولا!

٥ لا يَأْمَنُ الأَعْداءُ من شَدّاته
شَدًّا يُفَصِّلُ هامَهُمْ تَفْصِيلا

٦ ما عابَهُ أن بُزَّ عنه لباسُه ،
فالسَّيْفُ أهولُ ما يُرى مَسلُولا

٧ إنْ يُبْتَذَلْ فالبَدْرُ لا يُزْرِى بِهِ
أنْ كانَ لَيْلَ تمِّهِ مَبْذُولا !

٨ أو يسلبوه المال يُحْزِنُ فَقْدُهُ
ضَيْفًا أَلَمَّ ، وطارقًا ونزيلا !

٩ أو يحبسُوهُ ، فَلَيْسَ يُحْبَسُ سائر
من شِعْرِه يَدَعُ العزيزَ ذَلِيلا

١٠ إنَّ المَصائب ما تَعَدَّتْ دينَهُ
نِعَمٌ ، وإن صَعُبَتْ عليه قليلا

١١ واللهُ لَيْس بغافلٍ عن أَمْرِه
وكَفَى بربِّكَ ناصِرًا ووكيلا

---

(٤) غيل الليث : عرينه وهو فى الأصل الشجر الكثيف الملتف .

(٥) شدات الليث : وثباته وهجماته

(٦) بز لباسه : جرد عزه

(٧) يبتذل يجرد ويعرى ، يزرى به : يشينه ويحط من قدره .

(٩) شعر سائر : مشهور تتناقله الناس .

١٢ لَنْ تَسْلُبُوهُ – وإنْ سَلَبْتُم كلَّ ما
خَوَّلتمُوه – وَسَامة وقُبُولا

١٣ هَلْ تملِكُونَ لدينه ويقينِهِ ،
وجنانِهِ وبيانِهِ ، تَبْدِيلا ؟

١٤ لَمْ تَنْقُصُوا وقد ملكتُمْ ظَلَمه
ما النَّقْصُ إلَّا أنْ يكون جهُولا

١٥ كادَتْ تكون مُصِيبةً لَوْ أنَّكُمْ
أوْ صَحْتُمْ ذَنْبًا عَلَيْهِ جَلِيلا

١٦ إنْ كانَ سَفَّ إلى الدَّنِيَّة أوْ رأى
غير الجميل من الأُمُور جميلا

١٧ لَوْ تَنْصِفُ الأيَّامُ لَمْ تَعْثُرْ بِهِ !
إذْ كانَ من عَثَرَاتِهِنَّ مُقِيلا !

١٨ ولَتَعْلَمُنَّ إذَا القُلُوبُ تَكَشَّفَتْ
عَنْهَا الأَكِنَّةُ : من أضَلُّ سَبيلا

* * *

(١٣) جنانه : عقله
(١٧) مقيل : أقال فلان فلانا من عثرته : حملها عنه وأعانه عليها .

الحسين بن الضحاك

(ت ٢٥٠ هـ)

أبو علي الحسين بن الضحاك بن ياسر الخليع الأشقر ، باهلي — بالولاء وقيل بالنسب ، ولد بالبصرة ونشأ بها ؛ ثم انتقل إلى عاصمة الخلافة بغداد في أواخر عهد هارون الرشيد الذي توفي سنة ١٩٣ هـ . وقد بدأ الحسين بمنادمة صالح بن هارون الرشيد ثم نادم أخاه الأمين وهو لايزال ولي عهد ، فلمّا تولّى الخلافة صار من المقربين إليه ؛ ونال قدرًا كبيرًا من جوائزه ، فلمّا أفل نجم الأمين وقتله طاهر بن الحسين . اشتد بكاؤه عليه ورثاوه له حتّى قيل إن المأمون قد غضب عليه أعوامًا طويلة بسبب ذلك .

وعقد صلة جديدة بالمعتصم وأبنائه فكان نديمهم وشاعرهم ، وتوفي في خلافة المستعين سنة ٢٥٠ هـ وقيل ٢٥١ هـ وقد قارب المائة كما يذكر أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني ، ولهذا يرى بعض الباحثين أنه ولد فيما بين ١٥٠ و ١٥٥ هـ وليس ١٦٢ هـ كما جاء في بعض المصادر .

كان الحسين بن الضحاك مسرفًا في المجون ، ولم يكن لقب — (الخليع) الذي اشتهر به بعيدًا عن حقيقته ، ولكن صحبته الطويلة لعدد من الخلفاء في القرن الثاني ثم في القرن الثالث ، جعلت شعره بعيدًا عن الإسفاف ، والبذاءة التي كانت طابع أشعار معاصريه ممن نشأ معهم وخاصة أبو نواس . وليس غريبًا أن تكون معظم أشعار الحسين

ابن الضحّاك فى الخمر والغزل وخاصة بالمذكر فقد عاش حياته نديماً للخلفاء ، وما وصل إلينا من شعره فيه القليل من المديح والرثاء ، وقد جمع شعره وحققه عبد الستار أحمد فراج ونشره عام ١٩٦٠ ، ونتبين منه أنه كان شاعرًا فعلًا لا يكتب إلّا ما يحسه فيصدق التعبير عنه ، وقد آثر بشعره فى عدد من معاصريه وفيهم أبو نواس وخاصة فى الخمريات. ونحس أنه ينفرد عن الماجنين من الشعراء فى عصره بأسلوبه الجاد الرصين العف البعيد عمّا يخدش الحياء ، إلّا فى مواضع قليلة . ومعظم ما بقى من شعره مقطعات صغيرة لا تتجاوز بضعة أبيات ، ولا نظن أنها كانت قصائد مطولة ضاع ما ضاع منها إلّا فى اليسير منها ، لأن طبيعة القرن الثانى وطبيعة شعر المجون والخمر فيه تنفر من القصائد المطولة .

قال الحسين بن الضّحّاك يتغزل :

١ تَيَسَّرى لِلمَـسَام من أَمَم ِ   وَلا تُـرَاعِى حمامةَ الحَرَم ِ

٢ قد غَابَ لا آبَ مَن يراقبُنَا   ونَامَ لا قامَ سامرُ الخَدَم ِ

٣ فاستصحبِى مُسْعِدًا يفاوضنَا   إذَا خَـلَوْنَا فى كل مُكْتَتَم ِ

ذكرت المصادر التى روت هذه القصيدة أنه يتغزل فى فتى اسمه يسر كان غلاما لأبى يرى أن الشاعر يروى ذكريات عبثه ومجونه مع فتاة ثم مع فتى ، وأنه كان يمزج ذلك العبث مع الخمر فى بيئة نصرانية حيث كانت الأديرة تتسع لهؤلاء العابثين الشاربين ، فالشاعر يذكر قرع النواقيس ، وينبه القسيس من نومه .

(١) المسام : الزيارة ، الأمم : القرب .

(٢) آب : رجع

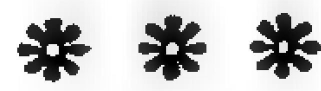
(٣) مسعدا : معينا ومساعدا

٤ تَبَـذُّلى بِـذْلةً تَقَرُّ بها العينُ وَلا تَحَضُّرِى وتحتشمى
٥ لَيْتَ نُجُـومَ السَّمَاءِ رَاكِدَةٌ عَلى دُجَى ليلنَـا فَـلَم تَرَم
٦ مَا لسُـرُورِى بالشَّك ممتزجًا حتَّى كأَنى أَراهُ فى حُـلمِ
٧ فرحتُ حتَّى استخفنى فرحى وشُبْتُ عين اليقـين بالتُّهم
٨ أَمْسَحُ عينى مُسْتَثْبِتًا نظرى أَخَـالُنى نَائِمًـا ولَمْ أَنم
٩ سقيا لليلٍ أَفنيتُ مُـدَّتَه ببـارد الريق طيب النَّسَمِ
١٠ أَبيضَ مُرْتَجَـةٍ روادفُـه ما عيب من قَرْنه إلى العَدمِ
١١ إِذْ قَصَبات العريش تجمعنا حتَّى تَجَلَّت أَواخر الظُّلَم
١٢ وَلَيْـلَةٍ بِتُّهـا مُحَسَّـدَة محفُوفةٍ بالظُّنُونِ والتُّهم
١٣ أَبثُّ عَـبْراتِه عَلى غُصَصٍ يردُّ أَنْفَـاسه إلى الكظَمِ
١٤ سـعيا لِتَمَيْطُـونَها ومُخْدَعَها كَمْ من لِمَام به ومن لَمَم
١٥ لا أَكفرَ السَّـيْلَحَيْن أَزمنةً مطيعـةً بالنَّعِـيم والنعَمِ
١٦ وليلة القُفْصِ إن سـأَلت بها كانَتْ شِـفَاء لِعِـلَّة السَّقَم

---

(٩) القرن : الجانب الأعلى من الرأس ، أو زواية الشعر .
(١٣) الغصص : أعتراض الماء أو الطعام فى الحلق ، والكظم : مخرج النفس.
(١٤) القيطون : هو المخدع أيضا ، اللمام : الزيارة فى أوقات متباعدة ، واللمم . مثار الذنوب ، أو مقاربة الذنب من غير الوقوع فيه .
(١٥) أكفر : أجحد وأنكر ، السيلحين : موضع قرب الحيرة .
(١٦) القفص : قرية مشهورة قريبة من بغداد كانت من مواطن اللهو والمجون .

١٧ باتَ أَنِيسِي صَرِيعَ خمرته ... وتلك إحْدَى مصارعِ الكرمِ
١٨ وبِتُّ عن موعِدٍ سبقتُ به ... أَلثِم دُرًّا مُفَلَّجًا بِفَمِ
١٩ وابِأَبِي من بدا بروعة «لا» ... وعادَ من بعدها إلى «نَعَم»
٢٠ أَبَا حتى نَفْسَه ووسَّدنى ... يُمْنَى يديه وبات مُلْتَزِمِى
٢١ حتَّى إذَا اهْتَاجَتْ النَّوَاقِسُ فى ... سُحْرَةٍ أَحوى أَحَمَّ كَالحُمِ
٢٢ وقلتُ هُبَّا يَا صَاحِبِيَّ ... ونَبَّهْتُ أَبَانَا نهبَّ كالزَّلَمِ
٢٣ فاسْتَنَّهَا كالشهاب ضَاحكَةً ... عن بَارِقٍ فى الإِنسار مبتسم
٢٤ صفراءَ زيتيَّةً مُوَشَّحَةً ... بأرجوانٍ مُلَمَّع ضَرِم
٢٥ أَخَذْتُ رَيحَانَةً أَرَاحُ لَهَا ... دبَّ سُرُورِى بِهَا دبيبَ دَمِى
٢٦ فَرَاجِعِ العُذْرَ إن بَدَا لله فى العُذْرِ وإنْ عُدْتَ لائِمًا فَلُمِ



(٢١) سحرة : قد يكون المقصود بها وقت السحر وهو إدبار الليل وإقبال النهار ، وقد يكون المقصود أن صوت النواقيس اهتاج فى أعماقه لأن السحرة هى المرئة وا لأحوى : الأسود الشعر والأحم كذلك ، والحم : الفحم يشبه شدة سواد شعره به .

(٢٢) أبانا المقصود به القسيس وهو يخاطبه بما كان يخاطبه به النصارى ، والزلم الهم .

(٢٣) استنها ؛ بمعنى كشف عنها وأوضحها وهى الخمر التى كانت مخبوءة

سعيد بن حميد

(ت ٢٥٠ هـ)

سعيد بن حُمَيد بن سعيد بن حميد يكنى أبا عثمان من أولاد الدهاقين وأصله من النهروان الأوسط وكان يقول إنه مولى سامة بن لُؤَىّ من أصل بغداد، بها ولد ونشأ، كاتب وشاعر، حسن الكلام، فصيح، وكان أبوه من وجوه المعتزلة، توفى نحو سنة ٢٥٠ هـ.

قال سعيد بن حُمَيد:

١ أَقْلِل عِتَابك فالبقاءُ قليل ... والدَّهْر يعْدل تارة ويميل

٢ لَم أَبْكِ من زمن ذممتُ صروفه ... إلَّا بكيتُ عليهِ حين يزول

٣ والمنتمون إلى الصَّفاء جماعةٌ ... إنْ حُصِّلُوا أفناهُمُ التحصيل

٤ ولِكُل نائبةٍ أَلَمَّت مُدَّةٌ ... ولِكل حَال أقبلت تحويل

٥ ولعلَّ أَحْدَاث اللَّيالِي والردى ... يومًا ستصدع بيننا وتحول

٦ فلئن سبقت لتبكينّ بحسرة ... وليكثرنَّ عليَّ منك عويل

---

(١) الميل : الظلم
(٢) صروفه : أحداثه
(٤) تحويل : تغير
(٥) تصدع : تفرق .

٧ ولتُفْجعنّ بمخلص لك وامق … حَبْلُ الوفاءِ بحبله موصُول

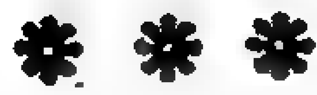
٨ وليذهبنّ جمــالُ كل مروءة … وليعفُــونّ فناؤهَا المأهول

٩ ولئن سبقتَ ولا سبقتَ لَيَمْضِيـ … نَ من لا يشاكله لدىً عديل

١٠ وأراك تَكلّفُ بالعتاب وودُّنَا … باقٍ عليــهِ من الوفاءِ دليل

١١ وَدٌّ بَدَا لذوى الإخاء جميــلهُ … وبــدت عليه بهجةٌ وقبـول

١٢ ولعلّ أيّام الحيــاة قصــيرةٌ … فعلام يكثُر عَتْبُنا ويطول



---

(٧) وامق : محب

(٨) يعفو : يقفر

(٩) عديل : قرين

(١٠) تكلف : تحب

يحي بن الحكم البكرى الجيانى "الغزال"

(ت ٢٥٥ هـ)

يمثل يحيى بن الحكم الملقب بالغزال أولى مراحل نضج الشعر الأندلسى والأخذ بمذهب «المحدثين» من شعراء العصر العباسى الأول. وقد ولد فى سنة ١٥٦ (٧٧٣ م) فى أيام إمارة عبد الرحمن بن معاوية الداخل أول أمراء الأندلس المستقلين، فى أسرة تنتمى إلى قبيلة بكر بن وائل وفى مدينة جيّان، وامتدت به الحياة فعاصر حكم خمسة من أمراء — الأندلس آخرهم الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط، إذ توفى فى عهده فى نحو سنة ٢٥٥ (٨٦٩). وقد ظهرت مكانته فى أيام عبد الرحمن الأوسط، إذ ولّاه هذا الأمير وظيفة مالية أساء فيها التصرف فأمر بسجنه، واستعطف الأمير بشعر أدّى إلى إطلاق سراحه؛ ثم عهد إليه عبد الرحمن بسفارتين إحداهما إلى بلاد النورمانديين (فى إسكندناوة) على أثر مهاجمة هؤلاء لشواطئ الأندلس ويظهر أن نجاحه فى هذه السفارة حمل الأمير عبد الرحمن على بعثه فى سفارة أخرى إلى بلاط الامبراطور البيزنطى؛ وقد زار بهذه المناسبة العراق واتصل بالبيئات الأدبية هناك وتأثر بمذهب المحدثين من جيل أبى نواس وأبى العتاهية. وعاد إلى الأندلس لكى يشارك فى أحداثها وأصبح يعد شاعر الأندلس المقدم فى عصره. وقد جمع ديوان شعره غير أنه لم يصل إلينا منه إلّا قطع متفرقة فى المصادر الأندلسية.

ـ أحبُّ إليَّ من وجه الكبير :

وخيرها أبوها بين شـــيخ كثير المال أوحدث فقير
فقالت : خطتا خسف وما إن أرى من خطوة للمستخير
ولكن إن عزمت فكل شيء أحب إليَّ من وجه الكبير
لأن المرءُ بعد الفقر يثرى وهذا لا يعود إلى صغير

ـ الشيخ ليس يحبه أحد :

قالت أحبك قلت كاذبة غرى بذا من ليس ينتقد
هذا كلام لست أقبله الشيخ ليس يحببه أحد
سيان قولك ذاوقولك إنَّ (م) الريح نعقلهـا فتنعقد
أو أن تقولى النار باردة أو أن تقولى الماء يتقد

ـ لا وعظ إلَّا دونَ لحظ عيان :

ألست ترى أن الزمان طوانى وبدل خلقى كله وبرانى
تحيفنى عضواً فعضواً فلم يدع سوى اسمى صحيحاً وحده ولسانى
ولو كانت الأسماءُ يدخلها البلى لقد بلى اسمى لامتداد زمانى
ومالى لا أبلى لتسعين حجة وسبع أتت من بعدها سنتان
إذا عن لى شخص تخيل دونه شبيه ضباب أوشبيه دخان
فيا راغباً فى العيش إن كنت عاقلا فلا وعظ إلا دون لحظ عيان

* * *

ابن الرومى

(ت : ٢٨٣ هـ)

على بن العباس بن جريج ، عرف بابن الرومى نسبة إلى جده جريج أو جرجيس الذى يبدو من اسمه أنه كان روميًا « يونانيًا » أو من رعايا دولة بيزنطة التى عرفت فى التاريخ الإسلامى بدولة الروم .

وكان والده العباس من حوالى عبد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور وربما أسلم على يديه وتسمى باسم العباس . ولعل عبد الله أعتقه بعد أن أسلم على يديه .

وغالب الظن أن جده جريج أو جرجيس كان فى رق بنى عيسى بن جعفر بن المنصور .

وعلى أية حال فإن عليًا شاعرنا ولد للعباس فى بغداد بيت قريب من قصر مولاه ، وتكنى بأبى الحسن ، وربما كان الحسن ابنه الأكبر ، فقد ذكر له ثلاثة أبناء عرف أو سطهم باسم محمد ، وله فيه مرثية مشهورة[1] .

وظل أبو الحسن على ببغداد لايغادرها طوال حياته إلا لماماً فى سفر غير بعيد ، وغربة لا تطول لأنه كان يكره الأسفار ، ويخشى مخاطرها.

---

(١) نذكرها بين مختارات شعره فيما يلى .

ولعله خرج من هذه الأسفار القليلة إلى سامرًا العاصمة العباسية الجديدة التي أسسها المعتصم شمالي بغداد ليمدح بعض الوزراء وكبار رجال الدولة

وقد كان ابن الرومي أبيض الوجه نحيل الجسم ، وكانت أمه فارسية على ما ذكر في بعض شعره . وقد دفع به والده . إلى التعليم ، ربما في أحد كتاتيب بغداد ، أو على يد بعض المعلمين ، ونهل من العلم والمعرفة ، وألم بكثير من جوانب الثقافة المتاحة لأمثاله في عصره. وأتقن العربية ، ولعله ضم إليها الفارسية عن والدته والرومية عن آبائه. كما يكشف شعره عن معرفة بكثير من العلوم كالنجوم والفلسفة ، والتاريخ ، والفنون كالموسيقى والغناء .

قال الشعر في صباه ، وأجاده في شبابه ، وكان قوله الشعر عن موهبة ، وممارسة لما حفظ ، وردد من عشرات القصائد للشعر العربي القديم والسابق عليه ، والذي استعان ببعض لفظه ومعانيه فيما نظم من قصائد .

واتصل في حياته ببغداد وسامرًا ببعض شعراء العصر وأدبائه وعلمائه وكبار رجاله ، فصافى بعضهم وأخلص له ، وخاصم بعضهم الآخر وتناوله بلاذع هجائه .

وأهم من تعرف عليهم وذكرهم في شعره مادحاً آل طاهر البغداديين حكام المدينة وسادتها وهم عبد الله بن طاهر وعبيد الله بن عبد الله ، ومحمد بن عبيد الله ، وآل وهب في سامرًا ، والوزير أبو الصقر ابن بلبل ، وآل نوبخت .

وقــد عاش أبو الحسن على بن الغباس نيفاً وستين عاماً ، وترك لنــا ديواناً ضخماً حاشداً ، له خصائصــه المميزة التى لا نجــدها عنــد غيره من الشعراء المعــاصرين أو اللاحقين ، فهو نموذج فرد غير متكرر .

قال يعاتب أبا القاسم التّوزّىّ الشطْرَنْجِى :

١ يا أخى : أين رَيْعُ ذاك اللقــاء ؟
أين ما كان بيننــا من صفاء ؟

٢ أين مصداقُ شاهدٍ كان يحــكى
أنك المخلصُ الصحيحُ الإخــاء ؟

٣ شاهــدٌ ما رأيت فعــلكَ إلا
غير ما شاهــدٍ له بالــذكاء

٤ كشفَتْ منــك حاجتى هَنَــوات
غُطيتْ برهــةً بحسن اللقــاء

٥ تركتَنى – ولم أكن مَسِىءَ الظنْـ
ـنِ – أُسىءُ الظنونَ بالأصدقاء

٦ قلت لمــا بدتْ لعينىَ شُنْعًــا :
رُبَّ شــوهاءَ فى حَشا حسناء

٧ ليتنــى ما هتكتُ عنكن ستــرا
فثويتُنَّ تحــت ذاك الغطاء

٨ قلن : لولا انكشافُنا ما تجلَّت
عنك ظَلْماءُ شُبْهة قتْماء

٩ قلت : أَعجِبْ بكنَّ من كاسفات
كاشفات غَواشِيَ الظلماء

١٠ قد أفدتُنَّنى مع الخُبْر بالصا
حب أنْ رُبَّ كاسف مُضاء

١١ قلن : أَعْجِبْ بمُهْتَد يتمنَّى
أنه لم يزل على عمياء

١٢ كنتَ فى شُبْهَةٍ ، فزالت بنسا عنـ
ـك ، فأوسعتنا من الإزراء

١٣ وتمنيت أن تكون على الحيـ
ـرة تحت العَمَاية الطَّخْياء

١٤ قلت : تالله ليس مثلى مَنْ وَدْ
دَ ضَلالا ، وحيرةً باهتداء

١٥ غيرَ أنى ودِدتُ سترَ صَديقى
بدلًا باستفادة الأَنْباء

١٦ قُلْن : هذا هوًى ، فعرِّجْ على الحقْ
قِ وخل الهوى لقلْبٍ هواء

١٧ ليس فى الحق أن تودَّ الخل
أنَّهُ الدهرَ كامنُ الأَدواء

١٨ بلْ من الحق أن تُنقر عنهنْـ
ـنَ وإلّا فأنت كالبُعَـــداء

١٩ إن بَحْثَ الطّبيبِ عنْ داءِ ذِى الدّا
ء لأُسُّ الشفَاء قبـــل الشفاء

٢٠ دُونك الكشْف والعتابَ فقــوم
بِهِمَا كُلَّ خصلَّةٍ عَــوْجاء

٢١ وإذا ما بدا لَكَ العُرُّ يَوْمــا
فَتَتَبّـعْ نِقَـــابهُ بالهنَـــاء

٢٢ قُلْتُ : فى ذاك مَوْتكُن ، وما المـــو
تُ بمُستعـــذبٍ لـدى الأَحْيـاء

٢٣ قُلْن : ما المـو تُ بالـكريه إذا كا
ن بحقٍّ فـلا أتزدْ فى المـراء

٢٤ يا أخى هَبكَ لم تهبْ لى من سَعْـ
ـيك حظاً كسائر البُخَــلاء

٢٥ أفَـلا كان منك ردٌّ جميـــــلٌ
فيــه للنَّفس راحـــة من عَناء ؟

٢٦ أجزاءُ الصــديق إبطـاؤهُ العِشْـ
ـوة حـتّى يظـلَّ كالعشْـواء ؟

٢٧ تاركاً سـعْيَه اتكالًا عـلى سَعْـ
ـيكَ دون الصحاب والشفعـاء

٢٨ كالّذِى غرَّه السّرابُ بما خيْـ
يَّل حتّى هراق مافى السقاء

٢٩ يا أبا القاسم : الذى كنت أرجو
ه لدهْرِى ، قَطَعْتَ مَتْنَ الرّجاء

٣٠ بِكر حاجات من يَعُدُّك للشـ
ـدة طَـوراً وتارة للرّخـاء

٣١ نمتَ عنهـا ، وما لمثلك عُـذْر
عنـد ذى نُهيـة عـلى الإغفاء

٣٢ قَسَمَا ، لو سألتُ أ رى عَوَانًا
لتنَمّرْت لى مع الأعـداء

٣٣ لا أجازيك من غرورك إيمـا
ى غروراً ، وُقّيتَ سُـوء الجزاء

٣٤ بل أرى صِدْقك الحديثَ ، وماذا
ك لبخلٍ عَلَيْـكَ بالإغضـاء

٣٥ أنتَ عَيْنى ، وليس من حق عَيْنى
غَضُّ أجفانهـا على الأقـذاء

٣٦ ما بِأمْثـالِ ما أتيت من الأمـ
ـر يَحُلُّ الفـتى ذُرا العلْيـاء

٣٧ لا ولا يكْسب المحامدِ فى النـا
س ، ولا يشترى جميـلَ الثناء

٣٨ ليس من حل بالمحل الذى أنـ
ت به من سماحة أو وفاء

٣٩ بَذلِ الوعد للأخلاّء سَمْحا
وأبى بعد ذاك بذل الغناء

٤٠ فَغَدا كالْخِلافِ يُورِقُ للعيـ
ن ويأبى الإثمار كل الإباء

٤١ ليس يرضى الصديقُ منك ببشرٍ
تحت مَخْبُورة دَفينٌ خَفاء

٤٢ يا أخى يا أخا الدّماثة والرقْـ
ـقَة والظّرف والحجا والدهاء

٤٣ أترى الضّربة التى هى غيْبٌ
خُلْفَ خمسين ضربةً فى وَحَاء

٤٤ ثاقِب الرأى ، نافذ الفكر فيها
غير ذى فَتْرة ولا إبْطاء

٤٥ وتُلاقيك شيعةٌ فيظلو
ن على ظهر آلة حدْباء

٤٦ تَهزِم الجمع أو حديًا ، وتُلْوىٰ
بالصّناديد أيّما إلواء

---

(٤٠) الخلاف : صنف من الصفصاف خوار ضعيف وليس به .

٤٧ وَيُحِطُّ الرخَاخَ بعد الفَرَازيـ
ـن فتزداد شدة استعلاء

٤٨ رُبَّمَا هالنى وحير عقلى
أَخْذُكَ اللاعبين بالبأساء

٤٩ ورضاهم هناك بالنصف والربْـ
ـع ، وأدْنى رضاكَ فى الإرباء

٥٠ واحتراسُ الدُّهاة منك ، وإعصا
فُكَ بالأقوياء والضعفاء

٥١ عن تَدابيرك اللطاف اللَّوتى
هُنَّ أخفى من مُستسِرِّ الهباء

٥٢ بل من السر فى ضمير مُحب
أدَّبَتْهُ عقوبةُ الإفشاء

٥٣ فبإخالُ الذى تُديرُ على القو
م حُروباً دوائرَ الأَرجاء

٥٤ وأَظُنُّ افتراسك القِرْنَ فالقر
ن منايا وشبكة الإرداء

٥٥ وأرى أن رقعة الأدم الأحْـ
ـمر أرْض عَلَّلتها بدماء

---

(٤٧) الرخاخ : جمع رخ . والفرازين : جمع فرزين وفرزان ، و هوما يلى البيادقة والرخاخ والفرازين من أدوات الشطرنج ، ويقابلهما اليوم الطوابى والوزراء .

٥٦ غالطِ النَّــاسُ لست تلعب بالشطـ
ـرنج لكن بأنفُس اللُّعبـاء

٥٧ أنت جِنِّيهـا ، وغيركُ من يلـ
ـعب ، إن الرجال غير النساء

٥٨ الك مكرٌ يدبُّ فى القوم ، أخفى
من دبيب الغـذاء فى الأعْضاء

٥٩ أو دبيب المَـلالِ فى مُسْتهاميـ
ـن إلى غاية من البغضـــاء

٦٠ أو مَسير القضــاء فى ظُلَمَ الغيـ
ـبِ إلى من يُريده بالتـــواء

٦١ أو سُرى الشيبِ تحت ليـل شباب
مُسْتحير فى لمَّــة سحمــاء

٦٢ دبَّ فيهـا لهـا ، ومنهـا إليها
فاكْتَسَتْ لــون رثَّة شَمْطاء

٦٣ تَقْتُلُ الشَّاه حيث شِئْت من الرقْـ
ـعة طَبًّا بالقِـتْلة النـكراء

٦٤ غير ما ناظـرٍ ثعيْنك فى الدَّسـ
ـتِ ، ولا مُقبـل على الرملاء

---

(٦١) استحار الشباب : تم آخذا من الحسب كل مأخذ وهى بمعنى سحماء .
(٦٤) الدست الرقعة التى يلعبون عليها الشطرنج .

٦٥ بل تراها ، وأنت مُستدبرُ الظَّهـ
ـر بقلبٍ مُصوَّر من ذكاء

٦٦ ما رأينـا سِـواك قِرْناً يُـولِّى
وهـــو يُرْدى فوارس الهيْجاء

٦٧ رُبَّ قَـوْم رأوْكَ ريعُوا فقالوا :
هل تكونُ العيون فى الأقفاء ؟ !

٦٨ والفُـؤادُ الذكىُّ للمطـرق المُعْـ
ـرض عينٌ يَرَى بها من وراء

٦٩ تقـرأ الدَّستَ ظاهرًا فتُـؤدِيـ
ـيه جميعاً كأحْفظ القُـراء

٧٠ وتُلَقَّى الصواب فيما سـوى ذا
ك إذا جـار جائر الآراء

٧١ فترى أن بُلْغـةً معهـا الـرَّا
حـة خيرٌ من ثَروة وشــقاء

٧٢ روْية لاخِـلاج فيهـا ، ولـولا
ذاك لم تأْب صحبةَ ابن بُغاء

٧٣ ـ وهو موسى وصاحبُ السيف والجيـ
ـش وركْنُ الخِـلافة الغلبـاء

---

(٧٢) يريد بابن بغا موسى بن بغا .
وروْية لا خلاج فيها ، أى لا فساد ولا اضطراب .

٧٤ بِعتَه واشتريتَ عيشاً هنيئاً
رابح البيع ، كيسا فى الشّراء

٧٥ وقديماً رغبتَ عن كل مَصَحْو
ب من المُتْرَفينَ والأُمراء

٧٦ ورَفَضْتَ التِّجارة الجمة الرِّبـ
ـح ، وما فى مراسها من جَداء

٧٧ وهَذَى العاذلُونَ من جهة الرِّبـ
ـح فخلَّيتهم وطولَ الهُذاء

٧٨ أعْرَضَتْ عنهُم عَزَائمُكَ الصُّمْـ
ـمُ ، بأُذن سميعة صماء

٧٩ حين لم تكْترثْ لقول أَخى غِشْـ
ـشٍ ، يُرى أنه من النُّصحاء

٨٠ وإذا صَحَّ رأْىُ ذى الرَّأىِ لم تنـ
ـظر بعينى مَشُورةٍ عَوراء

٨١ لمْ تبعْ طِيبَ عَيْشةٍ بفضُولٍ
دُونَها خبثُ عيشةٍ كدْراء

٨٢ تعبُ النَّفس والمهانة والـذلْـ
ـلَةُ والخوفُ واطِّراحُ الحياء

٨٣ بل أَطعتَ النُّهى فَفُزت بحظٍ
قَصُرتْ عنه فِطنةُ الأَغنياء

٨٤ راحةُ النفس والصِّيانة والعفْـ
ـفَةُ والأمنُ فى حيـاء رَواء

٨٥ عالمـاً بالذى أخـذتَ وأعطيـ
ـتَ حكيماً فى الأخـذ والإعْطاء

٨٦ جِهبِذُ العَقْـلِ لا يفوتُك شىءُ
مِثْـلُهُ فاتَ أعين البُصراء

٨٧ غيرُ مُستنزلٍ عن الوضَح الأطْـ
ـلس بالزائف الصبيح الرُّوَاء

٨٨ قائلاً للمشيرِ بالكدح : مهلاً
ما اجتهادُ اللَّبيب بعد اكتفاء ؟

٨٩ قرب الحِـرْص مركبـا لشقىٍّ
إنما الحرصُ مركبُ الأشقياء

٩٠ مَرحباً بالكفافِ يأتى هنيئـاً
وعلى المُتعبـات ذيلُ العفـاء

٩١ ضـلةً لا مرىءٍ يُشمِّر فى الجمـ
ـع لِعيشٍ مُشَمِّـر للفنـاء

٩٢ دائبـا يكنِزُ القناطيرَ للـوا
رِث ، والعُمرَ دائبـاً فى انقضاء

(٨٦) الجهبذ : الناقد الخبير .

٩٣ حبّذا كثرةُ القناطير لو كا
نت لربِّ الكنوزِ كنزَ بقاء

٩٤ يغتدى يرحم الأسيرُ أسيرا
جاهلاً أنّهُ من الأسراء

٩٥ لا إلى الله يذهب الحائرُ البا
ئرُ جهلًا ولا إلى السّراء

٩٦ يحسبُ الحظَّ كُلَّه فى يديه
وهو منه على مَدى الجَوْزاء

٩٧ ليس فى آجلِ النّعيم له حظْ
ظٌ ، وما ذاقَ عاجلَ النّعماء

٩٨ ذلكَ الخائبُ الشّقىُّ وإن كا
ن يُرَى أنه من السّعداء

٩٩ حَسْبُ ذى إرْبةٍ ورأىٍ جَلىٍّ
نَظَرتْ عينه بلا غُلَواء

١٠٠ صحةُ الدينِ والجوارحِ والعرْ
ضِ ، وإحرازُ مُسكةِ الحوْباء

(٩٩) وذو إربة : ذو عقل .

(١٠٠) الحوباء : النفس ، والمسكة ما يتمسك به من النفس والروح ، وما يمسك الأبدان من الغذاء والشراب ، أو ما يتبلغ به .

١٠١ تلك خيرٌ لعارفِ الخير ممـا
يجمعُ النّاسُ من فضولِ الثراء

١٠٢ ولهـا من ذَوى الأَصـالة عُشّا
قٌ وليسوا بتابعِى الأهـواء

١٠٣ ليس للمكْثِرِ المُنَغَّص عيشٌ
إنمـا عيشُ عائشٍ بالهَنَاء

١٠٤ يا أبا القاسم الذى ليس يخفَى
عنـه مكنُونُ خُطة عَوْصاء

١٠٥ أتَرَى كل ما ذكرتُ جـليًّا
وسـواهُ من غامض الأنحاء ؟

١٠٦ ثم يَخْفَى عليك أنى صـديقٌ
رُبَّمـا عَزَّ مِثْـلَهُ بالغَـلاء

١٠٧ لا لَعَمَر الإلـه لـكن تعاشيْـ
ـتَ بصـيرًا فى ليـلةٍ قَمـراء

١٠٨ بل تَعامَيْتَ غير أعمى عن الحقْـ
ـق نهـارًا فى ضَحـوةٍ غرّاء

١٠٩ طـالِمَا لى مع الزمانِ الذى ابتَزْ
زَ حقـوقَ الكرام للُّـؤماء

١١٠ ثَقُلتْ حاجتى عليـك فأضحتْ
وهى عبءٌ من فادح الأعبـاء

١١١ ولهـا مَحمِـلٌ خفيفٌ ولـكن
كان حظِّى لديك دونَ اللَّفَّـاءِ

١١٢ كان مقدارُ حُرمتى بك فى نفـ
ـسك شيئاً من تافِه الأَشياءِ

١١٣ فتَوانَيْت ، والتَّوانى وَطِىءُ الظّـ
ـَهرِ لـكنَّـه ذَمـيمُ الوَطاءِ

١١٤ كنتَ ممن يرى التَّشيُّعُ لـكنْ
مِلتَ فى حاجتى إلى الإرْجـاءِ

١١٥ ولعَمْرِى ، لقد سعيتَ ولكنْـــ
ـنَك عـذَّرت بعد طول التِواءِ

١١٦ فتَنَزَّهْ عن الرياء ، فتعــذيـ
ـرُك فى السعى شُعْبـةٌ من رِياءِ

١١٧ ليس يُجدى عليك فى طلب الحا
جاتِ إلا ذو نيةٍ ومَضــــــاءِ

---

(١١٣) الوطاء : ما يطأ عليه الإنسان أى يمشى عليه بقدميه .

(١١٤) التشيع : المذهب الذى يرى أن النبى صلى الله عليه وسلم نص على إمامة على بن أبى طالب وأن الخلافة حق أبنائه . والإرجاء : مذهب الذين يرجئون الحكم على العصاة إلى يوم القيامة . وأراد ابن الرومى هذا التشيع إلى الأصدقاء وإرجاء قضاء الحاجات .

(١١٦) التعذير : عدم ثبات عذر المعتذر عن ارتكاب ذنب أو اقتراف إثم .

١١٨ ظلمت حاجتى فلاذتْ بحقْوَيْـ
ـك فأسلمتهـا بكف القضاء

١١٩ وقضاءُ الإلٰـه أحْـوط للنـا
س من الإمهـات والآبـاء

١٢٠ غير أن اليقين أضحى مريضاً
مرضـا باطِنـاً شـديدَ الخفـاء

١٢١ ما وجدتُ امرأ يرى أنَّهُ يـو
قِن إلا وفيـه شَـوْبُ امتِراء

١٢٢ لو يصح اليقين ما رَغِب الـرا
غبُ إلا إلى مَليكِ السماء

١٢٣ وعَسيرٌ بلوغُ هاتيـكَ جـدا
تـلك عُليـا مَراتبِ الأنبيـاء

١٢٤ كنتُ مستوحشاً فأظهرتَ بَخْسا
زادنى وحشـةً من الخلطـاء

١٢٥ وعزيزٌ على عَضِّيكَ باللـو
م ولكنْ أصبتَ صدرى بداء

١٢٦ أنت أذْويتَ صدر خِلِّك فاعذر
ه علـى النَّفْثِ إنَّـهُ كالدواء

---

(١١٨) الحقو : الجنب أو معقد الازراء ، والمقصود أن تلوذ بجانبك أو فى حماك
(١٢١) امتراء : امتراه حقه أى جحده ، وامتراء جحود وإنكار .

١٢٧ لاتلومنَّ لائمــا وضــع اللّـو
ماء فى كُنْهِ موضــع اللّوماء

١٢٨ إنْ تكن نفحةٌ أصابتْكَ من عَذْ
لى فعن ما قدحتَ فى الأحشاء

١٢٩ يا أبا بكر المَشَارَ إليــه
بانقطــاع القَـرين فى الأُدباء

١٣٠ قد جعلناك حا كماً فاقضِ بالحقْـ
ـقِ وما زلتَ حاكمِ الظــرفاء

١٣١ تأْخذ الحق للمُحـق ، وتنهى
عن ركوب العَداء أهلَ العـداء

١٣٢ ليس يوتى الخَصمانِ من جنَفٍ فيـ
ـك ولا من جَهـالة وغبـاء

١٣٣ هـل ترى ما أتى أخوكَ أبو القا
سم فى حاجتى بعينِ [ا]رتضاء ؟

١٣٤ لى حقوقٌ عليـه أصبح يلْويـ
ـها فَطالِبْـهُ لى بوشك الأداء

١٣٥ لست أعتــدُّ لى عليه يداً بيـ
ـضـاء غيرَ المـودة البيضــاء

١٣٦ تلك أو أننى أخٌ[لـ]ـو دعـاه
لمُهم أجاب أولى الدعـــاء

١٣٧ يتقاضى صديقَهُ مثـل ما يبـ
ذ لُ من ذاتَ نفسـه بالسواء

١٣٨ وأُناديك عائذا : يا أبا القـا
سم ، أفديك ، ياعزيزَ الفداء

١٣٩ قد قضينا لُبانـةً من عتـاب
وجميـلٌ تَعـاتُبُ الأكفـاء

١٤٠ ومعَ العَتْب والعتابِ فـإنى
حاضرُ الصفح ، واسعُ الإعفاء

١٤١ ولك الوُدُّ كالذى كان من خلْـ
ـلك ، والصدرُ غيرُ ذى الشَّحناء

١٤٢ ولك العـذر مثـل قافيتى فيـ
ـك اتساعاً فإنهـا كالفضـاء

١٤٣ وتأمـلْ فإنهـا أَلِف المـد
دِ لهـا مَدةٌ بغيـر انتهـاء

١٤٤ والذى أطلق اللسان فعاتَبْـ
ـتُكَ عَـدَّيْتَ أولَ الفُهَمـاء

١٤٥ لم أخف منك غلظةً حين عاتب
ـتُكَ تدعو العتابَ باسم الهجاء

١٤٦ وأنا المرءُ لا أَسومُ عتـابى
صاحباً غير صَفوةِ الأصفياء

١٤٧ ذا الحِجا منهُمُ ، وذا الحلم والعلـ
م ، وجهلٌ ملامةُ الجهـــلاءِ

١٤٨ إن من لام جاهــلا لَطبيبٌ
يتعاطى عـــلاج داءٍ عيـاءِ

١٤٩ لست ممن يظلُّ يربع باللّــوْ
مِ على منزلٍ خَـــلاءٍ قَـواءِ

* * *

وقال يمدح أحمد بن ثوابة :

١ دعِ اللوم ، إن اللوم عونُ النوائبِ
ولا تتجـاوز فيــه حـد المُعَاتِبِ

٢ فمـا كل من حطَّ الرحـال بمخفقٍ
ولا كلُّ من شدَّ الرحال بكاسب

٣ وفى السعى كَيْسٌ والنفوسُ نفائس
وليس بكَيْسٍ بيعُهـــا بالرغائب

٤ ومازال مأمولُ البقاءِ مُفضـــلا
على الملك والأرباحِ دون الحرائب

(٤) الحرائب : جمع حريبة ، وهى ما سلب من المال ، أى ما يتعيش به الإنسان من مال .

٥ حضضتَ على حطبي لناري فلا تدع
لك الخيرُ تحذيري شرورَ المَحَاطب

٦ وأنكرت إشفاقي، وليس بمانعي
طلابي أن أبغي طلابَ المكاسب

٧ ومن يلق مالا قيتُ في كل مجتنًى
من الشوك يزهدْ في الثمار الأطايب

٨ أذاقتنيَ الأسفارُ ما كَرَّه الغنى
إليَّ وأغراني برفض المطالب

٩ فأصبحت في الإثراء أزهد زاهد
وإن كنت في الإثراء أرغب راغب

١٠ حريصاً، جباناً، أشتهي ثم أنتهي
بلَحْظي جناب الرزق لحظَ المراقبِ

١١ ومن راح ذا حرص وجبن فإنه
فقير أتاه الفقر من كل جانبِ

١٢ ولما دعاني للمثوبة سيد
يرى المدح عارًا قبل بَذْل المثاوب

١٣ تنازعني رَغْبٌ ورهب كلاهما
قوى، وأعياني اطلاعُ المغايب

١٤ تقدمتُ رجلا رغبةً في رغيبة
وأخرت رجلا رهبة للمعاطب

١٥ أخاف على نفسى وأرجو مَفازهـا
وأستار غيب الله دون العواقب

١٦ ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ؟
ومن أين والغاياتُ بعد المذاهب ؟

١٧ ومن نكبةٍ لاقيتها بعـد نكبـة
رهبت اعتساف الأرض ذات المناكب

١٨ وصبرى على الإقتار أيسرُ مَحْمَـلا
عَـليَّ من التغرير بعـد التجارب

١٩ لقيت من البر التباريح بعـــدما
لقيت من البحر ابيضاض الذوائب

٢٠ سُقيت على ريٍّ به ألفَ مَطْرة
شُغفت لبغضِيهـــا بحب المجَادب

٢١ ولم أسْقَها بل ساقها لـمكيدتى
تَحامقُ دهرٍ جَدَّ بى كالمُلاعب

٢٢ إلى الله أشكو سخفَ دهرى فإنه
يُعابِثنى مذكنت غيرَ مُطَائب

٢٣ أبَى أن يُغيثُ الأرضَ حتى إذا ارتمت
برحلى أتاها بالغُيوث السواكب

(١٧) اعتسف الأمر أخذه بشدة ، واعتسف الأرض خاض مصاعبها ، وقطع أنحاءها
(١٩) التباريح : المشاق ، وشدة العيش .

٢٤ سقى الأَرض من أجلى فأضحت مَزِلَّةً
تَمَايَلُ صاحيهـا تمايُلَ شارب

٢٥ لتعويق سيرى أود حوض مَطِيَّتِى
وإخصاب مُزْوَرٍّ عن المجد ناكب

٢٦ فملت إلى خانٍ مُرِثٍّ بنــاؤه
مَمِيلَ غريقِ الثواب لهفـانَ لاغبِ

٢٧ فلم ألقَ فيـه مُستراحاً لمُتعب
ولا نُزُلًا ، أيانَ ذاك لساغبِ ؟

٢٨ فمازلت فى خوفٍ وجوعٍ ووحشة
وفى سهر يستغرق الليل واصب

٢٩ يؤرِّقنى سَقْفٌ كأنِّى تحتـه
من الوكف تحت المدجنات الهواضب

---

(٢٥) دحض أوقعها ، ودحض المطية انزلاقها ووقوعها ، وازور عن الشيء حاد عنه وابتعد ، ومزور مبتعد.

(٢٦) المرث : من رث الشيء أى بلى ، فالمرث الذى بلى وتهالك . ولا غب ، متعب مجهد من طول السير والسفر .

(٢٧) ساغب : جائع من السغب : الجوع .

(٢٨) واصب : متعب ، منهك عليل ، ووصف السهر بأنه تعب منهك ، ويقصد من يسهره يكون كذلك .

(٢٩) الوكف : انسكاب المطر أو القطر ، والمدجنات السحب السوداء المحملة بالماء الهواضب صفة لتلك السحب ، وهى الممطرة .

٣٠ تراه إذا ما الطينُ أثقــلَ متنــه
تَصِرُّ نواحيــه صريرَ الجنادب

٣١ وكم خَانِ سَفْرٍ خَانَ فانقضَ فوقهم
كما انقض صقرُ الدجن فوق الأرانب

٣٢ ولم أنس ما لاقيت أيام صحوه
من الصَّرفيه ، والشاوج الأشاهب

٣٣ ومازال ضاحِى البر يضرب أهله
بسوطىْ عذاب جامدٍ بعد ذائب

٣٤ فإن فاته قَطْــرٌ وثلــج فـإنه
رَهين بسافٍ تارة أو بحاصب

٣٥ فذاك بلاء البر عندىَ شاتيا
وكم لى من صيفٍ به ذى مثالب

٣٦ ألا رُبَّ نارٍ بالفضاء اصطليتها
من الضِّح يودى لفَحْهُا بالحواجب

٣٧ إذا ظلت البيداء تطفو إكامهـــا
وترسب فى غَمْرٍ من الآلِ ناضب

٣٨ فدع عنك ذكر البر إنى رأيتــه
لمن خاف هول البحر شَرَّ المَهاوب

(٣٧) الآل : السراب ، ناضب لا ماء فيه .

٣٩ كلا نُزُلَيه صيفُه وشتاؤه
خلافٌ لما أهواه غيرُ مُصاقب

٤٠ لُهاث مُميتٌ تحت بيضاءَ سُخْنَة
ورىٌّ مُفيت تحت أسْحَمَ صائب

٤١ يجف إذا ما أصبح الريقُ عاصبا
ويغْدق لى والريق ليس بعاصب

٤٢ ويمنع منى الماء واللُّوحُ جاهد
ويُغرقنى والرىُّ رَطْبُ المحَالبِ

٤٣ وما زالَ يَبْغينى الحتوفَ مُوارِيا
يحوم على قتلى وغير مُوارب

٤٤ فطورًا يُغادينى بلص مُصَلِّتٍ
وطورا يُمَسينى بِورْد الشوارب

٤٥ إلى أنْ وقانى الله محذور شره
بعزته ، والله أغلبُ غالب

٤٦ فأفلتُّ من ذُوْبانه وأسوده
وحُرَّابه إفلاتَ أنْوبِ تائب

(٣٩) مصاقب : معين ومساعد .
(٤٠-٤١) مفيت : مفوز ، أى هو فى شدة الحاجة إليه ، وأسحم ، أسود ، وصائب يصب الماء يقصد السحاب - وعصب الريق جف .
(٤٢) اللوح اسم من لاح وهو العطش .
(٤٦) حرابه : لصوصه .

٤٧ وأما بلاءُ البحرِ عندى فإنَّه
طوانِى على رَوْعٍ مع الروح واقبِ

٤٨ ولو ثَابَ عقلى لم أَدعْ ذكر بعضِه
ولكنه من هوله غيرُ ثائب

٤٩ ولَمْ لا ولو أُلقيتُ فيه وصخرةً
لوافيت منه القعر أول راسب

٥٠ ولم أتعلّم قطُّ من ذى سباحة
سوى الغوصِ ، والمضعوف غير مغالبِ

٥١ فأَيسرُ إشفاقى من الماء أننى
أَمرُّ به فى الكوزِ مرَّ المجانب

٥٢ وأَخشى الردَّى منه على كل شارِبٍ
فكيف بأَمنِيه على نفسِ راكبِ

٥٣ أظل إذا هزته ريح ولألأت
له الشمسُ أمواجاً طوالَ الغوارِبِ

٥٤ كأَنى أرى فيهنّ فُرسانَ بُهمــةً
يُليحُونَ نحوِى بالسُّيوفِ القَواضِبِ

---

(٤٧) واقب : كثير ومنتشر
(٤٨) ثاب : رجع إلى الحق والصواب .
(٥٣) الغوارب : الأعالى أى أعالى الموج هنا .
(٥٤) بهمة : صفة للفرسان ، ومعناها شجعان .

٥٥ فإن قُلْتَ لى : قد يُركَبُ اليمُّ طاميا
ودجلةُ عنـد اليمِ بعضُ المَذانبِ

٥٦ فلا عذرَ فيها لأمرئٍ هابَ مثلها
وفى اللُّجةِ الخضْراء عُـذرٌ لهائبِ

٥٧ فإن احتجاجى عنك ليس بنائم
وإن بيـانى ليس عنىَّ بعازبِ

٥٨ لدجلةَ خَبٌّ ليس لليمِّ ، إنهـــا
تُرائى بحِلمٍ تحته جهلُ واثبِ

٥٩ تَطامَنُ حتى تطمئنَّ قلوبنـــا
وتغضَبُ من مزحِ الرياحِ اللَّواعِبِ

٦٠ وأجرافُها رهْنٌ بكل خيـانة
وغَدْرٍ ، ففيها كُلُّ عَيْبٍ لِعائبِ

٦١ ترانا إذا هاجتْ بها الريحُ هَيْجةً
نُزلزلُ فى حَوْماتِها بالقَــوارِبِ

٦٢ نُوائِل من زلزالهـا نحو خسفها
فلا خيرَ فى أوساطِها والجَوانِبِ

(٥٥) ودجلة هنا النهر المعروف بالعراق ، واليم : البحر .
والمذانب جمع مذنب ، وهو الجدول أو مسيل الماء .
(٥٨) خب البحر هاج ، والدجلة خب أى هياج وثورة .
(٦٠) أجرافها : يعنى سيولها ، وفيضانها .
(٦٢) نوائل : نحتمى . خسفها : قاعها .

٦٣ زلازلُ موجٍ فى الأغمارِ زواخر
وهدَّاتُ خَسْفٍ فى شطوط خوارب

٦٤ وللِيم إعذار بعرْضِ مُتُونهِ
وما فيهِ من آذِيهِ المتراكِب

٦٥ ولستَ تراهُ فى الرياحِ مزلزلاً
عما فيه إلاَّ فى الشِّدادِ الغَوالبِ

٦٦ وإن خِيف موجٌ عِيذ منه بساحلٍ
خلىٍّ من الأجرافِ ذاتِ الكَباكِب

٦٧ ويلفظ ما فِيه فليس مُعاجلاً
غريقاً بغتٌ يُزْهق النفس كارب

٦٨ يعلل غرقاه إلى أن يُغيثهم
بصنعٍ لطيف منه خيرِ مصاحب

٦٩ فتُلفَى الدلافينُ الكريمُ طباعُها
هناك رِعالا عند نَكْبِ النَّواكِب

---

(٦٣) الخسف هنا تحميل الإنسان ما يكره .

(٦٤) آذى : تيار الموج أو الموج المتتابع .

(٦٦) الأجراف : جمع جرف ، وهو الشاطىء الذى أكله النهر . فأصبح هائرا لا يثبت لمن يقف عليه ؛ الكباكب : من كب سقط ، أو من كبكب تجمع ولعله يقصد ذات المزلات أى التى تهوى باللاجىء إليها المتمنع بها .

(٦٩) الدلافين : جمع دلفين ، وهو حيوان بحرى ثديى صديق للإنسان ورعالا : جموعا ، وأسرابا .

٧٠ مراكبَ للقوْمِ الَّذِين كبَا بِهِمْ
فهم وسْطه غَرْقَى وهم فى مَراكِبِ

٧١ وينقضُ ألواحَ السَّفينِ فكلُّهـا
مُنَجٌّ لدى ذَوْب من الكسْرِ ذائبِ

٧٢ وما أنا بالراضى عن البحر مركبا
ولكنَّنى عارضت شَغْب المشاغب

٧٣ صَدقْتُكَ عن نفسى وأنت مُراغِمِى
وموضعُ سرى دون أدنى الأقَارِبِ

٧٤ وجرَّبتُ ما أرى الدهر مُغْرِيا
عـلىّ بشىء لم يقعْ فى تجاربى

٧٥ أرى المرء مُذْيلَق التُّرابَ بوجههِ
إلى أنْ يُوَارَى فيه ــ رهنَ النوائب

٧٦ ولو لم يُصَب إلا بشرخِ شبـابه
لـكان قد استوفى جميع المصائب

٧٧ ومن صَدَق الأخيار داوَوا سقامه
بصحـة آراء ويُمْن نقـائب

٧٨ ومازال صدقُ المستشير معـاونا
عـلى الرأى لبٌّ المستشار المحازب

(٧٨) المحازب : المعين .

٧٩ وأبعدُ أدواءِ الرجالِ ذَوِى الضَّنا
من البُرءِ داءُ المستطِبِّ المكاذبِ

٨٠ فلا تنصبِنَّ الحربَ لى بملامتى
وأنتَ سِلاحِى فى حُروبِ النَّوائبِ

٨١ وأجدى من التعنيف حسنُ معونة :
برأىٍ ولينٍ من خطاب المخاطب

٨٢ وفى النصح خيرٌ من نصيحٍ مُوادِعٍ
ولا خير فيه من نصيح مُواثب

٨٣ ومثلى محتاجٌ إلى ذى سماحة
كريمِ السَّجايا أريحىِّ الضَّرائِبِ

٨٤ يلين على أهل التسحُّب مَسُّه
ويُفضِى لهم عند اقتراح الغرائبِ

٨٥ له نائلٌ مازالَ طالبَ طالبٍ
ومرتادَ مرتادٍ ، وخاطِبَ خَاطبِ

٨٦ ألا ماجدُ الأخلاق حسنُ فَعاله
تُبارى عطاياه عطايا السَّحائِبِ

٨٧ كمثل أبى العباس إنَّ نوالَه
نوالُ الحيا يسعى إلى كلِّ طالِبِ

٨٨ يُيسِّر نحوى عرفَه فيزورُنى
هنيئاً ولم أركبْ صِعابَ المراكِبِ

٨٩ يَسير إلى مُمتـاحه فيجـودُه
ويكفى أخا الإمحال زمٌّ الركائبِ

٩٠ ومن يلك مِثلا للحيا فى عُلُـوه
يكن مثلَه فى جودِهِ بالمواهـبِ

٩١ وإنّ نفارى منـه وهو يُريغنى
لَشيء – لرأى فيه – غيرُ مناسب

٩٢ وإن قعودى عنه خيفةَ نكبـة
للَـوْمُ مَهَزٌ وانثناء مَضَـارب

٩٣ أُقـرُّ عـلى بفْسِى يعيبى لأنَّنِى
أَرَى الصِّـدقَ يمحو بَيِّنات المَعَايِبِ

٩٤ لؤمتُ – لَعمرُ اللهِ – فيا أتيتـه
وإن كنتُ من قوم كرام المناصبِ

٩٥ لهم حلمُ إنس فى عَرامـه جِنَّـة
وبأس أُسُـودٍ فى دَهـاء ثَعَالبِ

٩٦ يصُولون بالأيدى إذا الحربُ أعملت
سيوفَ سُريجٍ بعد أرْماحِ زَاعبِ

٩٧ ولا بدَّ من أن يَلوُم المـرءُ نازعاً
إلى الحمأ المسنون ضربةَ لازب

---

(٩٧) الحمأ : الطين الأسود ، والمسنون الناعم الزج المتن الكريه الرائحة ويريد بضربه لازب ، أمراً لازما وحتميا .

٩٨ فقل لأبى العباس ، لُقِّيت وجهُه
وحَسْبُك منى تلك دعوةَ صاحبِ :

٩٩ أمَا حقُّ حامى عرضِ مثلكِ أن يُرى
له الرفد والترفيه أوْجَبَ واجبِ؟

١٠٠ أمن بعدِ مالم تَرْعَ للمالِ حُرمــةً
وأسـلمتَه للجــودِ غيرَ مُجاذِبِ

١٠١ فأعطيتَ ذا سلمٍ وحربٍ ووُصلة
وذنب عطايا أدركتْ كلَّ هاربِ

١٠٢ ولم تُشَخِصْ العافين لكنْ أتتهمُ
لُهاك جَلَيبــاتٍ لأكرمِ جالبِ

١٠٣ علماً بأن الظَّعنَ فيــه مشقةٌ
وأن أمرَّ الربح ربحُ الجلائبِ

١٠٤ تكلفنى هــولَ السفار وغـولَه
رفيــقَ شتاءٍ مُقْفعِــلَّ الرواجِبِ

١٠٥ ولا سيما حين ارتدى الماءُ كِبْره
وشاغَب أنفاسَ الصَّبا والجنائب

---

(١٠٤) مقفعل – اقفعلت يده اقفعلالاً ، تشنجت وتقبضت الرواجب جمعُ راجبة، وهى مفصل الإصبع والسلامية . ويعنى مقفعل الرواجب ، متقلص الأصابع من شدة البرد

(١٠٥) الجنائب : الرياح الجنوبية ، وهى رياح نكباء شديدة عقيم .

١٠٦ وهرَّتْ على مُستطرِفى البرِّ قَرَّةٌ
يُمسُّ أذاها دونَ لوثِ العَصائبِ

١٠٧ كأنَّ تمام الودِّ والمدح كله
هوى الفتى فى البحر أو فى السَّباسِبِ

١٠٨ لعمرى لئن حاسَبْتَنى فى مثوبتى
بخفضى لقد أجريتَ عادةَ حاسبِ

١٠٩ حَنانَيْك ، قد أيقنتُ أنك كاتب
له رتبـــةٌ تعــلُو به كلَّ كاتبِ

١١٠ فدعنِىَ من حُكم الكتابةِ إنَّه
عدوٌّ لحكمِ الشّعرِ غيرُ مقاربِ

١١١ وإلا فلم يستعمل العدلَ جاعلٌ
أجِـدٌّ مُجدٌّ قِـرْنَ ألعـبِ لاعـب

١١٢ أيعزُب عنك الرأىُ فى أن تُثيبنى
مقيما مصونا عن عناءِ المطالبِ ؟

١١٣ فتُلفَى وأُلفَى بين صَافِى صنيعةٍ
وصافِى ثَناءٍ لم يُشَبْ بالمعاتبِ

(١٠٦) هرت : أصدرت صوتا كصوت الكلب يبغى الشر ، قرة : شديدة البرودة . لوث العصائب لفها حول الرأس حماية من البرد .

(١٠٧) السباسب — جمع سبسب وهى المفازة ، أو الأرض الواسعة المترامية المنبسطة .

١١٤ وتخرج من أحكامِ قومٍ تشددوا
فقد جعلوا آلاءهم كالمصائب

١١٥ أيذهبُ هذا عنكَ يا ابنَ محمد
وأنتَ مَعاذٌ فى الأمورِ الحوَازب ؟

١١٦ لك الرأىُ والجودُ اللّذانِ كلاهُما
زعيمٌ بكشفِ المطبِقاتِ الكوارِبِ

١١٧ وما زلتَ ذا ضوءٍ ونوءٍ لمُجدب
وحيرانَ حتّى قيلَ : بعضُ الكواكِبِ

١١٨ تُغيثُ وتُهدِى عند جدْبٍ وحيرَةٍ
بمحتفلٍ ثَرٍّ وأزهَرَ ثاقبِ

١١٩ وأحسنُ عرفٍ موقعاً ما تنالهُ
يدى وغُرابِى بالنّوى غيرُ ناعبِ

١٢٠ أراكَ متى ثَوَّبتنى فى رفاهة
زففتَ إلىَّ الملْكَ بين الكتَائبِ

١٢١ وأنت متى ثَوَّبتنِى فى مشقّة
رأيتُكَ فى شخصِ المُثيبِ المعَاقِبِ

---

(١١٤) آلاءهم : الآلاء النعم .
(١١٥) الأمور الحوازب الخطيرة الضائقة
(١١٦) الكوارب جمع كاربة التى تكرب وتصيب ، وهى المحن والمصائب

١٢٢ ولو لم يكن فى العرف صافٍ مهنأٌ
وذو كدرٍ ، والعرفُ شتّى المَشارِبِ

١٢٣ إذًا لم يُقل أعلى النوابغُ رتبــة
لِقَوْلِ غَسّانِ الملوكِ الأشـايب :

١٢٤ (علىَّ لعمرو نعمةٌ بعدَ نعمــةٍ
لوالدِه ليستْ بذات عقاربِ)

١٢٥ وما عقربٌ أدهَى من البين إنه
لـه لَسْعة بين الحشا والترائب

١٢٦ ومن أجل ما راعى من البين قولـه :
(كلينى لهمٌّ يا أميمةَ ناصِبِ)

١٢٧ـ أبيتُ سوى تكليفك العرفَ مُعْفيا
به صافيــا من مُؤذيات الشّوائب

١٢٨ بل المجدُ يأبى غير سَوْمِك نفسَه
ورفعِك عن طود المُنيل المحاسب

١٢٩ فصبرًا على تحميلك الثّقــلَ كلَّه
وإن عزَّ تحميلُ القُروم ِالمَصاعب

(١٢٣) يقصد النابغة الذبيانى
(١٢٤) البيت للنابغة من قصيدته البائية :
كلينى لهم يا أميمة ناصب
وضمّن ابن الرومى هذا المطلع فى البيت التالى رقم ١٢٦
(١٢٩) القروم جمع قرم ، وهو الفحل ، ويطلق على السيد العظيم .
والمصاعب : جمع مصعب ، والمصعب كالقرم ، الفحل والسيد العظيم .

١٣٠ ولا يعجبنَّ النَّاسَ من سعْي متعبٍ
مُشيحٍ لجدْوَى مُستريحٍ مُداعِبِ

١٣١ فمن ساد قوما أوجب الطول أن يرى
مجدًا لأدناهم وهم فى الملاعب

١٣٢ ومن لم يزل فى مَصْعد المجد راقيا
صعابَ المَراقى نال عُليا المراتب

١٣٣ ألم ترنى أتعبتُ فكرى مُحكَّكا
لك الشعرَ كى لا أبتَلى بالمتاعب

١٣٤ نَحلتُك حَلْيـــا من مديحٍ كأنّه
هَوى كلِّ صبٍّ من عِناق الحبائبِ

١٣٥ أنيقاً حقيقاً أن تكون حِقاقُـه
من الدُّر لا بل من ثُدِىِ الكَواعِبِ

١٣٦ وأنت له أهلٌ فإن تُجْزِنى به
أزِدْكَ ، وإن تُمْسِكَ أقفْ غير عاتب

١٣٧ فإن ساألتنىَ عنك يوماً عصابةٌ
شهدتُ على نفسى بسُوءِ المَناقِبِ

١٣٨ وقلتُ : دعَـانِى للنَّدى فأتيتُـه
فأمسـكه بَلْ بثَّـه فى المَنَـاهِبِ

١٣٩ وما احتُجزتْ مِنى لُهـاهُ بحَـاجزٍ
ولا احتجبتْ عنى هُنَـاك بحَاجِبِ

١٤٠ ولكِن تَصدَّت وانحرفتُ لحرفتى
ففاءت – ولم تظلم – إلى خير واهب

١٤١ وما قلت إلَّا الحقَّ فيك ولم تزلْ
عَلى منهج من سُنَّة المجد لاحب

١٤٢ وإنّى لأشقَى الناسِ إن زُرَّ ملبَسِى
على إثمِ أفَّاكٍ وحسْرَةِ خائِب

١٤٣ وكنتُ الفتَى الحرَّ الذى فيه شيمةٌ
تَشيم عن الأحرارِ حدَّ المَخَالبِ

١٤٤ ولَسْتُ كمن يَعْدُو وفى كلماته
تظلُّم مغصُوبٍ وعدوانُ غَاصِبِ

١٤٥ يحاولُ معرُوف الرجالِ وإن أبوا
تعدَّى على أعْراضهم كالمُكَالِب

١٤٦ وأصبح يشكو النَّاسَ فى الشّعرجَامِعًا
شكايةَ مَسْلُوبٍ وتَسْلِيطَ سَالِبِ

١٤٧ فَلا تَحرِمَنِّى كى تُجِدَّ عجيبةً
لقومٍ فحسبُ النَّاسِ ماضى العَجَائبِ

١٤٨ وَلا تَنْتَقِص من أقْدْر حظّى إقَامَتى
سأَلْتك بالدَّاعِين بين الأخَاشب

(١٤٨) أراد بالأخاشب أخشبي مكة فجمعها . والأخشبان : جبلان بمكة ، أحدهما أبو قبيس وهو الجبل المشرف على الصفا ، والآخر قعيقعان .

١٤٩ وما اعتقلتنى رغبةٌ عنك يَمَّمت
سواك ولكن أىُّ رهبة راهب

١٥٠ كأنّى أرى بالظعن طعنَ مُطاعِنٍ
وبالضَّرْب فى الأقْطَار ضرب مضارب

١٥١ ولَيْسَ جزائى أن أخيب لأنَّنى
جبنت ،ولَمْ أُخْلَق عَتاد مُحَارِب

١٥٢ يُطَالَب بالإقدام من عُدَّ مُحْرَبًا
ومُمَّى مُسَدٌّ ناغَى بقودِ المَقَانِب

١٥٣ ولَمْ يمش قِيدَ الشبر إلَّا وفَوْقه
عصائبُ طير تهتدى بعصائب

١٥٤ فَأَمَّا فَتى ذُو حِكْمَة وبلاغَة
فطالبُه بالتسديد وسط المخَاطب

١٥٥ أثبنى ورَفّهنى وأجزل مثُوبتى
وثابر عَلى إدرار بِرّى وواظب

١٥٦ لتأتينى جدْوَاكَ وهِىَ سَليمَة
مِن العَيْب ما فِيهَا اعتلالٌ لعَائب

١٥٧ أُثقِّل إذلالى لتحمل ثِقْلَه
بطوع المُرَاضى لا يكره المغَاضب

---

(١٥٢) المحرب الشجاع ، وقود المقانب : أى قائد الخيل إلى الحرب ، فالمقانب جماعة الخيل المعدة للغارة .

١٥٨ وما طلبُ الرِّفْدَ الهَنِيء ببدعةٍ
وَلا عجبُ المُسْترفديهِ بعَاجِبِ

١٥٩ وذَاكَ مَزيدٌ في مَعَاليك كله
وفى صدق هاتيك القَوَافى السَّوارِبِ

١٦٠ وما حقٌّ باغيك المزيد انتقاصُه
وَلا سيَّمَا والمَالُ جَمٌّ الحَلائِبِ

١٦١ وأنْتَ الَّذِى يضحى وأدنى عطَائه
بلُوغُ الأَمَانِى بَل قضاءُ المَآرب

١٦٢ وتوزَن بالأَمْوَال آمَالُ وفده
وإرفادُ قَوْمٍ بالظُّنُونِ الكَوَاذِبِ

١٦٣ أَقَمْتُ لِكَى تَزْدَاد نِعْمَاكَ نِعْمَةً
وتَغْنَى بوجهٍ ناضر غيرِ شَاحبِ

١٦٤ وكيلَا يَقُول القَائلون : أَثَابه
وعاقَبه ، والقَوْلُ جم المشَاعبِ

١٦٥ وصَوْنى عن التَّهْجِين عُرفُكَ موجِبٌ
مَزِيدَك لى فى الرفد يا ابن المَرَازِبِ

١٦٦ بوَجْهِكَ أُضحى كلُّ شيء منورا
وأُبرزَ وجهًا ضَاحكًا غيرَ قَاطِبِ

---

(١٦٤) المشاعب : الاتجاهات أو الطرق .
(١٦٥) المرازب : الرؤساء .

١٦٧ فَلا تبتذِلْهُ فى المَغَاضِب ظَالِمًا
فلم تَروِّ وجهًا مِثْلُه للمغَاضب

١٦٨ نشرتَ عَلى الدُّنْيَا شُعَاعًا أَضَاءَهَا
وكَانَتْ ظَلامًا مُدلهِمٌّ الغَيَاهِب

١٦٩ كَأَنَّكَ دانَاءُ الخَلِيقَةِ كلهَا
مَشَارِقُ شمسٍ أَشْرَقَتْ لمِغَارِبِ

١٧٠ لِيهنِ فتًى أطراكَ أَنْ نَالَ سُؤْلَهُ
لديكَ وأَنْ لَمْ يحتقِب وِزْرَ كَاذب

١٧١ رِضَا اللهِ فى تلكَ الحَقَائِب والغنى
جميعًا ، أَلا فوزًا لتلكَ الحَقَائِبِ

١٧٢ كأَنى أَرانى قَائِلًا إِنْ أعانَنى
نَدَاكَ عَلى ريب الخُطُوب الروائبِ

١٧٣ جُزِيتَ العُلا من مستغاثٍ أَجابَنى
جوابَ ضَحوك البرقِ دانِى الهَيَادِبِ

١٧٤ وفى مُسَاجِى العرفِ بارقٌ خُلَّب
ولامعُ رقراقٍ ونارُ حُبَاحِب

---

(١٧٣) الهيادب : جمع هيدب ، وهى تغنى السحب الممتلئة بالماء ، والمنخفضة القريبة من الأرض

(١٧٤) الحباحب : الفراش المضئ بالليل .

١٧٥ تسحبتُ فى شِعْرِى ولان لجلدتى
ثراه فَمَا استخشنتُ مسَّ المَساحبِ

١٧٦ ولَيْسَ عجيبًا أن يَنُوب تكرمٌ
غـذيتُ به عن آمِلٍ لك غـائبِ

١٧٧ ـ أقمْـه مُقَـامى ناطقًا بمدائحى
لديكَ وقملة صسدرتُهَا بالمَناسبِ

١٧٨ ذمـامىَ تَـرْعَى لا ذمَـامَ سقينـة
وحَقِّىَ لا حقُّ القِـلاصِ الدَّعَالِبِ

١٩٧ وفى النَّـاس أيقـاظٌ لكل كريمـة
كأنَّهُمُ العِقْبَـانُ فَـوقَ المـرَاقبِ

* * *

(١٧٥) تسحب فى شعره : تدلل ، والمساحب : ما يسحب من الثياب .

(١٧٨) القلاص : جمع قلوص . وهى الناقة الشابة القدية والذعالب : جمع ذعلبة، وهى الناقة السريعة .

(١٩٧) المراقب : جمع مرقب ، وهو المكان المرتفع الذى يراقب منه العلو .

وكتب إلى القاسم بن عبيد الله وقد كان عزم على الشخوص إلى ناحية آمد مع المعتضد لقتال ابن عيسى بن شيخ :

١ سيدى :أنت شاخِصٌ مصحوب ... وضَيَاعى إلَيْكُمْ مَنْسُوبُ

٢ فأَقِمْ لِى بما رَزَقْتَ ضَمِينًا ... فَجَمِيلٌ أَنْ يُضْمَنَ الموهُوبُ

٣ إنَّ فوق الإفضال أن تجعل الإفـ ... ـضالَ حقًّا له عليك وُجُوبُ

٤ أوَ لَيْسَ الإفضال إرضاءَكَ ا ... لله بفضل يحيا به منكوب؟

٥ ومن الوَاجِب المؤكَّد حَقٌّ ... يشرَعُ الربُّ فيه والمربوبُ

٦ ذَاكَ حق من الحقوق مُبِينٌ ... مثلُهُ عِنْدَ مثلكم مطلُوبُ

٧ بل لك الحقُّ ليس لى غيرَ أن الـ ... ـحُرَّ سمحٌ مُخَادَعٌ مكذُوبُ

٨ إنْ يغب وجهُك المبارك عَنَّا ... أَوْ يَعُقْ عنه حِجْنَةٌ أو ركوب

٩ فَلَقَدْ يأذن الكريمُ على جدْ ... وَى يديه ، ووجههُ مَحْجُوبُ

١٠ وينُوب السَّماحُ عنه إذَا غَا ... بَ فَيُغْنى نائبات تنوبُ

١١ لا تُطِلْ رهبتى بإرجاء أمرى ... فَكَفَانى فراقُك المرهُوبُ

١٢ حَسْبُ نَفْسِى بما جَنَتْه عليها ... فُرْقة للشَّجَاةِ فِيهَا نُشُوبُ

١٣ هِىَ فَقْد النَّسيم فى البُكَرِ الطلْـ ... ـلة ، والروضُ مُزْهِرٌ مَهْضُوبُ

١٤ هِىَ فَقْدُ السَّحاب خَيَّل ثم انـ ... ـجاب عن معشرٍ عَراهم جُدُوب

(٧) حجنة : سفر أو غربة وابتعاد

(١٢) الشجاة : الحزن والهم

(١٣) مهضوب : ممطر ، أى سقاه المطر

١٥ هيَ فَقْدُ الضياء في عين سارٍ | حيثُ لا مَعْلَمٌ لَهُ منصُوبُ
١٦ عنديَ الحَزْنةُ الشَّجيَّةُ والأَفْـ | ـنَةُ مِمَّا يَجِنُّهَا المكرُوبُ
١٧ واللَّذاذَاتُ فهْيَ محتسَبَاتٌ | أوْ نراكُم وشهرُنا محسوب
١٨ وَشَمَالُ الرِّيَاح مَحْبُوبةٌ فيـ | ـكَ ومحسودةٌ عليكَ الجَنُوب
١٩ فَلِقَلْبي تحرُّكٌ وسُكُونٌ | كلَّمَا هَاجَ من رياح هُبُوبُ
٢٠ ومآبُ الهُمُومِ باللَّيل صدري | بل فؤادي بل مهجتي ،أوْ تؤُوب
٢١ وحشةَ النضوِ للنَّسيمِ إذا أعْـ | ـوز وهْو المأْكولُ والمشروب
٢٢ وحشةَ المجدِبِ المُقل دَهَتْهُ | نُقْلَةُ الغيثِ حين كاد يَصُوب
٢٣ وحشةُ الفردِ غُيبَ النُّورُ عنه | في سُهوب أمامهن سُهُوبُ
٢٤ وحشة العَبْد للمليك وليست | وحشةَ الكُفءِ والمَعَاني ضُروبُ
٢٥ غيرَ أَنِّي أرجُو الإلهَ وإن كا | نت بقلْبي مِن أن تغيب نُدُوب
٢٦ وغدًا يُعْقِبُ الغُرُوبَ شُروقٌ | مثل ما أعقبَ الشُّروقَ غُرُوبُ
٢٧ ومن العدلِ أَنْ نُخَفِّفَ عَنِّيَ | بعضَ ما وكَّلَتْ عَلَيَّ الخُطُوبُ
٢٨ قُلْ لِهَارُون قولَةً تَهَبُ الأَمْـ | ـنَ لِقَلْبِي فَإِنَّهُ مَرْغُوبُ
٢٩ ولأَنْتَ الَّذِي يَعُدُّ تَمَامًا | لِلأَيَادي أَنْ تطمئنَّ القُلُوب
٣٠ لا أُداجيك ، أَيُّهَا السَّيدُ البَا | سِط نُعْمَاهُ ، والمُدَاجِي كَذُوب

---

(٢١) النضو : المتعب والمجهد المرهق

(٢٣) سهوب : جمع سهب ، وهي الأرض المنبسطة المترامية الأطراف ، الواسعة .

٣١ كنتُ قبلَ الذى منعتَ فقيرًا ... وأنا الآنَ بعده مسلوبُ

٣٢ ورأيتُ الفقيرَ أيسرَ خطبًا ... من غنيٍّ له الغداةَ محروبُ

٣٣ والذى لم تكنْ فليس عندوب ... وما كانَ وانقضَى مندوبُ

٣٤ فاتّقِ اللهَ أنْ تُلِزَّا بِفقرى ... حسرةً فى الحشَا لها ألهوبُ

٣٥ حاطَك اللهُ فى المغيبِ وأدّا ... كَ ، وأدنى أحوالكَ المحبوبُ

٣٦ وفَداكَ الذى يرى الطَّولَ ذنبًا ... كانَ منهُ عن هفوةٍ فيتوبُ

٣٧ والذى منُّهُ مشوبٌ بمنٍّ ... إنْ رنقَا منٌّ بمنٍّ مشوبُ

٣٨ يا منَ الدهرُ مذنبٌ فإذا كا ... ن بخير فما لدهرٍ ذنوبُ

٣٩ ومن العيشِ ذو عيوبٍ فإنْ شيـ ... ـبَ بنُعماهُ زايلتهُ العيوبُ

٤٠ ومن الرأىِ ذو غيوبٍ ، فإنْ أوْ ... قدَ نيرانَه فليستْ غيوبُ

٤١ أنتَ نجمُ النجومِ ، والدهرُ ليلٌ ... ما لِنجمٍ سواكَ فيه ثقوبُ

٤٢ حمِدَ النجمُ أنَّ إنعامَكَ الحا ... طِبُ فينا ، وشكرَكَ المخطوبُ

٤٣ ورأى أنْ ذاكَ أحسنُ مقلو ... بٍ وإنْ كانَ يقبحُ المقلوبُ

٤٤ أنتَ ذو السُّؤددَينِ لم يعدُكَ المو ... روثُ من سؤددٍ ولا المكسوبُ

٤٥ ولقد خفتُ والبرىءُ ملقًّى ... كلُّ ذنبٍ برأسِه معصوبُ

٤٦ أنْ يقولَ الوشاةُ بى : إنَّ شوقى ... قادَ هذا الشخوصَ والإفكُ حوبُ

(٣٧) المن : العطاء ، والمن : التذكير بالعطاء والإدلال به .
والرنق : الكدر .
(٤٦) الإفك : الكذب ، وحوب : إثم .

٤٧ وجوابى أنْ لَمْ يَغِيبُوا وشاهَدْ ... تُ فزالَت مخاوفٌ ونكُوبُ
٤٨ أنا مَنْ لا يشُكُّ فى اليُمْن مِنْهُ ... أَوْ يَمينُ ابنُ فَجْرَةٍ ويَحُوبُ
٤٩ جِئْتُ والدَّولَةُ السَّعيدةُ خلفى ... رأسُها فى مَقَادتى مَجْنُـوبُ
٥٠ ذَاكَ حق ، ما تغتصبه يد الغا ... صب منى فَغَـيرهُ المَغْصوبُ
٥١ أَفَيُنْسَى ما صحَّ لى ، ويُسَوَّى ... فىَّ إفْـكٌ مُلَفَّقٌ مركُوب ؟
٥٢ كذب الزَّاعِمُـونَ أَنِى مَشْـئُو ... مٌ ومَانُوا ، والثالبُ المثلُوبُ
٥٤ بل لِىَ اليُمْن -لا محالة- كالصُّبْ ... ـح إذَا لاح ضووُهُ المشبوبُ
٥٥ إن يَكُنْ ذَاكَ مُغْفَلاً عندعَبْدٍ ... فهْـو لى عنـد سَيد مكتوبُ
٥٦ وشهيدى بذلك ابنُ فِـرَاسٍ ... وهوعَدْلُ العُدُولِ لا المقْصُوبُ
٥٧ مُجْتَبَى قَاسِمٍ ، وما زَالَ قِدمًا ... صاحبًا مِثْلُهُ اجْتَبَى مَصْحُوبُ
٥٨ لا كخِلٍّ علمتُـه لا يُرَجَّى ... منـهُ خيرٌ ، وشرُّهُ مرقُـوبُ
٥٩ كَفُلانٍ فى دحْسـه ، وفُلانٍ ... ولتلْكَ التراتِ يومًا طَـلُوبُ
٦٠ من أُناسٍ قَدْ أَوْسَعُونِىَ سَبًّا ... بعدَ عرفَانِهِمْ مَنِ المَسْبُوبُ
٦١ وَأَرَانى مُسَعرًا لَهُمُ الحـرْ ... بَ ، وحرْبى إذَا اعتزمتُ حُرُوب
٦٢ وَكَأَنى بِهِمِ جِرَاءَ تَضَاغَى ... وعَـذابى عَلَيْهِمِ مَصْبُوبُ

---

(٤٨) يمين : يكذب من المين ، ويحوب يأثم .
(٥٦) المقصوب : المتهم ، الذى يرميه الناس بالعيب أو هو المعيب المجرح .
(٥٧) المجتبى : الذى يطلب منه الجدوى والعطاء .
(٥٩) فى دحسه : فى شره . . التراث : الثارات .

٦٣ وهُمُ لائِذُونَ مِنِّي بحقـوَيْـ ـكَ ، وشَيْطَانُهمْ ذَلُولٌ رَكُوب
٦٤ أَوْ يَرَى غَيْرَ ذَاكَ من يرعوي الر أيُ إلى وجـه رأيه ويَتُوبُ
٦٥ وأنَا الغَـالبُ العدوَّ بجَدِّي وبحسدِي ، وقِرْنِي المغلُوب
٦٦ وكأنَّ الَّذِي يصـَابُ بقَذْعِي بنُجُـومٍ ثـوَاقِبٍ مَخصـوبُ
٦٧ أنا من حرَّبَ المشَاغيبُ مِنْ قَبْـ ـلُ ، وشَغْبِي على الزمان رَتُوبُ
٦٨ أَوْ أَرُوضُ الشَّيْطَانَ أَذْعَنَ كَالكَلْـ ـبِ أو العَودِ عضَّـه الكلُّوبُ
٦٩ ولِمَا ذَاكَ أَنَّنِي الرَّجُل الشـر يرُ مني الخَنَا ومني الوُثُوبُ
٧٠ بل لَدَيَّ الإنْصَافُ يَشْفَعُهُ الإِحْـ ـسَانُ ما قَارَبَ الألدُّ الشَّغُوبُ
٧١ وإذَا ما اسْتُثِيرَ جَهْـلِيَ فَلْيَقْـ ـرعْ هُنَاكُمْ لِحَرْبِيَ الظُّنْبُوب
٧٢ عِنْـدِيَ العَدْلُ كلُّهُ لصـديقِي وعَلَى ظَـالمِي يثورُ العَكُوبُ
٧٣ وأنَا الشَّـاكِرُ الصَّـنائعَ للسَّا دَةِ جُهْدِي وإنْ علاها الشحوب
٧٤ ولَقَـدْ أَرفَعُ الهجاءَ عَنِ النَّا سِ ومالِي فيهمْ حِمًى مَقْرُوبُ
٧٥ هَيْبَـةً مِنْهُمُ لحربي كما ها بَ شَبا الأَجْدَلِ القَطَا الأُسْرُوب
٧٦ ذَاكَ أَن لا يزال ينـذرُ قـومًا بوِقَـاعِي مُنَيَّبٌ مَخْـلُوبُ

(٦٨) العود : الفحل من الإبل ، الكلوب : حديدة المهماز ، يهمز بها الفارس الفرس وهي حديدة معقوفة .

(٧١) الظنبوب : عظم مقدمة الساق ، وقرعه مؤلم ، ويقال قرع لهذا الأمر ظنبوبه، أي اهتم به وجد فيه .

(٧٢) العكوب : الغبار .

(٧٥) الأجدل : الصقر والبازى ، ومن صيده القطا ، وشبا الأجدل مخالبه ، والقطا نوع من الطير كالحمام ل والأسروب الذى يطير فى السرب .

٧٧ فَهُمُ مُضْـ ـدُونَ لَيْسَ عليهم   من ظَلامِ الغرور إلَّا المجوبُ
٧٨ خَلِيَـانِي ومعشـرا نَابَـذُونِي   تَضْـلَمِ الحربُ أَيُّنَا المَنْخُوبُ
٧٩ أَعَلِيٌّ انتضوْا سُيُوفَ رَصَاصٍ   تَتَثَنَّى ، وسَيْفِيَ المغلُوبُ ؟
٨٠ سَيْفِيَ السَّيفُ ، مَنْ أُبِيحَ لَهُ ما   تَ ، ومهما أَصَابَهُ مَقْصُوبُ
٨١ كلَّما قَطٌّ أو هَـوَى فِي مَقَـدٍّ   مِضْرَبٌ منه فى العظامِ رَسُوبُ
٨٢ أَوْهَمَ العينَ أنه أخطأ المَضْـ   ـربَ هذًّا وقدمَضَى المضرُوبُ
٨٣ فَلْيحاذِرْ شَذاتِيَ الرَّجُلُ العِـرْ   رِيضُ أَوْ لا فخدُّهُ والجَبُوبُ
٨٤ وأُنَاسٍ تعرَّضُوا لِعُـرَامِي   فاجتواهُمْ وحدُّه مَـذْرُوبُ
٨٥ ولَقَدْ يسلم الخسيسُ كما يسـ   ـلَمُ فوقَ الأسنة اليعسُوبُ
٨٦ لَوْ يُحِسُّ السِّنَانُ ثِقْلًا من اليَعْـ   ـسُوبِ وافاهُ قَعْبُهُ المقشُوبُ
٨٧ لَكِنِ الوَزْنُ خَفَّ منه فلم يَشْـ   ـعُرْ به الرمحُ لا ولا الأُنْبُوبُ
٨٨ فَانْتَهَى حَاطِبٌ عَلَيَّ وإلَّا   فعَلَيهِ هَشِيمُهُ المحْطُوبُ
٨٩ والحِذَارَ الحذَارَ مِن مبرقَاتٍ   مُصْعِقَاتٍ لوقعها شُؤْبُوبُ

---

(٧٨) المنحوب : الخاسر المهزوم .
(٨٠) مقصوب : مقطوع .
(٨١) قط : قطع ، والمقد موضع االقطع أو الضربة .
(٨٣) شذاتى : إيذائى ، والجبوب : القطع ، والجبوب بفتح الجيم الذى يجب أى يقطع .
(٨٤) العرام : الثورة ، واليعسوب طائر صغير أصغر من الجرادة أو النحلة ، و هو يقع على الأعواد . ويقع على الرمح المشرع فلا يؤثر فيه سنانه لضالة جرمه .

٩٠ إنَّ من جاءَ يَمْتَرِى ضَرَّةَ اللَّبْـ ـوة غَرْثَى لَلْحَائِنُ المجْلُوبُ
٩١ حَالِبٌ جَاءَ يَسْتَدِرُّ حَلوبًا دمهُ دون درها المحلُوبُ
٩٢ رَامَ من ضَرْعِهَا شُخُوبًا فكانت من وتين الشَّقِى تلكَ الشُّخُوب
٩٣ والَّذِى جاءَ يَمْتَرِى خُصْيَةَ اللَّيْـ ـث فَذَاكَ الَّذِى حَدَتْهُ شَعُوب
٩٤ شَهِدَ الموْتُ أَنَّهُ لِقَفَاهُ مُقْعَصٌ أَوْ لِوَجْهِهِ مكبوبُ
٩٥ وإليكَ الشكاةُ يا ابن الوزيرِ الـ ـسَنِ فَإِنِى فى محنتِى أَيُّوبُ
٩٦ غير أنى أَرْجو كما نال بالصبْـ ـر وما نالَ قبلهُ يعقوبُ
٩٧ قد ترى ما أظلَّنى من فِرَاقِيـ ـكَ ، ومن دون ذاكَ تَنْبُو الجنُوب
٩٨ ثَمَّ من معشر يَسِيبُونَ بالإِفْـ ـساد للحال ، واللَّئِيمُ دَبُوب
٩٩ أهل ضِغْنٍ متى يغيبوا يقولوا ويعيبوا وكلُّهم مَعْيُوبُ
١٠٠ يَحْسُدُونى فضيلتى مثل مَا يَحْـ ـسُدُ بَعْلَ العَقِيلَةِ المجْبُوب
١٠١ وهُمُ — لو رَآكَ ليثكَ ترعا ه — ذبابٌ عن وجهه مذبوب
١٠٢ نَهْنَهَتْنِى مهابتِى لك عن جيـ ـل من النَّاس والأَريبُ هيوب
١٠٣ ثم أَشكُو إليكَ جَدْبِىَ والمرْعَـ ـى مَرِيعٌ والماءُ صَافٍ شروب
١٠٤ أَلكَ الأَمرُ والسياسةُ واسمُ المُـ ـعْتَفِيكَ الصُّعْلُوكُ والقُرْضُوب

(٩٠) غرثى : جوعى ، الحائن : الذى يسعى إلى حينه ، أى هلاكه . المجلوب : الذى سيق إلى الموت .

(٩٢) الوتين : عرق فى الرقبة أو الوريد .

(١٠٤) القرضوب : الفقير .

١٠٥ ثَوْبِيَ الرثُّ، والثيابُ طِرَاءُ وطَعَامِي بِرَغْمِيَ المجْشُوب

١٠٦ وخِوَانِي مُلَكَّكٌ، وقِصَاعِي وَبِرَامِي ، فكلُّهَا مَشْعُوب

١٠٧ وحِبَانِي مُصَدَّعَةٌ، وجِرَارِي وقِلالِي ، فكلُّهَا مثقُوبُ

١٠٨ من رأى منزلي رأى خيرَ عِلْقٍ فيه أنْ لَيْسَ فيه لي مَنْهُوبُ

١٠٩ ومَحَلِّي عَارِيَةٌ وجِدَارا تُ بيُوتي فكلُّهَا مَنْقُوب

١١٠ ومَقِيلِي في الصيفِ سُخْنٌ بِلاخَيْشٍ فعظمي يكادُ منه يذوب

١١١ ومبيتي بلاضجيعٍ لدى القُرِّ ، وللوغد شادِنٌ مخْضُوب

١١٢ وَلِيَ الخفُّ ذو الرقاع أو النَّعْلُ ، وللعبدِ سابحٌ يَعْبُوب

١١٣ وهُمُومِي مُحَدِّثاتي ، وبُسْتَانِيَ شوكٌ ثمارُه الخَرُّوب

١١٤ عكستْ أمْرِيَ النحوس ، فعنزي أبدًا حائل وتيسي حلُوب

١١٥ غير أني رأيتُ نحسي على نفسي ، فعودي لا غيره المنخُوب

١١٦ أَصحبُ المرءَ فهو مني مُمْطُورٌ ، ولكنْ واديه لي مَجْدُوبُ

١١٧ وكهولُ الحَوذَانِ فيه مع السَّعْدانِ غُلْبًا كأنهن الصُّقُوب

---

(١٠٥) المجشوب : الطعام بلا إدام .

(١٠٦) الخوان : المائدة مَشعوب : مكسور .

(١٠٧) الحب : الزير أو الخابية ، والجمع حباب .

(١١٢) السابح اليعبوب يقصد الفرس ، أو الجواد .

(١١٣) الخروب : شجرة برية شائكة ذات حمل كالتفاح لكنه بشع .

(١١٧) الحوذان : من بقول الرياض ، له نور أصفر طيب الرائحة ، والسعدان : نبت في سهول الأرض ذا شوك من أطيب مراعى الإبل ما دام رطبا ، واحدته سعدانة وغلبا : يانعة

١١٨ فإذا ما ارتعت فيها ذوت لى — لا لغيرى وعاد فيها شسوب
١١٩ ولمثلى يختار رواد مرتا — د ولكن إن ناصحته الجيوب
١٢٠ غير أن المنقوص يشنأ ذا الفضـ — ـل وذو النقص تيهان ذهوب
١٢١ ينتحى من عداته فى الأنيا — ت ولحب الهدى له ملحوب
١٢٢ من عذيرى من دولة يلدى المنـ — ـكوح فيها ورجلى المركوب
١٢٣ ما عذيرى من هذه الحال إلا — سيد لى من آل وهب وهوب
١٢٤ متلف فهو للثراء مفيت — مخلف فهو للثناء كسوب
١٢٥ ولقد قلت حين أخطأنى الحمـ — ـلان قد تخطى المحق الذنوب
١٢٦ أيها الشامتون ما نضب البحـ — ـر ولا يتقى عليه النضوب
١٢٧ سبق حظ إلى أخ وطريق الـ — ـحظ نحوى بزعمكم دعبوب
١٢٨ وأبو الأسود العزيزى أهل — للأيادى ، والحق قرن غلوب
١٢٩ وخلال الإعطاء منع وللرمـ — ـح أنابيب بينهن كعوب
١٣٠ وأمامى ومن ورائى من السيـ — ـب سيب مسحسح مسكوب
١٣١ لى مكان الحمار عند الفتى الما — جد بغل أو بغلة سرحوب
١٣٢ وهى أجدى على إذ هى ظهر — ومناك متى تمادى عزوب

(١١٨) شسوب : ذبول وضمور .
(١٢٠) تيهان : متكبر من التيه وهو الكبر ، ذهوب : متاد فى الخيلاء .
(١٢١) لحب الهدى : طريق الهدى ، وملحوب : واضح .
(١٢٧) الدعبوب الواسع ، واليعبوب كذلك المظلم الشديد السواد ، فهو من الأضداد .
(١٣١) سرحوب : طويل متناسق الأعضاء .

١٣٣ وهى رهن بذاك أو تفتديها ذَاتَ دَلٍّ لَهَـا قَـنًا خُرْعُوبُ
١٣٤ ولمَا مُنْكَرٌ لمثلِيَ من مثـ ـلكَ رُوْدٌ من القيان عَرُوبُ
١٣٥ تُلبِسُ الأَوجُهَ الكواسفَ نورا وهي مِنْ بَعْدُ للعقول سَلُوبُ
١٣٦ إن أشارت بطرفها فَسَحُورٌ أوْ أشارت بكفها فخلُوبُ
١٣٧ لَدْنَة الغُصْن ، مُكتَمَاهَا رشيق والمعَرَّى مُطَهَّـرٌ رُعْبُـوبُ
١٣٨ مَضرَبٌ مَطْرَبٌ يُسَرُّ طَرُوبٌ بمنَـاغَاة لَيْلهَا وضَرُوبُ
١٣٩ بَثَّ عنها الفُتُونَ حَجْلٌ صَمُوت ماله نَبْسَة ، وعُودٌ صَخُوب
١٤٠ وحَقِيقٌ بمثلهـا مَنْ هَوَاهُ فيكَ عَيْنَ الصريح لا المأشُوب
١٤١ إن تُعَلِّلْ قمريةُ الأُنْس قلبي فبما راعـه الغرابُ النَّعُوبُ
١٤٢ كم رأى القلبُ حَتفَهُ مُنذُ نَوَيْتُم ما نَوَيْتُم وكم عرته الكروبُ
١٤٣ وأرى أنَّ معشـرًا سيقولو نَ : سخيفٌ من الرجال لعوبُ
١٤٤ أين عنـه وقارُ ما يدَّعيهِ من عُلُومٍ لحامليها قُطُوبُ
١٤٥ ولعمرى إنَّ الحكيم وقـور ولعمرى إن الكريم طروبٌ
١٤٦ لو رأى كلُّ عالمٍ مجلس السَّيْـ ـيدِ يومًا لقلَّ منـه الدُّؤُوب
١٤٧ أو رأى اللَّـهوَ مُسْتَجِمٌّ حكيم ذو وقـار إذًا عراه اللُّغُوب

---

(١٣٣) خرعوب : لينة .

(١٣٧) رعبوب : ناعمة .

(١٤٠) المأشوب : المختلط .

١٤٨ لَيْسَ للخطَّـة الرشيدة إلّا ... باحثو غَيْبٍ خُطَّةٍ أو شُرُوب
١٤٩ غير أن ليس بالجميل من الأمـ ... ـر حكيم مجـدَّلٌ مَسْحُوب
١٥٠ قد سبتْ عَقلَه الشَّمُولُ فما فيـ ... ـه سوى أن يقول قوم: شَروب
١٥١ قد تَنَفَّلْتُ فى اقتضائيك رزقى ... فتنفَّلْ، فأنت غيثٌ سكوب
١٥٢ وفضول الكلام أنفالُ أمثا ... لى، وأنفالك اللهى والسُّيُوبُ

* * *

وقال فى وحيد المغنية جارية عمْهَمة:

١ يا خَلِيلىَّ تَيَّمَتْنِى وَحِيدُ ... فَفُؤادى بها مُعَنًّى عَمِيدُ
٢ غـادةٌ زانها من الغُصْن قَدٌّ ... ومن الظَّبْيِ مُقلتـان وجِيدُ
٣ وزهاها من فَرْعِها ومن الخدْ ... دَيْنِ ذَاكَ السَّوادُ والتَّوْرِيدُ
٤ أوقَدَ الحسْنُ نارَه من وحيدٍ ... فوْقَ خدٍّ ما شَانَهُ تَخديدُ
٥ فَهْيَ بردٌ بخدِّها وسلام ... وهى للعَاشقين جُهدٌ جهيد
٦ لَمْ تَضِرْ قطُّ وجهها وهْو ماءٌ ... وتُذِيبُ القُلُوبَ وهْىَ حديد
٧ ما لما تَصْطليه من وجنَتَيْها ... غير تَرْشَافِ رِيقِهَا تَبْرِيدُ
٨ مثلُ ذَاكَ الرُّضابِ أطفأ ذاكَ الْـ ... ـوَجْدَ لَوْلا الإباءُ والتَّصْرِيدُ
٩ وغَرِيرٍ بحسنها قال: صِفْها ... قلت: أَمْرَان: هَيِّنٌ وشديدُ

---

(٧) التصريد: الابتعاد عن الهدف.

١٠ يسهل القول إنَّهَا أَحْسن الأشـ ـيَاءِ طُرًّا ، ويعْسر التحديدُ

١١ شمسُ دَجْنٍ ، كِلا المنيرَيْنِ من شـ ـمْس وبدْر من نُورها يستفيد

١٢ تَتَجَلَّى للنـاظـرينَ إليهَا فَشَقِىٌّ بحسنهَا وسَعيدُ

١٣ ظبيةٌ تسكنُ القُلُوبَ وترعا ها ، وقُمْـرِيَّةٌ لَهَـا تغريدُ

١٤ تَتَغَـنَّى كـأَنَّهَا لا تُغَنِّى من سُكون الأَوصالِ وهى تُجيد

١٥ لا تَرَاهَـا هُنَـاك تَجْحَظُ عين لك منهَا ولا يَـدِرُّ وريـدُ

١٦ من هُدُوٌّ وليس فيه انقِطَاعٌ وشُجُوٌّ ومَـا بـهِ تبـلِيدُ

١٧ مَـدَّ فى شأْوِ صوتِهـا نَفَسٌ كا فٍ كأنفاسِ عاشقيهـا مَدِيدُ

١٨ وأرقَّ الـدَّلالُ والغُنـجُ منهُ وبَرَاهُ الشَّجَا فكاد يبيـدُ

١٩ فتراهُ يمُـوت طَوْرًا ويحيا مُسْتَلَذًّا بَسِـيطُهُ والنَّشَيدُ

٢٠ فيه وَشْىٌ ، وفيه حَلْىٌ من النغـ ـم مَصوغٌ يختالُ فيه القصيد

٢١ طَـاب فُوها وما تُرَجِّـعُ فيه كلُّ شَىْءٍ لَهَا بـذاك شهيـدُ

٢٢ ثَغَبٌ يَنقَعُ الصَّدَى ، وغِنَاءٌ عنده يوجدُ السرورُ الفقيـدُ

٢٣ فَلَهَـا الدَّهْرَ لاثِمٌ مُسْـتَزِيدٌ ولَهَا الدَّهْر سـامعٌ مُسْـتَعِيدُ

٢٤ فى هـوى مِثلِهَـا يَخِفُّ حَلِيمٌ راجحٌ حلمُه ، ويَغوى رشيدُ

٢٥ ما تُعَاطِى القُلُوبَ إِلَّا أَصَابَت بهواهَـا منهُنَّ حَيْثُ تُرِيدُ

٢٦ وَتَرُ المعزف فى يدَيها مُضَاهٍ وَتَرَ الزَّحْفِ فيهِ سهمٌ سَديدُ

(٢٦) وفى رواية فيه بأس شديد ، ولعلها أنسب للمعنى .

٢٧ - وإذَا ابتَضَتهُ للشَّربِ يَوْمًا أيْقَنَ القَـومُ أنَّهَا مستَصِيدُ
٢٨ مَعْبَدٌ فى الغناء وابن سُرَيْج وَهْيَ فى الضَّربِ زَلْزَلٌ وَعَقِيد
٢٩ عَيْبُهَا أنَّهَا إذَا غَنَّتِ الأحْـ ـرَار ظَلُّوا وَهُمْ لديهَا عَبِيدُ
٣٠ واستزادت قُلُوبَهم من هواها بِرُقاهَـا ، وما لديْهِمْ مَزِيدُ
٣١ وحسانٍ عَرَضنَ لى قلتُ : مهلًا عن وحيد ، فحقُّهَا التَّوحِيدُ
٣٢ حُسْنُهَا فى العُيُون حسْنٌ وحيد فَلَهَا فى القُلُوب حُبٌّ وحيدُ
٣٣ ونَصيح يَلُومُنِى فى هَوَاهَا ضَلَّ عنه التَّوفيقُ والتسديدُ
٣٤ لَوْ رَأَى من يلُوم فيه لأضحى وهو المُستَرِيثُ والمُستَزِيدُ
٣٥ ضِلَّةً للفُؤاد يَحْنُو عليهَا وهي تَزهُو حَيَاتَه وتكِيدُ
٣٦ سَحَرَتهُ بِمقلَتَيْهَا فأضحت عندَهُ واللّئيمُ منها حميدُ
٣٧ خُلِقَت فِتنَةً : غِنَاءً وحُسْنًا مالَهَا فيهِمَا جميعًا نَدِيدُ
٣٨ فَهيَ نُعْمَى يَحْسدُ منهَا كَبيرٌ وهْيَ بلوى يشيب منها وليد
٣٩ لِيَ حَيْثُ انصرَفتُ عنها رفيقٌ من هواها ، وحيثُ حلت قَعِيدُ
٤٠ عن يمينى وعن شمالى وقُدمًا مى وخلفى ، فأيْنَ عنهُ أحِيدُ ؟
٤١ سيدٌ شيطانُ حُبِّهَا كلَّ فَجٍّ إنه شَيطانَ حُبِّهَا لَمَـرِيد
٤٢ لَيْتَ شِعْرى إذَا أدَام إليهـا كَرَّةَ الطَّرف مُبْـدِى ومُعِيدُ
٤٣ أهِيَ شَيْءٌ لا تسأَمُ العينُ منهُ أمْ لَهَـا كلَّ سَاعةٍ تَجْدِيدُ ؟

(٢٨) معبد وابن سريج مغنيان ، وزلزل وعقيد عازفان .

٤٤ بل هي العيشُ لا يزالُ متى استُعْ — ـرض يملى غرائبا ويُفيدُ
٤٥ مَنظَرٌ ، مَسْمَعٌ ، مَعَان ، من اللهـْ — ـو عَتَادٌ لما تُحبُّ عَتيدُ
٤٦ لا يَدبُّ الملالُ فيها وَلا يَنـ — ـقُص من عَقدِ سحرِها توكيدُ
٤٧ حُسْنها في العُيونِ حُسْنٌ جديدٌ — فَلَهَا في القُلُوبِ حُبٌّ جَديدُ
٤٨ أَخَــذَ اللهُ يا وحيدُ لقلبي — منكِ ما يأخذُ المُديلُ المُقِيدُ
٤٩ حَظُّ غَيْرى من وصلكُم قُرَّةُ العَيْـ — ـنِ وحَظى البُكاءُ والتَّسْهيدُ
٥٠ غير أنى مُعَلِّلٌ منك نفسى — بِعِداتٍ خَلالَهُنّ وَعيدُ
٥١ ما تزالينَ نظرةٌ منك مَوْتٌ — لى مُميتٌ ، ونظرةٌ تَخليدُ
٥٢ نتلاقى فلَحْظَةٌ منك وعــدٌ — بوصَال ، ولحظةٌ تَهديدُ
٥٣ قد تركتِ الصحاحَ مَرْضَى بميد — ونُحولا ، وأنتِ خُوطٌ تَميدُ
٥٤ والهَوَى لا يزال فيه ضعيف — بين ألحاظِهِ صريعٌ جَليدُ
٥٥ ضافَنِى حُبُّك الغريبُ فألوى — بالرُّقادِ النَّسيبِ فَهُوَ طَريد
٥٦ عَجَبًا لى أنَّ الغريبَ مُقيمٌ — بيْن جَنبَىَّ والنسيبُ شريدُ !
٥٧ قَد مَلِلْنَا من سِتر شيءٍ مليح — نشتهيه . فهلْ له تجريدُ ؟
٥٨ هو فى القلبِ وهو أبعدُ من نجـ — ـم الثريا ، فهو القريبُ البعيدُ

* * *

وقال يرثى ابنـه :

١ بكاؤكما يشفى وإن كان لا يُجْـدى
فجُودا فقَـد أوْدَى نَظِيرُكُما عندى

٢ بُنَىَّ الَّذِى أَهْدَتهُ كَفَّاىَ للـثَّرَى
فَيَا عِزَّةَ المُهدَى ويا حَسْرة المُهـدِى

٣ ألا قاتَـل اللهُ المَنَـايَـا وَرَمْيَهَـا
من القَـوْم حَبَّات القُـلُوب عَـلى عَمْد

٤ تَوَخى حِمَـامُ المـوْت أَوْسَطَ صِبْيَتى
فللّه كَيْفَ اختَـار وَاسطَةَ العِقـد

٥ عَـلى حينَ شمْتُ الخَيْرَ من لَمَحَاتِهِ
وَآنَسْتُ من أفعَـاله آيَةَ الرُّشـد

٦ طَـوَاهُ الرَّدَى عنى فأضحَى مَزَارُهُ
بَعِيـدًا عَلَى قُرْبٍ قريبًا عَلى بُعْـد

٧ لَقَـدْ أنجزَت فيـهِ المنَـايَا وعيدَها
وأَخلَفَتِ الآمالُ ما كانَ من وَعْـدِ

٨ لَقَـد قلَّ بينَ المهـد واللَّحْدِ لُبْثُـهُ
فلَمْ يَنسَ عَهـدَ المهد إذ ضُمَّ فى اللحْدِ

٩ تَنَغَّصَ قَبْـلَ الرَّى مـاءُ حَيَـاتِهِ
وفُجـعَ مِنـهُ بالعُـذُوبَةِ والـبَرْدِ

١٠ أَلَحَّ عَلَيْـهِ النَّزفُ حَتَّى أَحَـالَهُ
إلى صُفرَةِ الجادِى عن حُمْرَةِ الوردِ

١١ وظلَّ عَلى الإيْدِى تَسَـاقَطُ نَفسُـهُ
ويلوِى كما يذوى القَضِيبُ من الرَّند

١٢ فَيَـالكِ من نَفس تَسَـاقَط أنفُسَا
تسـاقُط درٍّ من نِظَـام بِـلا عِقـدِ

١٣ عجبتُ لقَلْبِى كيفَ لَمْ يَنْفَطِرْ لَهُ
ولَوْ أنَّهُ أقْسَى من الحجر الصَّـلْدِ

١٤ بودىَ أنى كنتُ قُـدمْتُ قبْـلَهُ
وأن المَنَـايا دُونَهُ صَمَدَتْ صَمْدِى

١٥ ولكنَّ رَبى شَـاءَ غَـيْرَ مشـيئَتى
وللرَّب إمْضَـاءُ المَشيئةِ لا العَبْـدِ

١٦ وما سَـرَّنى أن بعْتُـهُ بثَـوابِه
ولَـوْ أنَّهُ التَّخْـلِيدُ فى جَنَّـةِ الخُلْدِ

١٧ ولا بِعْتُـهُ طَوْعًا ولكنْ غُصِـبْتُه
ولَيْسَ عَلى ظُلْمِ الحَوَادِث من مُعْدِى

١٨ وإنى وإن مُتعْتُ بابْنَىَّ بَعْـده
لـذاكرُه مـا حنَّتِ النيبُ فى نَجْد

١٩ وأولادُنَـا مِثـلُ الجَـوَارح أيُّهَـا
فقَـدْنَاه كانَ الفَـاجِعَ البَين الفقد

٢٠ لكلٍّ مكانٌ لا يَسُدُّ اختِلالَهُ
مكانُ أخيهِ في جَزُوعٍ ولا جلدِ

٢١ هَلِ العَيْنُ بَعْدَ السَّمْعِ تَكْفِي مكانَهُ
أم السَّمْعُ بَعْدَ العَيْنِ يَهْدِي كما تَهْدِي ؟

٢٢ لعَمْرِي : لقد حالَتْ بِيَ الحالُ بَعْدَهُ
فَيَالَيْتَ شِعْرِي كيف حالَتْ به بَعْدِي ؟

٢٣ ثَكِلتُ سُروري كُلَّه إذْ ثَكِلْتُهُ
وأصبحتُ في لذَّات عيشي أخا زهْدْ

٢٤ أرَيْحانَةَ العَيْنَيْنِ والأَنْفِ والحشا :
ألا لَيْتَ شعْري هَلْ تغيَّرْتَ عن عهدي

٢٥ سأُسْقِيكَ ماءَ العيْنِ ما أسْعَدَتْ به
وإن كانت السُّقْيا من الدَّمْعِ لا تُجْدِي

٢٦ أعَيْنَيَّ : جُودا لي فَقَدْ جُدْتُ للثَّرَى
بأَنْفَسَ مِمَّا تُسْأَلان من الرِّفْد

٢٧ أعَيْنَيَّ : إنْ لا تُسْعِدانِيَ أَلُمْكُمَا
وإن تُسْعداني اليوم تَسْتَوْجِبا حَمْدي

٢٨ عَذَرْتُكُما لو تُشْغَلانِ عنِ البُكَا
بنَوْمٍ ، ومَا نَوْمُ الشَّجِيِّ أخي الجَهْد ؟!

٢٩ أقُرَّةَ عَيْنِي : قدْ أطَلْتَ بُكاءَها
وغادرْتَها أقْذَى من الأَعْيُنِ الرُّمْد

٣٠ أقرة عيني : لو فَدَى الحَيُّ ميّتا
فَدَيْتُكَ بالحَوْبَاءِ أولَ من يَفْدِي

٣١ كأنّيَ ما اسْتَمْتَعْتُ منك بنظْرَة
ولا قُبْلَةٍ أحلى مَذَاقا من الشَّهْد

٣٢ كأنّيَ ما استمتعتُ منك بِضَمّة
ولا شمّةٍ في مَلْعب لك أو مَهْد

٣٣ ألامُ لما أبْدِي عليك من الأسى
وإني لأخْفي منه أضعافَ ما أُبْدِي

٣٤ محمّدُ : ما شَيْءٌ تُوهِّمَ سَلْوةً
لقلبي الاَّ زاد قلبي من الوجدِ

٣٥ أرى أخَوَيْكَ الباقِيَيْنِ فإنما
يَكُونان للأحْزَانِ أوْرَى من الزَّند

٣٦ ـ إذا لَعِبا في ملْعَب لك لذّعا
فؤادي بمثل النارِ عنْ غير ماقَصدِ

٣٧ فما فيهما لي سَلْوَةٌ بَلْ حَزَارةٌ
يَهيجانِها دُوني وأَشْقَى بها وحْدِي

٣٨ وأنتَ وإن أُفْرِدْتَ في دارِ وَحْشَة
فإني بدار الأُنْسِ في وحْشة الفَرْد

---

(٣٠) الحوباء : النفس .

٣٩ أودُّ إذا ما الموتُ أَوْفَدَ مَعْشَرا
إلى عَسْكَرِ الأَمْواتِ أَنِّى من الوفْدِ

٤٠ ومنْ كانَ يَسْتَهْدِى حَبِيباً هَدِيَّةً
فَطيْفُ خَيالٍ منك فى النوم أَسْتَهْدى

٤١ عليكَ سـلامُ الله منى تحيةً
ومنْ كل غيْثٍ صادِقِ البرْقِ والرَّعْد

* * *

وقال يصف العنب الرازقى :

ورازقىٌّ مخطف[1] الخصورِ كأنَّهُ مخـازنُ البَـلُّورِ
لم يُبْقِ وهج الحـرورِ إلا ضياءً فى ظروفِ نُورِ
لو أنه يبقى على الدُّهُـور قرَّطْ آذانَ الحِسانِ الحورِ
له مذاقُ العَسل المُشورِ[2] ونكهةُ المسكِ مَعَ الكافورِ
وبرد مَسِّ الخصرِ المقرورِ

(١) مخطف : ضامر .
(٢) المشور : المجتنى .

وقال فى الربيع :

أَصبحتْ الدنيا تروقُ من نظرْ
بمنظر فيه جلاء للبصرْ
أَثْنَيْتَ على الله بآلاء المطَرْ
فالأَرضُ فى روض كأفوافِ الحَبِرْ
تبرَّجَتْ بعد حياءٍ وخَفَرْ
تبرُّجَ الأُنثى تصدَّتْ للذكرْ

وقال فى وصف القطائف :

قطائِفٌ قد حشيتْ باللَّوزِ
والسكر الماذِىِّ حشو الموزِ
سررت لما وقعت فى حوْزِىَ
سرور عباسٍ بقربِ فوزِ (٣)

ومن هجائه الساخر لصاحب لحية ، وقد أبدع تصويرها وافتنى فيه قوله :

إنْ تطلْ لحيةٌ عليكَ وتعَرضْ
فالمخالى معروفةٌ للحمير

(٣) هو عباس بن الأحنف الشاعر العباسى الغزل ، وفوز اسم حبيبه التى لهج بذكرها .

علّق الله فى غِذاريْك مخلا
ةً ؛ ولكنهما بغير شعير
أو غدا حكمهما إلىً نطادتْ
فى مهبًّ الرياح ؛ كل مطيرِ
أنفِما عنك يا طويلةُ ، أولا
فا حسِبنْهَا شَرارةً فى السَّعِير
إزْعَ فيها الموسى ، فإنك منها
يشهدُ الله ، أثامٍ كبير
أيما كوْسجٍ (١) يراها فيلْقى
ربَّه بعدها ، صَحيح الضميرِ ؟!
هو أحرى بأن يشُكّ ويُغْرَى
باتهام الحكيم فى التقدير
ما تلقّاكَ كوسجٌ قطُّ ، إلاَّ
جوّرَ اللهَ أيُّما تجوير
لحيةٌ أهملتْ فسالَتْ وفاضتْ
فإليها تشيرُ كفًّ المشير
ما رأتها عينٌ امرئٍ ، مرآها
قطُّ إلاَّ أهلَّ بالتكبير

(١) الكوسج الأجرد بلا لحية

روعة تستخفّهُ ، لم يُرعْهَا
من رأى وجه منكر ونكير
فاتق الله ذا الجلال وغير
منكرًا فيك ، ممكن التغيير
أو فقصِّرْ منها ، فحسبُكَ منها
نصفُ شبر ، علامَةِ التذكيرِ
لو رأى مثلها النبيُّ لأجرى
فى لَحَى النَّاسِ سنّة التقصيرِ
واستحبَّ الإحصَاء فيهنَّ والحلق ، مكان الإعضاء والتوفير

وقال فى هجاء خادم له :

لى خادمٌ لا أزال أحتسبُهْ
يغيبُ حتَّى يَودُّ سَغَبُهْ(٢)
ترسله لاشتراء فاكهة
فقصُرنا أن تجيئُنه كُتُبُه
كم قال ضيفى ، وقد بعثتُ به :
هيهاتَ يومَ الحِساب مِنقلبُهْ
وخلتُه قد سَما إلى كرم رضوا
نَ(٣) ، لكى يُجتَنَى لنَا عَنِبُهْ

(٢) السغب الجوع .
(٣) يقصد خازن الجنة .

ثُمَّ أتانى وقد طما غضبى
عليه والضيف قد طما غَضَبُهْ
فقال : هاكُمْ . وليس فى يدِهِ
إلاَّ نَوًى كانَ مرةً رُطَبُـــه
أو عجَمَ رُمَّـانةٍ وقشرتهـــا
بغير ماءٍ ، لقد خلا عجبُـــهْ
غَيَبَتُهُ سرمدٌ[٤] ، وخيبتُـــهُ
لا تنقضى ، أو يغولُه[٥] عطبُهْ
ضــلَّ فما يهتدى لطيِّبَـــة
كأنَّما مجتناه محتطبُـــهْ
يبطىءُ حتى أكاد أحسبُـــه
صادف تنساً فظلَّ يحتلِبُهْ
أو أعرضَ الرومُ دون حاجتِـــه
أولَقِى الليثَ ، ها ئجا كلبُهْ
هل مشترى ، والسعيد بائِعُـهُ
هل قابلٌ ؟ ، والسعيد من يهبُهْ
أساءَ بالمُسلمينَ جالِبُـــــهُ
لا كان من جالبٍ ولا جَلبُـــهْ

(٤) سرمد أبدى .
(٥) يغوله يقتله .

البحتري

(ت ٢٨٤ هـ)

هو أبو عبادة الوليد بن عُبيد بن يحيى بن عبيد . ينتهى نسبه إلى بُحْتُر ، ثم طَيِّئ ، ثم قَحطان . ولد عام ٢٠٤ هـ ، وتوفى عام ٢٨٤هـ وكان مولده . بمَنبِج ، بلدة بين حلب والفرات ، وإن كان قد تنقَّل - فيما بعد - بين حلب وحمص والمعرة ، ويقال إن لقاءه الأول مع أبى تمام كان فى حمص ، وأنه كتب إلى أشراف معرة النعمان يوصيهم بالبحترى خيرا ، فأغدقوا عليه من أموالهم .

وقد قدم البحترى إلى بغداد لعهد الخليفة الواثق ، فامتدح وزيره ابن الزيات ، ولا نكاد نمضى فى عصر المتوكل حتى يصبح شاعر البلاط الرسمى ، فيكثر من مديح المتوكل ومديح وزيره الفتح بن خاقان . ويقال إنه حين ألف كتابه الحماسة أهداه إليه ، كما سجل فى شعره الأحداث الكبرى فى عهده ، كثورة أرمينية وبناء بعض قصوره ، بل إنه سجّل فى شعره مصرع هذا الخليفة ومصرع وزيره الفتح ، ثم ما عتم أن فارق بغداد - بعد مصرعهما - إلى المدائن فوصف إيوان كسرى ، وحين تولى الخليفة المنتصر عاد إلى بغداد فمدحه ، واتصلت حباله من بعده بالمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد ، وعلى هذا النحو ظلّ أكثر من أربعين عاما الشاعر الرسمىّ للخلفاء العباسيين على توالى عهودهم ، وهذه الصلة المستمرة بالخلفاء والوزراء وكبار الأسر

الغنية فى عاصمة الحلافة وفّرت لشاعرنا كثيرامن المال وضروبامن الرفاهية ، حتى ليقال إنه كان يمشى فى موكب من عبيده ، ولم يكتف بشراء العقارات والضياع فى بغداد ، بل كانت له مثلها فى بلدته « منبج » ، الأمر الذى أحفظ عليه بعض خصومه وحاسديه فشنعّوا عليه بأنه « ثَنَوِى » ، وكانت العامة غالبة حينئذ على بغداد فخاف على نفسه ، ورحل إلى بلده ، ولم يطل مقامه بها ، فقد وافاه الأجل بها سنة ٢٨٤ هـ .

* * *

قال البحترى يصف إيوان كِسْرَى (بالمدائن) ويتعزَّى به :

١ صُنْتُ نَفْسِى عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسِى
وتَرَفَّعْتُ عن جَدَا كُلِّ جِبْسِ

٢ وتَمَاسَكْتُ حِينَ زَعْزَعَنِى الدَّهْـ
ـرُ الْتِمَاساً مِنْهُ لِتَعْسِى وَنَكْسِى

٣ بُلَغٌ مِنْ صُبَابَةِ الْعَيْشِ عِنْدِى
طَفَّفَتْهَا الأَيَّامُ تَطْفِيفَ بَخْسِ

---

(١) الجداء : العطاء ، الجبس : الجبان والقلىء والفاسق والثقيل الروح .
(٢) التكس : انقلاب الرجل على رأسه ، أو سقوطه كلما نهض .
(٣) البلغ : جمع بلغة وهى ما يتبلغ به فى العيش ولا يفضل منه شىء . الصبابة : البقية من الماء . التطفيف : النقص فى الوزن والتقدير .

٤ وبَعِيدٌ ما بَيْنَ وَارِدِ رِفْهٍ
عَلَلٍ شُرْبُهُ ، ووَارِدِ خِمْسِ

٥ وكأَنَّ الزمانَ أصبحَ مَحْمُو
لًا هَوَاهُ مع الأَخَسِّ الأَخَسِّ

٦ واشْتِرَائِي « العِرَاقَ » خُطَّةُ غَبْنٍ
بعْدَ بَيْعِي « الشَّامَ » بَيْعَةَ وَكْسِ

٧ لا تَرُزْنِي مُزَاوِلًا لاخْتِبَارِي
بَعْدَ هٰذِي الْبَلْوَى فَتُنْكِرَ مَسِّي

٨ وقديماً عَهِدْتَنِي ذَا هَنَاتٍ
آبِيَاتٍ عَلَى الدَّنِيَّاتِ شُمْسِ

٩ ولَقَد رَابَنِي نُبُوُّ ابْنِ عَمِّي
بَعْدَ لِينٍ مِنْ جانِبَيْهِ وأُنْسِ

---

(٤) الرفه : طيب العيش ولينه . ويقال : رفهت الإبل أى وردت الماء متى شاءت العلل ورود الماء ثانية بعد الورود الأول الذى يسمى النهل — الخمس : من أظماء الإبل وهى أن ترعى ثلاثة أيام وترد فى اليوم الرابع .

(٦) الغبن : الخداع فى البيع والشراء . الوكس : النقصان والخسارة .

(٧) رازه يروزه : جربه .

(٨) الهنات : خصال شر : ويبدو أن الشاعر استعملها عامة دون تخصيص الشمس : العنيدة التى لا تذل .

(٩) النبو : الجفوة والنفور . يقصد الشاعر بقوله « ابن عمى » الراهب غيلون ابن ابن مخلد ، فهو من أصل يمنى مثله يرجع نسبه إلى الحارث بن كعب كهو مذحجى والشاعر طائى ، ودليلنا على ذلك أنه نظم هذه القصيدة فى الحقبة التى زار فيها غيلون بن مخلد .

١٠ وإذا ما جُفِيتُ كُنْتُ جَدِيرًا
أنْ أرَى غَيْرَ مُصْبِحٍ حَيْثُ أُمْسِى

١١ حَضَرَتْ رحْلِيَ الْهُمُومُ فوجَّهْـــ
ـتُ إلى « أبْيَضِ المَدَائِنِ » عَنْسِى

١٢ أتَسَلَّى عن الحُظُوظِ ، وآسَى
لِمَحَلٍّ مِنْ « آلِ سَاسانَ » دَرْسِ

١٣ أذْكرتْنِيهِمُ الخُطُـــوبُ التَّوَالِى ؛
ولَقَدْ تُذْكِرُ الْخُطُوبُ وتُنْسِى

١٤ وَهُمُ خافِضُـونَ فى ظِلِّ عـــالٍ
مُشْرِفٍ يَحْسِرُ العُيُونَ وَيُخْسِى

١٥ مُغْلَقٍ بابُهُ عَلى « جَبَلِ القَبْـــ
ـقِ » إلى دَارَتَىْ « خِلاط » و « مُكْسِ »

---

(١١) حضرت : نزلت وطرأت . العنس : الناقة القوية .

(١٢) درس : أى متدرس وهو ما عفا أثره .

(١٤) يحسر : يرد البصر كليلا . يخسى : يخسىء (مخففة الهمز) بمعنى يحسر وفى القرآن الكريم ، ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير » .

خافضون ناعموا العيش البحر وجعل عليه بابا ووكل به الحراس ، ولذلك يقول عن السور فى البيت التالى « مغلق بابه »

(١٥) الدارة : المحل يجمع البناء والعرصة ، كل أرض واسعة بين جبال ، ما أحاط بالشىء . القبق : جبل متصل بباب الأبواب وبلاد اللان وهو آخر حدود أرمينية ، ويقال أيضا : القبج وهو جبل القفقاز (القوقاز) .

خلاط : ويقال أخلاط ، وهى قصبة أرمينية الوسطى ، كانت على الشاطئ الغربى لبحيرة وان . مكس : موضع بأرمينية .

١٦ حِلَلٌ لم تَكُنْ كأَطْلالِ «سُعْدَى»
فى قِفَارٍ مِنَ البَسَابِسِ مُلْسِ

١٧ وَمَسَاعٍ ، لَوْلا الْمُحَابَاةُ مِنى ،
لم تُطِقْها مَسْعَاةُ «عَنْسٍ» و «عَبْسٍ»

١٨ نَقَلَ الدَّهْرُ عَهْدَهُنَّ عن الْجِـــدَّةِ حتى رَجَعْنَ أَنْضَاءَ لُبْسِ

١٩ فكأَنَّ «الْجِرْمَازَ» مِنْ عَدَمِ «الإِنْـ
ـسِ» وإِخْـلالِهِ بَنِيَّةُ رَمْسِ

٢٠ لو تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيَـــالى
جَعَلَتْ فيه مَأْتَماً بَعْدَ عُرْسِ

٢١ وَهْوَ يُنْبِيكَ عن عَجَائِبِ قَوْمٍ
لا يُشَابُ الْبَيَانُ فِيهِمْ بِلَبْسِ

---

(١٦) حلل جمع حلة (بكسر الحاء) : منازل . البسابس : القفار . الملس : التى لا نبات فيها . يقارن الشاعر بين حياة الفرس الناعمة وحياة العرب المتقشفة .

(١٧) المساعى : المكرمات : واحدتها مسعاة . عنس : قبيلة قحطانية من اليمن عبس قبيلة عدنانيه من نجد .

(١٨) جدة الشئ : حداثته . الأنضاء : جمع النضو وهو المهزول من الحيوان : ومن الثياب : البالى . اللبس : الأستعمال ؛ مصدر : «لبس الثوب» .

(١٩) الجرماز : اسم بناء كان عند أبيض المدائن ثم عفا أثره ، وكان عظيما . الأنس : يجوز فيها كسر الهمزة بمعنى الخلو من السكان ، ويجوز الضم بمعنى الوحشة. الإخلال : الترك والغياب : من أخل بالمكان لاى غاب عنه وترك . البنية : الشئ المبنى الرمس : القبر مستويا مع وجه الأرض ؛ والأصل فيه التغطية .

(٢١) اللبس : عدم الوضوح .

٢٢ وإذا ما رأيْتَ صُــورةَ « أَنْطَا

كِيَّةَ » ارْتَعْتَ بَيْنَ « رُومٍ » و « فُرْسِ »

٢٣ والمَنَايَا مَوَاثِلٌ ، وأَنُو شِـرُ

وانْ « يُزْجِى الصُّفُوفَ تَحْتَ الدرَفْسِ

٢٤ فى اخْضِرَارٍ من اللبَاسِ على أَصْـ

فَرَ يَخْتَالُ فى صَبِيغَةِ وَرْسِ

٢٥ وَعِرَاكَ الرجَالِ بَيْنَ يَدَيْـــهِ

فى خُفُوتٍ مِنْهُمْ وإغماضِ جَرْسِ

٢٦ مِنْ مُشِيحٍ يَهْوِى بِعَامِلِ رُمْحٍ ،

وَمُلِيحٍ من السنَانِ بِتُرْسِ

---

(٢٢) أنطاكية : مدينة فى شمالى سورية فى الحوض الأدنى لنهر العاصى . وقد كان فى الإيواء صورة كسرى أنو شروان وقيصر ملك أنطاكية .

(٢٣) يزجى : يسوق . الدرفس : العلم الكبير . معرب من « درفش» بالفارسية . الموقعة التى يشير إليها الشاعر وكانت مسجلة على جدران القصر وقعت سنة ٥٤٠ م بين الفرس والروم .

(٢٤) الورس : نبت أصفر باليمن يصبغ به ونباته كالسمسم ..

(٢٥) خفوت : سكون صوت : الجرس : الصوت أو خفية .

(٢٦) المشيح : الحذر المجد . عامل الرمح : صدره وهو ما يلى السنان دون الثعلب . المليح : الخائف الحذر : يقال الاح منه أى خاف وحاذر . وأصله الخوف من شئ له بريق ثم كثر حتى استعمل فى كل مخوف . السنان . نصل الرمح .

الترس : صفحة من الفولاذ مستديرة تحمل للوقاية من السيف ونحوه

٢٧ تَصِفُ الْعَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَـاءٍ لَهُمْ بَيْنَهُمْ إِشَارَةُ خُرْسِ

٢٨ يَغْتَلِي فِيهِم ارْتِيَابِي حَتَّى تَتَقَرَّاهُمُ يَدَايَ بِلَمْسِ

٢٩ قد سَقَانِي ولَمْ يُصَرِّدْ « أَبو الغَوْثِ » على الْعَسْكَرَيْنِ شَرْبَةَ خُلْسِ

٣٠ مِنْ مُدَامٍ تَظُنُّهـا وَهْيَ نَجْمٌ ضَوَّأَ اللَّيْلَ أَو مُجَاجَةُ شَمْسِ

٣١ وتَرَاهَا إِذا أَجَدَّتْ سُرُورًا وارْتِيَاحاً لِلشَّارِبِ الْمُتَحَسِّي

٣٢ أَفْرِغَتْ فِي الزُّجَاجِ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ فَهْيَ مَحْبُوبَةٌ إِلى كُلِّ نَفْسِ

٣٣ وَتَوَهَّمْتُ أَنَّ « كِسْرَى أَبَرْوِيـزَ » مُعَاطِيَّ ، و « الْبَلَهْبَذَ » أُنْسِي

---

(٢٧) تصف العين : تتخيل من دقة الصورة .

(٢٨) يغتلى : من الغلو أى يتجاوز الحد ويزيد . تتقراهم : تتبعهم .

٢٩ — لم يصرد : لم يقلل . شربه خلس : أى مختلسة سريعة . أبو الغوث يحيى بن البحترى

(٣٠) المجاجة : الريق ، عصارة كل شئ .

(٣١) أجدت : أحدثت . المتحسى : الذى يشرب شيئا بعد شئ .

(٣٣) البلهبذ : مغنى كسرى أبرويز .

٣٤ حُلُمٌ مُطْبِقٌ عَلى الشَّكِّ عَيْـنِي
أَمْ أَمَانٍ غَيَّرْنَ ظَنِّي وَحَدْسِي ؟ !

٣٥ وكَأَنَّ «الإِيوانَ» مِنْ عَجَبِ الصَّنْـ
عَةِ جَوْبٌ فى جَنْبِ أَرْعَنَ جِلْسِ

٣٦ يُتَظَنَّى مِنَ الْكَآبَةِ إِذْ يَبْـ
ـدُو لِعَيْنَيْ مُصَبِّحٍ أَو مُمَسِّي :

٣٧ مُزْعَجاً بالفِرَاقِ عَنْ أُنْسِ إِلْفٍ
عَزَّ ، أَو مُرْهَقاً بِتَطْلِيقِ عِرْسِ

٣٨ عَكَسَتْ حَظَّهُ اللَّيَالِي ، وَبَاتَ الْـ
ـمُشْتَرِي فِيهِ وَهْوَ كَوْكَبُ نَحْسِ

٣٩ فهو يُبْدِي تَجَلُّدًا وَعَلَيْـــهِ
كَلْكَلٌ مِنْ كَلاكِلِ الدَّهْرِ مُرْسِي

---

(٣٤) الحدس : التوهم .

(٣٥) الجوب : من معانيه الترس ، وقد فسر بعض الأدباء هذا البيت بهذا المعنى ؛ وليس كذلك لأن (الجوب(مصدر جاب الشئ : خرقه ؛ والصخرة نقبها . وفى التنزيل العزيز « وثمود الذين جابوا الصخر بالواد» فالشاعر هنا يشبه القصر بانه لضخامته كأنه خرق أو نحت فى الجبل الأرعن الجبل ذو الرعن وهو أنف يتقدم الجبل . الجلس : الجبل العالى .

(٣٦) يتظنى : يظن .

(٣٨) المشترى : كوكب ، وهو كوكب سعد ؛ ولكن الشاعر يقول إنه انقلب كوكب نحس بما أصاب القصر من مصائب .

(٣٩) الكلكل : الصدر أو ما بين الترقوتين .

٤٠ لم يَعِبْهُ أَنْ بُزَّ مِنْ بُسُطِ الدِّيـ
بَاجِ ، واسْتُلَّ من سُتُورِ الدِّمَقْسِ

٤١ مُشْمَخِرٌّ ، تَعْلُو لهُ شُرُفَاتٌ
رُفِعَتْ فى رُءُوسِ «رَضْوَى» و «قُدْسِ»

٤٢ لابساتٌ مِنَ الْبَيَاضِ فَمَا تُبْـ
صِرُ مِنْهَا إلَّا غَلائِلَ بُرْسِ

٤٣ لَيْسَ يُدْرَى أَصُنْعُ إنْس لِجِنٍّ
سَكَنُوهُ ، أَمْ صُنْعُ جِنٍّ لإِنْسِ

٤٤ غَيْرَ أَنِّى أَرَاهُ يَشْهَدُ أَنْ لَمْ
يَكُ بَانِيــهِ فى المُلُوكِ بِنِكْسِ

٤٥ فكَأَنِّى أَرَى الْمَرَاتِبَ والقَــوْ
مَ إذَا ما بَلَغْتُ آخِرَ حِسِّى

---

(٤٠) بز : سلب . استل : انتزع وأخرج كما ينتزع السيف من الغمد .
الديباج : الثوب الذى سداه ولحمته حرير ، فارسى معرب ، الدمقس : الحرير الأبيض وقيل : إنه القز الأبيض وما يجرى مجراه فى البياض والنعومة ؛ أعجمى معرب . وقد تكلمت به العرب قديما .

(٤١) المشمخر : العالى : الشرفة من القصر : ما أشرف من بنائه . رضوى : جبل بالمدينة . قدس : جبل شامخ ينقاد إلى المتعشى بين العرج والسقيائم يتقطع .

(٤٢) غلائل : جمع قليلة وهى الشعر المجتمع . سبايخ : جمع السبيخة وهى القطعة من السيخ وهى ما تناثرا أو انتفش من الريش أو القطن ونحوهما . غلائل : جمع غلالة وهى شعار يلبس تحت الثوب . البرس (بضم الباء وكسرها) : القطن .

(٤٤) النكس : الضعيف الدنئ الذى لا خير فيه والمقصر عن غاية النجدة والكرم .

٤٦ وكأَنَّ الْوُفُودَ ضَاحِينَ حَسْرَى
مِنْ وُقُوفٍ خَلْفَ الزِّحَامِ وخُنْسِ

٤٧ وكأَنَّ الْقِيَانَ وَسْطَ الْمَقَاصِيـ
ـرِ يُرَجِّعْنَ بَيْنَ حُوٍّ وَلُعْسِ

٤٨ وكأَنَّ اللِّقَاءَ أَوَّلُ مِنْ أَمْـــ
ـسِ ، وَوَشْكُ الْفِرَاقِ أَوَّلُ أَمْسِ

٤٩ وكأَنَّ الَّذِى يُرِيدُ اتِّبَـــاعاً
طَامِعٌ فى لُحُوقِهِمْ صُبْحَ خَمْسِ

٥٠ عُمِّرَتْ لِلسُّرُورِ دَهْرًا ، فصارتْ
للتَّعَزِّى رِبَاعُهُمْ والتَّــأَسِّى

٥١ فَلَهَا أَنْ أُعِينَهَـــا بِدُمُـــوعٍ
مُوقَفَاتٍ عَلَى الصَّبَـابَةِ حُبْسِ

٥٢ ذَاكَ عِنْدِى ، ولَيْسَتْ الدَّارُ دَارِى
باقْتِرَابٍ مِنْهَا ، ولا الجِنْسُ جِنْسِى

---

(٤٦) الضاحى : البارز للشمس . حسرى : جمع حسيرة ، وهو المعيى : الخنس : المتأخرون .

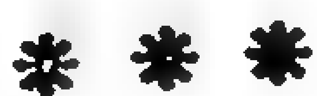
(٤٧) القيان : الإماء المغنيات ، واحدتهن قينة . المقاصير : جمع المقصورة وهى الدار الواسعة المحصنة ، والحجرة من حجر الدار . الحو : ذوات الحوة وهى سواد إلى الخضرة أو حمرة المحصنة ، والحجرة من حجر الدار . الحو : ذوات الحوة وهى سواد إلى الخضرة أو حمرة إلى السواد ، وهى صفة للشفاه . اللعس : ذوات اللعس وهو سواد مستحسن فى الشفاه

٥٣ غَيْرَ نُعْمَى لأَهْلِهَا عِنْدَ أَهْـلِي
غَرَسُوا من زَكَائِهَـا خَيْرَ غَرْسِ

٥٤ أَيَّدُوا مُلْكَنَا ، وشَـدُّوا قُـوَاهُ
بِكُمَاة تَحْـتَ السَّنَوَّرِ خُمْسِ

٥٥ وأَعَانُوا عَلَى كَتَائِبِ « أَرْيَـا
ط » بِطَعْنٍ عَلَى النُّحُورِ وَدَعْسِ

٥٦ وأَرَانِى مِنْ بَعْدَ أَكْلَفُ بالأَشْـ
رَافِ طُرًّا من كُلِّ سِنْخٍ وأُسِّ



(٥٣) الزكاء : النمو .

(٥٤) الكماة : جمع الكمى وهو الشجاع أو لابس السلاح لأنه يكمى نفسه أى يسترها بالدرع والبيضة . الخمس : الشجعان . السنور : كل سلاح من حديد والسنور معرب ، وهو الدروع . أشار الشاعر هنا وفى البيت التالى إلى العون الذى قدمه الفرس فى عهد أبو شروان إلى اليمنيين الذين يرجع إليهم نسب الشاعر فهو قحطانى ، وذلك حين ساعد الفرس سيف بن ذى يزن لإمام غزو الأحباش لليمن بقيادة القائد الحبشى . « أرياط » المذكور فى البيت التالى .

(٥٥) الدعس : الدوس والطعن . أرياط : القائد الحبشى الذى غزا اليمن .

(٥٦) السنخ : الأصل والمنبت، الأس (بفتح الهمزة وكسرها وضمها) : أصل البناء .

وقال يصف الذئب ولقاءه إيَّاه ؛ قال أبو الغوث ؛ قلتُ لأبى : إن النَّاس يقولون هذه القصيدة لأبى تمَّام . فقال : يابنىَّ ! قدضرط أبوك أحسن من هذه القصيدة :

١ سَلامٌ عليكُمْ لاوفاءُ ولا عَهْدُ !
أَما لَكُمُ مِنْ هَجْرِ أحبابِكُمْ بُدُّ ؟

٢ أَأَحْبابَنَا قد أَنْجزَ البَيْنُ وَعْده
وَشِيكاً ، ولم يُنْجَزْ لنا منكُمُ وَعْدُ

٣ أَأَطْلالَ دارِ « العامِرِيَّةِ » باللوَى
سَقَتْ رَبْعَكِ الأَنْواءُ ! ما فَعَلَتْ هِنْدُ ؟

٤ أَدارَ اللوَى بَيْنَ الصَّرِيمَةِ والْحِمَى !
أَما للْهوى إِلَّا رَسِيسَ الجَوَى قَصْدُ ؟

٥ بِنَفْسِيَ مَنْ عذَّبْتُ نَفْسِى بِحُبِّهِ
وإنْ لم يَكُنْ مِنْهُ وصالٌ ولا وُدُّ

---

(٢) وشيكا : سريعا .

(٣) العامرية : نسبة إلى قبيلة بنى عامر وفيهم ليلى العامرية . اللوى : ما التوى من الرمل أو مسترقه . الأنواء « جمع النوء (: وهى النجم والمطر ، ومعناه سقوط نجم وطلوع آخر وكان العرب فى الجاهلية يقولون إذا سقط نجم وطلع آخر لا بد من أن يكون عند ذلك المطر

(٤) الرسيس : الحرقة وثباتها . الصريمة : القطعة من معظم الرمل . الحمى : المكان فيه كلأ يحمى من الناس أن يدعوه . الشقيقة كل غلظ بين رملين . وهذه كلها اعتبارها مواضع ؛ وكذلك اللوى .

٦ حبيبٌ من الأَحباب شَطَّتْ به النَّوَى
وأَىُّ حبيبٍ ما أَتى دَونَهُ الْبُعْدُ !

٧ إذا جُزْتَ « صَحْرَاءَ الغُوَيْرِ » مغرِّباً
وجازَتْكَ بَطْحَاءُ « السَّوَاجِير » يا « سَعْدُ »

٨ فقُلْ لبَنِى الضحَّاكِ مَهْلًا ! فإنَّنِى
أَنَا الأُفْعُوَانُ الصِّلُّ والضَّيْغَمُ الْوَرْدُ

٩ « بَنِى وَاصِلٍ » مَهْلًا ! فإنَّ ابْنَ أُخْتِكُمْ
له عَزَمَاتٌ هَزْلُ آرائِها جِـدٌّ

١٠ متى هِجْتُمُوهُ لاتَهِيجُوا سِوَى الرَّدَى
وإنْ كانَ خِرْقاً ما يُحَلُّ له عَقْدُ

١١ مَهِيباً كَنَصْلِ السَّيْفِ لو قُذِفَتْ بِهِ
ذرى « أَجَاءٍ » ظَلَّتْ وأَعْلامُهُ وُهْدُ

١٢ يَوَدُّ رِجَالٌ أَنَّنِى كنتُ بعضَ مَنْ
طُوتْهُ الْمَنَايَا لا أَروحُ ولا أَغدُو

---

(٧) البطحاء : مسيل واسع فيه رمل ودقائق الحصى . الغوير : ماء لبنى كلب السواجير : سواجير منبج نهر مشهور من عمل منبج بالشام .

(٨) بنو الضحاك : قوم الحسن بن رجاء بن أبى الضحاك . الأفعوان : ذكر الأفعى . الصل : الداهية من الحيات . الضيغم : الأسد . الورد : الشجاع الجرىء وكذلك يطلق على الأسد .

(١٠) الخرق من الفتيان : الظريف فى سماحة ونجدة .

(١١) الأعلام : الأعالى والجبال . وهد : منخفضة . أجأ : أحد جبلى طيء .

١٣ ولولا احتمالى ثِقْلَ كُل مُلِمَّـةٍ
تَسُوءُ الأَعادِى لم يَوَدُّوا الذى وَدُّوا

١٤ ذَرِينى وإيَّاهُمْ فحسبى صَرِيمتى
إذا الحربُ لم يُقدح لمُخْمِدِها زَنْدُ

١٥ ولى صاحبٌ عَضْبُ المضاربَ صارمٌ
طويلُ النجَادِ ما يُفلُّ له حدٌّ

١٦ وباكيةٍ تشكُو الفراقَ بأَدْمُـعٍ
تُبَادِرُها سَحًّا كما انْتَشَرَ العِقدَ

١٧ رشادَك لا يَحْزُنْكَ بَيْنُ ابْنِ هِمَّـةٍ
يتُوقُ إلى العلياء ليس له ندٌّ

١٨ فمنْ كان حُرًّا فَهْوَ للعَزْمِ والسُّرَى
وللَّيلِ من أفعاله والكَرَى عَبْدُ

١٩ وليلٍ كأَنَّ الصبحَ فى أخريَاتِهِ
حُشَاشَةُ نَصْلٍ ضَمَّ إفْرَنْدَه غمْدُ

٢٠ تَسَرْ بَلْتُهُ والذئْبُ وَسْنَانُ هَاجِعٌ
بِعَيْنِ ابنِ ليلٍ ماله بالكَرَى عَهْدُ

---

(١٥) العضب : القاطع ، وهو يصف سيفه . النجاد ـ حمائل السيف .

(١٩) إفرندا لسيف : جوهرة ووشيه . ويقصد بحشاشة نصل : بقيته .

(٢٠) ويقصد بابن الليل : اللص .

٢١ أُثِير القَطَا الْكُدْرِى عن جِمَاتِـهِ
وتَـأْلَفُنِى فيهِ الثعالبُ والرُّبْدُ

٢٢ وأَطْلَسَ مِلْءِ الْعَيْنِ يَحْمِلُ زَوْرَهُ
وَأَضْلاعَهُ من جانِبَيْهِ شَوى نَهْدُ

٢٣ له ذَنَبٌ مِثْل الرِّشَاءِ يَجُـرُّهُ
وَمَتْنٌ كَمَتْنِ الْقَوْسِ أَعْوَجُ مُنْـأَدُ

٢٤ طَواه الطَّوَى حتى اسْتَمَرَّ مَرِيرُهُ
فما فيهِ إلا الْعَظْمُ والروحُ والْجِلْدُ

٢٥ يُقَضْقِضُ عُصْلاً فى أَسِرَّتِهَا الرَّدَى
كَقَضْقَضَةِ المَقْرُورِ أَرْعَدَهُ الْبَرْدُ

٢٦ سَمَالى وبى من شدة الجوع مابهِ
ببيداءَ لم تُحْسَسْ بها عيشةٌ رَغْدُ

---

(٢١) القطا : جمع القطاة ، طائر فى حجم الحمام . الكدرى : المائل إلى السواد والغبرة . جماته : مراقده . الربد . جمع أربد ، وهو الأسد ، وحية خبيثة ، والأسود المنقط بحمرة .

(٢٢) أطلس : أى أغبر إلى سواد يصف لون الذئب . الزور : أعلى وسط الصدر أو ملتقى عظام الصدر . الشوى : اليدان والرجلان والأطراف ، أى ما كان غير مقتل من الأعضاء . نهد : بارز ، ناتىء ، مرتفع .

(٢٣) الرشاء : الحبل . المتن : الظهر . المنآد : المعوج .

(٢٤) الطوى : الجوع . المرير : ما اشتد فتله من الحبال ، ويقال : استمر مريره أى قوى بعد ضعف .

(٢٥) يقضقض عصلا : أى يصوت بأسنان صلبة معوجة . الأسرة : الخطوط . المقرور : الذى أصابه البرد .

(٢٦) البيداء : الفلاة .

٢٧ كِلانا بها ذِئبٌ يُحَدثُ نَفْسَــهُ
بصاحِبِهِ ، والجَدُّ يتعِسُهُ الجَدُّ

٢٨ عَوَى ثُمَّ أَقْعَى ،وارتَجَزْتُ فهِجْتُهُ
فأَقْبَلَ مِثْلَ البَرْقِ يَتْبَعُهُ الرَّعْدُ

٢٩ فأَوْجَرْتُهُ خَرْقَاءَ تَحْسِبُ رِيشَها
على كَوْكَبٍ يَنْقَضُّ واللَّيْلُ مُسْوَدُّ

٣٠ فما ازداد إلا جُرْأَةً وصرامةً ،
وأَيْقَنْتُ أن الأَمْرَ منهُ هو الجِدُّ

٣١ فأَتْبَعْتُهَا أُخرَى فأَضْلَلْتُ نَصْلَهَا
بِحَيْثُ يَكُونُ اللُّبُّ والرُّعْبُ والْحِقْدُ

٣٢ فَخَرَّ وقد أَوْرَدْتُهُ مَنْهَلَ الرَّدَى
على ظَمَإٍ لوْ أَنَّهُ عَذُبَ الْوِرْدُ

٣٣ وقُمْتُ فجمَّعْتُ الحصى ،واشْتَوَيْتُهُ
عليهِ ، وللرمضاء منْ تحتِهِ وَقْدُ

---

(٢٧) الجد (بفتح الجيم) : الحظ . (وبالكسر) . الاجتهاد .

(٢٨) أقعى : جلس على مؤخره . ارتجز : رفع صوته ، ويقال : ارتجز الرعد ، أى سمع صوته متتابعا .

(٢٩) أوجره : طعنه ، الخرقاء : أراد بها السهام ، تشبيهاً لها بالريح التى يقال لها الخرقاء وهى التى لا تدوم على جهتها فى هبوبها .

(٣١) النصل : حديدة الرمح والسهم والسكين . وربما سمى السيف نصلا . والشاعر يقصد أنه أدخل النصل فى القلب الذى تجتمع فيه الأحقاد والخوف واللب .

٣٤ وَبِلْتُ خَسِيساً منهُ ثُمَّ تَرَكْتُهُ
وأَقْلَعْتُ عنهُ وهو مُنْعَفِرٌ فَرْدُ

٣٥ لقد حَكَمَتْ فينا الليالى بِجَوْرِها ؛
وحُكْمُ بَنَاتِ الدَّهْرِ ليس لهُ قَصْدُ

٣٦ أَفِى الْعَدْلِ أَنْ يَشْقَى الكريمُ بجَوْرِها
ويأْخُذَ منها صفوَها القُعْدُدُ الْوَغْدُ ؟

٣٧ ذَرِينى من ضَرْبِ الْقِدَاحِ على السُّرَى
فَعَزْمِى لا يَثْنِيهِ نَحْسٌ ولا سَعْدُ !

٣٨ سَأَحْمِلُ نَفْسِى عند كُلِّ مُلِمَّةٍ
على مِثْلِ حَدِّ السَّيْفِ أَخْلَصَهُ الْهِنْدُ

٣٩ لِيَعْلَمَ مَنْ هابَ السُّرَى خَشْيَةَ الرَّدَى
بِأَنَّ قَضَاءَ اللهِ ليس له رَدُّ

٤٠ فإن عِشْتُ محمودًا فَمِثْلِى بَغَى الغِنَى
لِيَكْسِبَ مَالًا أو يُنَثَّ لَهُ حَمْدُ

٤١ وإنْ مِتُّ لم أَظفَرْ فليس على امْرِئٍ
غَدَا طَالِباً إِلَّا تَقَصِّيهِ والْجَهْدُ

(٣٤) المنعفر : الممرغ فى التراب . الخسيس : القليل القدر .

(٣٥) القصد فى الحكم : العدل وعدم الميل ناحية .

(٣٦) القعدد : الجبان واللئيم .

(٣٧) كان العرب يستخيرون القداح عند خروجهم بأن يجعلوا القداح فى كيس ثم يخرجون أحدها ، فان كان أمر خرج صاحبه لما اعتزمه ، وإن نهاه قعد .

(٤٠) ينث : يذاع .

وقال يمدح أبا جعفر [محمد بن علي بن عيسى] القُمِّي :

١ ذَاكَ وَادِي الأَرَاكِ فَاحْبِسْ قَلِيلاً ... مُقْصِرًا مِنْ صَبَابَةٍ أَوْ مُطِيلاَ !

٢ قِفْ مَشُوقًا أَوْ مُسْعِدًا أَوْ حَزِينًا ... أَوْ مُعِينًا ، أَوْ عَاذِرًا أَوْ عَذُولاَ

٣ إِنَّ بَيْنَ الكَثِيبِ فَالْجِزْعِ فَالآ ... رَامِ رَبْعًا لآلِ هِنْدٍ مُحِيلاَ

٤ أَبْلَتِ الرِّيحُ وَالرَّوَائِحُ وَالأَيَّـ ... ـامُ مِنْهُ مَعَالِمًا أَوْ طُلُولاَ

٥ وَخِلافُ الْجَمِيلِ قَوْلُكَ لِلذَّاكِرِ ... عَهْدَ الأَحْبَابِ : صَبْرًا جَمِيلاَ !

٦ لا تَلُمْهُ عَلَى مُوَاصَلَةِ الدَّمْعِ ، ... فَلُؤْمٌ لَوْمُ الْخَلِيلِ الْخَلِيلاَ

٧ عَلَّ مَاءَ الدُّمُوعِ يُخْمِدُ نَارًا ... مِنْ جَوَى الْحُبِّ أَوْ يَبُلُّ غَلِيلاَ

٨ وَبُكَاءُ الدِّيَارِ مِمَّا يَرُدُّ الشَّـ ... ـوْقَ ذِكْرًا ، وَالْحُبَّ نِضْوًا ضَئِيلاَ

٩ لَمْ يَكُنْ يَوْمُنَا طَوِيلاً بِنَعْمَا ... نَ ، وَلَكِنْ كَانَ الْبُكَاءُ طَوِيلاَ

---

(١) احبس : توقف .

وادى الأراك : واد قرب مكة ، وقيل موضع بعرفة .

(٢) المسعد : المعين ؛ وقيل المعين على البكاء .

(٣) الربع : الدار .

المحيل : الذى أتت عليه أحوال أى سنون فتغير .

الكثيب : موضع

الجزع : موضع .

الآرام : هى دارة ذكرها ياقوت باسم دارة الآرام .

(٤) الروائح : الأمطار أو السحب التى تجىء رواحا أى عند العشى .

(٨) النضو : المهزول .

(٩) نعمان : نعمان الأراك وهو واد ينبته ، وهو بين مكة والطائف . وقيل وادلهذيل على ليلتين من عرفات . والأراك : شجر .

١٠ قَدْ وَجَدْنَا «مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ» غَايَةَ الْمَجْدِ قَائِلًا وَفَعُولا
١١ وَلَقِينَا شَمَائِلًا تَنْشُرُ الْمِسْـ ـكَ سَحِيقًا، كَمَا لَقِينَا الشَّمُولا
١٢ وَرَأَيْنَا سِيمَا نَدًى وَسَمَاحٍ لَمْ نُرِدْ بَعْدَهَا عَلَيْهِ دَلِيلا
١٣ «أشْعَرِيٌّ» حَبَاهُ «عِيسَى بْنُ مُوسَـ ـى» شَرَفًا بَاتَ لِلسِّمَاكِ رَسِيلا
١٤ وَجَوَادٌ لَوْ أَنَّ عَافِيهِ رَامُوا بُخْلَهُ لَمْ يَرَوْا إِلَيْهِ سَبِيلا
١٥ خَلَّفَ الْفَوْتَ لِلْجِيَادِ، وَأَلْقَى فِي مَدَى الْمَجْدِ غُرَّةً وَحُجُولا
١٦ [بَلَغَ الْمَكْرُمَاتِ: طُولًا وَعَرْضًا وَتَنَاهَتْ إِلَيْهِ عَرْضًا وَطُولا]
١٧ و «بَنُو الأَشْعَرِ» الَّذِي مَلَأَ الأَرْ ضَ: رِجَالًا وَنَجْدَةً وَخُيُولا
١٨ شَوْكَةٌ مَا أَصَابَتِ الدَّهْرَ إِلَّا تَرَكَتْ فِي الْغِرَارِ مِنْهُ فُلُولا
١٩ رَادَةُ الْمَجْدِ أَوَّلًا وَأَخِيرًا، وَأُولُو الْمَجْدِ وَاحِدًا وَقَبِيلا
٢٠ [وَنُجُومٌ إِذَا تَوَقَّدْنَ فِي الْخَطْـ ـبِ تَوَهَّمْتَ فِي النُّجُومِ أُفُولا]

---

(١١) السحيق : المسحوق .
الشمول : الخمر أو الباردة منها ، واستعارها للأخلاق .
(١٣) حباه : أعطاه . الرسيل : الموافق لك فى النضال وغيره. السماك : أحد السماكين وهما كوكبان .
الأشعرى : نسبة إلى أشعر ، هو نبت بن أدد .
(١٤) العافى : كل طالب فضل أو رزق .
(١٥) والبهر (بضم الباء) : انقطاع النفس من الإعياء . الغرة : بياض فى جبهة الفرس .
والحجول : البياض فى رجله .
(١٨) الغرار : حد السيف .
الفلول : جمع الفل وهو الكسر أو الثلمة فى حد السيف .
(١٩) رادة : جمع رائد .

٢١ فَكَأَنَّ الأُصولَ كانَتْ فُروعًا وكأنَّ الفُروعَ كانَتْ أُصولا
٢٢ وَمُحِبُّونَ لِلرَّسولِ وَأَهْلِ الْ بَيْتِ حُبًّا يُرْضُونَ فيهِ الرَّسولا
٢٣ سَلَبُوا البِيضَ بَزَّهَا فَأَقامُوا بِظُبَاهَا التَّأويلَ والتَّنْزِيلا
٢٤ تَحْسِبُ الشَّيبَ في الوَقيعَةِ شُبَّا نًا إذا صافَحَ الصَّقيلُ الصَّقيلا
٢٥ فَإِذا حارَبُوا أَذَلُّوا عَزِيزًا ، وإذا سالَمُوا أَعَزُّوا ذَلِيلا
٢٦ وإذا عِزُّ مَعْشَرٍ زالَ يَوْمًا مَنَعَ السَّيْفُ عِزَّهُمْ أَنْ يَزُولا
٢٧ يا «أَبا جَعْفَرٍ» لَقَدْ راحَ إفْضَا لُكَ خَطْبًا عَلى الكِرامِ جَلِيلا
٢٨ رَدَّ مَعْرُوفُكَ الكَثِيرَ قَلِيلا ، وَأَرَى جُودُكَ الجَوادَ بَخِيلا
٢٩ لا أَظُنُّ البُخَّالَ يُوفُونَكَ الشُّكْ رَ ، وَلَوْ كانَ بُكْرَةً وَأَصِيلا
٣٠ جَعَلَتْهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ دُفَعٌ مِنْ كَ أَفادَتْ حَمْدًا وأَعْطَتْ جَزِيلا
٣١ كَمْ لِجَدْوَاكَ مِنْ مَقامٍ لَعَمْرِي كانَ مِنْ رَيِّقِ السَّحابِ بَدِيلا

(٢٢) يشير إلى أنهم من الشيعة .

(٢٣) البيض : السيوف .

البز : هنا الأغماد ؛ وهى فى الأصل الثياب من الكتان أو القطن . الظبا : جمع الظبة وهى حد السيف أو سنانه .

التنزيل : يقصد به كتاب الله الحكيم .

(٢٤) الوقيعة : صدمة الحرب والقتال .

الصقيل : السيف .

(٢٧) الخطب : الأمر صغر أو عظم ، وقيل الاسم للأمر المكروه دون المحبوب .

(٢٨) أرى جودك الجواد بخيلا : أى أن جود الممدوح جعله يرى أى جواد آخر بخيلا.

(٣١) ريق السحاب : أفضله وأوله .

الجدوى : العطية

٣٢ عِنْدَ وَجْهٍ طَلْقٍ إِذَا مَا تَبَدَّى ... لِحُزُونِ الْخُطُوبِ عَادَتْ سُهُولا

٣٣ يَئِسَ الْحَاسِدُونَ مِنْكَ ، وَكَانُوا ... أَسَفًا يَنْظُرُونَ نَحْوَكَ حُولا

٣٤ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ إِذَا وَصَلُوا تِلْـ ... ـكَ الْمَسَاعِي بِالْفِكْرِ ذَابُوا انْحُولا

٣٥ فَثَنَوْا عَنْكَ أَعْيُنًا وَقُلُوبًا ... لَمْ يَرُدُّوا إِلَّا حَسِيرًا كَلِيلا

٣٦ وَكَفَانِي عَلَى الَّذِي يُوجَدُ الْفَضْـ ... ـلُ لَدَيْهِ بِالْحَاسِدِينَ دَلِيلا

* * *

وقال يعاتب الفتح بن خاقان ، [ويعتذر إليه] :

١ يَهُونُ عَلَيْهَا أَنْ أَبِيتَ مُتَيَّمَا ... أُعَالِجُ وَجْدًا فِي الضَّمِيرِ مُكَتَّمَا

٢ وقد جَاوَرَتْ أَرْضَ الأَعَادِي وأَصْبَحَتْ ... حِمًى وَصْلُهَا مُذْ جَاوَرَتْ أَبْرَقَ الْحِمَى

٣ بَكَتْ حُرْقَةً عِنْدَ الْوَدَاعِ ، وأَرْدَفَتْ ... سُلُوًّا نَهَى الأَحْشَاءَ أَنْ تَتَضَرَّمَا

(٣٢) الحزون : جمع الحزن وهو ما غلظ من الأرض ؛ واستعارة للخطوب الشديدة

(٣٣) حولا : أى بأعين حولاء .

(٣٤) المساعى : المكرمات ، واحدتها مسعاة .

(٣٥) الحسير : الكيل . الضعيف ، المعيى ، المتلهف .

(٢) أبرق الحمى : الأبرق حجارة ورمل مختلطة .

٤ فَلَمْ يَبْقَ مِنْ مَعْرُوفِهَا غَيْرُ طَائِفٍ
مُلِمٍّ بِنَا وَهْنًا إِذَا الرَّكْبُ هَوَّمَا

٥ يَكَادُ وَمِيضُ الْبَرْقِ عِنْدَ اعْتِرَاضِهِ
يُضِيءُ خَيَالًا جَاءَ مِنْهَا مُسَلِّمَا

٦ وَلَمْ أَنْسَهَا عِنْدَ الْوَدَاعِ وَنَثْرَهَا
سَوَابِقَ دَمْعٍ أَعْجَلَتْ أَنْ تُنَظَّمَا

٧ وَقَالَتْ : هَلِ الْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ مُعْقِبٌ
أَخَا رِضًا فَيَعُودَ الشَّمْلُ مِنَّا مُلَأَّمَا ؟

٨ خَلِيلَيَّ ! كُفَّا اللَّوْمَ فِي فَيْضِ عَبْرَةٍ
أَبَى الْوَجْدُ إِلا أَنْ تَفِيضَ وَتَسْجُمَا

٩ وَلاتَعْجَبَا مِنْ فَجْعَةِ الْبَيْنِ ، إِنَّنِي
رَأَيْتُ الْهَوَى طَعْمَيْنِ ، شُهْدًا وعَلْقَمَا

١٠ عَذِيرِي مِنَ الأَيَّامِ رَنَّقْنَ مَشْرَبِي ،
وَلَقَّيْنَنِي نَحْسًا مِنَ الطَّيْرِ أَشْأَمَا

---

(٤) الوهن : من الليل نحو منتصفة أو بعد ساعة منه .
هوم : هز رأسه من النعاس ، نام قليلا .
(٥) الوميض : لمعان البرق خفيفا وظهوره بدون اعتراض فى الغيم .
(٧) ملأما : (بتشديد الهمزة) : ملتئما أى موصولا مجمعا .
(٨) تسجم : تسيل قليلا أو كثيراً وتنصب .
(١٠) رنق : كدر .
الطير : التطير وهو التشاؤم

١١ وَأَكْسَبَتْنِي سُخْطَ امْرِئٍ بِتُّ مُوْهِنًا
أَرَى سُخْطَهُ لَيْلًا ، مَعَ اللَّيْلِ ، مُظْلِمَا

١٢ تَبَلَّجَ عَنْ بَعْضِ الرِّضَا ، وانْطَوَى عَلَى
بَقِيَّةِ عَتْبٍ شَارَفَتْ أَنْ تَصَرَّمَا

١٣ إِذَا قُلْتُ يَوْمًا : قَدْ تَجَاوَزَ حَدَّهَا
تَلَبَّثَ فِي أَعْقَابِهَا وَتَلَوَّمَا !

١٤ وَأَصْيَدَ إِنْ نَازَعْتُهُ اللَّحْظَ رَدَّهُ
كَلِيلًا ، وإِنْ رَاجَعْتُهُ الْقَوْلَ جَمْجَمَا

١٥ ثَنَاهُ العِدَى عَنِّي فَأَصْبَحَ مُعْرِضًا ،
وأَوْهَمَهُ الْوَاشُونَ حَتَّى تَوَهَّمَا

١٦ وَقَدْ كَانَ سَهْلًا وَاضِحًا فَتَوَعَّرَتْ
رُبَاهُ ، وطَلْقًا ضَاحِكًا فَتَجَهَّمَا

١٧ أَمُتَّخِذٌ عِنْدِي الإِسَاءَةَ مُحْسِنٌ ،
وَمُنْتَقِمٌ مِنِّي امْرُؤٌ كَانَ مُنْعِمَا !؟

---

(١١) الموهن : كالوهن ، نحو منتصف الليل أو بعد ساعة منه .

(١٢) تبلج : ضحك وهش . تتصرم : تتقطع وتنقضى . شارفت : دنت .

(١٣) تلوم : بمعنى تلبث .

(١٤) الأصيد : الرجل الذى يرفع رأسه كبرا ، وقيل للملك أصيد لأنه لا يلتفت من الزهو يمينا أوشمالا :

جمجم : لم يبين كلامه .

١٨ وَمُكْتَسِبٌ فِي الْمَلامَةِ مَاجِدٌ
يَرَى الْحَمْدَ غُنْماً وَالْمَلامَةَ مَغْرَمَا ؟!

١٩ يُخَوِّفُنِي مِنْ سُوءِ رَأْيِكَ مَعْشَرٌ ؛
وَلا خَوْفَ إلا أَنْ تَجُورَ وَتَظْلِمَا

٢٠ أُعِيذُكَ أَنْ أَخْشَاكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثٍ
تَبَيَّنَ أَوْ جُرْمٍ إِلَيْكَ تَقَدَّمَا

٢١ أَلَسْتُ الْمُوَالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِدٍ
هِيَ الأَنْجُمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمَا

٢٢ ثَنَاءٌ كَأَنَّ الرَّوْضَ مِنْهُ مُنَوَّراً
ضُحًى ، وكَأَنَّ الْوَشْيَ فِيهِ مُسَهَّمَا

٢٣ فَلَوْ أَنَّنِي وَفَّرْتُ شِعْرِي وَقَارَهُ
وَأَجْلَلْتُ مَدْحِي فِيكَ أَنْ يَتَهَضَّمَا

٢٤ لأَكْبَرْتُ أَنْ أُومِي إِلَيْكَ بِإِصْبَعٍ
تَضَرَّعُ أَوْ أُدْنِي لِعَذِرَةٍ فَمَا !

٢٥ وَكَانَ الَّذِي يَأْتِي بِهِ الدَّهْرُ هَيِّنَا
عَلَيَّ وَلَوْ كَانَ الْحِمَامَ الْمُقَدَّمَا

---

(٢٢) المسهم : المخطط .

(٢٣) يتهضم : يظلم يغتصب حقه .

٢٦ وَلَكِنَّنِى أُعْلِى مَحَلَّكَ أَنْ أُرَى
مُدِلاًّ، وأَسْتَحْيِيكَ أَنْ أَتَعَظَّمَا

٢٧ أَعِدْ نَظَرًا فِيمَا تَسَخَّطْتَ، هَلْ تَرَى
مَقَالاً دَنِيًّا أَوْ فَعَالاً مُذَمَّمَا

٢٨ رَأَيْتُ الْعِرَاقَ أَنْكَرَتْنِى وَأَقْسَمَتْ
عَلَىَّ صُرُوفُ الدَّهْرِ أَنْ أَتَشَأَّمَا

٢٩ وَكَانَ رَجَائِى أَنْ أَءُوبَ مُمَلَّكًا
فَصَارَ رَجَائِى أَنْ أَءُوبَ مُسَلَّمَا

٣٠ ولا مَانِعٌ مِمَّا تَوَهَّمْتُ غَيْرَ أَنْ
تَذَكَّرَ بَعْضَ الأُنْسِ أَو تَتَذَمَّمَا

٣١ وَأَكْبَرُ ظَنِّى أَنَّكَ الْمَرْءُ لَمْ تَكُنْ
تُحَلِّلُ بِالظَّنِّ الذِّمَامَ الْمُحَرَّمَا

٣٢ حَيَاءً، فَلَمْ يَذْهَبْ بِىَ الْغَىُّ مَذْهَبًا
بَعِيدًا، وَلَمْ أَرْكَبْ مِنَ الأَمْرِ مُعظَمَا

٣٣ وَلَمْ أَعْرِفِ الذَّنْبَ الَّذِى سُؤْتَنِى لَهُ
فَأَقْتُلَ نَفْسِى حَسْرَةً وَتَنَدُّمَا

(٢٦) المدل : الواثق بنفسه وبآلائه وعدته .
(٢٨) أتشأم (بتشديد الهمز) : أذهب إلى الشام .
(٢٩) أءوب : أعود وأرجع .
(٣١) الذمام : الحق والحرمة .

٣٤ ولَوْ كَانَ مَا خُبِّرْتَهُ أَوْ ظَنَنْتَهُ
لَمَا كانَ غَرْوًا أَنْ أَلُومَ وتكْرُمَا

٣٥ أُذَكِّرُكَ الْعَهْدَ الَّذِى لَيْسَ سُؤْدُدًا
تَنَاسِيهِ ، والْوُدَّ الصَّحِيحَ الْمُسَلَّمَا

٣٦ وَمَا حَمَلَ الرُّكْبَانُ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
وَأَنْجَدَ فِى أَعْلَى الْبِلادِ وَأَتْهَمَا

٣٧ أُقِرُّ بِمَا لَمْ أَجْنِهِ مُتَنَصِّلًا
إِلَيْكَ ، عَلَى أَنِّى إِخَالُكَ أَلْوَمَا

٣٨ لِىَ الذَّنْبُ مَعْرُوفًا وَإِنْ كُنْتُ جَاهِلًا
بِهِ ، ولَكَ الْعُتْبَى عَلَىَّ وَأَنْعَمَا

٣٩ وَمِثْلُكَ إِنْ أَبْدَى الْفَعَالَ أَعَادَهُ
وإِنْ صَنَعَ الْمَعْرُوفَ زَادَ وَتَمَّمَا

٤٠ وَمَا النَّاسُ إلا عُصْبَتَانِ : فَهَذِهِ
قَرَنْتَ بِهَا بُؤْسَى ، وَهَاتِيكَ أَنْعُمَا

٤١ وَحِلَّةِ أَعْدَاءٍ رَمَيْتَ بِعَزْمَةٍ
فَأَضْرَمْتَهَا نَارًا ، وَأَجْرَيْتَهَا دَمَا

---

(٣٤) غرو : عجب . ألوم : ألوْم ؛ خفف همزته
(٣٦) أنجد : أتى نجداً أو خرج إلى نجد ، أتهم : أتى تهامة أو نزل فيها
(٣٨) العتبى : الرضا . وأنعم ؛ من قولهم : لك الرضا وأنعم ، أى زاد على ذلك .
(٤١) الحلة : المحلة .

وقال يمدح الهيثم بن عثمان الغنوىّ :

١ أكانَ الصِبَا إلا خَيَالاً مُسَلِّمَا
أقامَ كَرَجْعِ الطَّرْفِ ثُمَّ تَصَرَّمَا

٢ أرَى أقْصَرَ الأيَّامِ أحْمَدَ فى الصبَا
وأطْوَلَهَا مَا كانَ فِيهِ مُذَمَّمَا

٣ تَلَوَّمْتُ فى غَىّ التَّصَابِى فَلَمْ أُرِد
بَدِيلاً بِهِ لَوْ أنَّ غَيًّا تَلَوَّمَا

٤ وَيَوم تَلاقٍ فى فِرَاقٍ شَهِدْتُهُ
بِعَيْنٍ إذَا نَهْنَهْتُهَا دَمَعَتْ دَمَا

٥ لَحِقْنَا الفَرِيقَ الْمُسْتَقِلَّ ضُحًى وَقَدْ
تَيَمَّمَ مِنْ قَصْدِ الْحِمَى مَا تَيَمَّمَا

٦ فَقُلْتُ : انْعَمُوا مِنَّا صَبَاحًا ! وإنَّمَا
أرَدْتُ بِمَا قُلْتُ الْغَزَالَ الْمُنَعَّمَا

---

(١) الطرف : العين : لا يجمع لأنه فى الأصل مصدر ، وقيل فى جمعه : أطراف . رجع الطرف : ارتداده . تصرم : تقطع ، انقضى .

(٢) المذمم : المذموم .

(٣) تلوم فى الأمر : تمكث فيه وانتظر . والتلوم كذلك : تكلف اللوم . الغى : الضلال والانهماك فيما يخالف الرشد

(٤) نهنهتها : كففتها

(٥) المستقل : الذى ذهب وارتحل . تيمم الشئ : توخاه وتعمده . وأصله تأمم أبدلت الهمزة ياء . الحمى : حمى ضرية .

(٦) أنعم صباحا : دعاء بأن يلقى النعيم فى صباحه ، ويقال : عم صباحا بمعنى انعم.

٧ ومَا بَاتَ مَطْوِيًّا عَلى أَرْيَحِيَّـة
بِعَقْبِ النَّوَى إِلَّا امْرُؤٌ بَـاتَ مُغْرَمَا

٨ غَنِيتُ جَنِيبًـا لِلْغَـوَانِى يَقُـدْنَنِى
إِلى أَنْ مَضَى شَرْخُ الشَّـبَابِ وَبَعْـدَمَـا

٩ وَقِـدْمًا عَصَيْتُ الْعَـاذِلاتِ ، ولَمْ أُطِعْ
طَوَالِعَ هَـذَا الشَّيْبِ إِذْ جِئْنَ لُـوَّمَـا

١٠ أَقُـولُ لِثَجَّاجِ الْغَمَامِ ، وَقَدْ سَرَى
بِمُحْتَفِـلِ الشُّـؤْبُوبِ صَـابَ فَعَمَّمَا

١١ أَقِـلَّ وأَكْثِرْ لَسْـتَ تَبْـلُغُ غَايَةً
تَبِينُ بِهَـا حَتَّى تُضَارِعَ «هَيْثَمَـا»

١٢ هُـوَ الْمَوْتُ ، وَيْلٌ مِنْهُ ، لا تَلْقَ حَدَّهُ
فَمَـوْتُكَ أَنْ تَلْقَاهُ فِى النَّقْعِ مُعْلِمًا!

---

(٧) الأريحية : خصلة يرتاح بها إلى الندى ؛ أى الهشاشة لابتذال العطايا

(٨) غنيت : عشت . جنيب : جاء فى (اللسان) : «ورجل جنيب كأنه يمشى فى جانب متعقفاً ؛ عن ابن الأعرابى وأنشد :

ربا الجوع فى أونيه حتى كأنه
جنيب به ، إن الجنيب جنيب

اى جاع حتى كأنه يمشى فى جانب متعقفا » .

(١٠) الثجاج من المطر : السيال الشديد الانصباب : المحتفل : المجتمع .
الشؤبوب : الدفعة من المطر . صاب يصوب : انصب ونزل

(١١) ضارع يضارع : شابه . هيثم : هواسم الممدوح .

(١٢) النقع : الغبار . المعلم : الفارس جعل لنفسه علامة الشجعان فى الحرب

١٣ فَتًى لَبِسَتْ مِنْهُ اللَّيَالِي مَحَاسِنًا
أَضَاءَ لَهَا الأُفْقُ الَّذِي كَانَ مُظْلِمَا

١٤ مُعَانِي حُرُوبٍ قَوَّمَتْ عَزْمَ رَأْيِهِ ؛
وَلَنْ يَصْدُقَ الْخَطِّيُّ حَتَّى يُقَوَّمَا

١٥ غَدَا ، وغَدَتْ تَدْعُو نِزَارٌ وَيَعْرُبٌ
لَهُ أَنْ يَعِشَ الدهرَ فيهم ويَسْلَمَا

١٦ تَوَاضَعَ مِنْ مَجْدٍ لَهُمْ وَتَكَرُّمٍ ؛
وكُلُّ عَظِيمٍ لا يُحِبُّ التَّعَظُّمَا

١٧ لِكُلِّ قَبِيلٍ شُعْبَةٌ مِنْ نَوَالِهِ
وَيَخْتَصُّهُ مِنْهُمْ قَبِيلٌ إِذَا انْتَمَى

١٨ تَقَصَّاهُمُ بِالْجُودِ حَتَّى لأَقْسَمُوا
بِأَنَّ نَدَاهُ كَانَ والبحرَ تَوْءَمَا

١٩ أَبَا الْقَاسِمِ ! اسْتَغْزَرْتَ دَرَّ خَلائِقٍ
مَلأَنَ فِجَاجَ الأَرْضِ بُؤْسَى وَأَنْعُمَا !

---

(١٤) قومت : عدلت وسوت . الخطى : رماح تنسب إلى الخط
(١٥) نزار : هو نزار بن معد بن عدنان . يعرب : جد من أجداد العرب .
(١٧) القبيل : الجماعة من الثلاثة فصاعدا . والقبيل : لغة فى القبيلة
الشعبة : الطائفة من الشئ .
(١٨) تقصاهم : تتبعهم .
(١٩) استغزر : طلب غزارته أى كثرته . الدر : فى الأصل اللبن وكثرته ؛ واستعارة الخير فى خلائق الناس . الفجاج : جمع الفج وهو الطريق الواسع الواضح بين جبلين فى قبل جبل وهو أوسع من الشعب .

٢٠ إذَا مَعْشَرٌ جَارَوْكَ فِى إثْرِ سُؤْدُدٍ
تَأَخَّرَ مِنْ مَسْعَاتِهِمْ مَا تَقَدَّمَا

٢١ سَلامٌ ! وإنْ كانَ السَّلامُ تَحِيَّةً
فَوَجْهُكَ دُونَ الرَّدِّ يَكْفِى الْمُسَلِّمَا

٢٢ أَلَسْتَ تَرَى مَدَّ الْفُرَاتِ كَأَنَّهُ
جِبَالُ شَرَوْرَى جِئْنَ فى الْبَحْرِ عُوَّمَا ؟

٢٣ وَلَمْ يَكُ مِنْ عَادَاتِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ
رَأَى شِيمَةً مِنْ جَارِهِ فَتَعَلَّمَا

٢٤ وَمَا نَوْرَ الرَّوْضِ الشَّآمِىِّ ، بَلْ فَتًى
تَبَسَّمَ مِنْ شَرْقِيِّهِ فَتَبَسَّمَا !

٢٥ أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلْقُ يَخْتَالُ ضَاحِكًا
مِنَ الْحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَا

٢٦ وَقَدْ نَبَّهَ النَّوْرُوزُ فى غَلَسِ الدُّجَى
أَوَائِلَ وَرْدٍ كُنَّ بالأَمْسِ نُوَّمَا

(٢٠) السؤدد : السيادة ، الشرف ، الرفعة ، كرم المنصب . المسعاة : المكرمة ، المعلاة فى أنواع المجد ؛ والجمع : مساع .

(٢٢) الفرات : نهر . شرورى : جبل

(٢٣) الشيمة : الطبيعة ، الخلق ، العادة ؛ وتهمز . والجمع : شيم .

(٢٥) الطلق : المشرق .

(٢٦) النوروز — النيروز : أكبر أعياد الفرس ومعناه بالفارسية : اليوم الجديد. وهو أول يوم من السنة الشمسية الإيرانية ، ويوافق اليوم الحادى والعشرين من شهر مارس ؛ أى مطلع الربيع ؛ وإلى ذلك يشير الشاعر فى قوله .
الغلس : ظلمة آخر الليل .

٢٧ يُمَزِّقُهَا بَرْدُ النَّدَى فَكَأَنَّهُ
يَبُثُّ حَدِيثًا كانَ أَمْسِ مُكَتَّمَا

٢٨ ومِنْ مَسجَر رَدَّ الرَّبِيعُ لِبَاسَهُ
عَلَيْهِ كَمَا نَشَّرْتَ وَشْيًا مُنَمْنَمَا

٢٩ أَحَلَّ ، فَأَبْدَى لِلْعُيُونِ بَشَاشَةً ،
وكانَ قَذًى لِلْعَيْنِ إِذْ كَانَ مُحْرِمَا

٣٠ وَرَقَّ نَسِيمُ الريحِ حَتَّى حَسِبْتُهُ
يَجِيءُ بِأَنْفَاسِ الأَحِبَّةِ نُعَّمَا

٣١ فَمَا يَحْبِسُ الرَّاحَ الَّتِي أَنْتَ خِلُّهَا ،
وما يَمْنَعُ الأَوْتَارَ أَنْ تَتَرَنَّمَا !؟

٣٢ وَمَا زِلْتَ شَمْسًا للنَّدَامَى إِذَا انْتَشَوْا
وَرَاحُوا بُدُورًا يَسْتَحِثُّونَ أَنْجُمَا

---

(٢٧) يبث : يفشي . والبث ؛ في الأصل : إفشاء السر ، وقيل هو نشر الحديث الذى كتمه أحق من نشره . يبث الحديث : ينشره ويذيعه .

(٢٨) الوشي : نقش الثوب ويكون من كل لون ونوع من الثياب الموشية تسمية بالمصدر وهو تحسين الثوب . المنمنم : المزخرف المنقوش المزين .

(٢٩) أحل المحرم : دخل فى أشهر الحل أو خرج إلى الحل وخرج من ميثاق كان عليه وأحل : لبس ثياب الحل . المحرم : الذى تجرد من ثيابه ولبس ثياب الإحرام فى الحج .
القذى : ما يقع فى العين وفى الشراب من تبنه أو غيرها .

(٣١) الراح : الخمر .

(٣٢) الندامى : جمع الندمان وهو المنادم على الشرب .
انتشوا : سكروا .
استحثه : حضه .

٣٣ تَكَرَّمْتَ مِنْ قَبْلِ الكُئُوسِ عَلَيْهِمُ
فَمَا اسْطَعْنَ أَنْ يُحْدِثْنَ فِيكَ تَكَرُّمَا !

* * *

وقال يمدح المتوكل ، ويصف البِرْكَة :

١ مِيلُوا إلى الدَّارِ مِنْ لَيْلَى نُحَيِّيهَا
نَعَمْ ، وَنَسْأَلُهَا عَنْ بَعْضِ أَهْلِيهَا !

٢ يا دِمْنَةً جَاذَبَتْهَا الرِّيحُ بَهْجَتَهَا
تَبِيتُ تَنْشُرُهَا طَوْرًا وَتَطْوِيهَا

٣ لازِلْتِ فِي حُلَلٍ لِلْغَيْثِ ضَافِيَةٍ
يُنِيرُهَا الْبَرْقُ أَحْيَانًا وَيُسْدِيهَا

٤ تَرُوحُ بِالْوَابِلِ الدَّانِي رَوَائِحُهَا
عَلَى رُبُوعِكِ ، أَوتَغْدُو غَوَادِيهَا

(٣٣) يريد أن يقول : إن هذا الممدوح يتكرم قبل الكئوس فيبالغ حتى لا تستطيع الكئوس أن تزيده تكرماً .

(٢) الدمنة : آثار الدار

(٣) ضافية : طويلة متسعة . ينيرها : من نار الثوب وأناره وهو أن يمد خيوطه عرضا وذلك بخلاف أسداه أى مد خيوطه طولا .

(٤) الروائح : الأمطار والسحب التى تجىء رواحاً ؛ واحدتها الرائحة .وتقابلها الغوادى وهى السحب تنشأ غدوة أو مطرة الغداة ؛ واحدتها غادية
الوابل : المطر الشديد الضخم القطر .

٥ إنَّ الْبَخِيلَةَ لم تُنْعِمْ لِسَائِلِهَـا
يَوْمَ الْكَثِيبِ ، ولم تَسْمَعْ لِدَاعِيهَا

٦ مَرَّتْ تَـأَوَّدُ فِى قُرْبٍ وفِى بُعُـد
فَالْهَجْرُ يُبْعِدُهَا والدَّارُ تُدْنِيهَـا

٧ لَوْلا سَوَادُ عِذَارٍ لَيْسَ يُسْلِمُنِى
إلى النُّهَى لَعَدَتْ نَفْسِى عَوَادِيهَا

٨ قَدْ أَطْرُقُ الْغَادَةَ الْحَسْنَاء مُقْتَدِرًا
عَلى الشَّبَابِ فَتُصْبِينِى وَأُصْبِيهَا

٩ فى لَيْلَةٍ لا يَنَالُ الصُّبْحُ آخِرَهَـا
عَلِقْتُ بِالرَّاحِ أُسْقاهَا وأسقِيهَا

١٠ عَاطَيْتُهَا غَضَّةَ الأَطْرَافِ مُرْهَفَةً
شَرِبْتُ مِنْ يَدِهَا خَمْرًا وَمِنْ فِيهَا

(٥) الكثيب : موضع .
(٦) تأود : تتأود ؛ أى تنحنى وتنعطف .
(٧) العذار : جانب اللحية أى الشعر الذى يحاذى الأذن وبينه وبين الأذن بياض أو هو من الوجه ما ينبت عليه الشعر المستطيل المحاذى لشحمة الأذن إلى أصل اللحى .
النهى : العقل ؛ سمى به لأنه ينهى عن القبيح وعن كل ما ينا فيه . عدت نفسى : ظلمت نفسى .
العوادى : الصوارف وعوادى الدهر : عوائقه .
(٩) الراح : الخمر .
(١٠) المرهفة : الدقيقة . الأطراف : اليدان والرجلان . الغض : الطرى
من فيها : من ثغرها .

١١ يا مَنْ رأى البِرْكةَ الحَسْنَاءَ رُؤْيَتَهَا
والآنِسَاتِ إذا لاحَتْ مَغَانِيهَا

١٢ بِحَسْبِهَا أنَّهَا مِنْ فَضْلِ رُتْبَتِهَا
تُعَدُّ وَاحِدَةً ، والبَحْرُ ثَانِيهَا

١٣ مَا بَالُ دِجْلَةَ كَالغَيْرَى تُنَافِسُهَا
فى الحُسْنِ طَوْرًا ، وأطْوارًا تُبَاهِيهَا

١٤ أمَا رَأَتْ كَالِئَ الإِسْلامِ يَكْلَؤُهَا
مِنْ أنْ تُعَابَ ، وبانِي المَجْدِ يَبْنِيهَا

١٥ كَأَنَّ جِنَّ « سُلَيْمَانَ » الَّذِينَ وَلُوا
إبْدَاعَهَا فَأَدَقُّوا فِي مَعَانِيهَا

١٦ فَلَوْ تَمُرُّ بِهَا « بِلْقِيسُ » عَنْ عُرُضٍ
قَالَتْ : هِيَ الصَّرْحُ تَمْثِيلًا وَتَشْبِيهَا

(١١) الآنسات : جمع الآنسة ؛ وهى الطيبة النفس . لاحت : نظرت
المغانى : جمع المغنى : وهو المنزل الذى غنى به أهله أى أقاموا ثم ظعنوا . ويقصد بذلك المقاصير .

(١٣) الغيرى : مؤنث الغيران .
تنافسها فيه : ترغب فى مباراتها فيه .
تباهيها : تفاخرها

(١٤) يكلأ : يحفظ ويحرس

(١٥) سليمان : هو النبى سليمان بن داود عليه السلام . وقد سخر الله له الجن

(١٦) عن عرض : أى من جانب.
بلقيس : ملكة سبأ التى كانت عاصمة ملكها على اليمن ؛ وهى التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم دون تصريح باسمها فى قوله تعالى :« وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم» (آيتان : ٢٢ . ٢٣ سورة النمل) وقد دعاها سليمان إلى عبادة الله ، وقد وفدت على سليمان فى مقر ملكه .

١٧ تَنْحَطُّ فيها وُفُودُ الْمَاءِ مُعْجَلَةً
كَالْخَيْلِ خَارِجَةً مِنْ حَبْلِ مُجْرِيهَا
١٨ كَأَنَّمَا الْفِضَّةُ الْبَيْضَاءُ سَائِلَةً
مِنَ السَّبَائِكِ تَجْرِى فِى مَجَارِيهَا
١٩ إِذَا عَلَتْهَا الصَّبَا أَبْدَتْ لَهَا حُبُكًا
مِثْلَ الْجَوَاشِنِ مَصْقُولاً حَوَاشِيهَا
٢٠ فَرَوْنَقُ الشَّمْسِ أَحْيَاناً يُضَاحِكُهَا
وَرَيِّقُ الْغَيْثِ أَحْيَانًا يُبَاكِيهَا
٢١ إِذَا النُّجُومُ تَرَاءَتْ فِى جَوَانِبِهَا
لَيْلاً حَسِبْتَ سَمَاءً رُكِّبَتْ فِيهَا

---

(١٧) رواية « تنحط » أقوى فى التعبير عما تخيله الشاعر من جريان الماء من نهر نيزك إلى البركة فهى تنحط مسرعة . ويزيد وضوح الصورة قوله « وفود الماء» مما يدل على حركة اندفاع الماء من عل ، ثم قوله « معجلة » .

(١٨) السبائك : جمع السبيكة ؛ وهى القطعة المذوبة المفرغة فى القالب من الفضة ونحوها

(١٩) الصبا : ريح : حبك الماء : الجعد المتكسر ، ويقصد به التكسر الذى يعلو على الماء إذا مرت به الريح .

الجواشن : الدروع ؛ واحدتها جوشن .

المصقول : المجلو

الحواشى : جمع الحاشية وهى من الشىء جانبه .

(٢٠) حاجب الشمس : ناحية منها ، أول ما يبدو منها مستعار حاجب العين . وحواجب الشمس : أشعتها .

رونق الشمس : حسنها وإشراقها .

الريق : أن يصيبك من شىء المطر يسير .

٢٢ لا يَبْلُغُ السَّمَكُ الْمَحْصُورُ غَايَتَهَا
لِبُعْدِ مَا بَيْنَ قَاصِيهَا ودَانِيهَـــا

٢٣ يَعُمْنَ فِيهَـــا بِأَوْسَاطٍ مُجَنَّحَـــة
كَالطَّيْرِ تَنْفُضُ فِي جَوٍّ خَوَافِيهَا

٢٤ لَهُنَّ صَحْنٌ رَحِيبٌ فى أَسَافِلِهَا
إِذَا انْحَطَطْنَ ، وبَهْوٌ فى أَعَالِيهَـــا

٢٥ صُورٌ إِلى صُورَةِ الدُّلْفِينِ يُونِسُهَا
مِنْهُ انْزِوَاءٌ بِعَيْنَيْهِ يُوَازِيهَـــا

٢٦ تَغْنَى بَسَاتِينُهَا الْقُصْوَى بِرُؤْيَتِهَا
عَنِ السَّحَائِبِ مُنْحَلاً عَزَالِيهَـــا

٢٧ كَأَنَّهَا حِينَ لَجَّتْ فى تَدَفُّقِهَـــا
يَدُ الْخَلِيفَةِ لَمَّا سَالَ وَادِيهَا

---

(٢٢) يشير إلى السمك الذى كان يسبح فى الحوض (الصحن) الرحيب .

(٢٣) الخوافى : ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت ، وقيل هى الأربع اللواتى بعد المناكب .

(٢٤) الصحن : يقصد به هنا حوض أقيم فى أسفل البركة .

البهو : الواسع من كل شىء ، البيت القدم أمام البيوت

(٢٥) صور : مائلات ؛ الواحد أصور ، والواحدة صوراء . الانزواء . الأنقباض
الدلفين Dolphine : عرفها المعاجم بأنها دابة بحرية قيل إنها تنجى الغريق.

(٢٦) تغنى به عن غيره : تكتفى . العزالى (بكسر اللام وفتحها) : جمع العزلاء ؛ وهى مصب الماء من القربة ونحوها . ويقال أرسلت السماء عزاليها أى انهمرت بالمطر يقول إن البساتين القاصية تكتفى برؤية هذه البركة عن انهمار المطر .

٢٨ وَزَادَهَا زِينَةً مِنْ بَعْدِ زِينَتِهَــــا
أَنَّ اسْمَهُ حِينَ يُدْعَى مِنْ أَسَامِيهَا

٢٩ مَحْفُوفَةٌ بِرِيَاضٍ لا تَزَالُ تَرَى
رِيشَ الطَّوَاوِيسِ تَحْكِيهِ وَيَحْكِيهَا

٣٠ وَدَكَّتَيْنِ كَمِثْلِ الشِعْرَيَيْنِ غَدَتْ
إِحْدَاهُمَا بِإِزَا الأُخْرَى تُسَامِيهَا

٣١ إِذَا مَسَاعِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بَدَتْ
لِلْوَاصِفِينَ فَلا وَصْفٌ يُدَانِيهَا

٣٢ إِنَّ الْخِلافَةَ لَمَّا اهْتَزَّ مِنْبَرُهَــا
بِجَعْفَرٍ أُعْطِيَتْ أَقْصَى أَمَانِيهَا

٣٣ أَبْدَى التَّوَاضُعَ لَمَّا نَالَهَا رِعَـةً
مِنْهُ ، وَنَالَتْهُ فَاخْتَالَتْ بِهِ تِيهَـا

٣٤ إِذَا تَجَلَّتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحِلْيَتِهَــا
رَأَتْ مَحَاسِنَهَا الدُّنْيَا مَسَاوِيهَا

---

(٢٨) من هذا يتضح أن هذه البركة كانت تعرف باسم «البركة الجعفرية» نسبة إلى جعفر المتوكل .

(٣٠) الشعريان : من أسطع الكواكب وأقربها إلى الأرض

(٣١) المساعي : المكرمات : واحدتها مسعاة .

(٣٢) يقصد بقوله « اهتز منبرها» أى اعتلاه هذا الخليفة ، فدبت فيه الحركة .

٣٥ يَابْنَ الْأَبَاطِحِ مِنْ أَرْضٍ أَبَاطِحُهَا
فى ذِرْوَةِ الْمَجْدِ أَعْلَى مِنْ رَوَابِيهَا

٣٦ مَا ضَيَّعَ اللهُ فى بَدْوٍ ولا حَضَرٍ
رَعِيَّةً أَنْتَ بِالْإِحْسَانِ رَاعِيهَا

٣٧ وَأُمَّةٍ كانَ قُبْحُ الْجَوْرِ يُسْخِطُهَا
دَهْرًا ، فَأَصْبَحَ حُسْنُ الْعَدْلِ يُرْضِيهَا

٣٨ بَثَثْتَ فِيهَا عَطَاءً زَادَ فِى عَدَدِ الْـ
عَلْيَا . وَنَوَّهْتُ بِاسْمِ الْجُودِ تَنْوِيهَا

٣٩ مازِلْتَ بَحْرًا لِعَافِينَا ، فَكَيْفَ وَقَدْ
قَابَلْتَنَا ولَكَ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا

٤٠ أَعْطَاكَهَا اللهُ عن حقٍّ رَآكَ لَـهُ
أَهْلًا ، وَأَنْتَ بِحَقِّ اللهِ تُعْطِيهَا

* * *

(٣٥) يريد بقوله « يابن الأباطح » أنه من قريش الأباطح الذين ينزلون أباطح مكتوهم غير قريش الظواهر. والأباطح : جمع الأبطح وهو مسيل واسع فيه الحصى ؛ وأبطح مكة مسيل واديها .

(٣٨) نوه به : أشاد به وأظهره .

(٣٩) العافى : طالب المعروف .

وقال يمدح الفتح بن خاقان . ويذكر مُنازلته الأَسد :

١ أَجِدَّكَ مَا يَنْفَكُّ يَسْرِى لِ «زَيْنَبَا»
خَيَالٌ إذا آبَ الظَّلامُ تأَوَّبا

٢ سَرَى من أعالى «الشامِ» يَجْلُبُهُ الكرَى
هُبُوبَ نَسِيمِ الرَّوْضِ تَجْلُبُهُ الصَّبَا

٣ ومازارنى إلاَّ وَلِهْتُ صَبَابَةً
إلَيْهِ ، وإلاَّ قُلْتُ : أَهْلًا وَمَرْحَبَا

٤ وَلَيْلَتَنَا بِ «الْجِزْعِ» بَاتَ مُسَاعِفاً
يُرِينِى أَنَاةَ الْخَطْوِ نَاعِمَةَ الصِّبَا

٥ أَضَرَّتْ بِضَوْءِ البدرِ ، والبدرُ طالعٌ ؛
وَقَامَتْ مَقَامَ البَدْرِ لمَّا تَغَيَّبَا

٦ ولو كانَ حَقّاً ما أَتَتْهُ لأَطفأَتْ
غَلِيلاً ، وَلا فَتَكَتْ أَسيرًا مُعَذَّبَا

---

(١) أجدك : أبجد منك . آب وتأوب : بمعنى رجع وتراجع ، وليس من التأويب الذى هو سير النهار كله .

(٢) الصبا : ريح مهبها جهة الشرق

(٣) وله : تحير من شدة الوجد

(٤) أناة الخطو : مترفقة فى سيرها متمهلة ، ويقال للمرأة التى فيها فتور عند القيام : الأناة . الجزع : موضع .

٧ عَلِمْتُكِ إنْ مَنَّيْتِ ، مَنَّيْتِ مَوْعِدًا
جَهَاماً ؛ وإنْ أَبْرَقْتِ ، أَبْرَقْتِ خُلَّبَا

٨ وكُنْتُ أَرَى أَنَّ الصُّدُودَ الذِى مَضَى
دَلالٌ ، فَمَا إنْ كَانَ إلاَّ تَجَنُّبَا

٩ فَوَا أَسَفِى إحَتَّامَ أَسْأَلُ مَانِعًا ،
وآمَنُ خَوَّاناً ، وَأُعْتِبُ مُذْنِبا ؟

١٠ سأَثْنِى فؤادِى عنكِ ، أو أَتْبَعُ الهوى
إليكِ إنِ اسْتَعْصَى فؤادىَ أَوْ أَبَى

١١ أَقُولُ لرَكْبٍ مُعْتَفِينَ تَدَرَّعُــوا
على عَجَلٍ قِطْعاً من الليلِ غَيْهَبَا :

١٢ رِدُوا نائلَ « الفَتْح بْنِ خَاقَانَ » إنَّهُ
أَعَمُّ نَدًى فيكم وأَقْرَبُ مَطْلَبَا

١٣ هو العَارِضُ الثَّجَّاجُ أَخْضَلَ جُودُهُ ،
وطارت حَوَاشِى بَرْقِهِ فَتَلَهَّبَــا

١٤ إذا ما تَلَظَّى فى وَغًى أَصْعَقَ الْعِدَى ،
وإنْ فاضَ فى أُكْرُومة غَمَرَ الرُّبَا

---

(٧) الجهام : السحاب لا ماء فيه ، الخلب : المطمع المخلف ، ويقال لمن يعد ولا ينجز إنما أنت كبرق خلب .

(٩) أعتب : أطلب العتبى ، أى الرضا .

(١١) المعتفى : الرائد . الغيهب : الظلام

(١٣) العارض : السحاب المعترض فى الأفق . الثجاج : المطر السيال الشديد الانصباب أخضل : ابتل . الجود (بفتح الجيم) : المطر الغزير .

١٥ رَزِينٌ إذا ما القَوْمُ خَفَّتْ حُلُومُهُمْ ،
وَقُورٌ إذا ما حَادِثُ الدَّهْرِ أَجْلَبَا

١٦ حياتُكَ أَنْ يَلْقَاكَ بالجُودُ راضِياً ،
ومَوْتُك أَنْ يلقاك بالبأسِ مُغْضَبَا

١٧ حَرُونٌ إذا عازَزْتَهُ فى ذُلِمَّةٍ ،
فإِنْ جِئْتَهُ مِنْ جَانِبِ الذُّلِّ أَصْحَبَا

١٨ فَتًى لم يُضَيِّعْ وَجْهَ حَزْمٍ ، ولم يَبِتْ
يُلاحِظُ أعجازَ الأُمورِ تَعَقُّبَا

١٩ إِذَا هَمَّ لم يَقْعُدْ بِهِ العَجْزُ مَقْعَدًا ،
وإِنْ كَفَّ لم يَذْهَبْ بِهِ الْخُرْقُ مَذْهَبَا

٢٠ أُعِيرَ مَوَدَّاتِ الصُّدورِ ، وأُعْطِيَتْ
يَدَاهُ على الأَعْدَاءِ نَصْرًا مُرَهَّبَا

٢١ وَقَيْنَاكَ صَرْفَ الدَّهْرِ بِالأَنْفُسِ التى
تُبَجَّلُ ، لا نَألُوكَ أُمًّا ولا أَبَا

٢٢ فلم تَخْلُ من فَضْلٍ يبلِّغُكَ التى
تَرُومُ ، ومن رأى يُرِيكَ المُغَيَّبَا

---

(١٥) الحلوم : العقول . أجلب : توعد بالشر .

(١٧) الحرون : العنيد الذى لا يسهل انقياده . عازرته : غالبته . أصحب : انقاد بعد صعوبة .

(١٩) الخرق (بضم الخاء) : ضد الرفق .

٢٣ ومَا نَقَمَ الحُسَّادُ إلاَّ أَصَالةً
لَدَيْكَ ، وفِعْلاً أَرْيَحِيًّا مُهَذَّبَا

٢٤ وقد جَرَّبوا بِالأَمْسِ منك عزيمةً
فَضَلْتَ بها السَّيْفَ الحُسَامَ الْمُجَرَّبَا

٢٥ غَدَاةَ لَقِيتَ اللَّيْثَ ، واللَّيْثُ مُخْدِرٌ
يُحَدِّدُ نَاباً لِلِّقَاءِ ومِخْلَبَا

٢٦ يُحَصِّنُهُ من « نَهْرِ نَيْزَكَ » مَعْقِلٌ
مَنِيعٌ تَسَامَى غَابُهُ وتَأَشَّبَا

٢٧ يَرُودُ مَغَارًا بالظَّوَاهِرِ مُكْثِبًا ،
ويَحْتَلُّ رَوْضًا بالأَبَاطِحِ مُعْشِبَا

٢٨ يُلاعِبُ فيه أُقْحُواناً مُفَضَّضًا
يَبِصُّ ، وَحَوْذَاناً على الماءِ مُذْهَبَا

٢٩ إذا شاءَ غادَى عانَةً ، أو عَدا على
عقائلِ سِرْبٍ ، أَوْ تَقَنَّصَ رَبْرَبا

---

(٢٥) مخدر : مستتر فى عرينه

(٢٦) المعقل : الملجأ . تأشب : التف شجره واشتبك . نهر نيزك : نهر حفره المتوكل ليروى حديقة الحيوان التى أنشأها .

(٢٧) يرود : يدور ويذهب ويجئ فى طلب الشئ المغار : الكهف .
المكثب : المطمئن بين الجبال . والظواهر : أعالى الأودية وأشراف الأرض . الأباطح : جمع أبطح وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى .

(٢٨) الأقحوان : زهره . الحوذان : زهر . يبص : يبرق ويتلألأ .

(٢٩) غادى : بكر . العانة : القطيع من حمر الوحش . العقائل : الكرائم من الإبل
الربرب : القطيع من بقر الوحش .

٣٠ يَجُرُّ إلى أشبالِهِ كُلَّ شَارِقٍ
عَبِيطاً مُدَمًّى أو رَمِيلاً مُخَضَّبَـــا

٣١ وَمَنْ يَبْـغِ ظُلْماً فى حَرِيمك يَنْصَرِفْ
إلى تَلَفٍ أو يُثْمِن خَزْيَانَ أخْيَبَا

٣٢ شَهِدْتُ لقد أنصَفْتَهُ يومَ تَنْبَرِى
له مُصْلِتاً عَضْباً مِن البيضِ مِقْضَبا

٣٣ فلم أرَ ضِرْغَامَيْنِ أصْدَقَ منكما
عِرَاكاً إذا الهَيَّابَةُ النِّكْسُ كَذَّبَا !

٣٤ هِزَبْرٌ مَشَى يَبْغِى هِزَبْرًا ، وَأَغْلَبٌ
من القومِ يَغْشَى –باسلَ الوَجْهِ– أغْلَبَا

٣٥ أدَلَّ بِشَغْبٍ ثم هَالَتْهُ صَوْلَةٌ
رآكَ لها أمْضَى جَنَاناً وأشْغَبَا

٣٦ فَأحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فيك مَطْمَعاً
وأقْدَمَ لَمَّا لم يَجِدْ عنك مَهْرَبَا

(٣٠) الشارق : الشمس حين تشرق . العبيط : الذبيحة تنحر وهى سمينة فتية من غير علة : الرميل : الملطخ بالدم .

(٣١) الحريم : كل موضع تجب حمايته .

(٣٢) العضب : السيف القاطع

(٣٣) الضرغام : من أسماء الأسد . النكس : الرجل الضعيف والمقصر عن غاية النجدة

(٣٤) الهزبر : من أسماء الأسد . الأغلب : الأسد ، والغليظ الرقبة وهو من صفات المدح .

(٣٥) أدل : اجترأ . الشغب : كثرة الجلبة واللغط المؤدى إلى الشر .

٣٧ فلمْ يُغْنِه أَنْ كَرَّ نَحْوَكَ مُقْبِلاً ،
ولم يُنْجِهِ أَنْ حادَ عنك مُنَكِّبا

٣٨ حَمَلْتَ عليه السَّيْفَ ، لاَ عَزْمُكَ انْثَنَى
ولا يَدُك ارْتَدَّتْ ، ولا حَدُّهُ نَبَا

٣٩ وكُنْتَ متى تَجْمَعْ يَمِينَيْكَ تَهْتِكِ الـ
ـضَّرِيبةَ ،أَولا تُبْقِ للسَّيْفِ مَضْرِبَا

٤٠ أَلَنْتَ لِىَ الأَيَّامَ من بَعْدِ قَسْوَةٍ ،
وعاتَبْتَ لى دَهْرِى الْمُسِىءَ فَأَعْتَبَا

٤١ وَأَلْبَسْتَنِى النُّعْمَى الّتِى غَيَّرَتْ أخى
علىَّ ، فأَضْحى نازِحَ الْوُدِّ أَجْنَبَا

٤٢ فلا فُزْتُ من مَرِّ اللَّيَالى براحـة
اذَا أَنا لم أُصْبِحْ بِشُكْرِكَ مُتْعَبَا

٤٣ على أَنَّ أَفْوَافَ القَوَافِى ضَمِنَّ مِنْ
لِشُكْرِكَ إِمّا أَبْدَى دَجَى اللَّيْلِ كَوْكَبَا

٤٤ ثَنَاءٌ تَقَصَّى الأَرْضَ : نَجْدًا وغائرًا
وسارت به الرُّكْبانُ : شَرْقًا ومَغْرِبَا

---

(٣٩) الضريبة : كل ما يضرب بالسيف . يمينيك : جعل كلتا يديه يمينا .

(٤٠) أعتب : رضى .

(٤٣) يقال : ثوب أفواف : أى رقيق

وقال يرثي المتوكل :

١ مَحَلٌّ عَلَى « القَاطُول » أَخلَقَ دَاثِرُهْ
وَعَادَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ جَيْشًا تُغَاوِرُهْ

٢ كَأَنَّ الصَّبَا تُوفِي نُذُورًا إذا انبرت
تُرَاوِحُهُ أَذيَالَهَـا وتباكِرُهْ

٣ وَرُبَّ زَمَانٍ نَاعِمٍ ـ ثَمَّ ـ عَهْدُهُ
ترق حَوَاشِيه ، ويُونَقُ نَاضِرُهْ

٤ تَغَيَّرَ حُسْنُ « الْجَعْفَرِيِّ » وأُنْسُهُ
وقُوِّضَ بادِي « الْجَعْفَرِيِّ » وَحَاضِرُهُ

٥ تَحَمَّلَ عنهُ ساكِنُوه فُجَـاءَةً
فَعَادَتْ سواءً دُورُهُ ومَقَابِرُهُ

٦ إذا نحنُ زُرْنَاهُ أَجَدَّ لنَا الأسَى
وقد كان قبلَ اليوم يَبْهَجُ زَائِرُهُ

---

(١) أخلق : بلى . داثره : الذى درس وبلى وامحى . تغاوره : تحاربه القاطول : نهر كأنه مقطوع من دجلة ، كان فى موضع سامرا قبل أن تعمر .

(٢) الصبا : ريح الشرق . النذور : ما يوجبه الإنسان على نفسه تبرعا . تراوحه : تهب عليه فى العشى . تباكره ـ تهب عليه فى الصباح .

(٣) الحواشى : الجوانب

(٤) قوض : تهدم . باديه : ظاهرة . حاضرة : داخلة الجعفرى: قصر المتوكل .ولعله يريد مظاهر الحياة فى القصر من قديم ومستحدث

(٥) تحمل : رحل .

(٦) أجد : جدّد .

٧ ولم أنسَ وحشَ القصرِ إذ ريعَ سِربُهُ
وإذْ ذُعرتْ أطلاؤُهُ وجَآذِرُهُ

٨ وإذ صِيحَ فيهِ بالرحيلِ فهُتِّكَتْ
على عَجَلٍ أَسْتَارُهُ وَسَتَائِرُهُ

٩ وَوَحْشَتَهُ حَتَّى كأنْ لم يُقِمْ به
أنيسٌ ، ولم تَحْسُنْ لِعَيْنٍ مَنَاظِرُه

١٠ كأن لم تَبِتْ فيه الخلافَةُ طلقـةً
بشاشَتُهَـا ، والمُلْكُ يشرقُ زَاهِرُهْ

١١ ولم تَجْمَعِ الدنيا إليه بَهَاءَهَـا
وبَهْجَتَها والْعَيْشِ غَضٌّ مَكَاسِرُهُ

١٢ فأَينَ الحِجَابُ الصَّعْبُ حيثُ تَمَنَّعَتْ
بِهَيْبَتِها أبوابُهُ وَمَقَاصِرُهْ ؟

١٣ وأَينَ عميدُ النَّاسِ فى كلِ نَوْبَةٍ
تنوبُ ، وناهى الدهْرِ فيهمْ وآمِرُهُ ؟

١٤ تخفَّى لهُ مُغْتَالُهُ تحْتَ غِرَّةٍ
وأَوْلَى لِمَنْ يَغْتَالُهُ لو يُجَاهِرُهُ

---

(٧) السرب : القطيع . الأطلاء جمع الطلا وهو الظبى . الجاذر : جمع الجوذر وهو ولد البقر الوحشى تشبه به المرأة فى جمال العينين .

(١١) المكاسر : من الشجر جنوعها حيث تكسر منه الأغصان ؛ واستعارة للعيش .

(١٢) المقاصر : الحجرات والدور الواسعة المحصنة .

(١٤) مغتاله : هو باغر التركى . الغرة : الغفلة .

١٥ فَمَا دَافَعَتْ عنهُ المَنُونَ جُنُودُهُ
ولا دَافَعَتْ أمْــلاكُهُ وَذَخائِرُهْ

١٦ ولا نَصَرَ «المُعتَزُّ» مَنْ كَانَ يُرْتَجَى
لَهُ ، وعَزِيزُ القَوْمِ مَنْ عَزَّ نَاصِرُهْ

١٧ تَعَرَّضَ رَيْبُ الدَّهْرِ من دُونِ «فَتْحِهِ»
وَغُيِّبَ عَنْهُ فى «خُرَاسَانَ» «طَاهِرُهُ»

١٨ وَلَوْ عَاشَ مَيْتٌ ، أو تَقَرَّبَ نَازِحٌ
لَدَارَتْ من المَكْرُوهِ ثَمَّ دَوَائِرُهْ

١٩ وَلَوْ «لِعُبَيْدِ اللهِ» عَوْنٌ عَلَيْهِم
لَضَاقَتْ على وُرَّادِ أَمْرٍ مَصَادِرُهْ

٢٠ حُلُومٌ أَضَلَّتْهَا الأَمَانِى ، وَمُدَّةٌ
تَنَاهَتْ ، وَحَتْفٌ أَوْشَكَتْهُ مَقَادِرُهْ

---

(١٦) المعتز : الذى نرجحه أنه لم يقصد بقوله المعتز صفة كما يرى بعض الشراح ، وإنما قصد المعتز بن المتوكل ؛ أى أن حزب المعتز لم يجد من يناصره أمام المتآمرين لمصلحة أخيه المنتصر .

(١٧) فتحه : يقصد الفتح بن خاقان . طاهر : هو الأمير طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين ، وكان يميل إلى المعتز — خراسان بلاد واسعة أول حدودها مما يلى العراق وآخرها مما يلى الهند .

(١٨) يشير بقوله « ميت» إلى الفتح ، وبقوله « نازح» إلى طاهر المذكور .

(١٩) عبيد الله : هو الوزير عبيد الله ابن يحيى بن خاقان وزير المتوكل .

(٢٠) حلوم : عقول .

٢١ ومُغْتَصَبٌ للقتْلِ يُخْشَ رَهْطُهُ
ولم يُحْتَشَمْ أسبابهُ وأَوَاصِرُهْ

٢٢ صَريع تَقَاضَاهُ السُّيُوف حُشَاشَةً
يَجُودُ بها والمَوْتُ حُمْرٌ أظَافِرُهْ

٢٣ أدافِعُ عنه باليَدَيْنِ ، ولمْ يَكُنْ
لِيَثْنِي الأَعَادِي أعْزَلُ اللَّيلِ حَاسِرُهُ

٢٤ ولو كان سَيْفِي ساعةَ القَتْلِ فى يَدِى
دَرَى القَاتِلُ العَجْلانُ كَيْفَ أُسَاوِرُهْ

٢٥ حَرَامٌ عَلَيَّ الرَّاحُ بَعْدَكَ أوْأرى
دَماً بِدَمٍ يَجْرِى على الأَرْضِ مَائِرُهْ

٢٦ وهل أرْتَجِى أنْ يَطْلُبَ الدَّمَ وَاتِرٌ
يَدَ الدَّهْرِ ،والمَوْتُورَ بالدَّمِ وَاتِرُهُ!؟

---

(٢١) رهطة : قبيلة وجماعته . الأسباب والأواصر : هى صلات القرابة بين الخليفة وابنه ولى العهد

احتشم : استحيا ، وبنيت هنا للمجهول بمعنى أنه لم يستحى من هذه الصلات .

(٢٢) الحشاشة : البقية من الروح . تقاضاه : تطالبه .

(٢٤) المساورة : المواثبة . (٢٥) الحائر : الجارى .

(٢٦) الواتر : الظالم . الموتور : من قتل له قتيل فلم يدرك بدمه والشاعر يعجب كيف يطالب بدم هذا القتيل إذا كان الذى يجب أن يثأر له وهو ابنه . هو المحرض على قتله ، وقد أوضح فى البيت الثالى سخطة على المنتصر .

٢٧ أَكَانَ وَلِيُّ الْعَهْدِ أَضْمَرَ غَدْرَةً ؟
فَمِنْ عَجَبٍ أَنْ وُلِّيَ الْعَهْدَ غَادِرُهْ !

٢٨ فَلَا مُلِّيَ الباقي تُراثَ الذي مَضَى ،
ولا حَمَلَتْ ذَاكَ الدُّعَاءَ مَنَابِرُهْ !

٢٩ وَلا وَأَلَ الْمَشْكُوكُ فيهِ ، و نَجَا
من السَّيْفِ نَاضِي السَّيْفِ غَدْرًاوشَاهِرُهْ

٣٠ لِنِعْمَ الدَّمُ الْمَسْفُوحُ لَيْلَةَ «جَعْفَرٍ»
هَرَقْتُمْ ، وَجُنْحُ الليْلِ سُودٌ دَيَاجِره

٣١ كَأَنَّكُمُ لَمْ تَعْلَمُوا مَنْ وَلِيُّـــهُ
وَنَاعِيهِ تَحْتَ الْمُرْهَفَاتِ وَثَائِرُهْ

٣٢ وإنِّى لأَرْجُو أَن تُرَدَّ أُمُورُكُمْ
إلى خَلَفٍ من شَخْصِهِ لا يُغَادِرُهْ

٣٣ مُقَلَّبِ آرَاءٍ تُخَــافُ أَنَاتُهُ
إِذَا الْأَخْرَقُ الْعَجْلانُ خِيفَتْ بَوَادِرُهْ

---

(٢٨) ملع : منع .

(٢٩) وأل : طلب النجاة .

(٣٠) هرقتم : أرقتم ؛ أبدلت الهمزة هاء ، الدياجر : الظلمات .

(٣١) المرهفات : السيوف المرققة الحد . الولى : المطالب بثأره

(٣٣) الأناة : التمهل والترفق الحلم والوقار . البوادر : جمع البادرة وهى الحدة أو ما يبدر من الانسان عند حدته من خطأ . الأخرق : الأحمق الذى لم يرفق فى عمله .

وقال يمدح المتوكل ، ويصف خروجه يوم العيد :

١ أُخْفِي هَوًى لكَ في الضُّلُوعِ وأُظْهِرُ
وأُلامُ في كَمَدٍ عليكَ وأُعْذَرُ

٢ وأَرَاكَ خُنْتَ على النَّوَى مَنْ لم يَخُنْ
عَهْدَ الهَوَى ، وهَجَرْتِ مَنْ لا يَهْجُرُ

٣ وطلبتُ مِنْكِ مَوَدَّةً لم أُعْطَهَا ؛
إنَّ المُعَنَّى طالِبٌ لا يَظْفَرُ

٤ هَلْ دَيْنُ «عَلْوَةَ» يُسْتَطَاعُ فَيُقْتَضَى
أَمْ ظُلْمُ «عَلْوَةَ» يَسْتَفِيقُ فَيُقْصِرُ ؟

٥ بَيْضَاءُ يُعْطِيكَ القَضِيبُ قَوَامَهَا ،
ويُرِيكَ عَيْنَيْهَا الغَزَالُ الأَحْوَرُ

٦ تَمْشِي فَتَحْكُمُ في القُلُوبِ بِدَلِّهَا
وتَمِيسُ في ظِلِّ الشَّبَابِ فَتَخْطِرُ

٧ وتَمِيلُ مِنَ لِينِ الصِّبَا فَيُقِيمُهَا
قَدٌّ يُؤَنَّثُ تارَةً ويُذَكَّرُ

٨ إنِّي ، وإنْ جَانَبْتُ بَعْضَ بَطَالَتِي
وتَوَهَّمَ الوَاشُونَ أَنِّي مُقْصِرُ ،

٩ لَيَشُوقُنِي سِحْرُ العُيُونِ المُجْتَلَى
ويَرُوقُنِي وَرْدُ الخُدودِ الأَحْمَرُ

---

(٨) البطالة : الشجاعة .

١٠ اللهُ مَكَّنَ للخَلِيفةِ «جَعْفَر»
مُلْكاً يُحَسِّنُهُ الخَلِيفَــةُ «جَعْفَرُ»

١١ نُعْمَى مِنَ اللهِ اصْطَفَاهُ بِفَضْلِهَا ؛
واللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ويَقْدُرُ

١٢ فاسْلَمْ – أَميرَ المؤمِنِين – ولا تَزَلْ
تُعْطَى الزِّيَادَةَ فى البَقَاءِ وتُشْكَرُ

١٣ عَمَّتْ فَوَاضِلُكَ البَرِيَّةَ ، فَالْتَقَى
فيهــا الْمُقِلُّ عَلَى الْغِنَى والْمُكْثِرُ

١٤ بالبِرِّ صُمْتَ ، وأَنْتَ أَفْضَلُ صَائِمٍ ،
وبِسُنَّــةِ اللهِ الرَّضِيَّــةِ تُفْطِــرُ

١٥ فانْعَمْ بِيَــوْمِ الْفِطْرِ عَيْناً ! إِنَّهُ
يَوْمٌ أَغَرُّ ، من الزَّمَانِ ، مُشَهَّرُ

١٦ أَظْهَرْتَ عِزَّ الْمُلْكِ فيهِ بجحْفَــلٍ
لَجِبٍ يُحَاطُ الدِّينُ فيهِ ويُنْصَرُ

١٧ خِلْنَا الْجِبَالَ تَسِيرُ فيه وقد غَدَتْ
عُدَدًا يَسِيرُ بهـا العَدِيدُ الأَكْثَرُ

---

(١٣) الفواضل : الهبات .

(١٥) أغر مشهر : أى أنه معروف ظاهر .

(١٦) الجحفل : الجيش الكثير : اللجب : ذو الصياح والجلبة .

(١٧) العدد : ما أعد من سلاح .

١٨ والخَيلُ تَصْهَلُ ، والفوارسُ تَدَّعِى ؛
والبيضُ تَلْمَعُ ، والأَسِنَّةُ تَزْهَرُ

١٩ والأرضُ خاشِعَةٌ تَمِيدُ بِثِقْلِهَــا ،
والجَوُّ مُعْتِكرُ الْجَوَانِبِ أَغْبَرُ

٢٠ والشَّمْسُ مَاتِعَةٌ تَوَقَّدُ فى الضُّحَى
طَوْرًا ، ويُطْفِئُهَــا العَجَاجُ الأَكْدَرُ

٢١ حَتَّى طَلَعَتْ بِضَوْءِ وَجْهِكَ فانْجَلَى
ذاكَ الدُّجَى ، وانْجَابَ ذَاكَ الْعِثْيرُ

٢٢ وافْتَنَّ فيكَ النَّاظرون ؛ فإِصْبَعٌ
يُومَــا إلَيْكَ بها ، وعَيْنٌ تَنْظُرُ

٢٣ يَجِدُونَ رُؤْيَتَكَ التى فازُوا بهـــا
مِنْ أَنْعُمِ اللهِ الَّتِى لا تُكْفَرُ

٢٤ ذكَرُوا بِطَلْعَتِكَ النَّبِىَّ فَهَلَّلُوا
لَمَّا طَلَعْتَ من الصُّفوفِ وَكَبَّرُوا

٢٥ حتى انْتَهَيْتَ إلى المُصَلَّى لابِساً
نُورَ الْهُدَى يَبْدُو عَلَيْكَ وَيَظْهَرُ

---

(١٨) تدعى : أى تعتز بأنسابها . البيض : السيوف . تزهر : تلمع
(٢٠) ماتعة : مرتفعة . العجاج : الغبار ، الدخان .
(٢٢) يوما : يومأ مخففة الهمز : أى يشار .

٢٦ ومَشَيْتَ مِشْيَةَ خَاشِعٍ مُتَوَاضِعٍ
لِلّهِ لا يُزْهَى ولا يَتَكَبَّرُ

٢٧ فَلَوَ انَّ مُشْتَاقاً تَكَلَّفَ غَيْرَ مَا
فى وِسْعِهِ لَمَشَى إِلَيْكَ الْمِنْبَرُ

٢٨ أَبْدَيْتَ من فَصْلِ الخِطَابِ بِخُطْبَةٍ
تُنْبِى عَنِ الْحَقِّ الْمُبِينِ وتُخْبِرُ

٢٩ وَوَقَفْتَ فى بُرْدِ النَّبِىِّ مُذَكِّراً
بِاللهِ تُنْذِرُ تَارَةً وَتُبَشِّرُ

٣٠ ومَوَاعِظٍ شَفَتِ الصُّدُورَ مِنَ الَّذِى
يَعْتَادُهَا ؛ وَشِفَاؤُهَا مُتَعَذِّرُ

٣١ حَتَّى لَقَدْ عَلِمَ الجَهُولُ ، وأَخْلَصَتْ
نَفْسُ الْمُرَوِّى ، واهْتَدَى الْمُتَحَيِّرُ

٣٢ صَلَّوْا وَرَاءكَ آخِذِينَ بِعِصْمَةٍ
مِنْ رَبِّهِمْ ، وَبِذِمَّةٍ لا تُخْفَرُ

٣٣ فاسْعَدْ بِمَغْفِرَةِ الإِلٰهِ فَلَمْ يَزَلْ
يَهَبُ الذُّنُوبَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِر

---

(٢٨) فصل الخطاب : قول الخطيب « أما بعد » الفصل بين الحق والباطل .

(٣١) المروى : المتأمل المفكر .

٣٤ اللهُ أَعْطَاكَ الْمَحَبَّـةَ فى الْـوَرَى
وَحبَاكَ بِالفَضْلِ الذى لا يُنْكَرُ

٣٥ ولأَنْتَ أَمْلأُ للعُيُونِ لَـدَيْهِمْ
وأَجَلُّ قَدْرًا فى الصُّدُورِ وأَكْبَرُ

* * *

وقال يرثى أيوب بن سليمان الكاتب :

١ رُوحِي ورُوحُكَ مَضْمُومَانِ فِي جَسَدٍ ،
يَا مَنْ رَأَى جَسَدًا قَدْ ضَمَّ رُوحَيْنِ !

٢ يا بَاعِثَ السُّكْرِ مِنْ طَرْفٍ يُقَلِّبُهُ
« هَارُوتُ » ، لَا تسقِنِي خَمْرًا بِكَأسَيْنِ!

٣ وَيَا مُحَرِّكَ عَيْنَيْـهِ لِيَقْتُـلَنِى
إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكَ الْعَيْنَ مِنَ عَيْنِى

* * *

(٢) هاروت : اسم علم اشتهر بالسحر .
(٣) يقال : أصابت فلانا عين إذا نظر إليه عدو أو حسود فأثرت فيه فمرض بسببها .

وقال يرثى أيوب بن سليمان الكاتب :

١ عِشْنَا بِأَنْعَمِ عَيْــــشٍ إِلْفَيْنِ كَالْغُصْنَيْنِ

٢ فَلَمْ يَزَلْ عُجْبُ عَيْنِى بِأُلْفَـــــةِ الإِلْفَيْنِ

٣ حَتَّى رَمَانِى بِسَهْمِ الْـــ ـمَنُونِ عَنْ قَوْسَيْنِ

٤ أَلَيْسَ مِنْ شُؤْمِ بَخْتِى أَصَبْتُ نَفْسِى بِعَيْنِى ؟!

* * *

(٤) البخت : الجد ؛ أى الحظ . وهو فارسى معرب وقد تكلمت به العرب .

سعيد بن جــودى

(ت ٢٨٤ ﻫ)

(فارس مشهور ، كان زعيم العرب فى منطقة غرناطة حينما ثارت الفتنة بينهم وبين المولدين فى أيام عبد الله بن محمد أمير الاندلس وقد أبلى فى الحروب الدائرة بين الفريقين بلاء عظيماً أدى به إلى أن أخذ أسيرًا ، وحينما تخلص من أسره واصل الحرب إلى أن قتل غيلة فى سنة ٢٨٤ . والقطعة المختارة يقولها بمناسبة أسره على يد زعيم المولدين عمر بن حفصون ، وفيها تتجلى روح الفروسية العربية) .

راحة الحر فى الصبر :

خليلىَّ صبرًا راحة الحر فى الصبر
ولا شىء مثل الصبر فى الكرب للحر

فلا تيأسا من فرجة بعد ترحـة
وأن تبايا باليسير من بعد ما عسر

فكم من أسير كان فى القيد موثقاً
فأطلقه الرحمن من حلق الأسرِ

لئن كنت مأخوذًا أسيرًا وكنتما
فليس على حرب ولكن على غـدر

ولو كنت أخشى بعض ماقد أصابني
حمتني أطراف الردينية السمر
فقد علم الفرسان أني كميهـا
وفارسها المقدام في ساعة الذعر
فياظاعناً أبلغ سلامي تحيـة
إلى والدىَّ الهائمين لدى ذكرى
وأدِّ إلى عرسى السلامَ وقل لها :
عليك تحياتي إلى موقف الحشر
بهمك ألقى خالقي يوم موقفي
وكربك أمضى لي من القتل والأسر
وإن لم يكن قبر فأحسن موطناً
من القبر للفتيان حوصلة النسر

(المقتبس لابن حيان ٣/١٢٥ / ١٢٦)

* * *

عبد الله بن المعتز

(ت ٢٩٦ هـ)

هو عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد . وأمه أم ولد ، ولد فى سنة ٢٤٧ هـ على أكثر الأقوال ، ومات مقتولا فى سنة ٢٩٦ هـ بعد أن ولى الخلافة مدة يوم أو بعض يوم ، وذلك عندما تمرد على الخليفة المقتدر عسكره وبايعوا لابن المعتز بالخلافة . ولكن ما أسرع ما تمكن الخادم مؤنس من البطش بأنصار ابن المعتز فتفرق عنه النّاس ، وعاد العسكر مذعنين للمقتدر . وعلى يد مؤنس هذا كتمت أنفاس بن المعتز .

وابن المعتز واحد من كبار الشعراء العباسيين فى القرن الثالث الهجرى ، وله — سوى ديوانه الشعرى — مؤلفات تزيد على العشرة ؛ يأتى فى مقدمتها كتاب البديع وكتاب طبقات الشعراء .

قال ابن المعتز مفتخراً :

١ أَلا عَلِّلانى قبـلَ أَن يَأْتِىَ المـوتُ
ويُبْنَى لجُثْـمَانِى بِدَارِ البِلى بَيْتُ

٢ أَلا عـلِّلانى كمْ حبيبٍ تَعـذَّرَتْ
مَـوَدَّتُهُ ، عن وَصْـلِهِ قَـدْ تَسَلَّيتُ

---

(١) علّلانى : علّله بالشىء شغله به ، دار البلى : الحياة الدنيا .

٣ ألا عَلِّلانى ليْسَ سَعْيِى بمُدْرِكٍ
وَلا بِموقفى بالّذِى خُطَّ لِى فَوْتُ

٤ وعَرَّفَنى ربى طَريق سَلامَتِى
وبَصَّرنى ، لكنَّنى قَدْ تَعَامَيْتُ

٥ فأهلكنى ما أهْلَكَ النَّاسَ كلَّهُمْ
صُروفُ المُنى والحِرصُ واللَّوُّ والَّليْتُ

٦ ألا رُبَّ دَمَّاسٍ لِىَ الكَيْدَ حامِلٍ
ضِبابَ الحُقُودِ قد عرفْتُ وداريْتُ

٧ فَعادَ صَدِيقًا بَعْدَ ما كانَ شَانِئًا
بَعِيدَ الرِّضَى عَنِّى فَصَافَى وصافَيْتُ

٨ وخُطَّةِ ربْحٍ فى العُلا قَدأجَبْتُهَا
وخُطَّةِ خَسْفٍ ذَاتِ بَخْسٍ تَأَبَّيْتُ

٩ وزَادُ التُّقَى مثلُ الرفيق مقدَّما
تَرَوَّحَ قبلى سَابِقًا لى وأسْرَيْتُ

١٠ فَلاقَيْتُه فى منزل قَدْ أَعَدَّ لى
محَلاًّ كريمًا لا يَدُومُ فأثْوَيْتُ

(٣) خط لى : قدر لى . فوت : ترك .
(٥) اللو والليت : كلاهما اسم وهما مشتقان من قول «لو» و «ليت» ، أى التمنى .
(٧) الشانئ : العائب .
(٨) الخسف : الفعل الذليل . البخس : الرخيص : تأبيت : رفضت .
(١٠) أثويت : أقمت .

١١ ومن عَجَبِ الأَيَّامِ بَغْيُ مَعَاشِرٍ
غِضَابٍ عَلى سَبْقِى إِذَا أَنَا جَارَيْتُ

١٢ لَهُم رَحِمٌ دنيا هُمو يُبْعِدُونَهَا
إِذَا نَهَكُوهَا بالقطيعةِ أَبْقَيْتُ

١٣ يَصُدُّونَ عن شُكرى وتُهْجَرُ مُنَّتى
عَلى قُرْبِ عَهْدٍ مثلمَا يُهْجَرُ المَيْتُ

١٤ فَذَلِكَ دَأْبُ البرِّ مِنِّى ودأْبُهُمْ
إِذَا قتلوا نُعْمَاىَ بالكُفْرِ أَحْيَيْتُ

١٥ وأَعْيَى اخْتِيَالِي مَا بِهِم فرَمَيْتُهُمْ
ورائِى وقَدْ أَنْسَيتُهُمْ وتَنَاسَيْتُ

١٦ يَغِيظُهُمو فَضْلى عليهم ونَقْصُهُم
كأَنِّى قَسَمْتُ الحُظُوظَ فَحَابَيْتُ

١٧ وَكَمْ كُرْبَةٍ أَخَّاذَةٍ بِحُلُوقِهِمْ
مُصَمِّمَةِ البَلْوَى كَشَفْتُ وجَلَّيْتُ

١٨ عرفتُ الزَّمَانَ بؤسَهُ ورَخَاءَهُ
ولاقَيْتُ مَكْرُوهَ الخُطُوبِ وعَانَيْتُ

١٩ ودَهْرٍ مُوَاتٍ قَدْ مَلَكْتُ نعيمَهُ
وأُعْطِيتُ من حَلْوَاءِ عيش وأَعطيْت

---

(١٢) نهكوها : أضعفوها حتى تهرأت .

٢٠ وآخرُ يُشجيني صَبَرْتُ لِمَضِّهِ
وكمْ من شَجاً تحت التَّصَبُّرِ قاسَيْتُ

٢١ وخَصْمٍ يَهُدُّ القَوْمَ رجْعُ جَوابِهِ
مَلأْتُ لَهُ صَاعَ الخِصَامِ فَوفَّيْتُ

٢٢ أُصَافِي بَنِي الشَّحْنَاءِ ما جَمْجَمُوا بِهَا
لِبُقْيَا ، فإن أَغْرَوْا بِيَ الشر أَغْرَيْتُ

٢٣ وأَتْبَعُ مِصْبَاحَ اليَقِينِ فإن بَدَا
لِيَ الشَّكُّ في شيءٍ مُرِيبٍ تَنَاهَيْتُ !

٢٤ ويَهْمَاءَ دَيْمُومٍ كَسَوْتُ قِفَارَها
مَنَاسِمَ حُرْجُوجٍ وَيَهْمَاءَ عَرَّيْتُ

٢٥ شَغَلَتْ هُمُومَ النَّفْسِ عني بِرِحْلَةٍ
فأَصْبَحْتُ منها فوقَ رَحْلِي وأَمْسَيْتُ

٢٦ وماءٍ خَلاءٍ قَدْ طَرَقْتُ بِسُدْفَةٍ
عَنَيْهِ القَطَا كأن آجِنَهُ الزَّيْتُ

---

(٢٠) يشجيني : يحزنني . الشجا : ما اعترض في الحلق من عظم وغيره .
(٢٢) جمجموا : قالوا ولم يبينوا . البقيا : إبقاء المودة .
(٢٣) تناهيت : تباعدت .
(٢٤) اليهماء : المفازة لا ماء فيها ولا يسمع فيها صوت . الديموم : الفلاة الواسعة .
القفار : جمع قفر : المكان المهجور . المناسم : جمع منسم : خف البعير .
الحرجوج : الناقة السمينة المرتفعة عن الأرض ، أو الشديدة .
(٢٦) السدفة : ظلام الليل . الآجن : الماء المتغير .

٢٧ ومَرْقَبَةٍ مثلِ السِّنَانِ عَلَوتُهَا
كأنى لأَرْدافِ الكَوَاكبِ نَاجَيْتُ

٢٨ وأُمْنِيَّةٍ لَمْ أَمْنَعِ النَّفْسَ رَوْمَهَا
بَلَغتُ وأُخرَى بعْدَهَا قد تَمَنَّيْتُ

٢٩ رأيْتُ طَريقى فى ذُرَا العزِّ واضحا
فسِرْتُ ، ورقَّتْنِى المُنَى فَتَرَقَّيْتُ

٣٠ وحَرْبٍ عَوَانٍ يُثْقِلُ الأَرْضَ حَمْلُهَا
ويَلْمَعُ فى أَطْرَاف أَرْمَاحِهَا الموتُ

٣١ شَهِدْتُ بِصَبْرٍ لا تَوَلَّى جُنُودُه
فَحَاسَيْتُ أَكْوَاسَ المَنَايَا وسَاقَيْتُ

٣٢ وضَيْفٍ رَمَتْنِى لَيْلَةٌ بِسَوَادِهِ
فَحَيَّاهُ بِشْرِى قبلَ زَادِى وحَيَّيْتُ

٣٣ وغَابَ بِمُمْسَى لَيْلَةٍ غَابَ شرُّها
وقُمْتُ فأَطعمتُ الثَّنَاءَ وأَسْقَيْتُ

٣٤ ونُعْمَى تَضِيقُ النَّفْسُ حتَّى أَردَّهَا
شَكَرْتُ عَلَيْهَا ذَا البَلاءِ وكَافَيْتُ

---

(٢٧) المرقبة : الأرض المرتفعة . أرداف الكواكب : توابعها .
(٢٨) رومها : طلبها .
(٣٠) الحرب العوان التى وقع فيها القتال مرة بعد مرة .
(٣١) أكواس المنايا : كؤوس الموت .
(٣٤) كافيت : كافأت .

٣٥ وداءٍ من الأَعْـدَاءِ دَبَّتْ سُمُومُهُ
وَأَعْيَى رُقَـاةَ الشَّرِّ . بالسَّيْفِ دَاوَيْتُ

٣٦ وعَزْمٍ كَمَتْنِ السَّيْفِ ضَرَبْتُ حَدَّهُ
عَلى الشَّكِّ حتَّى قَـدَّهُ ثمَّ أَمْضَيْتُ

٣٧ وسِـرٍّ طَوَتْهُ النَّفْسُ لى ولصاحِبٍ
فَمَـا أَظْهَرْتُهُ بَوْحَـةٌ منـذُ أَخْفَيْتُ

٣٨ وراحٍ كَلَوْنِ التِّبْرِ يَضْحَكُ كأْسُهـا
صَبَحْتُ بِهَـا شَرْبًا كِرَامًا وغَادَيْتُ

٣٩ وبَيْضَـاءَ تعطى العَين حُسنًا ونَضرةً
شَغَلْتُ بها عصر الشَّبابِ وأَفْنَيْتُ

٤٠ سموْتُ لَهَا واللَّيْلُ قـدْ لاح نجمُه
فَلاقَيْتُ بَدْرًا فى الدُّجَا حين لاقَيْتُ

٤١ وكنتُ امرءًا منى التَّصابى الذى ترى
فَقَـدْ بَلغَتْ سِنِّى النُّهَى فَتَنَاهَيْتُ

٤٢ وقلْتُ ألا يا نفسُ هلْ بَعْـدَ شيْبَةٍ
نَـذِيرٌ . فَمَـا عُذْرى إذَا مَا تَمَادَيْتُ

٤٣ وقَـدْ أَبْصَرَتْ عَيْنِى المنِيَّـةَ تَنْتَضِى
سُيُوفَ المَشِيبِ فَوْقَ رَأْسى وأَشْفَيْتُ

---

(٣٦) ضربت : أمضيت . قده : قطعه .
(٤٣) تنتضى : تستل .

٤٤ فَخَلَّيْتُ شَيْطَانَ التَّصَابِي لأَهْـلِهِ
وأَدْبَرْتُ عن شَأْنِ الغَـوِيِّ وولَّيْتَ

٤٥ فَمَـا أَنَـا لولا الذكرُ ما قدْ عَلِمْتُمُو
أَطَعْتُ عَـذولى بعـدما كنتُ عَاصَيْتُ

٤٦ وقَالُوا مَشِيبُ الرأسِ يَحْدُو إلى الرَّدَى
فَقُلْتُ أَرَانِي قَدْ قَرُبْتُ وَدَانَيْـتُ

٤٧ تَبَـدَّلَ قَلْبِي ما تَبَـدَّلَ مَفْـرِقِي
بِبَيَـاضِ التُّقَى فَقَـد نَزَعْتُ وَأَبْقَيْت

٤٨ وقَدْ طَالَ ما أَتْرَعْتُ كأْسِي من الصِّبَا
زَمَـانًا فَقَـد عَطَّلْتُ كأْسِي وأَكْفَيْتُ

* * *

(٤٨) أترعت : ملأت .

وقال يهجو بعض الإخوان :

١ يا دَهرُ يا صَاحبَ الفَجيعَات ... في كُلِّ يوم تُسِيءُ مَرَّاتِ

٢ يا دهرُ إنَّ القومَ الأُلَى شَحطَتْ ... بهم نَوًى أكثروا مصيباتي

٣ حَرَّمتُ من بعدها مَدِيرَ يدى ... إلى فَمِي شَاربًا بكاسَاتِ

٤ وأن أرَى ضَاحكًا إلى أحَد ... إلَّا بقَلب جَمِّ الكَابَات

٥ ما زَالَ صَرْفُ الزَّمَان يَقْسِمُنا ... عَلَى المَسرَّاتِ والمَسَاءَات

٦ مَالِي إذَا قُلْتُ قَدْ ظَفِرْتُ بإخْوَانٍ أرَى فِيهِمُ مَحَبَّاتِ

٧ شَتَّتَهم حَادث فأفْرَدَنِى ... منهم وكانوا مُشْتَاقَ لَحْظَاتِى

٨ يا ثُكْلَ قَلْبِي للَّهْو بَعدهمو ... حتَّى أراهمْ فَذَاكَ مِيقَاتى

٩ عَسَى أرَجِّي رُجُوعَ غَائِبِهم ... فكيفَ لا كيفَ لى بأمواتِ

١٠ قد كنتُ أبكى أهلَ المودَّات ... فصرتُ أبكِى أهلَ المُرُوءَاتِ

١١ خُلِّفتُ فى شَرِّ عُصْبة خُلِقَتْ ... أثْكَلَنِيهَا ربُّ السَّمَوَاتِ!

١٢ كِلابُ رَحْلِي إذَا حَضَرْتُ فإن ... غبتُ فُوَاقًا فأُسْدُ غَابَاتِ

١٣ إنْ أودعوا السِّرَّ ضَيَّعُوهُ ولا ... يُغْضُونَ طَرْفًا عن الجِنَايَاتِ

١٤ وإنْ أردتُ انْتِهَاكَ عِرْضِكَ فارْدُدْهُم بعُذْرٍ فى وقتِ حَاجَاتِ

---

(٢) الألى : الذين . شحطت : بعدت . نوى : فراق .

(٤) جم : كثير .

(٧) أفردنى : تركنى متفردا ، وحيدا .

(١١) أثكلنيها رب السموات : دعاء منه عليهم بالموت .

(١٢) كلاب رحلى : الكلاب التى تسير فى ركاب المسافر . الفواق : المدة القصيرة .

١٥ يَنْتَمُونَ ذَا الفَقْـرِ بالقُطُوبِ وذَا الوَفْرِ بِلَبَّيْكَ ، والتَّحِيَّاتِ

١٦ فَهُمْ لَهَـا ، لا لِيَدْفَعِ نَائِبَةً   يَوْمَ افْتِقَـارٍ إلى المَوَدَّاتِ

١٧ كُلٌّ على مَن يُرِيدُ نَفْعَهُمُو   لكنهم منـهُ فى جِنَايَاتِ



وقال يمدح المعتمد :

١ يا صاحِ ودَّعتُ الغَوانيَ والصِّبَا   وسَلَكْتُ غيرَ سبيلهنَّ سَبيلا

٢ وثَنَيْتُ أَعْنَانَ الهَوَى نحوَ القِلَى   ورأَيتُ شَأْوَ العَاشِقِينَ طويلا

٣ ورَبَطْتُ جَأْشاً كانَ قبلُ مُنفَّرا   وقَتَلْتُ حُبًّا كنتُ فيه قتيلا

٤ ناجَيْتُ واعِظَةَ النُّهَى فاسْتَعْجَمَـ   ـتْ أَلفاظُ غَيِّكَ وانْثَنَى مَغْلُولا

٥ عَهْدانِ ماتَا للأَوانِسِ والصِّبَا !   فانْدُبْهُمَا ، لاتَنْدُبَنَّ طُلُولا

٦ ذَهَبَا بِمَعْسُولِ الحَيَاةِ وآيَسَا   من رَجْعَةٍ وتَعَجَّلا التَّحْوِيلا

٧ بُدِّلْتُ من ليلِ الشَّبابِ بِمَفْرِقِي   صُبحَ النُّهَى ، أَحْبِبْ بِذاكَ بَدِيلا

٨ لكنَّ فى قَلْبِي إذا صَدَّ الرَّشَا   عَنِّي أَسًى يَعْتَادُنِي وغَلِيلا

---

(١٥) القطوب : العبوس . الوفر . الغنى .

(١٦) افتقار : حاجة .

(٢) الشأو : الطريق .

(٣) الجأش : النفس أو القلب ، ويقال : هو رابط الجأش : ثابت عند الشدائد .

(٤) النهى : العقل . الغى : الضلال . مغلولا : مكبلا .

(٥) أندبهما : ابك عليهما .

(٦) آيسا : يئسا .

(٧) صبح النهى : يقصد الشيب بوصفه دليلا على رجحان العقل .

(٨) يعتادنى : يعاودنى بين الحين والحين .

٩ ولَرُبَّ لَيلٍ لا تَجِفُّ جُفُونُه — من دَمْعَةٍ ، مُلْقٍ عليه سُدُولا
١٠ ماتَتْ كواكبُه وأمسى بَدرُه — فى الأُفْقِ مُتَّهَمَ الحَيَاةِ عليلا
١١ دَبَّتْ بِنَا فى غَمْرَةٍ مَشْمُولَةٌ — حتَّى تَوَهَّمْنَا الصَّباحَ أَصيلا
١٢ صفراءُ تَحْسَبُهَا إِذَا ما صفَّقَتْ — ذَهَبًا حَوَتْهُ كأْسُهَا مَحْلُولا
١٣ أَهْلًا وَسَهْلًا بالإِمَامِ ومَرْحَبا — لَوْ أَسْتَطِيعُ إلى اللِّقَاءِ سَبيلا
١٤ لا يَمْتَطِى خَفْضًا ولا يُمْسِى له — طَرْفٌ بِمِرْوَدِ رَقْدَةٍ مَكْحُولا
١٥ لِبْسَ الشَّبابِ على فُؤَادٍ ، رأْيُهُ — كَهْلٌ يُذَلِّلُ دَهْرَهُ تَذْلِيلا
١٦ يلْقَى الوُفُودَ إِذَا حَوَاهَا رَبْعُهُ — وَجْهًا أَغَرَّ ونائِلًا مَبْذُولا
١٧ مَلِكٌ إِذَا وَطِئ الحُرُوبَ خَمِيسُه — تَرَكَ الحُزُونَ من الحُزُونِ سُهُولا
١٨ وتَحَكَّمَتْ كَفَّاهُ فى أَعْدَائِهِ — يَقْضِى بأَنْ يَدَعَ العزيزَ ذليلا
١٩ كَمْ مُطْلَقٍ فى غَيِّهِ أَمِنَ الرَّدَى — صَاغَتْ لَهُ الحَرْبُ العَوَانُ كُبُولا
٢٠ ومُشَمِّرٍ أَذْيالَهُ يومَ الوَغَى — جَرَّتْ عَلَيْه السَّافِيَاتُ ذُيُولا
٢١ قد خَرَّقَتْ سُمْرُ العَوَالِى صَدْرَهُ — يسخو بآخر نَفْسِهِ مَتْلُولا

---

(٩) السدول : جمع سدل : أى ستر .
(١١) المشمولة : الخمر .
(١٤) الخفض : الدعة وسعة العيش .
(١٦) النائل : العطاء والجود .
(١٧) الخميس : الجيش . الحزون : جمع حزن ، أى المكان الخشن .
(١٩) الحرب العوان : التى يتكرر فيها القتال ، الكبول : القيود .
(٢٠) السافيات : الرياح المحملة بالتراب .
(٢١) متلولا : صريعا .

وقال ابن المعتز :

١ لى بُكَاءٌ وللسحَاب بُكَاءُ ‌ ‌ ‌ فدُمُوعِى هَوًى وذَاكَ هَوَاءُ
٢ نحن فى الحَالتَيْن شتًّى وفيها ‌ ‌ ‌ قَدْ بَدَا للعُيُون منَّا سَوَاءُ
٣ يا جُفُونَ السحاب دمعُك يَفنَى ‌ ‌ ‌ عن قَلِيلٍ ومَا لدَمْعِى فَنَاءُ
٤ أنا أبْكِى طَوْعًا وتَبْكِين كَرْهًا ‌ ‌ ‌ ودُمُوعِى دَمٌ ودمعك ماءُ
٥ بِكِ يَحْيَا العِبَاد من بَلَل القَطْرِ ويَحْيَا بِمُقْلتَىَّ الشراءُ !

* * *

وقال :

وشمسِ ليلٍ طَرَقْتُهَا فبدَا ‌ ‌ ‌ منها صدودٌ ما كنتُ أَحْسَبُهُ
تَقُول مَنْ ذَا ولستُ أَعرِفُهُ ‌ ‌ ‌ يا لصَّةَ القَلْبِ جِئْتُ أطلبُهُ

* * *

وقال :

قُلْ عَنِّى حِدَّةَ الأَحَد ‌ ‌ ‌ بقَوَام الرُّوح فى الجَسَدِ
بمُدَامٍ قَلْبُ شَارِبِهَا ‌ ‌ ‌ آمِنَ منْ لَوْعَةِ الكَمَدِ
وَلْتَكُنْ بِكْرًا مُحَجَّبَة ‌ ‌ ‌ لَمْ تَصِلْ قبلى إلى أَحَد
عَلَّنِى أحْظَى بِرُؤْيَة مَنْ ‌ ‌ ‌ حلوُهُ قَدْ عَاثَ فى كَبِدى

* * *

وقال :

بلوتُ أخِلاءَ هذا الزمانِ فأقلقتُ بالهجرِ منهم نصيبي
وكُلُّهمُو إن تصفَّحتهم صديقُ العيانِ عدوُّ المغيبِ

* * *

وقال :

١ مررتُ بقبرٍ زاهرٍ وسطَ روضةٍ عليه من الأنوارِ مثلُ الشقائقِ
٢ فقلتُ : لمن هذا؟ فقالَ لي الثرى ترحَّمْ عليه ، إنه قبرُ عاشقِ

* * *

وقال :

١ إذا أحسستَ في خطِّي فُتُورًا وحظِّي والبلاغةِ والبيانِ
٢ فلا ترتَبْ بفهمي ، إنْ رقصي على مقدارِ إيقاعِ الزمانِ

* * *

وقال في وفاة شخص من أتباعه :

١ ولمَّا دفنَّا جسمَهُ في ترابِه جعلتُ صميمَ القلبِ مِنِّي له قبرا
٢ وتربتُه سِرُّ الفؤادِ وكلَّما هممتُ بأنْ أنساهُ جدَّدَ لي ذكرا

---

(١) الفتور : الضعف .
(٢) ترتب ، من الارتياب ، أي الشك .

وقال :

١ قم نَصْطَبِحْ فَلَيَالى الوصلِ مُقْمِرَةٌ
كَأَنَّهَا باجتماع الشَّمْلِ أَسْحَارُ

٢ والدهرُ فى غَفْلَةٍ نامَتْ حوادثُهُ
ونَبَّهَتْنَا إلى اللذَّاتِ أَوْتَارُ

٣ أَمَا تَرَى أَرْبعاً لِلَّهْوِ قد جُمِعَتْ
جَنْكٌ وَعُودٌ وقانونٌ ومِزْمَارُ

٤ فَخُذْ بِحَظٍّ من الدنيا فَلَذَّتُهَا
تَفْنَى ويَبْقَى رواياتٌ وأَخْبَارُ

* * *

وقال :

١ يا عَائِدًا لى جاء يَشْمَتُ بى قد زدْتَ فى سُقْمِى وأَوْجاعى

٢ وسأَلتَ — لما غِبْتُ — عن خبرى كم سائلٍ لِيُجيبَه الناعى

---

(١) الاصطباح : شرب الخمر فى الصباح الباكر . والأسحار جمع سحر ؛ والسحر الفجر .

(٢) الأوتار جمع وتر ، إشارة إلى الآلات الموسيقية الوترية .

(٣) الجنك والعود والقانون والمزمار ، أسماء لآلات موسيقية .

(١) العائد : من يعود مريضا ، أى يزوره فى مرضه .

وقال :

١ قد شِبْتُ بعدَك والمَشيبُ مصيبةٌ
وخَضَبْتُ بعدك والخِضاب عَناءُ

٢ ورأيتُ صرْفَ الدهر يُخْلِقُ جِدَّتى
لا رِعْيَـةٌ منـه ولا إبْقـاءُ

٣ فى كل يوم حـادث تَبْـكى لـه
عينى وتـأْلَفُهـا بـه الأَقـذاءُ

٤ فإذا مضى يوم عدَدْتُ مُضِيَّهُ
غُنْماً وذلك للحيـاة فَنـاءُ

٥ أتـألَّفُ الدنيـا وأبْسُطُ عُذْرَهَا
جَهْدِى كما تتـألَّفُ الأَعداءُ

٦ وأقولُ إن أنكَرْتُ ضِيقَةَ مُعْسِرٍ
فَلِمُعْسِرٍ سَعَةٌ بِهَـا ورَخَاءُ

٧ ولـكل قوم دولـةٌ تـأْتيهمُـو
ولـكل آتٍ مُـدَّةٌ وثَـوَاءُ

---

(١) الخضاب : الحناء . خضبت : صبغت شعرى بالحناء .
(٢) يخلق جدتى : يذهب بها ويجعلها كالثوب الخلق القديم ، فاقدة لرونقها .
(٥) أتألف الدنيا : أسعى جهدى لكسب رضاها حتى لا تنفر بى . أبسط عذرها : ألتمس لهم العذر .
(٧) ثواء : إقامه وبقاء .

٨ ولكل ليل كاشِفٌ من صُبْحِهِ
ولكل صبحٍ مُقْبِلٍ إمْسَاءُ

٩ كالبدرِ تُمْحَقُهُ الليالى بعدما
مِلأ العيونَ سَناً لَـهُ وضياءُ

١٠ حتى يعودَ كما بَدأ ، مُتَحيِّفٌ
بِمُضِى ويَخْلُفُ بعده الظلماءُ

١١ وتَطَرَّ فَتْنِى الحادثاتُ فهل لِمَا
كَلِفَتْ به وتطرفَتْهُ بَقَاءُ

١٢ وتنكَّرَتْ حالُ الصديق ويُعْدُهُ
عندى ومَحْضَرُهُ عَلَىَّ سواءُ

١٣ وجَرَتْ علىَّ من الأعادى غِرَّةٌ
ومِنَ الصديق فظاظةٌ وجَفاءُ

١٤ وأَلِفْتُ ضَنْكَ العيش بعدَكَ فاسْتَوَتْ
عندى به السَّرَّاءُ والضرَّاءُ

١٥ وعلى اللَّيالى أن تُلِمَّ صروفهـا
وعلى الكريم تَجَلُّدٌ وعَزَاءُ

---

(٩) تمحقه : تجعله فى المحاق ؛ تزيله .

وقال :

١ مَضَى زمنى واحْتَازَ دَهْرِىَ إخوانى
وغادَرَنى من بعدهم نَهْبَ أَشجانِ

٢ فأَصبحتُ مَحْزُوناً لفَقْدِ أَحِبَّتِى
وأَعْظَمُ أحزانى لِفَقْدِىَ أَزْمَانِى

* * *

وقال :

١ كيف ابتهاجُكِ بالنَّيْروز يا أَمَلِى
فكُلُّ مافيه يَحكِينى وأَحْكِيهِ

٢ نيرانُه كاضطرام النَّار فى كَبِدِى
ودَمْعَتِى كَوالِى مائِهِ فيهِ

* * *

وقال :

١ يا مى به صَمَمٌ عن الشكْوَى وتَغَافُلُ عن صاحب البَلْوَى
٢ إنْ بُحْتُ باسمِكَ فهويقْتُلُنِى وهناك تُثْكَلُ منِّى الثَّكْلَى
٣ سافرْتُ بالآمال فيكَ فَلَمْ تَبْلُغْ وِصَالَكَ وانْثَنَتْ حَسْرَى
٤ ويْحَ القلوبِ من العيون لقد قامتْ قِيَامَتُهُنَّ فى الدُّنيَا

(١) احتاز : استولى على ؛ يعنى أن الدهر غيب إخوانه عنه بوفاتهم .
(٢) الثكلى : المرأة المفجوعة بموت من تحب .
(٣) حسرى : اعتراها الشعور بالخيبة .

وقال :

١ يا غزالَ الوادى بِنَفْسِىَ أَنْتَا لا كما بِتُّ ليلةَ الهَجْرِ بِنَّا
٢ لم تَدَعْنِى عيناكِ أنجو صحيحا مِنْكَ حتى حُسِبْتُ فيمن قتلْنَا
٣ يومَ يشكو طَرْفِى إلى طرفكَ الحُبَّ فأوحَى إليه أن قد علِمْتَا
٤ ليت شعرى أما قضى الله أن تذكُرَ فى الذاكرين لى منكَ وَقْتَا
٥ قُسِمَتْ فى الهوى البُخُوتُ فيا بَخْتِى فى حبها عَدِمْتُكَ بَخْتَا
٦ لا تَلُمْنِى ياصاح فى حبِّ مكتومةَ ، نفسى لها الفِداءُ وأَنْتَا
٧ كُفَّ عنى فقد بُلِيتُ وخلاَّك بلائى يا عاذِلِى فاسترَحْتَا
٨ أنتَ من حُبِّها معافىً ولو قاسيْتَ ما بى من حُبِّها لَعَذَرْتَا
٩ فجزاك الإلٰهُ حقكَ عنى لم تخفف عنى بَلائى وزدْتَا
١٠ هاكَ قلبى وقَطِّعْهُ لَوْماً وفإنْ أَنْسَيْتَهُ حبها فقد أَحْسَنْتَا
١١ لَجَّ فيها كأن آدمَ ما خلَّفَ فى النَّاس غيرَ شِرَّةَ بِنْتَا
١٢ أيها القلبُ هل تُطِيق اصطبارا طالما قد أطعْتَنِى فصبرْتَا
١٣ إن من قد هويتَهُ واسعُ الحبِّ كثيرُ القِلى كما قد عَرَفْتَا
١٤ فاجْتَنِبْهُ كيما تعزَّ عليه كلما زاد من لقائكَ هُنْتَا

(٦) مكتومة ، اسم يطلقه الشاعر على محبوبته .
(٧) خلاك بلائى : لم يصبك بلاء الحب الذى أصابنى.
(١١) شرة ، اسم يطلقه الشاعر على محبوبته . لج فيها : انخرط فى حبها .
(١٣) القلى : الكره .

١٥ أَوَمَا كنتَ قد عزَفْتَ عن الغيِّ وسافرتُ فى التُّقَى ورجَعْتا

١٦ وبِمَنْ قد بُليتُ ليتك يا مسكينُ أحبَبْتَ واصِلًا أو تركْتا

١٧ ولَقَدْ بَانَ أنَّهُ لَكَ قـال مُخْلِفُ الوعدِ خائِنٌ لو عقَلْتا

١٨ أبدا منعمٌ يعلِّقُ وعـدًا فإذا قلتَ هاتِهِ قال : حَتَّى..

١٩ طالما كنتَ حائدًا قبل هذا عن حبال الهوى فكيف وقَعْتا

٢٠ لا أرى فى الهوى لإبليسَ ذنبا إنْ عينى قادَتْ وأنتَ اتَّبَعْتَا

٢١ فذُقِ الحبَّ ، قد نُهيتُ فخالَفْتَ ، ألَسْتَ الذى عَصَيْتَ ، ألَسْتَا ؟

٢٢ شِرَّةٌ قَطَّعَتْ حِبَالَكَ منهـا لم يَدُمْ عهدُها كما قد عَهِدْتَا

٢٣ ولقد مَتَّعَتْكَ منها بوَصْـل زمنا ماضيـا وكانت وكنتا

٢٤ فاسْلُ عنها فالان وقتُ التَّسلِّى قطعَتْ منك حبْلَها فانبَتَّا

* * *

(١٥) الغى : الضلال . عزف . بعد .

(١٧) قال : كاره .

(٢٤) اسل عنها : تسل عنها تفكر فيها . انبت : انقطع .

وقال :

١ أيا نسيمَ الرياح من بَلَدَى إن لم تُفَرِّجْ هَمِّى فلا تَرِدِ
٢ أبيتُ والشوقُ فى الفراشِ معى يكحلُ عينى بِمِرْوَدِ السُّهُد
٣ مُغَرَّقـا بالشُّئـــون مكتئبا أشكو إلى الله لا إلى أحـد
٤ صَبًّا يرى آخرَ الحياة ولا يَطمع فى راحة ولا جَلَد
٥ أخطأتَ يادهـرُ فى تَفَرُّقِنا ويْحَكَ تُبْ بعدها ولا تَعُد
٦ ياشِرُّ باللهِ أخرى أجَــلِىَ لا تَقتليني بالهم والكَمَد
٧ مالى أرى الليلَ لاصباحَ لَهُ ما الهَجْرُ إلا ليلٌ بغير غَدِ
٨ يا جامع الهجرِ والفراقِ ألا تجمعُ بين الفؤاد والجَسَد

* * *

وقال :

١ قالت : تَبَدَّلْتَ أخرى ، قلتُ تَفْديكِ
من كل سوءٍ ومكروه وتحْميكِ

٢ قالت : فَسَمِّيْتَهَا فى الشعرِ ، قلت لها :
سَمَّيْتُ غيرَكِ لكن كنتُ أعْنيكِ

٣ دعِىَ العِتَابَ لِطَىِّ الكُتْبِ واغْتَنِمى
يومَ التَّلاقى ورَوِّى فَاىَ من فِيكِ

---

(٢) السهد : اليقظة والأرق ليلا .
(٣) الشئون : الدلوع .
(٤) الصب : من ملأ الحب عليه نفسه .

وقال :

١ قد كَلَّمتْ عينُه عيني فَهِمْتُونى
وحَدَّثونى بحُبٍّ ليس بالدُّونِ

٢ قالوا : جُنِنْتَ بلا شك ، فقلتُ لهم :
ما لـذَّةُ العيشِ إلَّا للمَجَانينِ

٣ نعم جُنِنْتُ فهاتوا من جننتُ به
إنْ كان يَشْفِي جنونى لا تلومونى

٤ الحبُّ لا يستفيقُ الدَّهرَ صاحبُه
وإنما يُصْرَعُ المجنونُ فى الحِينِ

* * *

وقال :

١ يارُبَّ إخوانٍ صَحِبْتُهمُ لا يملكون لِسَلْوَةٍ قَلْبًا

٢ لو تَسْتَطِيعُ نفوسُهُمْ فَقَدَتْ أجسادَهَا وتعانَقَتْ حُبًّا

* * *

(١) حب ليس بالدون : ليس رخيصا أو هابطا .

(١) لا يملكون لسلوة قلبا : لا يستطيع أحدهم أن يفارق الآخرين أو يصرف قلبه عن مودتهم .

الخبز أرزى

(ت : ٣٢٧ هـ)

هو نصر بن أحمد بن نصر بن المأمون ، أبو القاسم البصرى ، المعروف بالخبز أرزىّ . لم تذكر المصادر تاريخ ولادته ، ولا نعلم من نشأته وتاريخ حياته إلا أنه ولد فى البصرة ونشأ بها ، وأنه لم تساعده الحال على التعلم والتأدب ، فعاش عُمْرَه أميًّا لا يكتب ولا يقرأ .

عمل منذ كان شاباً خبازًا يصنع خبزَ الأرز بدكان له فى المربد ، كان مقرَّ عمله ومنبر إنشاده لشعره . ثم نزل بغداد ، وأقام بها دهراً طويلا ، وكان يقيم فيها بمحلة باب خراسان ، فى الشمال الشرقى من جانب الرصافة .

وكان بعض الأدباء يقرأ عليه شعره فى هذه المحلة . فقد روى عنه مقطعات من شعره : المعافى بن زكريا الجريرى النهروانى (المتوفى سنة ٣٩٠ هـ) ، وأبو الحسن أحمد بن محمد بن الجندى (المتوفى سنة ٣٩٦ هـ) ، وأحمد بن محمد بن العباس الأخبارى (كان حيًّا سنة ٣٧٥ هـ) ، والحسين بن أحمد بن خالويه اللغوى المشهور (المتوفى سنة ٣٧٠ هـ) ، وأحمد بن منصور النوشرى الورّاق (المتوفى سنة ٣٨٨ هـ) ، وقد سمع هذا الأخير من الخبز أرزى سنة ٣٢٥ هـ (كما ذكر صاحب تاريخ بغداد رقم ٧٢٧١) .

وقد توفى الخبز أرزى سنة ٣٢٧ هـ .

وأما شعره فهو– كما يقول الشيخ محمد حسن آل يا سين فى مقدمة ديوانه– يمثل السهل الممتنع بأحلى نماذجه ، فهو رقيق الديباجة سلس الألفاظ بسيط التراكيب .ويبدو على بعضه بوضوح أنه من وحى الساعة ، وفيض الخاطر ، ارتجالا أو ما يشبه الارتجال .

ولم يرزق الخبز أرزى حظ الانتماء إلى صفوف التلمذة ، ومجالات التلقى والرواية عن الأساتذة الأكفاء ، وإنما كان يمثل الفطرة الأصلية ، والسليقة السليمة ، إنه شاعر أمى لايقرأ ولا يكتب ، ولكنه لايخطىء ولا يلحن . وهو إنسان كادح مكافح ، ولكنه لم يجد ما يحول بينه وبين جعل محل عمله وكدحه ناديًا أدبيًا عامرًا ،قد يفوق كثيرًا من قصور الأمراء ، ونوادي الولاة ، ودواوين الكبراء .

ويحدثنا عدد من المؤرخين أن النّاس كانوا يزحمون عليه ، ويتظرفون باستماع شعره وملحه ،ويتعجبون من إجادته وهو فى مثل تلك الحال والحرفة ، وأحداث البصرة يتنافسون فى ميله إليهم وذكره لهم ، ويحفظون كلامه لقرب مأخذه وسهولة عباراته .

قال الخبز أرزى :

بأبى أنت من مَلُول ألـــوف ... رُضتنى بالأمان والتخويف

حار عقلى فى حكمك الجائر العد ... ل وفى خلقك الجليل اللطيف

أنت بالخصر والمؤزر تحكى قوة الشوق بالفؤاد الضعيف
ليس عن خبرة وصفتك لكن حركات دلت على الموصوف
لك وجه كأنه البدر فى التـ ـم عليه تطرق من كسوف

وقال أيضاً :

كم شهوة مستقرة فرحا قد انجلت عن حلول آفات
وكم جهول تراه مشتريا سرور وقت بقمِّ أوقات
كم شهواتٍ سَلَبْنَ صاحبَهَا ثوب الديانات والمروءات

وقال أيضاً :

ما جفانى من كان لى أُنسا أنست شوقاً ببعض أسبابه
كمثل يعقوب بعد يوسف إذ حَـ ـنَّ إلى شم بعض أثوابه
دخلت باب الهوى ولى بصر وفى خروجى عميت عن بابه

وقال كذلك :

لسان الفتى خنق الفتى حين يجهل وكل امرئ ما بين فكيه مَقْتَلُ
إذا ما لسان المرء أكثر هزره فذاك لسان بالبلاء موكَّلُ
وكَم فاتحٍ أبوابَ شرٍّ لنفسه إذا لم يكن قُفْلٌ على فيه مُقْفَلُ
كذا من رمى يوما شراراتِ لفظه تلقَّته نيرانُ الجوابات تشعل
ومن لم يقيدْ لفظه متجمّلا سيطلق فيه كل ما ليس يَجْمُلُ
ومن لم يكن فى فيه ماءُ صيانة فمى وجهه غُصن المهابة يَذْبُلُ
فَلِمْ تحْسَبَنَّ الفضل فى الحلم وحدهُ بل الجهلُ فى بعض الأحايين أفضل
ومن ينتصر ممن بَغَى ، فهو مابغى وشرُّ المسيئين الذى هو أوّلُ

وقد أوجب الله القِصاص بعــدله ولله حكمٌ فى العقوبات مُنْزَلُ
فإن كان قولٌ قد أصاب مَقاتِلا فإن جواب القول أدهى وأقتلُ
وقد قيل فى حفظ اللسان وخَزْنه مسائلُ من كل الفضائل أكملُ
ومن لم تقرِّبْهُ سلامة غيبه فقُربانه فى الوجه لا يُتَقَبَّلُ
ومن يتَّخذ سوءَ التخلفِ عادةً فليس لديه فى عتاب مُعَوَّلُ
ومن كثرت منه الوقيعةُ طالبا بها غِرَّةً فهو المهينُ المذلَّلُ
وعَدْل مكافاة المسيء بفعـله فماذا على من فى القضية يعدلُ ؟
بلا ضلَ فى الحسنى إلى من يحسها بلى عند من يَزْكُو لديه التفضُّلُ
ومن جعل التعريض محصول مزحه فذاك على المقت المصرّح يحصلُ
ومن أمن الآفات عُجْباً برأيـه أحاطت به الآفات من حيث يجهل
أعلِّمـكم ماعَلَّمتنى تجـاربى وقد قال قبلى قائل متمثِّلُ
إذا قلت قولا كنت رهنَ جَوابِه فحاذر جواب السوء إن كنت تَعْقِل
إذا شئتَ أن تحيا سعيدًا مسلما فدبّر وميِّز ما تقول وتفعـلُ

***

وقال أيضا :

لنصر فى فؤادى فرط حب أنيف به على كل الصحاب
أتيناه فبخرنا بخورًا من السعف المدخن للثياب
فقمت مبادرًا وظننت نصرا أراد بذاك طردى أو ذهابى

فقال متى أراك أبا حسين فقلت له :إذا اتسخت ثيابى

فأنفذ الأبيات إلى نصر ، فأملى جوابها فقرأناه ، فإذا هو قد أجاب :

منحت أبا الحسين صميم ودى فداعبنى بألفاظ عذاب

أتى وثيابه كقتير شيب فعدن له كريعان الشباب

ظننت جلوسه عندى كعرس فجئت له بتمسيك الثياب

فقلت متى أراك أبا حسين فجاوبنى إذا اتسخت ثيابى

فإن كان التعزز فيه فخر فلم يكنى الوصى أبا تراب

* * *

وقال أيضا :

١ صار التغزل فى هواه عتابا فهواه يمزج بالنعيم عذابا

٢ ما ضر من أخلصت فى دين الهوى لرضاه لو جعل الوفاء ثوابا

٣ نقض العهود وحل عقد ضمانه من بعدما عذب الوصال وطابا

٤ وأمنته فأتاح لى من مأمنى غدرا ، كذا من يأمن الأحبابا

٥ فإذا أردت عتابه لجفائه جعل التقطب للعتاب جوابا

٦ خدع الوساوس لم تزل لى حيلة حتى أمنت على الغزال كلابا

٧ إن السلو لراحة وصيانة للحر لولا أن السلو أجابا

٨ ومن العجائب أن يذيب مفاصلى من لو جرى نفسى عليه لذابا

٩ إلف يعاقبنى لأنى محسن أرأيت إحسانا يجر عقابا

١٠ جرَّبتُ أيمانًا له فَوَجَدْتُهَا — كذبًا فصرتُ بصدقها مُرْتَابا
١١ فَدع التصابى للشباب فإنه — وَصْم على ذى الشيب أنْ يتصابى
١٢ وامدحْ رئيس بلاغة وكتابة — زانَ الولاةَ وشرَّف الكُتَّابَا
١٣ يا أحمدَ بن عَلِيٍّ البسانى العلا — والمُستعدُّ لكل خطبٍ نابا
١٤ تمى إليك تطلَّعتْ أسبابُهُ — والجاه منك يولِّدُ الأسبابا
١٥ وإليك أبواب الرجاء تفتَّحت — فافتحْ لهنَّ من العناية بابا
١٦ وأنِرْ رياحَ وسائلٍ لمؤمِّلٍ — فعسى يُثِرْنَ من النجاح سحابا
١٧ واقصد بأذرعكَ الذريعة أنه — تكسوكَ من حُسنِ الثناء ثيابا
١٨ واعلمْ يقينًا أنه لَمْ ينتصب — لشفاعةٍ إلَّا الكريم نصابا[1]
١٩ هذا النبىُّ مُكرَّمًا[2] بشفاعة — للناس إذ لا يملكون خطابا
٢٠ ولقوله — صلَّى عليه إلهُهُ — — وكفى بما قال النبىُّ صوابا
٢١ نعم عليكم ذى الحوائج عندكم — والله أوجبَ شكرها إيجابا
٢٢ وإذا أحبَّ اللهُ عبدًا منكمْ — أجرى على يدهِ النجاحَ مثابا
٢٣ وكفى بآداب المبارك قدوةً — وهُدى لمَنْ يتخيَّر الآدابا
٢٤ فافهم هديتَ وأنتَ غير مفهَّم — إنَّ الصَّنائع يملكْنَ رقابا

(١٣) أبو الحسن البريدى المتوفى سنة ٣٣٢ هـ وكان له بشأن البصرة انظر الكامل لابن الأثير ٦—٢٦٠ ؛ ٢٨٥ ، ٣١١) .

(١) النصاب : الأصل .

(٢) يقصد بالمبارك النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

٢٥ وإذا الخلائق فى الرقاب تفاضلت كانت فضائلهم لها أنسابا
٢٦ والله عن علم أتاك مواهبًا إذ كنت تُحسِن تشكر الوهّابا
٢٧ فبسطت للحاجات نفسًا رحبة لو قُسِّمَتْ خِطَطًا لكُنَّ رِحَابا
٢٨ وخلائقًا لك عذبة لو أنها ماء لَجُرِّدَ للملوك شَرَابا
٢٩ وقريحة نورية لو جُسِّمَتْ كانت لإفراط الذكاء شهابا
٣٠ ومواعدًا لك ينبجسن ينابعًا إذ وعد غيرك يستحيل سرابا
٣١ ومكارمًا تابعتهن كأنما تقراهن على الأنام كتابا
٣٢ والله يعلم حيث يجعل فضله وكفى بذلك للحسود جوابا
٣٣ هذا مقال من فعالك يحتذى فاسمعه لا لغوًا ولا كِذَّابا
٣٤ يمتاز فعلك بين أفعال الورى تبرًا ويترك ما سواه ترابا
٣٥ خُذْها إليك أبا الحسين عروسة زُفَّتْ إليك على النهود شبابا
٣٦ فإذا بدت من خدرها جعلت لها حركات أفهام الرجال نهابا
٣٧ فيظن جوهرها لحُسْن نظامها أنْ قد نثرتُ لسامعيه سِخابا
٣٨ ويظن منشدها العذب كلامها أنْ قد ترشَّف للحبيب رضابا
٣٩ لازلت مبسوط اليدين بنعمة وبسطوةٍ كى ترتجى وتهابا

---

(٣٠) تنجسن : يتفجرن .
(٣١) تقرأ تقرأ .
(٣٤) الورى : الخلق . التبر : الذهب .
(٣٧) السخاب : القلادة .
(٣٨) الرضاب : الريق .

وقال الخبزأرزى أيضا :

١ يقولون صِفْ حربَ الرعيَّة والجندِ
وصلحَ رجالٍ من بلالٍ ومن سعدِ

٢ ولى شغل فى صلح قلبى وناظرى
عَلى تَلَفى حتَّى فنيتُ من الوجدِ

٣ ويقبح ذكرى وقعةٍ ، وبمهجتى
وقائع شتَّى من جهاد ومن جهدِ

٤ وكَمْ قتلةٍ لى فى حروب من الهوى
تسلَّط فيهن الظباءُ على الأُسدِ

٥ فوالله مَا هَزٌّ الرمَاح بعقلتى
بأروع لى من هَزِّ معتدل القدِ

٦ وإن ارتكاض الشوق فى حلبة الحشا
لأهْوَلُ من ركض المسوَّمة الجردِ

٧ ولحظ عيُون العِين أمضى مضاربًا
وأتلفُ للأرواح من قضب الهندِ

٨ وأنفَذُ من وقع السِّهام تغازلٌ
على القرب أو حُسن الإشارة من بُعدِ

---

(٦) ارتكاض : تحرك . المسوَّمة الجرد : يقصد الخيل .

(٧) قضب الهند : السيوف المهندة .

٩ سِهام الهوى تُهدى إلى باطن الحشا
وتُردى ولكنْ لا تؤثِّر فى الجِلدِ
١٠ عجِبْتُ من الطرف المكحَّل أنَّه
يُشحِّطنى بالسيف والسيف فى الغمد
١١ ـ فلو أننى فى غمرَتىْ حرب داحسٍ
وحرب بسوس كان دون الذى عندى
١٢ وشيطان شعرى ليس يُعذرَ حيث لا
يراد له ، مانفع زرع بِلا حصدِ
١٣ ولى هَاجس طَلْق عَلى كل لذة
ومـا هاجسى وقفًا على الأجر والحمد
١٤ وأبسط أنسى فى الملاح ممازحًا
فإنْ بسطاونى صار مزحى إلى جدٍّ
١٥ فمن حيث دار درتُ فيهم ككوكب
بأرزن من قاض وأسخف من قردِ
١٦ ولى قلبُ برقٍ تحت رعد فكاهة
فأستمطر اللَّذات بالبرق والرعدِ
١٧ وأطرد مَن أحببتُ طرد تَظرُّفٍ
فيجذبه لى ماتقدَّم من طردى

---

(٩) تردى : تهلك .
(١٠) تشحط : تخبط فى دمه .

١٨ مفاكهةً طوراً وطوراً دماثةً
وطوراً مجوناً ، كلٌّ ذلك من عندى

١٩ فتقضى ديون العَاشِقين نسيئة
بوكسٍ ودَيْنِى فى وفاءٍ وفى نقدِ

٢٠ خليلىَّ هل أبصرتما أو سمعتمَا
بأكرم من مولى تمشى إلى عبد

٢١ أتى زائراً من غير وعدٍ وقال لى :
أصونُك من تعليق قلبك بالوعدِ

٢٢ فَمَا زالَ نجم الكأس بينى وبينه
يَدُور بأفْلاك السَّعَادة والسعدِ

٢٣ مسل الكأس لِم تبدى لنا فى خدودنا
حياء وفى أنعالنا قِحَةً تبدّى

٢٤ تواقح تجمبشى فأظهر خدُّهُ
حياءً عَلى تلك الوقاحة يستعدى

٢٥ ولكنْ إذَا راحٌ وروح تغازلا
تحاقد ذاك الخدُّ واحمرَّ للحقدِ

٢٦ لثمتُ ثنَاياهَا فذقتُ رُضَابَها
كذوب نقىٍّ الثلج فى خَالص الشَّهدِ

---

(١٩) النسئة : الأجل . والوكس : الخسارة .
(٢٤) التجميش : المغازلة .

٢٧ فَقُلْتُ لَهَا لَمَّا ترشَّفتُ رِيقَها
فأطفى غليلًا كان مضطرم الوقدِ

٢٨ أرى نَفَسى خِلَّ الجحيم بلا لظى
وريقك خِلَّ الزمهرير بلا بردِ

٢٩ فَقَالَت : تَمَتَّعْ بالحَيَاة فإنَّما
حَيَاة الفَتَى تعديله الضدَّ بالضدِّ

٣٠ فَمَا زلتُ فى كدٍّ هُو الفوْز بالمنى
وكَمْ راحةٍ للروح فى ذلك الكدّ

٣١ تَمَرَّدت فى المرد الملاح لأنّهم
من المهْد شرطى سرمدًا وإلى اللّحد

٣٢ أموِّه كذبًا باللّذين تستّرُ
على عاذلى والله يَعْلَمُ ما قصْدِى

٣٣ ببدرَيْن من بَدْر السَّماء ووجهها
ولَيْلَيْن من ليل ومن فرعِهَا الجعد

٣٤ فَبِتْنَا بليل كان من طيب عيشه
وتَخْليد ذِكْرَاه جنى جنة الخُلْد

(٢٩) التعديل : المساواة والموازنة .

(٣١) السرمد : الأبدى .

(٣٣) فرعها الجعد : شعرها المتموج .

٣٥ وأفسرك رمّانَ الصُّدور وأكتفى
بورد جنىّ فى الخُدود عن الورد

٣٦ فلَو لَمْ يَكُن فى العشق سِحْر وأُخذة
لَمَا أنِس الوحشُ المفرَّدُ بالقهد

٣٧ وإنْ تَرَنى فردًا وحِيدًا فإنَّمَا
تَزِيف إنَاثُ الطَّير للذكر الفردِ

٣٨ فكَمْ نلتُ نعمى أحمد الله عندها
وقد تعب الشَّيطان فيهَا بلا حمد

٣٩ لَقَدْ ركز الشَّيطان بند جيُوشه
ببندى ، فكل الجَيْش يأْوى إلى بندى

٤٠ فلَو وُلِدَ المولُود بالصِّين فارهًا
أتَتْنِى به الأَخْبَار ركضًا عَلى البُرْدِ

٤١ يَزِيدُ مجونى عنْدَ عشقى كمثل ما
تزيد بوهج الجَمْر رائحة النَّدِّ

٤٢ صَلابة وجْهى فى الهَوَى لَو تمثَّلتْ
بأيَّام ذى القَرْنَيْنِ أغنتْ عن السدِّ

(٣٦) الأخذة : فعل السحر بالنفس . القهد : ولد الضأن والظباء والبقر .
(٣٧) تزيف : تدور وتمشى مدلة .
(٣٩) البند : الراية .

٤٣ إذَا جمحت خيل الهَوى للذاذتى
فألف عنـان لا يطيق بهـا ردى

٤٤ ولَمْ ينتفع بى غير إبْلِيس وحده
وإنْ متُّ لَمْ يظهر على غيره فقـدى

٤٥ وكنتُ فَتًى من جُنْد إبْلِيس فارتقى
بى الأمر حتَّى صَار إبْلِيس من جُنْدى

٤٦ فَلَو مَات قَبْلى كنتُ أُحْسِنُ مثلَه
صَنَائِعَ فِسْق لَيْسَ يُحْسِنهَا بَعْدِى

* * *

(٤٣) جمحت : شردت . والعِنان بكسر العين : اللجام .

إسحـــق الموصلى

هو إسحق بن إبراهيم بن ماهان الأرجانى الموصلى التميمى بالولاء كنيته أبو محمد ، وكناه المأمون أبا صفوان للتحبيب . غير إبراهيم ـ أبوه ـ اسم والده إلى ميمون عندما عابه بعض فتيان الكوفة على هذا الاسم لأنه يشير إلى عرقه الفارسى .

نزح جده ماهان أو ميمون إلى الكوفة ومات فيها وإبراهيم ابنه لم يتعد الثالثة من عمره ، فعاش مع أمه وأخواله ، وكان مع ولد « خزيمة ابن خازم فى الكتاب » ويبدو أن خزيمة رعاه ، ومن هنا جاء ولاء آل الموصل لبنى تميم .

قال إسحق :

١ وآمرةٍ بالبخلِ قلتُ لها اقصرى
فذلكَ شــىءٌ ما إليــه سَبيلُ

٢ أرى النَّاسَ خلاّنَ الكرامِ ولا أرى
بخيلاً لـه حتى المماتِ خليـلُ

٣ وإنى رأيتُ البُخلَ يُزرِى بأهلِهِ
فأكرمتُ نفسى أن يُقالَ بَخيلُ

٤ ومن خير حالات الفتى لو علمْتهِ
إذا نالَ خيرًا أن يكون يُنيلُ

٥ فِعالى فعالُ المُكثرينَ تجمُّلاً
وما لى كما قدْ تعلمينَ قليلُ

٦ وكيفَ أخافُ الفقرَ أواحرمَ الغنى
ورأىُ أميرِ المؤمنينَ جميلُ

* * *

وقال أيضاً :

١ أتبكى على بَغْدَادَ وهى قريبةٌ
فكيفَ إذا ما ازدَدتَ منها غداً بُعدا

٢ - لعَمركَ ما فارقتُ بغدادَ عن قِلىً
لَو أنَّا وجدنا عن فراقٍ لهـا بُدًّا

٣ إذا ذَكَرتَ بغدادَ نفسِى تقطَّعت
من الشوق أَو كادَت تموتُ بها وجْدا

٤ كفى حزَناً أن رُحتُ لم استطع لها
وَداعاً ولم أُحدِث بسا كنِيها عَهْدَا

* * *

وقال أيضاً :

١ هل إلى نظرة إليكَ سبيلُ
فيبلُ الصّدَى يُروى منها الصّدَى ويشفى الغليلُ

٢ إن ما قلَّ منك يكثُرُ عندي
وكثيرٌ ممن تُحِب القليلُ

* * *

وقال أيضاً :

١ تَقَضَّتْ لُبانَاتٌ وجَدَّ رَحيلُ
ولم يُشفَ من أهلِ الصَّفاءِ غليلُ

٢ ومُدَّتْ أَكُفٌّ للوَداعِ فصافَحتْ
وفاضَتْ عُيونٌ للفِراقِ تسيلُ

٣ ولا بُدَّ للأُلّافِ من فيضِ عَبْرَةٍ
إذا ما خَليلٌ بانَ عنهُ خَليلُ

٤ فكمْ مِنْ دَمٍ قد طُلَّ يومَ تحمَّلَتْ
أوانسُ لا يُوْدَى لَهُنَّ قتيلُ

٥ غداةَ جعلْتُ الصبرَ شيئاً نَسِيتُهُ
وأَعْوَلْتُ لو أَجْدَى عليَّ عَويلُ

---

(٤) الطل : هدر الدم .

٦ ولم أنْسَ منها نظرةً هاجَ لِيَ بهـا
هوًى منه بادٍ ظاهرٌ ودَخِيـلُ

٧ كما نَظَرَتْ حوراءُ فى ظِلٍّ سدرةٍ
دعاهـا إلى ظلٍّ الكِناسِ مُقِيلُ

٨ فلا وصْلَ إلا أنْ تلافـاهُ أيْنُقٌ
عِتاقٌ تماهـا شَدْقَمٌ وجَدِيلُ

٩ إذا قلَّبَتْ أجْفَانَهَا فى تَنُـوفةٍ
طوى البعدَ منهـا هِزَّةٌ وذَميلُ

١٠ تَفَرَّدَ إسحـاقٌ بنُصحِ أميرِهِ
فليسَ لَهُ عند الإمـامِ عَـدِيلُ

١١ يُفـرِّجُ عنهُ الشَّكَّ صِدْقُ عزيمة
ولُـبٌّ به يعلو الرِّجـالَ أصيلُ

١٢ أغَرُّ نَجيبُ الوالـدينِ كأنَّـهُ
حُسامٌ جَلَتْ عنهُ العُيُونُ صَقِيلُ

---

(٧) الكناس : موضع مملوء بالرمل .
(٨) أنيق : جمع ناقة وهى الأنثى من الإبل .
الشدقم : الواسع الشدقين وهما جانبا الفم
الجديل : الزمام وهو حبل مفتول يكون فى عنق البعير أو الناقة .
(٩) التنوفة : الصحراء الممتدة .
الذميل : ضرب من سير الإبل سريع لين .

١٣ بَنِي مُصعبٍ للمجدِ فيكم إذا بَدَتْ
وجوهُكُمُ للنــاظِرينَ دَلِيــلُ

١٤ كرُمْتُمْ فما فيكمْ جبانٌ لدَى الوغى
ولا منكُمُ عنــد العَــطَاءِ بخيلُ

١٥ غَلبْتُم على حُسْنِ الثَّنَاء فَرَاقَكُمْ
ثَنَــاءٌ بــأفــواهِ الرِّجــالِ جميلُ

١٦ إذا اسْتَكثَرَ الأعداءُ ما قلتُ فيكُمُ
فــإنَّ الــذى يَسْتكثِرونَ قليــلُ

* * *

الجزء الثاني

النـــثر

أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندى

(١) رسالة الكندى «فى ماهية النوم والرؤيا»

هو أبو يوسف يعقوب بن إسحق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل ابن محمد بن الأشعث بن قيس الكندى ، وهو عربى أصيل من قبيلة كندة ولذلك لقب فيلسوف العرب ، وقد ولد فى أواخر القرن الثانى من الهجرة الموافق لأوائل القرن التاسع الميلادى على الأرجح ، وكان أبوه أميراً ، والسنة التى مات فيها الكندى مجهولة كالسنة التى ولد فيها وإن كان ماسيثيون قد ذهب إلى أنه توفى عام ٢٤٦ هـ - ٨٦٠ م ، وذهب نلليتو إلى أن الكندى مات سنة ٢٦٠ هـ - ٨٧٣ م .

وقد نشأ بالبصرة ثم تركها إلى بغداد .

وقد ذكر أصحاب التراجم كتب الكندى ورسائله التى بلغت عند بن أبى أصيبعة نحو مائتين وثمانين .

والكندى متكلم معتزلى وفيلسوف ، وهو من الآخذين بالمذهب الأفلاطونى الجديد ، والمثل الأعلى عنده سقراط ، وقد ألف كتباً حول سقراط ، وحاول التوفيق بينه وبين أرسطو ، والمأثور أن الكندى حذا حذو أرسطو فى تآليفه ، وكان تأثيره معلماً ومؤلفاً عن طريق مصنفاته ، وكان أخلص تلاميذه وأكبرهم أحمد بن محمد الطيب السرخسى الذى قتل سنة ٢٨٦هـ - ٨٩٩ م وأكثر منه ذكراً بين تلاميذ الكندى أبو معشر جعفر بن محمد البلخى المتوفى سنة ٢٧٢ هـ - ٨٨٥ م].

(٢)

رسالة للكندى فى « ماهية النوم والرؤيا »

إن معرفةَ ما يعْرِضُ للشيء إنماتكونُ بعد الإحاطةِ بعلم مائية[١] الشيء ؛ والنوْمُ والرؤْيا أَحَدُ ما يعْرِضُ للنفس ، فيجبُ أن يكون النظرُ فى ذلك لمَنْ أتقن القوْلَ على جوهر النفس ، وفهمَ فنونه وكثرةَ تصرُّفه وما يُلْحَقُ فى ذلك بالاشتباه[٢] .

وإن مِنْ قوى النفس القوتيْن العظيمتيْن المتباعدتيْن : الحسيّةَ والعقلية ، وإنَّ قواها المتوسطة بيْن الحسى والعقل موجودةٌ جميعاً فى الإنسان ، الذى هو الجِرْمُ الحىُّ النامى . فإذا كانت هذه الأَوائلُ معلومةً ، وكانتْ أفعالُ هذه القُوى ، أعْنى الحادثة عنها ، معلومةً ، كانت مائيةُ النوم معلومة ومائيةُ الرؤْيا ، بالقول الوجيز القليل فى العدد وذلك أنَّا نقول : « نائم » ، للذى وإن كان حيًّا بالفعل ، فإنه لايُحسُّ بواحدٍ من الحواسِّ الخمسة . فإذَنْ النوم هو تَرْكُ استعمال النفس للحواسِّ جميعاً ؛ فإنا إذا لم تبصره ، ولم نسمعْ ، ولمْ نذقْ ، ولم نشمّ ، ولم نلمسْ ، مِنْ غير مرضٍ عارضٍ ، ونحن على طباعنا ، فنحن نيام .

(١) مائية الشيء أى ماهيته .

(٢) الاشتباه = الالتباس .

فإذنْ النومُ بتكميل الرَّسْم[٣] هو تَرْكُ الحيِّ الثابت على طباعه فى الصحّة استعمالَ الحواسّ بالطبع ؛ فإن كان هذا كما قدْ قيل ، فقد يظهرُ ما الرؤيا ؛ إذْ كان معلوماً قوى النفس ، وكان منها قوةٌ تسمى المصوِّرة ، أعنى القوة التى توجدُنا[٤] صورَ الأشياءِ الشخصية بلاطين[٥] ، أعنى مع غيبة حواملها عن حواسنا ، وهى التى يسميها القدماء من حكماء اليونانيين الفنطاسيا ؛ فإن الفصْلَ بين الحس وبينِ القوة المصوِّرة أن الحسَّ يُوجدُنا صور محسوساته محمولةً فى طينتها ؛ فأمّا هذه القوةُ فإنها توجدنا الصُّورَ الشخصية مجرَّدةً ، بلا حواملَ بتخطيطها وجميع كيفياتها وكمياتها .

وقد تعملُ هذه القوةُ أعمالَهَا فى حَالِ النوم واليقظةِ ، إلا أنَّهَا فى النوم أظْهرُ فعلًا وأقوى منها فى اليقظة ؛ فقد نجد المستيقظ الذى نفسُه مستعملةٌ بعض حواسها تتمثل له صورُ الأشياء التى يفكر فيها وعلى قدْر استغراق الفكر له وتركه استعمالَ الحواسّ تكون تلك الصورُ أظْهرَ له ، حتى كأنه يشاهدها بحسِّه ، وذلك إذا انتابه من الشغل بفكره عن الحس ما يُعْدمه استعمالَ البصر والسمع ؛ فإنا كثيرًا ما نرى المفكر يُنادَى فلا يجيبُ ، ويكون أمامَ بصره الشىءُ ، فيخبرُ عنه خروجه من الفكر ، إذا سئل هل رآه أولا ؛ فيخبرُ أنه لم يَره ؛ وكذلك يعْرَضُ فى له فى باقى الحواسّى عن أكثرها .

(٣) الرسم : الوصف .
(٤) توجدنا : تجعلنا نجد .
(٥) بلاطين : أى بدون المادة أو الهيولى .

وهذا فى عامة النّاس موجودٌ . فأما الخواصُّ فى البراعة فى الذهن والعقل وقوة التمييز ،فإنّ قوة أنفسهم البارعة توجدُهُمْ صُورَ الأشياء مجردّةً ، ولم يتشاغلوا عن أكثر المُحَس ... فقد تبيّن لنا إذنْ ما الرؤيا؟ بما قلناه : فالرؤيا إذنْ هى استعمالُ النفس الفكر ورفْعُ استعمال الحواسّ من جهتها ؛ فأما من الأثر نفسه فهى انطباعُ صُور كُلّ ما وقع عليه الفكرُ من ذى صورة ، فى النفس بالقوة المصوِّرةِ ، لتركِ النفس استعمالَ الحواسِّ ولزومها استعمالَ الفكرِ .

فأمّا لماذا ترى الأشياء قبل كونِهَا ؟ ولماذا نرى الأشياء بتأويل أشياء دالّة على أشياء قبل كونها ؟ ولماذا نرى أشياءَ تُرينا أضدادَها ؟ ولماذا نرى أشياء فلا نراها ، ولا نرى لها تأويلاً ولا نرى أضدادَها بتّةً ، فإن العلةَ فى ذلك ما للنفس من العلم بها بالطبع وأنها ماوضع لجميع أنواع الأشياء الحسية والعقليه .

فإذَنْ قد يقرُبُ أنْ يتبيّنَ ما العلةُ فى اختلاف أحوال الرؤيا فى تقدمة معارفها فإنّ النفْسَ لأنها علاّمةٌ يقظانَةٌ حيةٌ ، قد ترمز بالأشياء قَبْلَ كَوْنها ، أو تُبنى بها بأعيانها فإذا كان الحىُّ مُتهَيِّئاً لكمال القبول بالنَّقَاء من الأعراضِ التى يفْسَدُ بها قبولُ قوى النفس وكانت النفسُ قويّةً على إظهارِ آثارِها فى آلة ذلك الحىِّ ، أدّتْ الأشْيَاء أعيانَهَا قَبْلَ كونها ، وعلى قَدْرحالِهِ فى التهيؤ كذلك يكون كثرة ما يؤدى الأشياء أعْيانَهَا ؛ فإن أحوالَ الآلةِ الواحدةِ من أحْوَال النفس ، أعْنى فى أشخاص ذوى الأنفس التامة ، أعنَى الإنسانية ، قد تختلف فى الأزمانِ ، فتكون

مرةً أقبَلَ ومرةً أضعفَ قبولاً ؛ فهذه هى العلةُ فى الرؤيا التى تقدم الإنباء بالشىء عينه قبلَ كونِه .

فأما الرامزةُ فإنها إذا كانت الآلةُ أقلَّ تهيؤاً لقبول إنباء النَّفس الحىِّ بها ؛ فإنها حينئذ تحتَال أو تتلطف لاتخاذ الحىِّ ما أرادتْ اتخاذه إيَّاه بالرمز : مثلاً أقولُ كأنَّها أرادتْ أنْ تريَهُ سَفرًا ، فأرَتْهُ ذاتَهُ طائرة من مكان إلى مكان ، فرمزَتْ له بالنُّقْلة ؛ وذلك إذا لم تقو الآلةُ على أن تقبلَ أسبابَ الفِكرَ النقية ؛ فإنه كما أن الأَحياءَ النامينَ يوجَدُ منهم مَنْ يفكرُ فى الشىءِ قَبْلَ كونهِ ، فيستعملُ الفِكرَ الصحيحةَ بالمقدمات الصادقةِ المؤدية لمثل ذلك الشىء المولدِّة حقيقة النتائج العظيمة لكل ما فكر فيه ، فينبىءُ بالأشياء قبل كونها ، وتضعُفُ أحوالُ ناسٍ آخرين عن تخريج مثل تلك الفكرِ فيصير اعتقادهمُ ظنوناً كذلك يعرض فى الرؤيا .

فبهذا المعنى تضطر النفس إلى الرمز ، وهو من التمثيل فى المستيقظ[٦] كما ذكرنا ؛ فالحزر أعنى الظنّ ذا الطرفين هو الذى يصدق تارة ويكذب تارة ؛ فإن الآلة إن قويت على قبول الرمز الصادق خرج الشىء صدقاً ، فأما الضعيفة فى الظن فكالضعيفة الظنِّ فى اليقظة فإن كلَّ واحدٍ منهما يوافق الحقَّ تارَةً ويوافقُ البَاطل تارةً ؛ فأما إذا ضَعُفَتْ الآلة عن قبول قوة الرمز الذى هو شبيه قوة الظن جاء الشىء بالضدِّ ، وهذه هى

(٦) وهو من التمثيل فى المستيقظ : يقصد تمثيل الشىء بما يحاكيه ويشبهه فى حال اليقظة .

الرؤيا التى تُرى رائيتها ضدّ ما يرى فى منامه ، كالذى رأى إنساناً مات ، فطالت مُدَّته ، ورأى إنساناً افتقر ، فكثر مالُه .

وأما العللُ القريبةُ المنيمةُ للحىّ فهو برْدُ الدماغ وابتلاؤهُ ؛ فإنه إذا بردَ ابتلّ استرخَى عن حال اعتداله وتهيُّئه للحركة الحسية ، إذ آلات الحسِّ منبعثةٌ ، ناشئةٌ من الدماغ فتركتْ النفس استعمالَ الحواس لعُسْرةِ ذلك ، ومالتْ إلى الفكرة ، فحدث النومُ وما يُرى فى النوم .

وأما العلةُ المرطّبةُ للدماغ والمُبْردَةُ له ، فإنه غُؤورُ(٧) الحرارة فى باطن بدَن الحىّ ببَرْدُ أطرافه و ارتفاعُ البخارِ الرّطبِ اللطيف بغوْو ر الحرارة فى باطن البدن ، إلى الدماغ ؛ ومن الدليل على ذلك أنا إذا أكثرْنا من الطعام الرّطَبْ البارد وسكنتْ حركاتُنَا ، فبَرُدَ ظاهرُ أبداننا ، وبطنت الحرارةُ ؛ استرخت حواسُّنا ؛ وثقُل علينا استعمالُهَا ، وانطبقَ ماكان منها استعمالُه بالفتح ، وإن كان الحىُّ على حالٍ لا يقدر على أن يُطبقَهُ ، هيَّأت الطبيعةُ له ما يَريحُه من الحسِّ ، كالذى يَعْرِضِ للعيون فإنها تَقْلبُ سوادَها وتخفيه تحت الأجفان العليا ؛ وإنْ كان طبْعُ الحيوان مما يمكن سوادُ ناظره أن يتسع ويضيق ؛ كما هو موجود فى الهِرَرِ والأرانب وسِباعِ الطير وما كان كذلك ، فإنها متهيئةٌ لتضييق سواد ناظِرها وتوسيعه ، والجفنُ مُتقَلِّصٌ ضيق السواد ، حتى يصيرَ فى حال لايُحِس بثقل استعمال الحسِّ على الحيوان ، مع برْد الدماغ ورطوبته ؛ حتى

(٧) غؤور : من غار الشىء غوراً وغؤوراً ذهب متعمقاً وسفل .

إنّا إذا أردنا استدعاء النوم سكنّا أبداننا من الحركة وأطبقْنا أبصارنا ، واحتلْنا لإظلَام موضعنا ، وباعْدنا عنا الأصواتَ ، لأنْ يبطلُ استعمالُ الحواسّ فيكون النومُ الذى حَدَدْنا فى أول كتابنا هذا .

ومن الدليل أيضاً على ذلك أنا إذا أبطنّا الفكرَ إبطاءاً شديداً ، وأكْببنا على النظر فى الكتب والفكر فيما فيها وسكنتْ أعضاؤنا لذلك ، فبَرُدَ ظاهر أبداننا ، لعدم الحركة العارضة ، استرختْ حواسّنا وثقُل علينا الحسُّ ، وعرَضَ لنا النومُ ، بما يرفْعُ ما بطن من الحرارة من البخار الرّطبْ الباردِ إلى أدمغتنا .

ومن ذلك أيضاً ما يَعْرِضُ لنا فى عقِب التعب الشديد ، مالم يكنْ فى أبداننا حرارةٌ غريبةٌ خارجةٌ عن الغريزة ؛ فإنا نحتاج إلى تسكين أبداننا من الحركة المتعبة ، فإذا سكنّاها بطَنَتْ الحرارة وارتفعتْ إلى أدمغتنا تلك الأبخرةُ الباردةُ الرّطْبةُ ، وقدْ تعيننا الطبيعةِ على ذلك عوْناً شديداً ، فإن ذلك جنسٌ من سياستها للأبدان ؛ لأن النومَ يفْعَلُ مكونَ الأعضاء من الحركة وتفريغَ الالة الهاضمةِ للهَضْم وإفادةَ البدن من الغذاءِ خَلَفاً من كلّ ما سالَ وتحلَّلَ منه بالتعب .

إن بارىء الكلّ جلّ ثناؤه ، صيرّ للحيوان زماناً للراحة وعمل الآلات والقُوى التى للغذاءِ النامى لجسم الحىّ ، إذْ هو متحلِّلٌ سيّالٌ ؛ فإنه لايكْمُل ما يملأُ ويَرْبى جسمَ الحىّ ، مع ما يسيل منه دائماً إلا مايشبه الدّعةَ والهدوءَ والنومَ ، بالقوة على الهضم ومن الدليل علىَ ذلك أن الذين

تبرَدُ قواهم لشدّةِ التعب أولشدّة الاستفراغ بالباه أوالأدوية ، يُؤمرون بالنوم لتقوى طبائعهم على الريادة فى الهضم؛وتجدهم إذا يتقظوا بعد النوم الكائن فى ذلك ، تنبّهوا وقد زال عنهم الضعُف الذى فعله الاستفراغُ والنقضُ والتعبُ والأدويةُ كلُّه أو أكثرُه .

فإذ قد تبيّن ما عللُ النومِ القريبة والبعيدة ،فقد ظهرتْ منفعةُ النوم فى ماذا هى ؛ فهو كما قدمنا نافعٌ فى تكميل الغذاء وإعانة الطبيعة على بنْية الأبدان وتقويتها ؛ أعنى إخْلافَ ماانفِد منها . فهذا فيما سألتَ كافٍ بحسب موضعِكَ من النظر ، كفاك اللهُ مُهمّاتِ الأمور ، والحمدُلله ولىِّ الحَمْد ومستحقِّه ، حمدًا كِفاءَ نعمه على جميع خلقه .

* * *

الجـــاحظ

أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (١٥٦ ــ ٢٥٥ هـ)

قيل إنه ولد حوالى سنة ١٥٦ هـ بمدينة البصرة، وكان موالى كنانة ، وقيل أنه كنانى صليبة . وكان جده أسود يقال له فزارة ، وعمل لجمالا لأحد رجال كنانة بالبصرة .

وجاء الجاحظ أسود البشرة كآبائه وأجداده ، جاحظ العينين ، ولهذا غلب عليه اللقب « الجاحظ » وكان ربعة غير مفرط فى الطول . تندر بقبح صورته فقال : ذكرت للمتوكل لتأديب ولده ، فلما رآنى استبشع منظرى ، فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصرفت .

ونشأ الجاحظ طلعة ، محباً للعلم ، يجلس إلى العلماء فى مجالسهم بمساجد البصرة ، ويأخذ عنهم ، ولم يكتف بلون واحد من العلم ، بل جمع منه ألواناً ، وتعددت موارده ، وأحب القراءة ، فكان يكترى دكاكين الوراقين للاطلاع على ما بها من الكتب ، ويلبث الأيام والليالى .

وعرف بعض اللغات غير العربية ، كالفارسية ، ولعله ألم بالرومية والسريانية ولم يكتف بالقراءة والاطلاع والجلوس إلى كبار العلماء بل كان محباً للتجربة والتعرف على جوانب الحياة والمجتمع ، وتلقى

العلم المروى على ألسنة النا.س ، والتحقق ممـا يقرأ بالمشاهدة والممارسة العملية .

ومال إلى الفلسفة والأخذ بنظر العقل ، ولم يقتنع بالعلم النقلى ، وآثر الرأى ومن هنا فقد عارض كثيرا من العلماء الاخذين بالمنهج النقلى من المحدثين ، والفقهاء والمفسرين وبعض علماء اللغة والنحو وتعرض للهجوم من معارضيه .

وكان أديبا ذواقة ، راوية للشعر ، ناقداً بليغاً ، يميل فى كتابته إلى تسجيل الواقع وعرف الجاحظ بالاعتزال ، وأنه يذهب مذهب واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، وبشر بن المعتمر والنظام وغيرهم من كبار المعتزله ، وعد من أئمتهم ، وتتلمذ فى المذهب على النظام خاصة ، وإن خالفه فى بعض الرأى ، وكان له موقف فى المذهب وآراة نسبت إليه حتى عرفت طريقته بالجاحظية . ونجا بأعجوبة من محنة المعتزلة فى عصر المتوكل .

وألف كثيراً من الكتب والرسائل فى مختلف الموضوعات ، بين الحجاج الدينى ، والحجاج الاجتماعى ، والأدب والنقد ومن أشهرها البيان والتبيين ، والحيوان ، والبخلاء ومن الرسائل: التبصرة بالتجارة والتربيع والتدوير ، والمعاش والمعاد ، والقول فى البغال ، والعرجان والبرصان ، وفضائل الترك .

وتوفى الجاحظ بعد حياة حافلة وقد نيف على التسعين ، بل لعله قارب المائة سنة ٢٥٥ هـ .

من كتاب البيان والتبين للجاحظ

تحقيق عبد السلام هارون

الجزء الأول

(من صفحة ٧٥ إلى ٨٧)

باب البيان

قال بعضُ جهابذة الألفاظِ ونُقّادِ المعانى : المعانى القائمةُ فى صدور الناسِ المتصورةَ فى أذهانهم ، والمتخلجة فى نفوسهم ، والمتّصِلة بخواطرهم والحادثة عن فِكرهم ، مستورةٌ خفيّة ، وبعيدةٌ وحشية ، ومحجوبةٌ مكنونة ، وموجودةٌ فى معنًى معدومة ، لايعرف الإنسانُ ضميرَ صاحبِه ، ولاحاجة أخيه وخليطه ، ولامعنَى شريكِهِ والمعاونِ له على أموره ، وعلى ما لايبلغه من حاجات نفسه إلّا بغيره ، وإنما يُحيي تلك المعانىَ ذكرُهُمْ لَهَا [1] ، وإخبارُهم عنها ، واستعمالُهم إيّاها ، وهذه الخصالُ هى التى تقرّبها من الفهم ، وتُجلّيها للعقل ، وتجعل الخفىَّ منها ظاهرًا ، والغائب شاهدًا ، والبعيدَ قريبًا . وهى التى تلخِّص الملتبس ، وتحلُّ المنعقد ، وتجعل المهمَل مقيَّدًا ، والمقيَّد مطلقًا ، والمجهولَ معروفًا ، والوحشىَّ مألوفًا ، والغُفْل موسومًا ، والموسومَ معلومًا . وعلى قَدْر وُضوح الدّلالة وصوابِ الإشارة ، وحُسن الاختصار ، ودِقّةِ المَدْخَل ، يكون إظهارُ المعنى . وكلّما كانت الدّلالة أوضَحَ وأفْصح ، وكانت الإشارةُ أبينَ

(١) التلخيص : التبين والتفسير .

وأَذْوَر ، كان أنفعَ وأنْجَع . والدَّلالة الظاهرةُ على المعنى الخفىِّ هو البيانُ الذى سمِعْتَ الله عزَّ وجلَّ يمدحُه ، ويدعو إليه ويحثُّ عليه . بذلك نَطَقَ القُرْآنُ ، وبذلك تفاخرَت العَرب ، وتفاضَلَتْ أصنافُ العَجَم .

والبيان اسمٌ جامعٌ لكل شىءٍ كشَفَ لك قِناعَ المعنى ، وهتَكَ الحِجابَ دونَ الضمير ، حتى يُفْضِىَ السامعُ إلى حقيقته ، ويَهجُم على محصولِهِ كائناً ما كان ذلك البيانُ ، ومِن أىِّ جنس كان الدَّليل ؛ لأنَّ مَدَارَ الأمرِ والغايةَ التى إليها يجرى القائل والسّامع ؛ إنما هو الفَهْمُ والإفهام ؛ فبأىِّ شىءٍ بلَغْتَ الإفهامَ وأوضَحْتَ عن المعنى ، فذلك هو البيانُ فى ذلك الموضع .

ثم اعلم — حَفِظَكَ الله — أن حُكْمَ المعانى خلافُ حُكْمِ الألفاظ ؛ لأن المعانىَ مبسوطةٌ إلى غير غاية ، وممتَدَّةٌ إلى غير نهاية ، وأسماءَ المعانى مقصورةٌ معدودة ، ومحصَّلةٌ محدودة .

وجميعُ أصنافِ الدلالات على المعانى من لفظ وغير لفظ ، خمسة أشياء لا تنقُص ولا تَزيد : أولها اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العَقْد[١] ، ثم الخَطُّ ، ثم الحالُ التى تسمى نِصْبة . والنِّصْبة هى الحال الدالّةُ ، التى تقوم مقامَ تلك الأصنافِ ، ولا تقصِّرُ عن تلك الدّلالات ، ولكلِّ واحِدٍ من هذه الخمسة صورةٌ بائنةٌ من صورةِ صاحبتها ، وحليةٌ مخالفةٌ لِحلْيةِ أختها ؛ وهى التى تكشِف لك عن أعيان المعانى فى الجملة ، ثمَّ

(١) العقد : ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين ، يقال له حساب اليد .

عن حقائقها فى التّفسير ، وعن أجناسها وأقدارها ، وعن خاصّها وعامّها ، وعن طبقاتها فى السارّ والضارّ ، وعما يكون منها لَغْوًا بَهْرَجًا[١] ، وساقطًا مُطَّرَحًا .

قال أبو عثمان : وكان فى الحقّ أن يكون هذا البابُ فى أوّل هذا الكتاب ، ولكنّا أخّرْناه لبعض التّدبير .

وقالُوا : البيان بَصَرٌ والعِىُّ عمًى ، كما أنَّ العلم بصرٌ والجهلَ عمى . والبيانُ من نِتاج العِلم ، والعِىُّ من نِتاج الجهل .

وقال سهلُ بن هارون : العقل رائد الرُّوح ، والعلمُ رائدُ العقل ، والبيان ترجمانُ العِلْم[٢] .

وقال صاحبُ المنطق : حَدُّ الإنسانِ : الحىُّ الناطق المُبين .

وقالُوا : حياةُ المروءة الصِّدق ، وحياة الرُّوح العفاف ، وحياة الحِلم العِلم ، وحياة العِلم البيان .

وقال يونسُ بنُ حبيب : ليسَ لعِيِّ مروءة ، ولا لمنقوص البيان بهاء ، ولو حَكَّ بيافوخِهِ أعْنانَ السماء[٣] .

وقالُوا : شِعرُ الرجلِ قِطعةٌ من كلامه ، وظنُّهُ قطعةٌ من علمِه ، واختيارُ قطعةٌ من عَقْلِه .

---

(١) لغواً : أى لا يعتد به ولا يحصل منه على فائدة . والبهرج : الباطل .

(٢) الترجمان ، كزعفران وعنفوان ، وبفتح التاء وضم الجيم : المفسر للسان .

(٣) أعنان السماء : نواحيها ، واحدها عنن وعن .

وقال ابنُ التَّوْأَمُ : الرُّوح عِماد البَدَن ، والعِلْمُ عِمادُ الرُّوح ، والبيان عِماد العِلم .

قد قلنا فى الدَّلالة باللَّفظ . فأَمَّا الإشارة فباليد ، وبالرأس ، وبالعين والحاجب والمَنْكِب ، إذا تباعَدَ الشخصان ، وبالثَّوب وبالسَّيف . وقد يتهدَّد رافعُ السَّيف والسَّوط ، فيكون ذلك زاجرًا ، ومانعًا رادعًا ، ويكون وعيدًا وتحذيرًا

والإشارة واللَّفظ شريكانِ ، ونعْمَ العَونُ هى له ، ونعمَ الترجمانُ هى عنه ، وما أَكثرَ ما تنوب عن اللَّفظِ ، وما تُغْنِى عن الخط . وبعدُ فهل تَعدو الإشارةُ أَن تكون ذاتَ صورةٍ معروفةٍ ، وحِلْية موصوفة ، على اختلافها فى طبقاتها ودلالاتها . وفى الإشارة بالطَّرْف والحاجب وغير ذلك من الجوارح ، مَرفَقٌ كبير[1] ومَعُونة حاضرة ، فى أُمورٍ يستُرها بعضُ النَّاسِ من بعض ، ويُخْفُونها من الجليسِ وغيرِ الجليس . ولولا الإشارة لم يَتفاهم النَّاسُ معنَى خاصّ الخاصّ ، ولَجَهِلُوا هذا الباب البتَّة . ولولا أَن تفسيرَ هذه الكلمة يَدخل فى باب صناعة الكلام لفسَّرتها لكم . وقد قال الشاعر فى دِلالات الإشارة :

أَشارتْ بطَرْفِ العين خِيفَةَ أهلِها إشارةَ مَذْعُورٍ ولَمْ تتكلَّمِ
فأَيْقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قدقال مرحبًا وأهلًا وسهلًا بالحبيبِ المتيَّمُ

---

(١) المرفق ، بفتح الميم والفاء ، وكنبر ومجلس : ما استعين به .

وقال الآخر[1] :

وللقلب عَلى القَلْب دليلٌ حينَ يلقَاهُ
وفى النَّاس من الناس مقاييسُ وأشبَاهُ
وفى العينِ غنًى للمسر ء أنْ تنطقَ أفْواهُ

وقال الآخر فى هذا المعنى :

ومَعشرٍ صِيدٍ ذَوِى تَجِلَّهْ ترى عليهم للنَّدى أدلّه

وقال الآخر :

ترى عينُها عَيْنِى فتعرف وَحْيَها وتعرف عينى ما به الوَحْىُ يرجع

وقال آخر :

وعينُ الفتى تُبدِى الذى فى ضميره وتعْرِف بالنجوَى الحديثَ المعَمَّسا[2]

وقال الآخر :

العينُ تُبدِى الذى فى نفسِ صاحبها من المحبَّة أو بُغْضٍ إذا كانا
والعينُ تنطق والأفْوَاهُ صامتةٌ حتَّى ترى من ضمير القلب تِبْيانا

هذا ومبلغُ الإشارة أبعَدُ من مبلغ الصَّوت . فهذا أيضًا بابٌ تتقدَّم فيه الإشارةُ الصوتَ .

(١) هو أبو العتاهية .
(٢) المعمس ، بالعين المهملة وكسر الميم المشددة وفتحها : الغامض المظلم .

والصوتُ هو آلةُ اللّفظِ ، والجوهرُ الذى يقوم به التقطيع ، وبه يُوجَد التأليف . ولن تكون حركات اللسان لفظًا ولا كلامًا موزونًا ، ولامنثورًا إلّا بظهور الصوت ، ولاتكون الحروف كلامًا إلّا بالتقطيع والتأليف . وحُسنُ الإشارة باليدِ والرأسِ ، مِن تمام حسن البيان باللسان ، مع الذى يكون مع الإشارة من الدَّلِّ والشَّكْل[1] والتَّقَتُّل والتَّثنّى[2] ، واستدعاءِ الشّهوة ، وغير ذلك من الأُمور .

قد قُلْنا فى الدَّلالة بالإشارة . فأمَّا الخطُّ ، فمما ذكرَ اللهُ عزَّ وجلَّ فى كتابه من فضيلة الخَط والإنعام بمنافع الكتاب ، قولُه لنبيِّـه عليه الصَّلاة والسلام : (إقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) . وأقسم به فى كتابه المُنْزَل ، على نبيِّـه المُرْسَل ، حيث قال : « نٓ * وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ » ، ولذلك قالوا : القَلَم أَحَدُ اللِّسانين . كما قالوا : قِلَّة العِيال أَحَدُ اليَسَارَين . وقالوا : القَلَمُ أَبقَى أَثرًا ، واللسان أكثرُ هَذَرًا .

وقال عبدُ الرحمن بن كيسان : استعمال القلم أجدَرُ أن يحضَّ الذهن على تصحيح الكتاب ، من استعمال اللِّسان على تصحيح الكلام .

وقالُوا : اللِّسان مقصورٌ على القريب الحاضر ، والقَلَمُ مطلقٌ فى الشَّاهد والغائب ، وهو للغابر الحائن[3] ، مثلُه للقائم الرَّاهن .

(١) الشكل ، بالكسر وبالفتح : دل المرأة وغنجها وغزلها .

(٢) التقتل ، بالقاف : الاختيال والتثنى والتكسر فى المشى .

(٣) الحائن : الهالك .

والكتاب يُقْرَأُ بكلِّ مكان ، ويُدرَس فى كلِّ زمان ؛ واللِّسان لايعْدُو سامِعَه ، ولايتجاوزُه إلى غيره .

وأمّا القَول فى العَقْد ، وهو الحسابُ دونَ اللّفظ والخط ، فالدَّليلُ على فضيلته ، وعِظَم قَدْر الانتفاع به ، قولُ الله عزَّ وجلَّ : «فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ[1] سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» . وقال جلَّ وتقدَّس : «الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ» . وقالَ جلَّ وعزَّ : «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ» . وقال : «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ» .

والحسابُ يشتمل على معانٍ كثيرة ومنافعَ جليلة ، ولولا معرفةُ العِبَاد بمعنى الحِساب فى الدنيا لمَا فهِمُوا عن الله عزَّ وجلَّ معنَى الحساب فى الآخرة . وفى عدم اللَّفْظِ وفَساد الخط والجهلِ بالعقد فسادُ جُلِّ النِّعَم وفقْدانُ جُمور المنافع ، واختلالُ كلِّ ما جعله اللهُ عزّ وجلَّ لنا قوامًا مَصْلحةً ونظَاما .

وأما النِّصبة فهى الحالُ الناطقة بغير اللفظ ، والمشيرة بغير اليدُ . وذلك ظاهرٌ فى خَلْق السموات والأَرض ، وفى كلِّ صامت وناطق ، وجامد

(١) قرأ الكوفيون : (وجعل) ، وباقى السبعة : (وجاعل) . انظر تفسير أبى حيان (٤ : ١٨٦) .

ونام ، ومُقيم وظاعن ، وزائد وناقص . فالدَّلالة التى فى الموات الجامد ، كالدلالة التى فى الحيوان الناطق . فالصَّامتُ ناطق من جهة الدلالة ، والعجْماء مُعْرِبةٌ من جهة البُرهان ، ولذلك قال الأَوَّل[1] :

« سَل الأَرض فقُلْ : مَنْ شَقَّ أَنهارَكِ ، وغَرَسَ أَشْجارَك ، وجَنَى ثِمَارَك ؟ فإن لم تجبْكَ حِوَارًا ، أَجابتك اعتبارًا » .

وقال بعض الخطباء : « أَشهَدُ أَنَّ السمٰواتِ والأَرضَ آياتٌ دالاتٌ وشواهدُ قائمَات ، كلٌّ يؤدى عنك الحجة ويَشْهَدُ لك بالرُّبوبية موسومةٌ بآثار قُدْرَتِك ، ومَعَالِم تدبيرِك ، التى تَجَلَّيْتَ بها لخلْقك ، فأَوصَلت إلى القُلُوب مِن معرفتك ما آنَسَها مِن وَحشة الفكر ، ورَجْم الظُّنون . فهى على اعترافها لك ، وافتقارها إليك ، شاهدةٌ بأَنك لا تُحيط بك الصفات ، ولا تحدُّك الأَوهام ، وأَنَّ حَظَّ الفِكْر فيك ، الاعترافُ لك » .

وقال خطيبٌ من الخطباء ، حين قام على سَرير الإسكندر وهو ميت : « الإسكندر كان أَمْسِ أَنطَقَ منه اليومَ ، وهو اليومَ أَوْعَظُ مِنْهُ أمس » .

ومتى دلَّ الشىءُ على معنًى فقد أَخبر عنه وإن كان صامتًا ، وأَشار إليه وإن كان ساكتًا وهذا القولُ شائعٌ فى جميع اللُّغات ، ومتَّفق عليه مع إفراط الاختلافات .

---

(١) هو الفضل بن عيسى بن أبان .

وقال عنترةُ بنُ شدّادٍ العَبْسىّ وجَعَلَ نعيبَ الغُراب خبرًا للزّاجر :

حَرِقُ الجناح كأنَّ لَحْيَىْ رأسِه ... جَلَمَان بالأخبار هَشٌّ مُولَعُ

الحَرِق : الأسوَد . شبّه لَحْيَيه بالجَلَمين ، لأنّ الغراب يخبر بالفرقة والغُربة ويَقطع كما يقطع الجَلَمانِ . وأنشدنى أبو الرُّدَينى العُكْلى(١) ، فى تنسُّمِ الذئب الريحَ واستنشائِه(٢) واستِرواحِه :

يَسْتَخْبِرُ الريح إذا لم يَسْمَعِ ... بِمِثْلِ مِقْرَاعِ الصَّفَا المُوَقَّعِ

المِقراع : الفأس التى يُكسَر بها الصَّخر . والموقَّع : المحدَّد . يقال : وقَّعت الحديدة إذا حدَّدتَها . وقال آخرُ ، وهو الرّاعى :

إنَّ السَّماءَ وإنَّ الريحَ شاهدَةٌ ... والأرضُ تَشهَدُ والأيّامُ والبَلَد

لقد جَزَيْتَ بنى بدرٍ بِبَغْيِهم ... يومَ الهَبَاءَةِ يومًا ماله قَوَدُ(٣)

وقال نُصيبٌ فى هذا المعنى ، يمدح سليمانَ بنَ عبد الملك :

أقولُ لِرَكبٍ صادِرِينَ لقيتَهم ... قَفَا ذَاتِ أوشالٍ ومولاكَ قاربُ(٤)

قِفُوا خَبِّرُونَا عن سليمانَ إنَّنى ... لمعروفه مِنْ أهْلِ ودّانَ طالبُ(٥)

فَعاجُوا فأَثْنَوْا بالذى أنتَ أهلُه ... ولَوْ سكتُوا أثنتْ عليكَ الحقائبُ

وهذا كثيرٌ جدًا .

* * *

(١) أبو الرديني العكلي هو النظر بن شهاب ، أحد بني عوف بن كنانة ، من عكل.

(٢) الاستنشاء : الشم .

(٣) يوم الهباءة ، كان لعبس على ذبيان ، وفيه قتل حذيفة بن بدر .

(٤) القارب : طالب الماء ، وأراد بالمولى نفسه .

(٥) ودان : موضع بين مكة والمدينة قريب من الجحفة.

وقال علىٌّ رحمه الله : «قيمة كل امرئٍ ما يُحسِنُ» . فلو لم نَقِفْ من هذا الكتاب إلّا على هذه الكلمة لوَجَدْناها شافيةً كافية ، ومجزئة مغْنِية ؛ بل لوَجدناها فاضلةً عن الكفاية ، وغيرَ مقصِّرة عن الغاية . وأحسن الكلام ما كان قليلهُ يُغْنيك عن كثيره ، ومعناه فى ظاهرِ لفظِه ، وكان اللهُ عزَّ وجلَّ قد ألبسه من الجَلالة ، وغَشَّاه من نُور الحكمة على حَسَب نيَّة صاحبه ، وتقوى قائِله . فإذا كان المعنى شريفًا واللَّفْظُ بليغًا ، وكانَ صحيح الطَّبع ، بعيدًا من الاستكراه ، ومنزَّهًا عن الاختلال مصونًا عن التكلُّف ، صنَعَ فى القُلُوب صنيعَ الغَيث فى التُّربة الكريمة . ومتى فصَلت الكلمةُ على هذه الشَّريطة ، ونفذَتْ من قائلها على هذه الصِّفة ، أصحَبَهَا اللهُ من التوفيق ومَنَحَهَا من التأْييد ، ما لا يمتنع معه من تعظيمها صدورُ الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها معهُ عقولُ الجَهَلة .

وقد قال عامر بن عبد قيس[1] : «الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوِز الآذانَ» .

وقال الحسنُ رحمه الله ، وسَمِع رجلًا يَعِظ ، فلم تقع موعظتُه بموضِع من قلبه ، ولم يرِقَّ عندها ، فقال له : «يا هذا ، إنَّ بقلبك لَشَرًّا أو بقلبى» .

وقال علىُّ بنُ الحسَين بن علىّ رحمه الله : لو كان النَّاسُ يعرفون جُملةَ الحال فى فضل الاستبانة ، وجملةَ الحال فى صواب التَّبيين ، لأعرَبُوا

---

(١) هو عامر بن عبد قيس بن ثابت التيمى ، ويقال له أيضا عامر بن عبد الله . تابعى .

عن كل ماتَخَلَّجَ فى صُدورِهم ، ولوَجَدُوا من بَرْدِ اليقين ما يُغْنيهم عن المنازَعة إلى كل حال سوى حالهم . وعلى أنَّ دَرَك ذلك كان لايُعْدِمُهم فى الأيَّام القليلة العِدَّة[١] ، والفِكْرَة القصيرة المُدة ، ولكنَّهم من بين مغمورٍ بالجَهْل ، ومَفْتُونٍ بالعُجْب ، ومعدولٍ بالهوى عن باب التثبُّت ، ومصروف بسوءِ العادة عن فَضْلِ التَّعلُّم .

وقد جَمَع مُحَمَّدُ بنُ علىّ بن الحسين صلاحَ شأْن الدُّنيا بحذافيرِها فى كلمتين ، فقال : « صلاحُ شأْن جميعِ التَّعايُشِ والتعاشر : مِلءُ مكيال ثلثاه فِطنةٌ ، وثُلثُه تغافُل » . فلم يجعَلْ لغير الفِطنة نصيباً من الخير ، ولا حَظًّا فى الصلاح ، لأنَّ الإنسان لايتغافل إلَّا عن شىءٍ قد فَطِن له وعَرَفه .

وذكر هذه الثلاثة الأ بارَ إبراهيمُ بنُ داحة ، عن مُحَمَّد بن عمير وذكرها صالح بن علىّ الأَفقم ، عن محمد بن عُمَيْر وهؤلاء جميعاً من مشايخ الشِّيَع ، وكان ابنُ عمير أغْلاهم

وأخبرنى إبراهيمُ بن السِّندىّ ، عن علىّ بن صالح الحاجب ، عن العباس بن محمد قال : قيل لعبد الله بن عبَّاس : أَنَّى لك هذا العلمُ ؟ قال : « قلبٌ عَقُولٌ ، ولسانٌ سؤُول » . وقد رووْا هذا الكلام عن دغفَلِ ابن حنظلةَ العلاّمة[٢] . وعبدُ الله أَوْلى به منه . والدَّليل على ذلك قولُ

---

(١) يقال : أعدمه الشىء ، إذا لم يجده .

(٢) دغفل بن حنظلة ممن أدرك النبى ولم يسمع منه شيئا ، ووفد على معاوية فسأله عن مسائل فأجابه وكان منها هذا السؤال .

الحسن : إنَّ أوَّلَ مَن عرَّف بالبصرة ابنُ عباسٍ ، صعِد المنبر فقرأ سورةَ البقرة ، ففسَّرَها حرفًا حرفا ، وكان مِثَجًّا يسيل غَرْبًا[1] .

المِثَجُّ : السائل الكثير ، وهو من الثَّجاج . والغَرْب ، فهاهنا : الدَّوَام .

هشام بن حسَّانَ وغيرُه ، قال : قيل للحسن : يا أبا سعيد ، فإنَّ قَومًا زعمُوا أنَّك تذمُّ ابنَ عباسٍ . قالوا : فبكى حتَّى اخضلَّت لحيتُه ، ثم قال : إنَّ ابنَ عَبَّاسٍ كان من الإسلام بمكان ، إنَّ ابن عبَّاس كان من القرآنِ بمكان ، وكان والله له لسانٌ سَؤُولٌ ، وقلب عَقُول ، وكان والله مِثَجًّا يسيل غَرْبًا .

قالوا : وقال علىُّ بن عبد الله بن عباس : من لم يجدْ مَسَّ الجَهْل فى عقله ، وذَلَّ المعصية فى قلبه ، ولم يَستبن موضع الخَلَّة فى لسانه ، عند كلال حَدِّه عن حَدِّ خَصمِه ، فليس ممَّن يَنزِعُ عن رِيبَة ، ولا يَرغبُ عن حال مَعْجَزَة ، ولا يكترث لفَصْلِ ما بين حُجَّة وشُبهة .

قالوا : وذكَر محمَّدُ بن علىّ بن عبد الله بن عباس ، بلاغَةَ بعضِ أهلهَ فقال : إنى لأَكْرهُ أن يكون مقدارُ لسانه فاضلًا على مقدار عِلمه ، كما أكره أن يكون مقدارُ علمه فاضلًا على مقدار عقله .

---

(١) معنى عرف بالبصرة : فعل فعل الحاج بعرفة فى جمع الناس للذكر والدعاء .

وهذا كلامٌ شريفٌ نافع، فاحفظوا لفْظَهُ وتدبَّروا معناه، ثمَّ اعلموا أنَّ المعنى الحقيرَ الفاسدَ، والدنيَّ الساقطَ، يعشِّش فى القلب ثم يَبيض ثم يفرِّخ، فإذا ضَرَب بجِرانِهِ ومكَّن لعُروقه، استفحل الفساد وبَزَل، وتمكَّن الجهل وقَرَحَ[1]، فعند ذلك يقوى داؤه، ويمتنع دواؤُه؛ لأنَّ اللفظَ الهجينَ الرديَّ، والمستكرَهَ الغَبِيَّ، أَعلَقُ باللِّسان، وآلف للسمع وأشدُّ التحامًا بالقلب من اللفظ النَّبِيه الشَّريف، والمعنى الرَّفيع الكريم. ولو جالَسْتَ الجُهَّالَ معانيهم، بمجالسة أهل البيان والعقل دهرًا؛ لأنَّ الفسادَ أَسرعُ إلى النَّاس، وأشدُّ التحامًا بالطبائع. والإنسانُ بالتَّعلُّم والتكلُّف، وبطُول الاختلاف إلى العلماء، ومدارَسَةِ كُتُبِ الحكماء، يَجُودُ لفظُه، ويحسُن أَدبُه، وهو لايحتاج فى الجهل إلى أكثرَ من ترك التعلُّم، وفى فساد البيان إلى أكثرَ من ترك التخيُّر.

ومما يؤكد قولَ محمَّد بن علىّ بن عبد الله بن عبَّاس، قولُ بعضِ الحكماء حين قيل له: متى يكون الأَدبُ شراً من عدمه؟ قال: إذا كثُر الأَدب، ونَقَصَت القريحة.

وقد قال بعضُ الأَوَّلين: «مَن لم يكن عقلُه أغلبَ خصالِ الخَيرِ عليه، كان حتفُه فى أَغلبِ خصالِ الخير عليه». وهذا كلُّه قريبٌ بعضُه من بعض.

---

(١) بزل: بلغ سن البزول، وهو التاسعة. وقرح: بلغ سن القروح، والقارح من ذى الحافر بمنزلة البازل من الابل. كنى بها عن القوة.

وذكر المغيرةُ بن شُعْبة عُمَر بنَ الخطَّاب رحمه الله فقال : « كان والله أَفضلَ من أن يَخْدَع ، وأَعْقَلَ من أن يُخْدَع » .

وقال محمَّد بن عليّ بن عبد الله بن عباس : « كَفَاكَ مِن عِلْم الدِيْن أن تعرِف ما لا يسَعُ جَهْلُه ، وكفاك مِن علم الأَدب أن تروِى الشَّاهدَ والمثَل » .

وكان عبدُ الرحمن بنُ إسحاقَ القاضى يروى عن جدّه إبراهيم ابن سلمة ، قال : سمعتُ أَبَا مسلم[1] يقول : سمِعت الإمامَ إبراهيمَ ابنَ محمّد[2] يقول : يكفِى من حَظ البلاغة أن لا يُؤْتَى السَّامعُ من سوءِ إفهام النَّاطق ، ولا يُؤْتَى النَّاطقُ من سوءِ فهم السَّامع .

قال أبو عثمان : أَما أنا فأَستحسنُ هذا القَوْل جدًّا .

* * *

(١) هو أبو مسلم الخراسانى الداعى للدولة العباسية .

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله العباس بن عبد المطلب ، أخو أبى العباس السفاح رأس الدولة العباسية ، حبسه مروان بن محمد ، وقتل فى محبسة سنة ١٣٢ حيث ظهر بعده أبو العباس السفاح ، عبد الله بن محمد بن على عبد الله بن العباس .

البخــــلاء

قصة أهل البصرة من المسجديين

قال أصحابُنا من المسجديين :

اجتمع ناسٌ فى المسجد ، ممن يَنْتَحِل[١] الاقتصاد فى النفقة ، والتثمير[٢] للمال ، من أصحاب الجمع والمنع . وقد كان هذا المذهب عندهم كالنسب الذى يجمع على التحاب ، وكالحِلف الذى يجمع على التناصر وكانوا إذا التقوا فى حِلَقهم تذاكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارسوه ، التماسًا للفائدة ، واستمتاعًا بذكره .

فقال شيخ منهم :

ماءُ بئرنا – كما قد علمتم – مالحٌ أُجاج ، لايقربه الحمار ولاتُسيغه الإبل وتموتُ عليه النخل ، والنهرُ منا بعيد وفى تكلف العذب علينا مؤونة[٣] . فكنّا نمزجُ منه للحِمار ، فاعتلَّ منه وانتقض علينا من أجله ، فصرنا بعد ذلك نسقيه العذبَ صِرفًا . وكنت أنا والنعجة كثيرًا ماتغتسلُ بالعذب مخافة أن يعترىَ جلودَنا منه مثلُ ما اعترَى جوفَ الحِمار فكان ذلك الماءُ العذبُ الصافى يذهب باطلًا . ثم انفتحَ لى فيه بابٌ من

(١) ينتحل : يتخذه نحلة ومذهبا .
(٢) التثمير : تنمية المال
(٣) مؤونة : مشقة وتعب .

الإصلاح ، فعمِدتُ إلى ذلك المتوضَّأ ، فجعلت فى ناحية منه حُفرة ، وصَهْرجتها[1] وملستها ، حتى صارت كأنها صخرةٌ منقورة ؛ وصوَّبت إليها المسيل فنحن الآن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافيًا لم يخالطه شىء، ولولا التعبد لكان جلدُ المتغوط أحقَّ بالنَّتْن من جلدِ الجُنُب ، فمقادير طيبِ الجلود واحدة ، والماءُ على حاله . والحِمار أيضًا لا ننقزّز له من ماءِ الجنابة ، وليس علينا حرجٌ فى سَقيه منه . وما علمنا أنَّ كتابًا حرَّمه ولا سُنَّة نَهَت عنه فربحنا هذه منذ أيام ، وأسقطنا مؤنة عن النفس والمال

قال القوم : هذا بتوفيق الله ومَنِّه .

فأقبل عليهم شيخٌ فقال :

هل شَعَرتم بموتِ مريم الصنَّاع[2] ؟ فإنها كانت من ذوات الاقتصاد وصاحبة إصلاح . قالوا : فحدثنا عنها . قال : نوادرُها كثيرة وحديثُها طويل ، ولكنى أُخبركم عن واحدة فيها كفاية . قالوا : وما هى ؟ قال :

زوَّجتْ ابنَتها ، وهى بنتُ اثنَتى عشرة سنة ، فحلَّتها الذهبَ والفضة وكسَتها المروىَّ[3] والوَشْى[4] والقزَّ[5] والخزَّ[6] وعلَّقت المعصفَر[7] ،

---

(١) صهرجتها : صهرجه طلاه وأصله فارسى والصهريج كالحياض يجتمع فيها الماء .
(٢) الصناع : أى الحاذقة الماهرة .
(٣) المروى : ثياب تنسب طرو .
(٤) الوشى : ثياب مختلطة الألوان .
(٥) القز : من الثياب والإبريسم فارسى معرب .
(٦) الخز : ضرب من الحرير .
(٧) المعصفر : أى المصبوغ بالعصفر .

ودقّت الطيب ، وعظّمت أمرها فى عين الختَن[١] ، ورفَعت من قدرها عند الأحماء . فقال لها زوجُها أنّى لك هذا يا مريم ؟ قالت : هو من عندِ الله . قال : دعِى عنك الجُملة وهاتى التفسير ، والله ما كنتِ ذا مال قديماً ولا ورثتِه حديثًا ، وما أنتِ بخائنة فى نفسك ولا فى مال بعلك ، إلّا أن تكونى قد وقعتِ على كنز . وكيف دار الأمر ، فقد أسقطتِ عنى مؤنة وكفيتِنى هذه النائبة . قالت : اعلمْ أنى منذُ يوم ولدتُها إلى أن زوّجتُها كنتُ أرفع من دقيق كل عَجنة حَفنة ، وكنّا — كما قد علمتَ — نخبزُ فى كل يوم مرّة ، فإذا اجتمع من ذلك — مكّوكٌ[٢] بعتُه . قال زوجُها : ثبّت الله رأيَك وأرشدك ، ولقد أسعد الله من كنت له سَكَنًا ، وبارك لمن جُعلتِ له إلفًا . ولهذا وشِبهه قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : من الذوْد إلى الذوْد[٣] إبل . وإنى لأرجو أن يخرُج ولدكِ على عِرقك الصالح ، وعلى مذهبك المحمود ، وما فَرَحى بهذا منكِ بأشدَّ من فَرَحى بما يثبِّت الله بكِ فى عَقبِى من هذه الطريقة المرضيّة .

فنهضَ القوم بأجمعِهم إلى جنازتها ، وصلّوا عليها . ثم انكفئوا إلى زوجها فعزّوه على مصيبته . وشاركوه فى حزنه .

---

(١) الختن : كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ وعند العامة زوج الإبنة .

(٢) مكوك : مكيال .

(٣) الذود : من الإبل ما بين الثلاث إلى العشرة .

ثم اندفع شيخٌ منهم فقال

يا قوم لا تحقروا صغار الأُمور ، فإن أَوَّل كلِّ كبير صغير ، ومتى شاءَ اللهُ أَن يعظم صغيرًا عظَّمه وأَن يكثِّر قليلًا كثره . وهل بيوت الأَموال إلَّا درهم على درهم ؟ وهل الدرهم إلَّا قيراط إلى جنب قيراط ؟ أَو ليس كذلك رملُ عالج وماءُ البحر ؟ وهل اجتمعت أَموال بيوت الأَموال إلَّا بدرهم من هٰهنا ودرهم من هٰهنا . قد رأَيتُ صاحبَ سَقَط[1] قد اعتقد مائة جَريب[2] فى أَرض العرب . وربَّما رأَيتهُ يبيعُ الفُلفل بقيراط والحِمَّص بقيراط ، فاعلمْ أَنه لم يربَحْ فى ذلك الفلفل — إلَّا الحبَّة والحبَّتين من خَشَب الفلفل ، فلم يزل يجمعُ من الصِّغار الكبار ، حتى اجتمع ما اشترى به مائة جريب .

ثم قال : اشتكيتُ أَيَّامًا صدرى ، من سُعال كان أَصابنى . فأَمرنى قومٌ بالفانيذ[3] السكرى ، وأَشارَ علىَّ آخرون بالخزيرة[4] تتَّخذ من النشاشتج[5] والسكر ودهن اللوز وأَشباه ذلك . فاستثقلتُ المؤنة وكرهت الكُلفة ورجوتُ العافية . فبينا أَنا أُدافع الأَيَّام إذ قال لى بعضُ الموفقين : عليك بماءِ النُّخالة ، فاحسُه حارًّا . فحسَوْت ، فإذا هو طيِّب جدًّا ، وإذا هو يعصِم . فما جعتُ ولا اشتهيتُ الغداءَ فى ذلك اليوم إلى الظهر .

---

(١) سقط : أى ردىء المتاع

(٢) جريب : مكيال .

(٣) الفانيذ : ضرب من الحلواء فارسى معرب.

(٤) الخزيرة : اللحم يقطع صغاراً ثم يطبخ بالماء والملح وينثر عليه الدقيق

(٥) النشاشتج : النشا فارسى معرب

ثم ما فرغتُ من غَدَائى وغسل يدى ، حتّى قاربت العصر . فلما قَرُبَ وقتُ غَدَائى من وقتِ عشائى ، طويت العَشَاء وعرفت قصدى .

فقلتُ للعجوز : لم لا تطبخين لعِيَالِنَا فى كل غداة نخالة ؟ فإن ماءها جِلاءٌ للصدر وقُوتَها غِذاءٌ وعِصمة . ثم تجففين بعدُ النُّخالة . فتعود كما كانت ، فتبيعينَهُ إذا اجتمع بمثل الثمن الأَول . ونكون قد ربحنا فضلَ ما بين الحالين . قالت : أرجو أن يكون الله قد جمع لك بهذا السُّعال مصالح كثيرة ، لما فتح الله لك بهذه النخالة التى فيها صلاحُ بدَنك وصلاحُ معاشك .

وما أَشك أن تلك المشورَةَ كانت من التوفيق .

قال القوم : صدقتَ . مثلُ هذا يُكتسبُ بالرأى ، ولا يكون إلّا سماوياًّ .

ثم أَقبل عليهم شيخٌ آخر فقال .

كنا نلقى من الحُرَّاق[١] والقدَّاحة جَهداً ؛ لأَن الحجارة كانت – إذا انكسَرت حروفُها واستدارت – كلت ولم تقدح قَدحَ خير ، وأَصلدت[٢] فلم تورِ . وربما أَعْجَلنا المطر والوَكف[٣] . وقد كان الحجرُ أَيضًا يأْخذ من حروف القدَّاحة حتّى يدَعها كالقوس ، فكنت أَشترى المرقشيثا[٤]

---

(١) الحراق والحراقة : ما تقع فيه النار عند القدح

(٢) أصلدت : صوتت ولم تخرج ناراً

(٣) الوكف : أى القطر والمطر

(٤) المرقشيثا : اسم يطلق على بعض المعادن الكبريتية التى تقدح النار

بالغَلاء والقدّاحةَ الغليظةَ بالثمن الموجع. وكان علينا أيضًا فى صَنعة الحُرّاق وفى معالجة العُطْبَة[1] مؤنة، وله ريحٌ كريهة. والحراق لا يجىءُ من الخِرق المصبوغة، ولا من الخِرق الوسِخة، ولا من الكَتّان، ولا من الخُلقان. فكنّا نشتريه بأغلى الثمن. فتذاكرنا منذ أيام أهلَ البدو والأعراب، وقدحَهم النار بالمرْخ[2] والعَفار[3]، فزعم لنا صديقُنا الثورى، وهو - ما علمت - أحدُ المرشدين: أن عراجين[4] الأعذاق تنوبُ عن ذلك أجمع، وعلّمنى كيف تعالَج. ونحن نُؤتَى بها من أرضنا بلا كلفة. فالخادمُ اليوم لا تقدحُ ولا تُورِى إلا بالعُرجُون.

قال القومُ: قد مرّت بنا اليوم فوائد كثيرة، ولهذا ما قال الأول مذاكرةُ الرجال تلقّح الألباب.

ثم اندفع شيخٌ منهم فقال:

لم أر فى وَضع الأمور مواضعَها وفى توقيتها غاية حُقوقها، كمعاذةَ العنبرية. قالوا: وما شأن معاذةَ هذه؟ قال:

أهدى إليها العامَ ابنُ عمٍّ لها أُضحيّة. فرأيتُها كئيبةً حزينة مفكِّرة مُطْرِقة، فقلتُ لها: ما لك يا مُعاذة؟ قالت: أنا امرأة أرْملة وليس لى

---

(١) العطبة: قطعة من القطن.
(٢) المرخ: من شجر العضاه ومنه يكون الزناد.
(٣) العفار: شجر تقدح منه النار.
(٤) عراجين الأعذاق: أصولها التى تعوج ويقطع منها شماريخ النخل.

قيّم ، ولا عهد لى بتدبير لحم الأضاحى . وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه .وقد خفتُ أن يضيعَ بعضُ هذه الشاة ، ولست أعرفُ وضعَ جميع أجزائها فى أماكنها . وقد علمتُ أن الله لم يخلُق فيها ولا فى غيرها شيئًا لا منفعة فيه .ولكن المرءَ يعجز لا محالة .ولستُ أخاف من تضييع القليل إلَّا أنه يجُرُّ تضييع الكثير .

أما القرنُ فالوجهُ فيه معروف ، وهو أن يُجعلَ منه كالخُطاف ، ويسمّر فى جِذع من أجذاع السقف ، فيعلّق عليه الزُّبُل والكيران[1] ، وكل ماخيفَ عليه من الفأر والنمل والسنانير[2] وبناتِ وَردان والحيّات وغير ذلك . وأما المُسران فإنه لأوتار المِندفة ، وبنا إلى ذلك أعظمُ الحاجة . وأما قِحف[3] الرأس واللَّحيان[4] وسائرُ العظام فسبيله أن يُكسَر بعد أن يُعرَق[5] ، ثم يطبخ ، فما ارتفع من الدسم كان لِلْمِصباح وللادام وللعصيدة ولغير ذلك ، ثم تؤخذُ تلك العظام فيوقَدُ بها ، فلم يرَ الناسُ وقودًا قطُّ أصفى ولا أحسنَ لَهَبًا منه . وإذا كانت كذلك ، فهى أسرعُ فى القدر ، لقلّة ما يخالطها من الدخان . وأما الإهابُ فالجلدُ نفسه جِراب . وللصوف وجوهٌ لا تُعد . وأما الفرثُ والبعر فحطَب إذا جفف عجيب .

(١) الكيران : ج. كور وهو الرحل بأداته .
(٢) بنات وردان : دواب معروفة .
(٣) قحف الرأس : العظم الذى فوق الدماغ .
(٤) اللحيان : منبت اللحية من الإنسان وغيره .
(٥) يعرق : العراق العظم بغير لحم وعرق العظم وتعرقه إذا أخذ اللحم عنه .

ثم قالت : بقى الان علينا الانتفاعُ بالدم. وقد علمتُ أنَّ الله – عزَّ وجلَّ – لم يحرِّم من الدم المسفوح إلَّا أكلَه وشُربه ، وأن له مواضع يجوز فيها ولا يُمنع منها ، وإن أنا لم أقعْ على علم ذلك حتَّى يوضَع مَوْضِعَ الانتفاعِ به ، صار كيَّة فى قلبى وقذًى فى عينى ، وهمًّا لا يزالُ يعسودنى .

قال : فلم ألبثْ أن رأيتُها قد طلقت[1] وتبسَّمت . فقلت : ينبغى أنْ يكونَ قد انفتح لكِ باب الرأى فى الدم . قالت : أجل ذكرت أنَّ عندى قدورًا شاميَّة جُدُدًا . وقد زعموا أنه ليسَ شىءٌ أدبغَ ولا أزيدَ فى قوَّتها من التلطيخ بالدم الحار الدَّسِم . وقد استرحتُ الآن ، إذ وقع كلُّ شىءٍ موقعه .

قال : ثم لقيتُها بعدَ سِتة أشهر ، فقلتُ لها : كيف كان قديدُ تلك ؟ قالت : بأبى أنت ! لم تجئْ وقتُ القديد بعدُ . لنا فى الشَّحم والألية والجنُوب والعظم المعرق وفى غير ذلك مَعاش . ولكلِّ شىءٍ إبَّان[2]

فقبضَ صاحبُ الحمار والماء العذب قَبضة من حصى ، ثم ضرب بها الأرض ، ثم قال : لا تعلمُ أنَّك من المسرفين ، حتى تسمعَ بأخبار الصَّالحين .

---

(١) طلقت : أى هشت وانبسطت أساريرها .
(٢) إبان : أى وقت .

من كتابه : الحيوان

ما جاء فى ذكر الطير

قال الله جل ثناؤه : « وَرَسُولًا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِن رَبِّكُمْ أَنِى أَخْلُقُ لَكُم مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ »[1] . وقال الله : « وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَائِرًا[2] بِإِذْنِى ، وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِى » . وقال : « وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »[3] . وقال الله : « أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَأْسِهِ »[4] . وقال : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِن سِجِّيلٍ » . وقال الله : « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ » .

---

(١) سورة آل عمران من الآية ٤٩

(٢) هذه قراءة نافع وأبى جعفر ويعقوب . وزاد أبو جعفر فقراء «كهيئة الطائر» . وقرأ الباقون : « فتكون طيرا » والآية فى سورة المائدة من الآية ١١٠

(٣) سورة الأعراف من الآية ١٣١

(٤) سورة يوسف من الآية ٤١

ولم يذكر منطق البهائم والسباع والهمج والحشرات .

وقال الله : «فَاسْأَلُوهُمْ إن كَانُوا يَنْطِقُونَ » لأنك حيثما تجد المنطق تجد الروح والعقل والاستطاعة .

وقالوا : الإنسان هو الحيُّ الناطقُ . وقال الله : « فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هٰذَا إِلٰهُكُمْ وَإِلٰهُ مُوسَى » . وقال : « أَفَلَا يَرَوْنَ أَن لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا » ، ثم قال : « وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ » ولم يذكر شيئًا من جميع الخلق . وقد كان الله قد سخَّر له جميعَ ذلك . ثم قال : « وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ » .

ولم يتفقد شيئًا مما سخَّر له ، ولا دلَّ سليمانَ على مَلِكة سبأ إلَّا طائر .

وقال الله : « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ » . وقال الله : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » فلما ذكر داود قال : « وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ » . وقال الله : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . وقال : « وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ » .

وقالوا : « مَنْطِقَ الطَّير » ، على التشبيه بمنطق الناس ، ثم قالوا بعدُ : الصَّامت والناطق ، ثم قالوا بعد للدار : تنطق .

وقال الله : « يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ».

وقال اللهُ : « إِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ ».

وكان عبدُ الله بن عبَّاس يقول : ليس يعنى بقوله : تُكَلِّمُهُمْ من الكلام ، وإنما هو من الكَلْم والجِراح . وجمع الكَلْم كُلوم ، ولم يكن يجعلُه من المنطق ، بل يجعله من الخُطوط والوسم ، كالكتاب والعلامة اللذين يقومان مقام الكلام والمنطق .

وقال الآخرون : لا ندعُ ظاهرَ اللفظ والعادةَ الدَّالّة فى ظاهر الكلام ، إلى المجازات ، قالوا : فقد ذكر الله الدَّابَّة بالمنطق ، كما ذكروا فى الحديث كلام الذئب لأهبان بن أوس[1] . وقولُ الهدهد مسطورٌ فى الكتاب بأطول الأقاصيص ، وكذلك شأن الغراب[2] .

وقال الله : « وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَىْءٍ » ، وجعل الله مقالة النملة قرآنًا ، وقال : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ ، وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ما فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ » . وقال فى مكان آخر : « وَلَحْمِ طَيْرٍ

---

(١) انظر الإصابة ٣٥٠ والحيوان (١ : ٢٩٨ / ٣ : ٥١٣ / ٤ : ٨٠) .

(٢) انظر لكلام الغراب مع الديك ، شعراً لأمية بن أبى الصلت .

مِمَّا يَشْتَهُونَ » . وقال : « وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ » . وذكر الملائكة فقال : « أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ » .

وأنشدوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم قول أُميَّة بن أبي الصَّلت :

رَجُلٌ وَثَوْرٌ تَحْتَ رِجْلِ يَمِينِهِ   والنَّسْرُ لِلأُخْرَى وَلَيْثٌ مُرْصَدُ

فقال : « صدق » .

وخلق الله لجعفر جناحَين في الجنَّة ، عوضًا من يديه المقطوعتين في سبيل الله . قالوا : ولو كانت في الأرض يدٌ تفضل الجناحَ لجعلها الله بدلَ الجناح ، وسمَّاه المسلمون « الطَّيَّار » .

ويقال : « ما هو إلَّا طائرٌ » إذا أرادوا مديح الإنسان في السُّرعة .

وقال الفرزدق :

جاءُوا مع الرِّيح أو طارُوا بأجنحة   وخَلَّفوا في جُوَاثَا سيِّدَىْ مُضَرَا

والأُمم كلُّها تضرب المثلَ بعَنقاء مُغْرِب . وقد جاء في نسر لقمان ما قد جاء من الآثار والأخبار . وقال الخزرجي :

إنَّ مُعَاذَ بنَ مُسْلِمٍ رَجُلٌ   قد ضجَّ مِن طُول عُمره الأَبَد

قد شاب رأسُ الزَّمَانِ واختَضَب الـ   ـدَّهْرُ وأثوابُ عُمْرِه جُدُدُ

---

(١) جوَاثا : موضع بالبحرين . وفي الأصل : « مضر » تحريف . والبيت ملفق من بيتين انظر الديوان ٣٨٦ .

يا نَسْرَ لقمانَ كَمْ تَعِيشُ وكم ... تسحَبُ ذَيلَ الحَيَاةِ يا لُبَد

قد أصبحتْ دارُ آدمٍ خَرِبَتْ ... وأنتَ فيها كأنَّكَ الوتِدُ

تسألُ غِرْبانَها إذا حجَلَتْ ... كيفَ يكونُ الصُّداعُ والرَّمدُ

وقال النَّابغة :

أَضْحَتْ خَلاءً وأَضْحَى أَهلُهَا احْتَمَلُوا ... أَخْنَى عليها الذى أَخْنَى عَلَى لُبَدِ

وقال الله : « ولا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا » لأَن ذلك الصنم كان عَلَى صورة النَّسر .

وقالوا : أحرار فارس ، وأحرار الرَّياحين ، وأحرار البقول ، وأحرار الطير ، وهى الأحرار : والعتاق ، والكواسبُ ، والجوارح . والمضرحِيَّات .

وقال الله : « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا » .

أسماءُ ما فى النجوم والبروج

والفَرَس والنَّاس وغير ذلك ، من أسماء الطَّير

مما يُعدّ فى الفَرَس من أسماء الطَّير : الفَرَاش وهو المنخر [1] . والذُّباب وهو ذُبَاب العَين . والصُّلْصُل ، وهو الدائرة فى الجبهة [2] . والعصفور ،

(١) كذا . والذى فى المعاجم أن الفراش طرائق دقاق من القحف .

(٢) والصلصل فى الطير طائر تسمية العجم الفاختة .

وهو الجلدة تحت الناصية . والحِدَأَة ، وهو أصل الأُذن . والهامة ، وهو الجلدة التى فيها الدماغ . والفَرْخ موضع الفَهْقَة[٢] . والنَّاهضان فى المنكبين . والصُّرَد : عرق تحت اللِّسان ، والسَّمامة[٤] : الدائرة فى عرض العنق . والقَطاة : موضع الرِّدف . والغُرابان : العظمان الناتئان بين الوركين ؛ ويقال الغُراب طرف الوَرِك . والساق : ساق الفرس ، وهو ذكر الحمام . والخُطّاف : موضع الرِّكاب من جنبه . والرُّخَمة : البَضْعة الناتئة فى ظهر الفخذ . والأَصقع : الأبيض الناصية[١] .

وقال الله : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ » .

وفى السماء النَّسر الطائر ، والنَّسر الواقع .

وفى الأوثان القديمة وَثَنٌ كان يسمَّى نَسرا ، ويزعمون أنه كان على صورة نسر . وقال الله : « وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا » . وقال : « وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ » .

وفى أسماء الناس : غُراب ، وصُرَد . وفى أسماء النساء : فاختة وحمامة . وفى أسماء الناس : يَمَام ويمامة ، وسَمَامة ، وشاهين . وفى

---

(١) الفهقة : عظم عند مركب العنق ، وهو أول الفقار.

(٢) السمامة : واحدة السمام ، بالفتح وهو ضرب من الطير نحو السمانى دون القطا فى الخلقة.

(٣) الأصقع : طائر كالعصفور فى ريشه ورأسه بياض . وانظر الكلام على ما فى الفرس من أسماء الطير ، كتاب الخيل لأبى عبيدة ص ٤٦ .

أسماء النساء : عقاب ، وقطاة ، وقُطَيَّة ، ودَجاجة يكون للرجال والنساء . ويسمُّون بعصفور ، ونقّاز ، وحَجَل ، ويسمُّون الرجال بقُطَامِىّ مثل أبى الشرقىّ بن القُطامى الشاعر[1] . وإذا كانت امرأةً قالوا قَطامِ مثل حَذَام . وقال امرؤ القيس بن حجر :

وأنَا الَّذِى عَرَفَتْ مَعَدٌّ فضلَهُ ونشدتُ حُجرًا ابنَ أُمِّ قَطَامِ[2]

ويسمون بمضرحِىٍّ . وكبار الطَّير هى المضرحِيَّة ؛ وأكثر ما يستعمل ذلك فى عِتاق الطير وأحرارها ، ويسمون بُحرّ ، وليس الحر من الطَّير إلّا العتيق . و ال الشاعر :

حُرَ صَنعناه لتُحْسِنَ كَفُّهُ عَمَلَ الرَّفِيقَةِ واستِلابَ الأَخْرَق

ويسمُّون صَعْوة ، وسُمَانى ، وسَمامَة ، ويسمُّون بجنَاح ، ويلقبون بمنقار ، ويسمُّون بفرخ وفُرَيخ ، وصقر وصُقير وأبى الصَّقر ، وطاوُس وطويس . وفى الألقاب يُؤْيُوُ وَزُرّق . وفى الأسماء حَيْقُطان وهو الدُّرّاج الذَّكَر ، ويسمُّون بحَذَف[3] وحُذَيفة ، وأبى حذيفة ، وفى الألقاب أبو الكراكىّ ، وفى الصِّفات الغرانيق والغُرنوق[4] .

---

(١) أى مثل ما سمى والد الشرق بن القطامى .

(٢) حجر بن أم قطام ، هو والد امرئ القيس.. وقد سجل هذه النسبة الحارث ابن حلزة فى معلقته إذ يقول :

ثم حجراً أعنى ابن أم قطام وله فارسية خضراء

(٣) فى القاموس : « الحذف محركة طائر ، أو بط صغار : وغنم سود صغار حجازية أو جرشية بلا أذناب ولا آذان ، والزاغ الصغير الذى يؤكل » . والزاغ : غراب صغير إلى البياض .

(٤) الغرنوق فى الصفات ، هو الشاب الأبيض الجميل . وهو طائر من طيور الماء .

من رســالة

" فصل ما بين العداوة والحسد "

قال أبو عثمان :

« والعداوة لها عقل تسوس به نفسَها فيَنجُم قَرنُهَا ، وتُبدى صفحتها في أوقات الهِتْر ، وإلّا فإنها كامنةٌ تنتهِز أزمنة الفرص . والحَسَد مسلوب المعقول بإزاء الضَّمير في كلّ حينٍ وزمان ووقت .

ومن لؤم الحسد أنه موكَّل بالأدنى فالأدنى ، والأخصّ فالأخصّ . والعداوة وإنْ كانت تقبّح الحسَن فهى دونَ الحسد ؛ لأنَّ العدوَّ المباين قد يَحُول وليًّا منافقاً ، كما يَحُول المولى المنافق عدوًّا مباينا .

والحاسد لا يزول عن طريقته إلاَّ بزوال المحسود عليه عندَ . والعداوة تَحدُث لعلّةٍ ، فإذا زالت العلَّة زالت معها . والحسد تركيب لعله يحسد عليه فهو لايزول إلاَّ بزواله . ومن هذا قال معاوية، رحمه الله : يمكننى أن أرضيَ النَّاس كلَّهم إلاَّ حاسدَ نعمة ، فإنَّه لا يرضيه منها إلاَّ زوالها .

وأعداءُ النِّعمة إذا سوركوا فيها ونالوا منها ترحزحزا عن عداوتها ، وكانوا من أهلها المحامينَ عنها ، والدافِعِينَ عن حماها .

ومن هذا قال المغيرة بن شعبة : النعمة التى يُعاش فيها نعمةٌ محروسة ليس عليها ثائر يغتالها ، ولا ذو حسد يحتال فى غِيَرِها .

وقال قتيبة بن مسلم : خير الخير وأحصنُه خيرُ عِيشَ فيه . وكلُّ خيرٍ كان يُرضَخُ[1] بذلًا كان من المتالف ممنوعاً ، ومن الغِيَرِ آمنا .

وحُسّاد النعمة إن أعطوا منها وتبَحبَحُوا فيها ، ازدادوا عليها غيظاً وبها إغراء .

والعداوة تُخلِقُ وتُملّ ، والحسد غَضٌّ جديد ، حُرِمَ أو أُعطِيَ ، لا يبيد . فكل حاسد عدوٌّ ، وليس كل عدوّ بحاسد . وإنّما حمل اليهود على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم — وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم أنّه نبيٌّ صادق ورسول مُحِقّ ، يقرءُون بَعثه فى توراتهم ، ويتدارسونه فى بيت مِدْراسهم[2] — الحسدُ ، وحجز بين علمائهم والإيمان به ، ثم نَتَجَ لهم الحسدُ عداوتَهُ .

ومن الدليل على أنّ الحسدَ آلم وآذَى وأوجعُ وأوضَع من العداوة ، أنّهُ مُغرًى بفعل الله عزّ وجلّ ، والعداوة عاريَة من ذلك لا تتّصل إذا اتّصلت إلّا بأفعال العباد . ولا يُعادَى على على فعل الله تباركت أسماؤه . ألا ترى أنك لم تسمع أحدًا عادى أحداً لأنّه حسن الصورة

(١) رضخ له من ماله رضخا : أعطاه . والبذل : السخاء . وفى الأصل : «يرضخ بدلا» .
(٢) المدراس : الموضع الذى يدرس فيه .

جميلُ المحاسن ، فصيح اللسان حسَن البيان . وقد رأيتَ حاسدَ هذه الطبقة وسمعتَ به ، وهم كثير تعرفهم بالخبَر والمشاهدة .

فهذا دليلٌ على أن الحسدَ لا يكون إلّا عن فساد الطبع ، واعوجاج التركيب ، واضطراب السُّوس[1] .

والحسد أخو الكذب ، يجريان فى مضمار واحد ؛ فهما أليفان لا يفترقان ، وضجيعان لا يتباينان . والعداوة قد تخلو من الكذب ؛ ألا ترى أنّ أولياء الله قد عادَوْا أعداء الله إذْ لم يستحلُّوا أن يكذبوا عليهم ؟! والحسد لا يبرأ من البُهت ، وكيف يبرأ منه وهو عموده الذى عليه يعتمد ، وأساسه الذى به البناء يُعقَد . وأنشد :

كضَرائر الحَسْناء قُلن لوجهها كذباً وزوراً إنّـهُ لدَميمُ[2]

والحسد نارٌ وَقودُه الرُّوح ، لا تَبُوخ أبداً أو يَفْنَى الوَقودُ . والحسد لا يبلى إلّا ببِلى المحسود أو الحاسد. والعداوة جمر يُوقده الغضب ، ويطفئه الرِّضا ، فهو مؤمَّل الرُّجوع مرجوّ الإنابة[3] . والحسد جوهرٌ والعداوة اكتساب .

وقال بعضهم : الحسد أنثى ، لأنّه ذليل ؛ والعداوة ذكرٌ فَحْل ، لأنّها عزيزة .

---

(١) السوس ، بالضم : الطبع ، والخلق ، والسجية .
(٢) والضرائر : جمع ضرة ، بالفتح وهى امرأة الزوج ، جمعٌ نادر .
(٣) الإنابة : الرجوع ، وفى التنزيل العزيز : « منيبين إليه » .

والحسد وإنْ كانموكَّلا بالأَدنى فالأَدنى فإنَّه لم يَعرَ منه الأَبعد فالأَبعد. فقد رأينا وشاهدنا مَن كان يسكن العراق وينتحل العلم والأَدب ، انتهى إليه خبَرُ مشاركٍ له فى الصناعة من أهلخراسان وجَنْبةِ بَلْخ[1] من اتِّساقالرياسة فىبلده ، وجميلحالِهِ ونبيلمحلِّه عند أهل مصره ،وطاعةِ العامّة لهالنَّاس ،وترادُفالناسعليه ،فطار قلبه فَرَقاً وأخذَتْهُ الأَرْباءُ[2] ،وتنفَّسالصُّعداءِ وانتفضَانتفاضَ المُفْلسِ المطور فقال لى رجلٌ من إخوانى كان عَن يمينى ، حين رأى ما رأى منه : بحقٍّ قال من قال : «لم يُرَ ظالم أشبَه بمظلوم من حاسدِ نعمة ؛ فإنَّ نَفَسه متَّصل ، وكربَه دائم ، وفكرته لاتنام » .

وهو فى أهل العلم أكثر ، وعليهم أغلب ، وبهم أشدُّ لصوقا منه بغيرهم من الملوك والسُّوقة . وكأنَّ من ناله التقصير فى صناعة العلم غايته القصوى قد استشعر حسدَ كلِّ ما يردُ عليه من طريف أدبٍ ، أو أنيقِ كلام ، أو بديعِ معنًى . بل قد وقع بخَلده لضعفه ، ورُوعه لخساسته[3] ، أنَّه لا ينال أحدمنهم رياسةً فى صناعة ، ولا يتهيأُ له سياسةُ أهلها ، إلّا بالطَّعن على نواصيهم[4] ، والعيب لجِلَّهم ، والتحيُّف لحقوقهم .

---

(١) الجنبة : الناحية .

(٢) الأرباء : جمع ربو ، وهو البهر والتهيج وتواتر النفس .

(٣) الخساسة : الخسة والدناءة .

(٤) النواصى : جمع ناصية ، وهم الرؤساء والأشراف .

قال لى مسلم بن الوليد الأنصارى الشاعر ، الذى يُعرَف بصريع الغوانى(١) : خُيِّل إلى ذَوِى الشُّعراء أنَّهم لا يُقضَى لهم بجودة الشِّعر إلَّا بهجائى والطَّعن فى شعرى ، ولسانٍ يُهجَى به عرضى ، لاأنفكُّ متَّهمًا من غيرجُرم ، إلَّا ما سبق إلى قلوبهم من وساوس الظنون والخواطر التى أوهمتهم أنه لايسجَّل لهم بجودة الشعر إلَّا إذا استعملوا فىَّ ما خُيِّل إليهم .

وأخبرنى أشياخنا من أهل خراسان أنَّ أبا الصَّلت الهروى كان عند الفضل بن سهل ذى الرياستين بمرو ، فقرأ عليه كتابا ألفه النَّضر ابن شُميل ، فطعَن أبو الصَّلت فيه ، وكان الفضل عارفًا بالنضر الشُّميل واثقًا بعلمه ، مائلًا إليه ، فأقبلَ على أبى الصَّلت وقال له : إن يحيى ابن خالد قال يومًا : إنَّ كتبى لتُعرَض على من يغلُظ فهمه عن معرفتها ، ويَجسُو ذهنُه عنها ، ولا يبلغ أقصى علمه ما فيها – يُعَرِّض بإسماعيل ابن صُبيح(٢) – فيطعنُ فيها ولا يدرى ما يُقرأ عليه منها . إلا أن نار الحسد تُذْهِبه فيَهذى .

(١) توفى مسلم بن الوليد سنة ٢٠٨ هـ
كان قد اتصل بذى الرياستين الفضل بن سهل ، فولاه بريد جرجان ، وبهامات .

(٢) كان إسماعيل بن صبيح كاتبا ليحيى بن خالد البرمكى وقلده إبراهيم الحرانى ديوان زمام الشام وما يليها .

من رسالة

"فى الجد والهزل"

قال أبو عثمان :

« إنَّ الخير – أبقاك الله – فى أيام كثرته كان قليلًا فما ظنُّك به فى أيام قلَّته ، وإن الشرَّ فى أيام قلَّته كان كثيرًا فما ظنُّك به فى أيَّام كثرته ، وأنتَ غَريبٌ فى الصطَنِعين . وأنا غَريبٌ فى الصنائع ، والغريب للغريب نسيب ، ونسب المشاكلة وقرابة الطبيعة الموافِقة ، أقربُ من نَسَب الرَّحِم ؛ لأنَّ الأَرحامَ مُولعَةٌ بالتحاسد ، لهجة بالتقاطع وأن التحابَّ على طبع المشاكلة ، والتلاقى على وفاقٍ من الطبيعة ، أبعد من التفاسد ، وأبعد من التَّعَادى . وسببُ التعادى عَرَضٌ فى طبائع الغرباء ، وجوهرٌ فى طبائع الأَقرباء » .

واعلمْ أنَّك لاتزال فى وحشة إلى وحشة ، وفى غُربة إلى غُربة ، وفى تنكُّر العيش وتسخُّط الحال ، حتى تجد من تشكو إليه بثَّك ، وتُفْضِىَ إليه بذاتِ نفسك . ومتى رأيت عجبًا لم تضحكك رؤيتك له بقدر مايضحكك إخبارُك إياه . فَمَنْ أغلبُ عليك ممَّن كانت هذه حالَه منك ، وموقعه من نفسك .

ولو أنَّ شيبتى التى بها استعطفتك ، وكبره سنِّى التى بها استرحمتك اللَّتان لم يحلُّا علىَّ إلا وأنا فى ذَراك ، ولم يحُلا بى إلَّا وأنا فى ظلك ،

لكان فى شفاعة الكَبرة ، واسترحام الضَّعف والوَهْنة ، ما يَردعُك عنِّى أشدَّ الردع ، ويؤثِّر فى طباعك أبينَ الأثر . فكيف وقد أكرمتنى جديدًا ، ثم تريد أن تُهينَنى خَلَقًا ، وقوَّيت عظمى أغلظَ ما كان ، ثم تريد أن توهنه أرقَّ ما كان . وهل هرمتُ إلَّا فى طاعتك ، وهل أخلقَنى إلَّا معاناة خدمتك ! ؟

قال على بن أبى طالب : رأى الشَّيخ الضَّعيف أحبُّ إلينا من جَلَد الشابِّ القوى .

وأنا أقول كما قال أخو ثَقيف[1] : مودَّة الأخ التالد وإن أخلقَ خيرٌ من مودَّة الطارف وإن ظَهرتْ بشاشته ، وراعَتْك جدَّته .

وقال عبد الملك بن مروان : رأى الشَّيخ أحبُّ إلينا من مَشهد الغلام

وقال بعضهم : ليس بغائب من شَهِد رأيُه[2] ، وليس بفانٍ مَن بقىَ أثره .

وما كمَّل العقلَ ولاوفَّر التجربة شىءٌ كنقصان البدن ، وكأخْذ الأيَّام من قوى الأعضاء

وقال آخر : ما قبَّح الرجال شىءٌ كالوِكال ، ولا أفسد الكريمَ شىء كحبِّ الاستطراف . وخيرُ الناس من أتْبَعَ الغضبَ مواقعَ الذنوب ، وأتْبَعَ العقابَ مواقعَ الغَضَب ، ولم يُتبع الغضبَ مواقع الهوى .

---

(١) يعنى الحجاج بن يوسف .
(٢) شهد : كان شاهداً ، أى حاضراً . وقوم شهود أى حضور .

ولقد منحتُك جَلَد شبابى كَمَلا ، وغَرْبَ نشاطى مُقتَبَلا ، وكان لك مَهناه(١) ، وثمرة قواه ، واحتملت دونك عُرامَه وغَرَبَه(٢) ، وكان لك غنمه وعلىَّ غُرمه ، وأعطيتك عند إدبار بدنى قوّة رأيى ، وعند تكامل معرفتى نتيجةَ تجربتى ، واحتملتُ دونك وَهْن الكبَر وإسقامَ الهرم .

وخير شركائك مَن أعطاك ما صفا ، وأخذ لنفسه ما كدُر . وأفضل خلطائك من كفاك مؤونتَه ، وأحضرك معونتَه ، وكان كلاله عليه ، ونشاطه لك . وأكرم دخلائك وأشكر مؤمِّليك مَن لايظنّ أنك تسمّى جزيل ما تحتمل فى بَذْلك ومواساتك مَؤونة ، ولاتَتابُعَ إحسانِك إليه نعمة ، بل يرى أنّ نعمة الشاكر فوقَ نعمة الواهب ، ونعمة الوادّ المخلص فوق نعمة الجواد المُغْنى ؛ وأنّه لايبلغ فى إعطاء المجهود من نفسه فى خلع جميع ما له إلى مؤمِّليه والمتحرِّمين به ، حُسنَ نيّة الشاكر الوامق ، وحقّ تمنّى الوادّ العارف .

ولو اقتضيتَ جميع حقوقك علىّ ، وأنكرتَ جميع حقوقى عليك ، أو جعلتَ حقى عليك حقًّا لك ، ثمّ زعمت أنّ حقَّك لايؤدّى إلى شكره ، وأنّ حقى لايلزم حكمه ، وأنّ إحسانى إساءة ، وأنّ الصغير من ذنوبى كبير ، وأنّ اللّمَم مِنى إصرار ، وأنّ خطائى عمد ، وأنّ عمدى كلّه كفر ، وأنّ كفرى يوجب القمع ويمنع من النُّزوع لِمَا كان

(١) أى مهنأة .

(٢) والعرام : بضم العين : الشدة . الغرب : الحدة .

عندك . وما اتسع قولى لأكثر من هذا العقاب ، ولا أشدّ من هذا الغَضَب. وما ينبغى أن يكون هذا المقدار من النِّقم إلاّ لبارى النَّسَم فى دار البقاء. لا فى دار الفَناء . [و] الذى يجوز بين العباد إنّما هو تعزير أو حدٌّ ، أو قَوَد أو قصاص ، أو حبسٌ أو تغريب ، أو إغرام[1] أو إسقاط عدالة أو إلزامَ اسم العداوة ، أو عقاب يجمع الألم والتقويم والتنكيل فيكون مَضَضُ الألم جزاءً ومعدلاً أسبابه .

وربّما قصر الإيقاع على السُّخط وجاوزَ حدَّ الغضب . وربّما كان مقصوراً على مقدارهما ، ومحبوساً على نهاية حالهما .

وليس كلُّ عقاب نتيجةَ سخط ، وقد لايسمّى ذلك المُوقِع والمعاقِبُ واجداً كما يسمّى ساخطاً ، ولايسمّى عاتباً كما يسمّى غضبان ، يخرج كما ترى من أن يسمّى سُخطاً أو مَوجِدةً وَغضباً ، كما خرجَ عقاب آدم عليه السلام من هاتين الصفتين ، ومن جميع القسمين . وعلى أنه كان إخراجًا من دار الخلد والكرامة إلى دار الابتلاء والمحنة ؛ ومع ما فى ذلك من إعراء الجلد ، والتّسمية بالظلم ، مع الوصف له بضَعف العَزْم ، والاغترار بيمين الخصم .

والعجبُ أنك تضجر من طول مسألتنا لعفوك مع حاجتنا إلى عاجل عفوك ، ولاتضجرُ بطول تشاغلك بظلْم صديقك مع استغنائك عن ظلم صديقك . فلو كنت إنّما تفعل ذلك لأنّك تلذُّ ضَربَ السياط ورضّ العظام ، فَجنْب « دندن » أحمل ، والسَّوط فى ظهر قاسم أحسن ،

(١) الإغرام : التغريم . وهو العقوبة المالية

وأبدانهما تحت السياط أثبت ، وإنّ أرواحهما أبقى ، وهى بأرواح الكلاب أشبه ، وإلى طبائع الضباب أقرب ، وأرحامهم بالحمير أمَسّ ، ومَن يُشير فيهم بذلك أكثر ، والأجر فى ضَرْبهم أعظم . فاستدِمِ اللذّة بطريق اللَّذّة ، وضع الأمورَ فى مواضعها يطُلْ سرورُك بها .

إنّ عتاقَ الخيل وأحرار الطّير أدقُّ حِسًّا ، وأشدُّ اكتراثًا . والكوادن الغلاظ والمحامر الثقال[1] ، أكلُّ حِسًّا وأقلُّ اكتراثًا . وليس الصّبر بالصّمت والسكوت ، ولا بقلّة الصِّياح والضُّموز[2] . وقد يصيح تحت السّوط مَن لا يقرُّ على صاحبه ، ولا يدلُّ على عورة نفسه . والكلب المضروب يجمع الصِّياح والهرب ، والفرس العتيق يعدو ولا يصيح والحافر كلُّه كظومٌ ضامر ، والمخلب كلُّه صَخورٌ صيّاح ، والضّجر فى الخُفّ عامٌّ ، والبَخاتيّ أضجر . فمِن الظلف عامّ ، وهو فى الضّأن أخفى ، وكلّ مضروب هارب صَيّاح ، ومنها ما يجمع الخصال كالكلب والبعير . والهربُ من المكروه محمود ، والمقام عليه مذموم ؛ كالذى يعترى العير السقيم ، وتجده فى الفرس الكريم ، من قلة الاكتراث وشدته

وصبرُ البدن غير صبر النفس . وليس بقاء الأرواح المنعقدة تحت الضرب الشديد من اعترام النفس ، ولا يدلّ على الكرم .

---

(١) المحامر : جمع محمر . يقال فرس محمر . أى لئيم يشبه الحمار فى جريه من بطئه. ويقال للفرس المجين محمر أيضا ، فارسيته « بالانى» والجمع المحامر والمحامير .

(٢) الضموز ، بالزاى السكوت ؛ وفى الأصل : « الضمور » . تصحيف .

وفى المثل : « ما رُوح فلانٍ إلا رُوح كلب » . وتقول العرب : « الضَّبُّ أطول شىءٍ ذَماءً[١] » . والكلب لئيم ، والضبُّ غير كريم .

والبازى أكرم من الصَّقر وأشدُّ وأكثر ثمنًا ، وأجمل جمالًا ، وأعفى صيدًا[٢] ، وأنبل نبلًا ؛ إن قبَض عليه قتله ، وإن لم يُنَحِّ كُندُرته عن قربه أوهن نفسه[٣] . ثم بلغ من رقة طبعُ البازى وعِتقه أنه ينقطع بردُّ البازيار له[٤] إلى مَدْ مَطه من يده . والصَّقر يتعلَّق بسِباقيه[٥] من رجل حمل يدرع فيضطرب منكَّسًا إلى الصُّبح ؛ ثم تجده وكأنَّه لم يزل على كُندرته وعلى مسقطه الذى يؤتى له .

* * *

(١) الذماء ، كسحاب : بقية الروح فى المذبوح
(٢) من قولهم : عفا الشىء يعفو ، إذا كثر .
(٣) الكندرة ، بضم الكاف والدال كما فى اللسان ، وبفتحتهما كما فى القاموس . هى مجثم البازى الذى يهيأ له من خشب أو مدر . قال فى اللسان : « وهو دخيل ليس بعربى » . وأوهق نفسه : جعلها فى الوهق . وهو حبل مغار يرمى فيه أنشوطة ، فتؤخذ به الدابة والإنسان . وفى الأصل « أرهق » .
(٤) البازيار ويقال له « البازدار » أيضا لفظان فارسيان ، معناهما واحد ، وهو القائم بأمر البازى ويعرب فيقال له « البيزار » .
(٥) السباقان : قيدان فى رجل الجارح من الطير ، من سير أو غيره .

من رسالة

"كتمان السر وحفظ اللسان"

ولا شىء أعجب من أنّ المنطق أحد مواهب الله العظام ، ونِعمه الجسام ، وأن صاحبها مسئولٌ عنها ، ومُحاسَب على ما خول منها ، أوجبَ الله عليه استعمالها فى ذكره وطاعته ، والقيامَ بقسطه وحجّته ، ووضْعَها مواضعَ النّفع فى الدين والدُّنيا ، والإنفاق منها بالمعروف لفظةً لفظة وصرفَها عن أضدادها .

فلم يرضَ الإنسانُ أنْ عطّلها عمّا خُلقت له ممّا ينفعُه حتّى استعمَلها ضد ذلك ممّا يضرُه ، فاجتمع عليه الإثمانِ اللّذان اجتمعا على صاحب المالِ الذى كنزَه ومنَعه من حقّه ، فوجَب عليه إثم المنْع وإن كان لم يصرفْه فى معصية ، ثم صرفِهِ فى أبواب الباطل والفسق فوجب عليه إثم الإنفاق فيها . وهذه غاية الغَبن والخُسران . نعوذ بالله منها .

فاللسان أداةٌ مستعمَلة ، لا حَمد له ولا ذمٌ عليه ، وإنما الحمد للحلم واللّوم على الجهل . فالحلمُ هو الاسمُ الجامع لكلّ فضل ، وهو سلطان العقل القامع للهوى . فليس قمع الغضب وتسكين قوة الشرّة ، وإسقاط طائر الخُرق بأحقّ بهذا الاسم ، ولا أولى بهذا الرسم ، من قمع فرط الرضا وغلبة الشهوات ، والمنع من سوء الفرح والبطَر ، ومن سوء الجزع والهلع وسرعة الحمد والذم ، وسوء الطّبع والجشَع ، وسوء مناهزة الفُرصة ، وفرط الحرص على الطّلِبة ، وشدّة الحنين والرقّة ، وكثرة الشكوى [

والأَسَف ، وقرب وقت الرضا من وقت السُّخط ، ووقت السُّخط من وقت الرضا ؛ ومن اتِّفاق حركات اللِّسان والبدن على غير وزن معلوم ولا تقدير موصوف ، وفى غير نفع ولا جَدًى[1] .

واعلمْ يقينًا أنَّ الصَّمت سَرمدًا أبدًا ؛ أَسهل مَرامًا – على ما فيه من المشقَّة – من إطلاق اللِّسان بالقول على جهة التحصيل والتمييز ، والقَصد للصَّواب ، لما قدَّمنا ذكره من علة مجاذبة الطِّباع ؛ ولأَنَّ من طبع الإنسان محبة الإخبار والاستخبار . وبهذه الجبِلَّة التى جُبِل عليها الناس نُقلت الأَخبار عن الماضين إلى الباقين ، عن الغائب إلى الشاهد[2] ، وأَحبَّ الناس أن ينقَل عنهم ، ونَقَشوا خواطرهم فى الصُّخور ، واحتالُوا لنشر كلامهم بصنوف الحيل . وبذلك ثبتت حجَّة الله على من لم يشاهد مخارج الأَنبياء ، ولم يحضر آياتِ الرُّسُل ، وقام مجىءُ الأَخبار عن غير تشاعر[3] ولا تواطؤٍ مقامَ العِيان ؛ وعرفت البلدان والأَقطار والأُمم ، والتجارات والتدبيرات والعلامات ؛ وصار ما ينقله الناس بعضهم عن بعض ذريعة إلى قبول الإخبار عن الرسل ، وسلَّمًا إلى التصديق ، وعونًا على الرضا بالتقليد .

---

(١) الجدى : الجدوى والغناء والنفع . يكتب بالألف والياء ، ويقال بالمد أيضا « الجداء » ومنه قوله :

لقل جـــداء على مالـــــــك إذا الحرب شبت بأجذالها

(٢) الشاهد : الحاضر ، والمراد به الباقى المعاصر .

(٣) المراد بالتشاعر المخالطة والملابسة والمعاشرة .

ولولا حلاوة الإخبار والاستخبار عند الناس لما انتقلت الأخبار وحلّت هذا المحل. ولكن الله عزّ وجلّ حبَّبَهَا إليهم لهذا السبب، كما جعل عشق النّساء داعيةً للجماع، ولذّةَ الجماع سبيلا للنّسل، والرقّة على الولد عونًا على التربية والحضانة - وبهما كان النشو والنماء - وحُبَّ الطّعام والشراب وسببًا للغذاء، والغذاء سببًا للبقاء وعمارة الدّنيا.

فعسُر على الإنسان الكتمان لإيثار هذه الشهوة، والانقيادِ لهذه الطبيعة؛ وكانت مزاولة الجبال الراسيات عن قواعدها أسهلَ من مُجاذبة الطباع. فاعتراهُ الكربُ لكتمان السرّ، وغشِيَه لذلك سُقم وكمد يحسّ به فى سُويداء قلبه بمثل دبيب النمل، وحِكّة الجرب، ومثل لسع الدّبْر ووخز الأشافِى[1]، على قدر اختلاف مقادير الحلوم والرّزانة، والخفّة. فإذا باح بسرّه فكأنّه أُنشِطَ من عِقال[2]. ولذلك قيل: «الصّدر إذا نفث برأ» مثلا مضروبًا لهذه الحال. وقيل:

* ولابدّ من شكوى إذا لم يكن صبر *

وليس قولنا: «طُبِع الإنسانُ على حب الإخبار والاستخبار» حجّةً له على الله، لأنّه طبع على حُبّ النّساء ومُنِع الزّنى، وحُبِّب إليه الطعامُ ومُنع من الحرام. وكذلك حُبِّب إليه أن يُخبِر بالحق النافع ويَستخبِر عنه، وجُعلت فيه استطاعةُ هذا وذاك، فاختار الهوى على الرأى.

---

(١) الدبر جماعة النحل. والأشافى: جمع الإشفى، وهو المثقب يخرز به.

(٢) أى حل من عقال، والعقال: الرباط الذى يعقل به.

ومما يؤكد هذا المعنى فى كَرْب الكتمان وصُعوبته على العقلاء فضلا عن غيرهم ، ما رووه عن بعض فقهائهم أنه كان يحمل أخبارًا مستورة لايحتملها العوامّ ، فضاق صدرُه بها ، فكان يبرزُ إلى العَرَاء[1] فيحتفر بها حَفِيرةً يُودِعها دنًّا ، ثم ينكبُّ على ذلك الدّن فيحدثُه بما سمع ، فيروِّحُ عن قلبه ، ويَرى أنْ قد نَقل سرَّه من وِعاءٍ إلى وعاء .

وكان الأعمش[2] سيِّئُ الخُلُق غَلِقًا ، وكان أصحاب الحديث يُضجرونه ويَبْرمونه نشرَ ما يحبُّ طيَّه عنهم ، وتَكرارَ ما يحدِّثهم به . ويتعنَّتونه ، فيحلف لايحدِّثهم الشهرَ والأكثر والأقلَّ ؛ فإذا فعلَ ذلك ضاق صدرُه بما فيه ، وتطلَّعت الأخبار إلى الخروج منه ؛ فيقبل على شاةٍ كانت له[3] فيحدِّثها بالأخبار والفقه ، حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول : « ليت أنى كنت شاةَ الأعمش » .

وشكا هشامُ بن عبد الملك ما يجدُ من فقد الأنيسِ المأمونِ على سرِّه فقال : أكلت الحامض والحلوَ حتَّى ما أجد لهما طعمًا ، وأتيتُ النِّساءَ حتَّى ما أُبالى امرأةً لقيتُ أم حائطًا ، فما بقيت لى لذّة إلا وجود أخ أضع بينى وبينه مَؤُونة التحفُّظ .

---

(١) العراء : الأرض الواسعة المستوية المصحرة ، وأنث الضمير بعدها لمعناها وفى الأصل «العرى» ، تحريف كتابى .

(٢) هو سليمان بن مهران الأعمش ، المحدث المعروف . ولد سنة ٦١ يوم عاشوراء ، وهو يوم مقتل الحسين ، وتوفى سنة ١٨٨ .

(٣) فى ثمار القلوب للثعالبى ١٣٤ أنها عنز . والشاة : الواحدة من الغنم ، وقيل الشاة تكون من الضأن والمعز والظباء والبقر والنعام وحمر الوحش .

وقال معاوية لعمرو بن العاص : ما اللَّذة ؟ قال : تأمر شبابَ قريش أن يخرجوا عنَّا . ففعل ، فقال : اللَّذَّةُ طرح المروءة .

وقد صدَقَ عمرو ، ما تكون الزَّمانة والوقار إلا بحمل على النفس شديد ، ورياضة مُتعبة .

وقال بعض الشعراء :

أَلَمْ تَر أنَّ وُشاة الرجا ... لِ لا يتركون أديماً صحيحا
فَلاَ تُفش سِرَّكَ إلا إليْكَ ... فإنَّ لكلِّ نصيحٍ نصيحا

والسرُّ — أبقاك اللهُ — إذا تجاوز صدرَ صاحبه وأفلتَ من لسانه إلى أُذن واحدة فليس حينئذ بسرٍّ ، بل ذاك أولى بالإذاعة ، ومفتاحُ النَّشر والشُّهرة . وإنَّما بينه وبين أن يَشيع ويستطير أن يُدفع إلى أُذنٍ ثانية . وهو مع قلَّة المأمونين عليه ، وكَرْب الكتمان ، حَرِىٌّ بالانتقال إليهم فى طرفة عين .

وصَدْر صاحب الأُذن الثانية أضيق . وهو إلى إفشائه أسرع ، وبه أسخى وفى الحديث به أعذر ، والحجَّةُ عنه أدحض .

ثم هكذا منزلة الثالث من الثانى ، والرابع من الثالث أبداً إلى حيث انتهى .

هذا أيضًا إذا استُعهد المحدَّث واستُكتِم ، وكان عاقلًا حليمًا ، وناصحًا وادًّا . فكيف إذا أُخبِر ولم يؤمَر بالكتمان ، وكان ممن يمْذِى ...

بالنمائم ويحب إفشاء المعايب ؛ وكان ممن ينطوى على غش أو شحناء ؛ أو كان له فى إظهاره اجتلاب نفع أو دفع ضرر .

فاللوم إذ ذاك على صاحب السر أوجب ، وعمن أفضى به إليه أنزل[1] ؛ لأنه كان مالكًا لسره فأطلق عقاله ، وفتح أقفاله ؛ وسرحه فأفلت من قيده ووثاقه ، وصار هو العبد القن المملوك لمن ائتمنه على سره ، وملكه رق رقيته ؛ فإن شاء أحسن ملكته لحفظ ذلك السر نجز ناصيته ، وجبله رهينة ليوم عتبه عليه . وقل من يحسن الملكة ويحرس الحرية أو يضبط نفسه ؛ فإنه ربما لم يخرجه غشًا فخرجه سخفًا وضعفًا . وإن أساء الملكة وختر الأمانة فأطلق السر واسترعاه من هو أشد له إضاعة ، فسفك الدم وأزال النعم وكشف العورة وفرق بين الجميع ، وإن كان المضيع لسره ألوم . قال الشاعر :

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه ... فصدر الذى يستودع السر أضيق

فمن أسوأ حالا ، وأخسر مكانًا ، وأبعد من الحزم ، ممن كان حرًا مالكًا لنفسه فصير نفسه عبدًا مملوكًا لغيره ؛ مختارًا للرق ، من غير أسر ولا قسر ! والعبيد لم يصيروا إلى الرق إلا بذل الأسر والسباء .

---

(١) أى أقل .

(٢) الختر : شبيه بالغدر والخديعة .

ومن كان سِره مصونًا فى قلبه يُطْلَب إليه فى الحديث به فأخرجه عن بلده، صار هو الطالبُ الراغب إلى من لايوجب له طاعة ، ولايفكِّر له فى عاقبة ، ولايتحرّز له من مُصيبة . وكلّما كانت إذاعته لأسراره أكثر كان عدده واليه أكثر ، وشَقاؤه بخلمتهم أدْوَم . فإذا كان أصل السرّ معلومًا عند عِدّةٍ أو أقلّ من العدّة ، فما أعسرَ استتاره . غير أنّه لالومَ على صاحب الخيانة فيه إذا كان ليس هو الذى أفشاه ، ولامن قِبَله عُلِم .

ولو أنّ أوزنَ الناس حِلمًا مَلكَ لسانَه وحصّن سرّه وقلّل لفظه ، ماقدَر على أن يملك لحظ عينيه ، وسَحنةَ وجهه ، وتغيُّر لونه ، وتبسُّمَه أو قطوبه ، عندما يجرى بليّه من ذكر ذلك السرّ ، أو يخطر بباله منه ، فيبدو فى وجهه ومخاياه إذا عرَض بذكره ، أو سنَح له نظيرٌ أو مَثيل ، أو حضَر مَن له فيه سبَبٌ – إلّا بعد الصنْع الشديد ، والتحفُّظ المُفْرط .

فإذا كان يُعرف من هذه الجهات وما أشبهها ، ويُطّلع عليه بتظنُّن المرجِّمين[1] ، والمتعقّبين للأفعال والأقوال ، والنظر فى مصادر التدبير ومخايل الأمور ، فيه شىء من هذه الجهات أكثر مما تفشيه ألسُن المذاييع

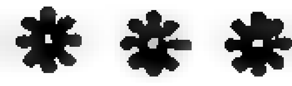
---

(١) الرجم : القول بالظن والحدس . ومنه قوله تعالى : « رجماً بالغيب » . والترجيم تفعيل منه .

البُذُور [١] . فكيف إذا أُطلق به اللِّسان ، وعوِّد إذاعتَه القلبُ . والعادة أملك بالأدب .

وربَّما أدركه الحَدْسُ ، وقيَّضه الظنُّ [٢] ، فنالتْ صاحبَه فيه خُدعة بأن يُذكر له طرفٌ منه ، ويُوهَمَ أنه قد فَشا وشاع ، فيصدِّق الظنَّ فيجعله يقينًا ، ويفسر الجملة فيصيرها تفصيلًا ، فيُهلك نفسه ويُوبقها .

ورُبَّ كلام قد ملأ بطونَ الطَّوامير [٣] قد عُرِف جملتُه وما فيه الضَّرر .



(١) البذر : جمع بذور ، كصبور وصبر . وفى حديث على فى صفة الأولياء «ليسوا بالمذاييع البذر» . والمذاييع : جمع مذياع ، وهو من يذيع السر ويفشيه . انظر اللسان «بذر ذيع» . وفى الأصل : «المبذر» ، صوابه ما أثبت .
(٢) قيضه : هيأه وسببه من حيث لا يحتسب . وفى الحديث : «ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه» .
(٣) جمع طومار ، وهو الصحيفة ، عربى أو دخيل.

من رسالة

" المعاش والمعاد "

قال أبو عثمان :

« واعلم أنَّ الآدابَ إنَّما هى آلاتٌ تَصْلُح أن تُستعمَل فى الدِّينِ وتُستعمَلَ فى الدنيا ؛ وإنَّما وُضعت الآداب على أُصول الطبائع . وإنَّما أُصول أُمور التدبير فى الدين والدُّنيا واحدة ، فما فسدت فيه المعاملةُ فى أُصول أُمور التدبير فى الدين والدُّنيا واحدة ، فما فسدت فيه المعاملةُ فى الدين فسدتْ فيه المعاملةُ فى الدنيا ، وكلُّ أمرٍ لم يصح فى معاملة الدُّنيا لم يصح فى الدين . وإنَّما الفرق بين الدين والدُّنيا اختلافُ الدارين من الدُّنيا والآخرة فقط ، والحكم ها هنا الحكم هناك ، ولولا ذلك ما قامت مملكة ، ولا ثبتت دولة ، ولا استقامت سياسة . ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ : « وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا » . قال ابن عباس فى تفسيرها : من كان ليس له من العقل ما يَعرف به كيف دُبرت أُمور الدنيا ، فكذلك هو إذا انتقل إلى الدِّين ، فإنَّما ينتقل بذلك العقل . فبقدْر جهله بالدُّنيا يكون جهلُه بالآخرة أكثر ؛ لأَن هذه شاهدةٌ وتلك غَيب[1] : فإذا جهل ما شاهَد فهو بما غاب عنه أجهل .

(١) الشاهدة : نقيض الغائبة .

فأوّلُ ما أُوصيك به ونفسي تقوى الله ؛ فإنّها جِماعُ كلِّ خير ؛ ومسببُ كلِّ نجاة ، ولِقاحِ كلِّ رشد . هي أحرزُ حرزٍ ، وأقوى مُعين ، وأمنَع جُنّة . هي الجامعةُ محبة قلوب العباد ، والمستقبلةُ بك محبّةَ قلوبِ من لاتَجري عليهم نعمُك . فاجعلها عدّتَك وملاحَك ؛ واجعل أمر الله ونَهيه نُصب عينيك .

وأحذّرك ونفسي اللهَ والاغترار به ، والإدهان في أمره ، والاستهانةَ بعزائمه ، والأَمْنَ لمكره ؛ فقد رأيتَ آثارَه في أهل ولايته وعداوته ، كيف جعلهم للماضين عِبرةً ، وللغابرين مثلًا .

واعلم أنّ خَلْقه كلَّهم بَرِيّتُه ، لا وُصْلةَ بينه وبين أحدٍ منهم — إلّا بالطاعة ؛ فأَولاهم به أكثرهم تزيُّدًا في طاعته ، وماخالفَ هذا فإنّه أمانيُّ وغُرور .

وقد مكّن الله لك من أسباب المقـــدرة ، ومَهّدَ لك في تمكين الغنى والبَسْطة ما لم تُنْحَله بحيلة[1] ، ولا بلَغْتَه بقوّة ، لولا فضله وطَوْلُه . ولكنّه مكّنك ليبلو خُبْرك ؛ ويختبر شُكرك ، ويحصىَ سعيَك ، ويكتب أثرَك ، ثم يوفّيك أجرَك ، ويأْخُذَك بما اجترحَتْ يدُك أو يَعفوَ ؛ فأهلُ العفو هو .

ولله ابتلاءانِ في خَلْقه — والابتلاء هو الاختبار — ابتلاءٌ بنعمة ، وابتلاءٌ بمصيبة . وبِقَدر عظمها يجب التّكليف من الله عليها ؛ فبقدر ما خَوّلك من النعمة يستأديك الشُّكر[2] .

(١) تنحله ، من النحلة وهي العطية .

(٢) استأداه المال ونحوه : استخرجه منه وطلب أداءه .

ولو تقصّى الله على خلقه لعذّبهم ؛ ولذلك قال : «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ» . ولكنّه قَبِلَ التّوبة ، وأقالَ العَثرة ، وجعل بالحسنة أضعافَها .

واعلمْ أنَّ الحكم فى الآخرة هو الحكمُ فى الدُّنيا : ميزانُ قِسط ، وحكمٌ عدل . وقد قال الله تعالى : «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَالِدُونَ» .

وهذا مثلٌ ضربَهُ اللهُ ؛ لأنَّ النّاس يعلمونَ أن لو وضع فى إحدى كِفَّتَى الميزان شىءٌ ولم يكُ فى الأُخرى قليلٌ ولا كثير ، لم يكنْ للوزن معنًى يُعقَل . وذلك أن أحدًا من الخلْق لا يخلو من هَفوة أو زَلَّة أو غَفلة ، فأخبرَ أنَّ من كان حسناته الراجحة على سيئاته ثم النَّدَم على السّيئات كان على سبيل النجاة ، وطريق الفوز بالإفلاح ، ومن مالت سيئاته بحسناته كان العطبُ والعذاب أولى به .

وكذلك حكمُه فى الدنيا ؛ لأنّه قد تولى أولياءَ من خلقه وشَهِد لهم بالعدالة ، وقد عاتبَهم فى بعض الأُمور لِغلبة الصَّلاح [فى أفعالهم] وإن هفَوا ، وتبرّأ من آخرين وعاداهم لغلبة [الجور] [على أفاعيلهم] وإن أحسَنُوا فى بعض الأُمور .

وكذلك جَرتْ معاملاتُ الخَلْق بينهم ، يُعدِّلون العادلَ بالغالب من فعله وربَّمَا أساء ، ويفسِّقون الفاسق وربَّمَا أحسن ، وإنّما الأُمورُ بعواقبها ، وإنَّمَا يُقضَى [على كل امرئ] بما شاكلَ أحوالَهُ .

فهذه الأمورُ قائمةٌ فى العقول ، جرت عليها المعاملة ، واستقامت بها السياسة ، لا اختلافَ بين الأُمَّة فيها .

فلا تغبَنَنَّ حَظَّك من دِينك ، وإن استطعتَ أن تبلغ من الطَّاعة غاياتِها فلنَفْسك تُمَهِّد ، وإلا فاجهَدْ أن يكون أغلبُ أمرِك عليك الطَّاعة مع النَّدامة عند الإساءة ، ويكون ميلُك عند الإساءة ، إلى الله أكثر . والله يوفقك .

اعلمْ أنَّ اللهَ جلَّ ثناؤه خَلَقَ خلْقَهُ ، ثُمَّ طبعهم على حبِّ اجترار المنافع[1] ، ودفع المضارّ ، وبُغض ما كان بخلاف ذلك . هذا فيهم طبعٌ مركَّب ، وجِبِلَّة مفطورة ، لا خلافَ بين الخلْق فيه ؛ موجود فى الإنس والحَيَوان ، لم يدَّع غيره مدَّعٍ من الأوَّلين والآخرين . وبقدر زيادة ذلك ونُقصانه تزيد المحبَّة والبغضاء ؛ (فنقصانُهُ) كزيادته تميل الطَّبيعة معهما كميلِ كِفَّتى الميزان ، قلَّ ذلك أو كثُر .

وهاتان جماعتان داخل فيهما جميع مَحَابِّ العباد ومَكارههم . والنَّفس فى طبعها حبُّ الرَّاحة والدَّعة ، والازدياد والعلو ، والعِز والغَلَبة ، والاستطراف والتَّنوُّق[2] ، وجميع ما تستلذ الحواسُّ من المناظر الحسنة ، والروائح العَبِقة ، والطُّعوم الطَّيِّبة ، والأَصوات المونقة ، والملامس اللَّذيذة . ومما كراهيتُه فى طباعهم أضدادُ ما وصفتُ لك وخلافه .

---

(١) اجترار المنافع : اجتلابها

(٢) التنوق فى الشئ : التجود والمبالغة فيه ، مثل التأنق .

فهذه الخلالُ التى تجمعها خَلتان[(١)] غرائز فى الفِطَر، وكوامن فى الطَّبع، جِبلَّةٌ ثابتة، وشيمة مخلوقة. على أنَّها فى بَعضٍ أكثرُ منها فى بعضٍ، ولا يعلم قدرَ القلَّة فيه والكثرة إلا الذى دبَّرهم.

فلمَّا كانت هذه طبائعَهم، أنشأ لهم من الأرض أرزاقهم، وجعل فى ذلك مَلاذاً لجميع حواسِّهم، فتعلَّقت به قلوبُهم، وتطلَّعت إليه أنفسهم فلو تَرَكَهم وأصلَ الطبيعة، مع ما مكَّن لهم من الأرزاق المشتهاة فى طبائعهم، صاروا إلى طاعة الهوى، وذهب التعاطف والتبارُّ. وإذا ذهبا كان ذلك سبباً للفساد وانقطاع التَّناسل، وفناء الدُّنيا وأهلها؛ لأنَّ طَبْعَ النفس لا يسلُس بعطيَّةٍ قليلٍ ولا كثيرٍ مما حَوتْه، حتَّى تعوَّض أكثر مما تُعطى، إمَّا عاجلاً وإما آجلاً مما تستلذُّه حواسُّها.

فعلِم اللهُ أنَّهم لا يتعاطفون ولا يتواصلون ولا ينقادون إلاَّ بالتأديب وأنَّ التأديب ليس إلا بالأمر والنَّهى، (وأنَّ الأمر والنَّهى) غيرناجعَين فيهم إلا بالترغيب والترهيب اللذَين فى طباعهم. فَدعاهُم بالتَّرغيب إلى جَنَّته، وجعلها عوضاً ممَّا تركوا فى جنب طاعته، وزجَرهم بالتَّرهيب بالنار عن معصيته، وخوَّفهم بعقابها على ترك أمره. ولو تَرَكهم جلَّ ثناؤه والطِّباعَ الأُوَل[(٢)] جرَوْا على مَتَن الفِطرة، وعادة الشِّيمة.

(١) يعنى: «الحاب والمكاره».

(٢) الطباع: الطبيعة والسجية. قال الزجاجى: «الطِّباع واحد مذكر كالنحاس والنجار»، يعنى بكسر أولهما.

ثم أقامَ الرَّغبة والرَّهبةَ على حدود العَدل ، وموازين النَّصَفة ، وعدَّلهم تعديلاً متَّفقاً ، فقال : «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» .

ثم أخبر اللهُ تبارك وتعالى أنَّهُ غير داخلٍ فى تدبيره الخللُ ، ولا جائزٌ عنده المحاباة ؛ ليعملَ كلُّ عاملٍ على ثقةٍ ممَّا وعَده وواعَده ، فتعلَّقت قلوبُ العباد بالرغبة والرَّهبة ، فاطَّردَ التدبير ، واستقامت السياسة ؛ لموافقتهما[1] ما فى الفِطرة ، وأخذهما بمجامع المَصالحة .

ثُمَّ جعلَ أكثر طاعته فيما تَسْتثقل النفوس ، وأكثرَ معصيته فيما تَلَذّ . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : «حُفَّت الجنة بالمكاره ، والنَّارُ بالشهوات» . (يخبر أنَّ الطريق إلى الجنة احتمال المكاره ، والطريق إلى النَّار اتباع الشهوات) .

فإذا كانوا لم يصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا الأمره إلا بما وصفتُ لك من الرَّغبة والرَّهبة ، فأعجزُ النَّاسِ رأياً وأخطؤهم تدبيراً ، وأجهلهُم بموارد الأُمور ومصادرها ، من أمَّل أو ظَنَّ أو رجَا أنَّ أحدًا من الخلْق ــ فوقه أو دونه أو من نظرائه ــ يصلح له ضميره ، أو يصحُّ له بخلاف مادبرهم الله عليه ، فيما بينه وبينهم .

فالرَّغبة والرَّهبة أصلاَ كلِّ تدبير ، وعليهما مدار كلِّ سياسة ، عظُمتْ أو صغُرت . فاجعلْهما مِثالَك الذى تَحتَذِى عليه ، وركنَك الذى الذى تستنِد إليه . واعلمْ أنَّك إن أهملت ما وصفتُ لك عرَّضتَ تدبيرك

(١) يعنى الرغبة والرهبة .

للاختلاط . وإنْ آثرتَ الهوينَا واتّكلت على الكُفاةِ فى الأَمرِ الذى لايجوز فيه إلا نظرك ، وزَجّيت أُمورك على رأى مدخول ، وأصلٍ غيرِ محكمَ ، رجع ذلك عليك بما لو حُكِّم فيك عدوُّك كان ذلك غاية أَمنيّته ، وشفاء غيظهِ .

واعلم أنّ إجراءك الأُمورَ مجاريهَا ، واستعمالَك الأَشياءَ على وجوهها ، يجمع لك أُلفةَ القلوب ، فيعاملكَ كلٌّ من عاملَك بمودّةٍ ، أو أخْذ أو إعطاء وهو على ثقةٍ من بَصَرك بمواضع الإنصاف ، وعلمك بموارد الأُمور .

واعلم أنّ أثرتَك على غير النصيحة والشّفقة ، والحُرمة والكِفاية ، يوجب (لك) المباعدَ وقلّة الثقة ممن آثرته أو آثرتَ عليه .

فاعرف لأَهل البَلاء – ممّن جرت بينك وبينه مودّةٌ أو حرمة ، ممن فوقَك أو دونك أو نظرائك – أقدارَهم ومنازلهم . ثمّ لتكنْ أُمورُك معهم على قدر البلاء والاستحقاق ، ولا تُؤْثر فى ذلك أحَداً لهوىً ؛ فإنّ الأَثَرة على الهوى توجب السُّخطة ، وتُوجب استصغار عظيم النِّعمة ، ويُمحَق بها الإفضال ، وتَفسد عليها الطائفتان : مَن آثرتَ ومن آثرت عليه .

أما من آثرت فإنّه يعلم أنّك لم تُؤثره باستحقاقٍ بل لهوًى ، فهو مترقّبٌ أن ينتقل هواك إلى غيره ، فتحُول أثرتُك حيث مال هواك . فهو مدخولُ القَلْب فى مودّتك ، غير آمنٍ لتغيُّرك .

وأمّا من آثرتَ عليه بعد الاستحقاق منه ، فقد جعلتَ له السبيلَ إلى الطّعن عليك ، وأعطيتَه الحُجّة على نفسك . فكلٌّ من يعمل على غير ثقة عاد ما أراد به النّفعَ ضرراً ، والإصلاح (فيه) فساداً .

وربَّمَا آثَر الرجلُ المرءَ من إخوانه بالعطية السنيَّة على بَلاء أبلاه : فيعظمُ قدرُها عنده حتَّى لعلَّه تطيبُ نفسُه ببذل مالِه ودمِه دونَه. فإنْ كلُّ محمودٍ من ذلك مذموماً ، وكل مستحسَن مستقبحاً . وكذلك الأمر فى العقوبة ، يجريان مجرى واحداً .

فاجعل العدلَ والنَّصَفة فى الثَّواب والعقاب حاكماً بينك وبين إخوانك ، فمن قدَّمت منهم فقَدَمْه على الاستحقاق ، وبصة النيَّة فى مودته ، وخلوص نصيحته لك مِمَّا قد بلوتَ من أخلاقه وشيمه ، وعلمت بتجربتك له ، أنَّه يعلم أنَّ صلاحه موصولٌ بصلاحك : وعطبَه كائن مع عطبك ، ففوِّض الأمر إليه ، وأشرِكْه فى خواص أمورك وخفى أسرارك ، ثُمَّ اعرفْ له قدرَهُ فى مجلسك ومُحاورتك ومعاملتك ، فى كل حالاتك ومزاولاتك فى خلواتك معه ، وبحضرةِ جُلسائك ؛ فإنَّ ذلك زيادة فى نيته ، وداعيةٌ لمَن دونه إلى التقرُّب إليك بمثل نصيحته.

فإن ابتُلِيتَ فى بعض الأوقات بمن يَضرِب بحرمة ويمتُّ بدالَّة ، يطلب المكافأةَ بأكثر ممَّا يستوجب ، فدعاك الكرمُ والحياءُ إلى تفضيله على من (هو) أحقُّ منه ، إمَّا تخوُّفاً من لسانه ، أو مداراةً لغيره . فلا تَدع ذلك لهم ؛ فإنْ أهلَ خاصَّتك والمؤتمَنين على أسرارك ، هم شركاؤك فى العيش ، فلا تستهيننَّ بشىء من أمورهم ، فإن الرجل قد يترك الشىء من ذلك اتكالاً على حسن رأى أخيه ، فلا يزال ذلك يجرح فى القلب وينمو ، حتَّى يولد ضِغْناً ويَحُولَ عداوةَ .

فتحفَّظْ من هذا الباب ، واحمل إخوانك عليه بجهدك .

ومستجد فى من يتصل بك من يغلبه إفراط الحرص وحُمَيّا الشره ، ولين جانبك له ، على أن ينتقم العافية ، ويطلب اللحوق بمنازل من ليس هو مثله ، ولا له مثل دالته ، فتلقاه لما تصنع به مستقلاً ، ولمعروفك مستصغراً. وصلاح من كانت هذه حاله بخلاف ما فسد عليه أمره . فاعرف طرائقهم وشيمهم ، وداوِ كلَّ مَن لابدَّ لك من معاشرته بالدواء الذى هو أنجعُ فيه ، إنْ ليناً فليناً ، وإنْ شدةً فشدة ؛ فقد قيل قيل فى المثل :

من لا يؤدّبُه الجميـ ـلُ ففى عقوبته صلاحُه

وقد قال بعض الحكماء :

« ليس بحكيم من لم يعاشر من لا يجد من معاشرته بُدًّا ، بالعدل والنَّصفة ، حتّى يجعل اللهُ له من أمره فرجا ومخرجا .

فاحفظْ هذه الأبوابَ التى يُوجب بعضها بعضاً ، وقد ضمنت لك أوائلُها كونَ أواخرها . فاعرفْها واقتبسها ، واعلم أنّه متى كان الأوّل وجبَ ما بعده لابدَّ منه . فاحذر المقدِّمات اللاتى يعقبها المكروه ، واحرص على توطيد الأمور التى على أثرها السَّلامة ، وألقح فى البدىء الأمورَ التى نِتاجُها العافية .

فقلت : لئن قلتَ ذلك لقد قالت العجم : مِن علامة الرُّشد أن تكون النفسُ إلى مَولِدها مشتاقة ، وإلى مَسقطِ رأسها توّاقة .

وقالت الهند : حُرمة بلدِك عليك مِثل حرمة أبَويك ؛ لأنَّ غذاك منهما ، وغذاءهما منه .

وقال آخر : احفظ بلدًا رشَّحك غِذاؤُه[1] ، وارعَ حمًى أكنَّك فِناؤه . وأولَى البُلدان بصبابتك إليه بلدٌ رضِعتَ ماءه ، وطعِمتَ غذاءه .

وكان يقال : أرضُ الرجُلِ ظِئرُه ، ودارُه مَهده . والغريب النائى عن بلده ، المتنحى عن أهله ، كالثور النادِّ عن وطنه[2] ، الذى هو لكلِّ رامٍ قَنيصة .

وقال آخر : الكريم يحنُّ إلى جَنابه ، كما يحنُّ الأسد إلى غابةٍ

وقال آخر : الجالى عن مسقط رأسه ومحلِّ رضاعِه ، كالعَير الناشط عن بلده[3] ، الذى هو لكل سبعٍ قَنيصة ، ولكلِّ رامٍ دريئة .

وقال آخر : تُربة الصبا تَغرس فى القلب حُرمة وحلاوة ، كما تغرس الولادةُ فى القلب رقَّةً وحفاوة .

وقال آخر : أحقُّ البُلدان بنزاعكَ إليه بلدٌ أمصَّكَ حَلَبَ رَضاعِه .

وقال آخر : إذا كان الطائر يحنُّ إلى أوكاره ، فالإنسان أحقُّ بالحنين إلى أوطانه .

---

(١) الترشيح : التربية والتقوية . فى الأصل والتيمورية : « أرشحك » . والوجه ما أثبت من محاضرات الراغب ٢ : ٢٧٦

(٢) ند يند ندودا : شرد وذهب على وجهه .

(٣) الناشط : الثور الوحشى يخرج من بلد إلى بلد ، ومن أرض إلى أرض .

وقالت الحكماء : الحنين من رقة القلب ، ورقة القلب من الرعاية ، والرعاية من الرحمة من كرم الفطرة ، وكرم الفطرة من طهارة الرشدة ، وطهارة الرشدة من كرم المحتد .

وقال آخر : ميلك إلى مولدك من كرم محتدك .

وقال آخر : عسرك فى دارك أعز لك من يسرك فى غربتك .

وأنشد :

لقربُ الدار فى الإقتار خيرٌ　　　من العيش الموسّع فى اغترابِ

وقال آخر : الغريب كالغرس الذى زايل أرضه ، وفقد شربه ، فهو ذاو لا يثمر ، وذابل لا ينضر

وقال بعض الفلاسفة : فطرة الرجل معجونة بحب الوطن .

ولذلك قال بقراط : يداوى كل عليل بعقاقير أرضه ؛ فإن الطبيعة تتطلع لهوائها ، وتنزع إلى غذائها .

وقال أفلاطون : غذاء الطبيعة من أنجع أدويتها .

وقال جالينوس : يتروح العليل بنسيم أرضه ، كما تنبت الحبة ببل القطر .

والقول فى حب الناس الوطن وافتخارهم بالمحال قد سبق ، فوجدنا الناس بأوطانهم أقنع منهم بأرزاقهم .

ولذلك قال ابن الزُّبير : « لو قَنَع النَّاس بأرزاقهم قناعتَهم بأوطانهم ما اشتكى عبدٌ الرزقَ » .

وترى الأَعرابَ تحنُّ إلى البلد الجَدْب ، والمحلِّ القفر ، والحجَر الصَّلْد ، وتستوخِم الرِيف ، حتَّى قال بعضُهم :

أتَجلينَ فى الجالينَ أَم تتصبَّرِى ... على ضيق عيش والكريمُ صبُور
فبالمِصر بُرغوثٌ وحُمَّى وحَصْبةٌ ... ومُـومٌ وطاعُونٌ وكلُّ شُرورِ
وبالبِـد جـوعٌ لا يزالُ كأنَّـه ... رُكامٌ بأطراف الإكام يَمُورُ

وترى الحضَرىَّ يُولد بأرضٍ وباءٍ ومُوتانٍ وقلَّةِ خِصْب ، فإذا وقع ببلادٍ أريفَ من بلاده ، وجَنابٍ أخصبَ من جَنابه ، واستفاد غنًى ، حَنَّ إلى وطنه ومستقَرّه .

ولو جمعنا أخبارَ العرب وأشعارَها فى هذا المعنى لطال اقتصاصُه ، ولكن توخَّينا تدوينَ أحسنِ ما سَنَح من أخبارهم وأشعارهم ، وبالله التوفيق .

ومما يؤكِّد ما قلنا فى حبِّ الأَوطان قولُ الله عزَّ وجلَّ حين ذكر الدِّيار يُخبر عن مَوَاقعها من قلوبِ عباده فقال : « وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُمْ مَّا فَعَلُوهُ إلا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ » ، فسوَّى بين قتل أنفسهم وبين الخروج من ديارهم . وقال تعالى : « وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِى سَبِيلِ اللهِ وقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا » .

وقال عمر رضى الله عنه : «عَمَّر الله البُلدانَ بِحبِّ الأَوطانَ» .

وكان يقال : لولا حبُّ النَّاس الأَوطانَ لخربت البُلدان .

وقال عبد الحميد الكاتب ، وذكر الدُّنيا : «نَفَتْنا عن الأَوطان ، وقطعتنا عن الإخوان» .

وقالت الحكماء وأكرم الخيل أجزَعُها من السَّوطِ ، وأكيس الصِّبيان أَبغضُهم للكُتَّاب ، وأكرم الصَّفايا أشدُّها لَهَا إلى أولادها ، وأكرم الإبل أشدُّها حنيناً إلى أوطانها ، وأكرم المِهارَة[1] أشدُّها ملازمةً لأُمِّها ، وخير النَّاسِ آلَفُهم للناس .

وقال آخر : من أمارات العاقل برُّه لإخوانه ، وحنينه لأَوطانه ، ومداراته لأَهل زمانه .

واعتلَّ أعرابيٌّ فى أرض غربة ، فقيل له : ما تشتهى ؟ فقال : حِسْل فلاة ، حَسْو قِلات[2] .

وسئل آخر فقال : مَحْضًا رويًّا[3] ، وضبًّا مشويًّا .

وسئل آخر فقال : ضبًّا عنينًا أعور .

---

(١) المهار والمهارة ، بكسر الميم فيهما : جمع مهر ، بالضم ، وهو ولد الفرس الرمكة والرمكة ونحوهما .

(٢) الحسل ، بالكسر : ولد الضب . والقلات : جمع قلت ، وهى نقرة فى الجبل تمسك الماء .

(٣) المحض : اللبن الخالص لم يخالطه ماء ، حلوا كان أو حامضا .

وقالت العرب : حماك أحمَى لك ، وأهلك أحفَى بك .

وقيل : الغُربة كُربة ، والقلّة ذلة . وقال :

لا ترغبوا إخوتى فى غربة أبدًا   إنّ الغريب ذليلٌ حيثما كانا

وقال آخر : لاتنهض من وكرك فتنقُصك الغُرْبة ، وتَضيمَك الوَحدة .

قال آخر : لاتجفُ أرضاً بها قوابِلُك ، ولا تشكُ بلداً فيه قبائلك[1] .

قال أصحاب القِيافة فى الاسترواح : إذا أحسّت النفس بمولدها[2] تفتّحت مَسامُّها فعرفَتِ النّسيم .

وقال آخر : يحنُّ اللبيب إلى وطنه ، كما يحنُّ النّجيبُ إلى عَطَنه[3] .

وقال : كما أنَّ لحاضنك حقَّ لبنها ، كذلك لأرضك حرمةُ وطنها

وذكر أعرابىٌّ بلدةً فقال : رملةٌ كنتُ جَنينَ رُكامها ، ورضيع غمامها فحضنتنى أحشاؤُها ، وأرضعتنى أحساؤُها[4] .

وشبّهت الحكماءُ الغريبَ باليتيم اللَّطيم الذى ثَكِلَ أبَوَيْه ، فلا أُمّ ترأمه ولا أبَ يَحدِب عليه .

---

(١) وتينك بالمكان : أقام به .
(٢) المراد بالمولد هنا موضع الولادة .
(٣) النجيب من الإبل : الكريم العتيق .
(٤) الأحساء : جمع حسى بالكسر ، وهو سهل من الأرض يستنقع فيه الماء .

وقالت أعرابية : إذا كنت فى غير أهلك فلا تنس نصيبك من الذل

وقال الشاعر :

لَعمرِى لَرهطُ المرءِ خيرُ بقيّةٌ	عليه وإنْ عالَوْا به كلَّ مركبِ (١)

إذا كنت فى قوم ٍ عِدًى لستَ منهم
فكُلْ ما عُلِفتَ من خبيثٍ وطيِّبِ

وفى المثل : « أوضحُ من مرآة الغَريبة » . وذلك أن المرأة إذا كانت هديًّا فى غير أهلها (٢) ، تتفقَّد من وجهِهَا وهيئتها مالاتتفقَّده وهى فى قومها وأقاربها ، فتكون مرآتُهَا مجلوّةً تتعهّد بها أمرَ نفسها . وقال ذو الرمّة :

لها أُذنٌ حَشْرٌ وذِفرَى أَسيلةٌ	وخدٌّ كمرآة الغَريبةِ أَسجَحُ

وكانت العرب إذا غزتْ وسافرتْ حملتْ معها من تُربة بلدِها رملا وعَفَرًا تستنشقه عند نَزْلةٍ أوزكامٍ أوصُداعٍ . وأنشد لبعض بنى ضبَّة :

نسيرعلى علمٍ بكُنهِ مسيرِنا	وعُدَّةِ زاد فى بقايا المزاود
ونَحمل فى الأسفارِ ماءَ قَبيصةٍ	من المنشأ النائى لحبِّ المراودِ

وقال آخر : أرضُ الرَّجل أوضحُ نسبه ، وأهله أحضَرُ نَشَبه .

وقيل لأعرابىٍّ : كيف تصنع فى البادية إذا اشتدَّ القيظُ وانتعل كلُّ شىءٍ ظلَّه ؟ قال : وهل العيشُ إلاَّ ذاك ، يَمشى أحدُنا ميلاً فيرفَضُّ

(١) أى أركبوه المراكب الصعبة المكروهة .
(٢) الهدى : العروس تهدى إلى زوجها .

عرقاً ثم ينصِب عصاه ويلقى عليها كساءه ، ويجلس فى فيئه يكتال الرِّيح ، فكأنَّه فى إيوان كسرى !

وقيل لأعرابىٍّ : ما أصبرَكم على البدو ؟ قال : كيف لا يصبر مَن وِطاؤه الأرض ، وغِطاؤه السماء ، وطعامُه الشَّمس ، وشرابه الرِّيح ! والله لقد خرجنا فى إثر قومٍ قد تقدَّمونا بمراحلَ ونحن حُفاة ، والشَّمس فى قُلَّة السماء ، حيث انتعل كلُّ شىءٍ ظِلَّه ، وأنَّهم لأسوأُ حالاً منَّا ، إنَّ مِهادهم للعَفَر ، وإنَّ وِسادهم للحَجَر ، وإنَّ شِعارهم للهَواء ، وإنَّ دِثارهم للخَواء[1] .

وحدَّثنى التوزى[2] عن رجل من عُرينة قال : حدثنى رجلٌ من بنى هاشمٍ قال : قلتُ لأعرابىٍّ من بنى أسد : مِن أينَ أقبلت ؟ قال : من هذه البادية . قلت : وأين تسكنُ منها ؟ قال : مَساقط الحِمَى حِمَى ضرِيَّة[3] ، بها لَعمر الله ما نُريد بدَلًا ، ولا نبغى عنها حِوَلًا ، أمّا الفَلَوات ، فلا يَملَوْلِح ماؤها ، ولا يَحمَى ترابُها ، ولا يُمعِرُ جنابها[4] ، ليس فيها أذًى ولا قَذًى ، ولا أنينٌ ولا حُمَّى ، فنحنُ بأرفهِ عيشٍ وأرفغ نَعْمة[5] ! قلت : فما طعامُكم فيها ؟ قال : بخٍ بخٍ ! عيشُنا والله

---

(١) الخواء : الهواء بين السماء والأرض .

(٢) التوزى ، بتشديد الواو : نسبة إلى توز ، ويقال فيها أيضا توج ، بلدة بفارس وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون ، تلميذ أبى عبيدة والأصمعى توفى سنة ٢٣٣ .

(٣) حمى ضرية : قرية فى طريق مكة من البصرة .

(٤) أمعرت الأرض : لم يك فيها نبات . وأرض معرة ، إذا انجرد نبتها .

(٥) رفغ عيشه بالضم رفاغة : اتسع . والرفاغة والرفاغية : سعة العيش والخصب.

عيش تعَلَّل جاذبه[(١)] ، وطعامُنا أطيب طعامٍ وأهنؤه : الهَبِيد[(٢)] والضِّباب والبرابيع ، والقنافذ والحيَّات ، وربَّما واللهِ أكلْنا القَدّ[(٣)] ، واشتوينا الجلْد . فلا نعلم أحداً أخصبَ منَّا عيشاً ، فالحمدُ لله على ما بَسَط من السَّعة ، ورَزق من الدَّعة ، أو ما سمعتَ قول قائلنا ـ وكان والله عالماً بلذيذ العيش :

إذا ما أصَبنا كلَّ يومٍ مُذيقةً وخمسَ تُميراتٍ صغارٍ كنائزِ[(٤)]

فنحنُ ملوكُ الأرض خصْباً ونَعْمةً ونحن أُسودُ الغاب عند الهَزاهز[(٥)]

وكم متمنٍّ عيْشَنا لا ينــــاله ولو ناله أضحى به حَقَّ فائز

ولهذا خبر طويلٌ وصفَ فيه نُوقاً أضلَّها ، واقتصرنا منه على ما وصف من قناعته بوطنه .

قال الهاشميّ : فلمّا فرغَ من نعته قلت له : هل لك فى الغَداء ؟ قال إنِّي والله غاوى إغباب[(٦)] ، لاصقُ القلب بالحجاب ، مالى عَهدٌ بمَضَاغٍ

(١) الجاذب : العائب . تعلل : لم يجد مقالا . قال ذو الرمة :

فيالك من خد أسيل ومنطــق رخيم ومن خلق تعــــلل جاذبه

(٢) الهبيد : حب الحنظل ، تنقعه الأعراب فى الماء أياما ، ثم يطبخ ويؤكل .

(٣) القد ، بفتح القاف : جلد السخلة . وفى اللسان : « وفى حديث عمر رضى الله عنه كانوا يأكلون القد . يريد جلد السخلة فى الجدب » .

(٤) المذيقة : تصغير المذقة بالفتح ، وهى الشربة من اللبن الممذوق بالماء . والكنائز : جمع كنيز ، وهو التمر يكتنز للشتاء فى قواصر وأوعية .

(٥) الهزاهز : الفتن يهتز فيها الناس .

(٦) الغاوى : الجائع الخالى الجوف . والإغباب : مصدر أغب ، والمراد ترك الأكل يوما ، كالإغباب فى الزيارة .

إلا شِلو يربوع وجَدمعمعمةً منّي فانسَلَتَ[1] ، فأخذت منه بنا فقائه وقاصعائه ودامّائه وراهطائه[2] ، ثم تنفّقتُه[3] فأخرجته ، ولا والله ما فرحتُ بشيء فرحي به فتلقّاني رُوَيبع ببطن الخَرْجاء[4] ، يُوقد نُويرةً تخبو طَورًا وتسمو[5] أخرى ، فدَسَستُه في إرَته[6] فحمدتُ نُويرتَه ، ولا والله ما بلغ نُضجَه حتّى اختلَس الرُّويبِع منه ، فغَلبني على رأسه وجَوْشه[7] ، وصدره وبدنه ، وبقي بيدى رِجلاه ووركاه ، وفقرتان من صُلبه ، فكان ذلك مما أنعمَ الله به علىّ ، فاغتبقتُها على نَكَظٍ مُنْكِظٍ[8] ، وبَوْصٍ بائصٍ[9] عن عراكه إيّاى ، غير أنّ الله أعانني عليه . فذلك والله عهدى بالطّعام ، وإنى لذو حاجة إلى غِذاء أنوّه به فؤادى[10] ، وأشُدُّ به آدى[11] ، فقد والله بلغ منى المجهود ، وأدرك منى المجلود[12] .

---

(١) المضاغ بالفتح : ما يمضغ . والشلو بالكسر : العضو ، والقطعة من اللحم. والمعمعة : المشقة ، وهي عمل في عجلة .
(٢) كل هذه أسماء خاصة لحجرة اليربوع .
(٣) تنفق اليربوع وانتفقه : استخرجه من نافقائه .
(٤) رويبع : مصغر راع . والخرجاء . موضع بين مكة والبصرة .
(٥) النويرة : مصغر النار . تسمو : ترتفع وتشتعل تحريف ما أثبت من الأصل.
(٦) الإرة : موضع النار .
(٧) الجوش ، بفتح الجيم : الصدر والوسط ، مثل الجوشوش .
(٨) النكظ والإنكاظ : الإعجال .
(٩) البوص : البعد . والبائص : البعيد .
(١٠) التنوية : الرفع والتقوية .
(١١) الآد : الصلب .
(١٢) المجلود : مصدر من الجلد، بمعنى الشدة والقوة والصبر. ومثله المحلوف والمعقول بمعنى الحلف والعقل .

يصف هذا البؤس والجهد ، ويتحمّل هذه الفاقة ، ويصبر على الفقر ، قناعةً بوطنه ، وحبًّا لعطنه ، واعتداداً بما وصف من رقاعة عيشه .

من صدر رسالته فى تفضيل النطق على الصمت

أمتعَ اللهُ بكَ وأبقَى نِعمَه عِندك ؛ وجعلك ممّن إذا عَرف الحقّ انقادَ له ، وإذا رأى الباطِلَ أنكَرهُ وتزحزحَ عنه .

قد قرأتُ كتابَكَ فيا وصَفتَ من فضيلةِ الصّمت ، وشَرحْتَ من مناقبِ السكوت ، ولخّصت من وضوح أسبابهما وأحمدْتَ من منفعةِ عا قبتِهما[١] وجَرَيت فى مجرى فنونِ الأقاويل فيهما ، وذكرتَ أنّك وألفَيتَ السكوتَ أحمدَ من المنطق فى مواضعَ جَمّة : وإن كان حقًّا .

وزعمت أنّ اللسانَ من مسالك الخَنَا[٢] ، الجالبِ على صاحبه البَلا .

وقلت : إنّ حفِظَ اللسان أمثَلُ من التورُّطِ فى الكلام .

وسمّيْتَ الغبيّ عاقلاً ، والصّامِتَ حليماً ، والساكت لبيباً ، والمُطرِقَ مفكراً . وسميت البليغَ مِكثاراً والخطيبَ مهذاراً[٣] والفَصيح مَفْرِطاً ، والمِنْطِيقَ مُطيباً .

---

(١) أحمد الأمر : رضيه ووجده مستحقا للحمد .

(٢) الخنا : الفحش ، يقال خنا فى منطقه يخنو ، مقصور . ط فقط : « الخناء » تحريف .

(٣) « مهداراً » بالدال المهملة . وهو بالدال المعجمة : الذى يكثر الكلام بالهذر ، وهو الكثير الردئ .

وقلت : إنّك لم تندم على الصّمتِ قطُّ وإن كان منك عِيًّا ، وأنّك ندِمت على الكلام مِرارًا وإن كان [منك] صوابًا .

واحتجاجُك فى ذلك بقول كِسرى أنوشِروان ، واعتصامُك فيهما بما سار من أقاويل الشُّعراء والتّسِق من كلام الأُدباء ، وإفراطِهم فى مذَمّة الكلام ، وإطنابهم فى محمدة السُّكوت .

وأتيتُ — حفظك الله — على جميعِ ما ذكرتَ من ذلك ، ووصَفْتَهُ ولخّصت ، وشَرَحْتَ وأطنبت فيها وفَرَطْتَ بالفَهْم ، وتصفّحتُها بالعلم وبحثتُ بالحزْم ، ووعَيْتُ بالعزْم ، فوجدتُها كلامَ امرئٍ قد أُعْجِبَ برأيه وارتَطَم فى هواه ، وظَنّ أنّه قد نَسَجَ فيها كلامًا ، وألّف ألفاظًا ونسَق له معانىَ على نحو مأْخذِه .

مَقْصَدُه أن لا يُلْفِى له ناقضًا فى دهرِهِ بعد أن أبرَمها ، ولا يجدُ فيها مناويًا(١) فى عصره بعد أن أحكمَها . وأنّ حُجّتَه قد لزمت جميع الأنام ، ودحَضَتْ حُجّةَ قاطبةِ أهلِ الأديان ، لِمَا شرح فيها من البُرهان ، وأوضَحَ بالبيان . حتّى كانَ القولُ منَ القائل نقضًا ، ورفعُ الوصف من الواصف تغلّبًا : كان فى موضعٍ لا ينازعُه فيه أحدٌ ، وقَلّما يجد من يُخاصمه ، ولا يُلفى أبدًا منْ يناضلُه ، وصار فَلْجًا [بحجّته(١)]

---

(١) المناوى : « المناهض والمعادى

(٢) والفلج ، بالفتح : الغالب بحجته الظافر على خصمه . وفى اللسان : « ورجل فالج فى حجته وفلج ، كما يقال بالغ وبلغ ، وثابت وثبت » .

أو حديًّا فى لهجته ، إذ كان محلُّه محلَّ الوَحدة ، والأُنس بالخَلْوة ، وكان مثلُه فى ذلك [مَثَلَ] من تخلَّص إلى الحاكم وَحْـده فلجَّ بحجَّته .

وإنِّى مُوضِّح ذلك ببرهانٍ قاطع ، بيانٍ ساطع ، أشرحُ فيه من الحُجَج ما يظهر ، من الحقِّ ما يَقْهَر ، بقدر ما أتَتْ عليه معرفتى ، وبلغَتْه قُوَّتى ، وملكَتْهُ طاقتى ، بما لايستطيع أحدٌ ردَّه ، ولا يمكنه إنكارُه وجحدُه . ولاقوة إلَّا بالله ، وبه أستعين ، وعليه أتوكَّل وإليه أُنيب .

إنِّى وجدتُ فضيلةَ الكلام باهرةً ، ومَنْقَبة المنطِق ظاهرةً ، فى خلالٍ كثيرة ، وخصال معروفة .

منها : أنَّك لاتؤدِّى شُكرَ الله ولاتقدر على إظهارِه إلَّا بالكلام .

ومنها : أنَّك لاتستطيع العبارة عن حاجاتك والإبانةَ عن ماربك إلَّا باللِّسان . وهذان فى العاجل والآجل مع أشياءَ كثيرةٍ أو يَنْحُوهـا الإنسانُ لوجَدَها فى المعقول موجودة ، وفى المحصول معلومة وعند الحقائق مشتهرةً ، فى التَّدبير ظاهرة .

لمْ أجِـدْ للصَّمت فضلًا على الكلام ممَّا يحتمله القيـاس ، لأنَّك تصف الصَّمت [بالكلام ،] لاتصف الكلام به : ولو كان الصَّمت [أفضلَ] السُّكوت أمْثَلَ لما عُرِفَ للآدميِّين فضلٌ على غيرهم ، ولافُرِقَ بينهم بين شىءٍ من أنواع الحيوان . وأخياف الخَلْق[1] فى أصناف

(١) الأخياف : الضروب المختلفة فى الأخلاق والأشكال

جواهرِها واختلافِ طبائِعها ، وافتراق حالاتها وأجناسِ أبدانها في أعيانها وألوانها . بل لم يمكن أنْ يميَّز بينهم وبين الأَصنامِ المنصوبة والأَوثانِ المنحوتة ، وكان كلُّ قائمٍ وقاعد ، ومتحرِّكٍ وساكن ، ومنصوب وثابتٍ ، في شرعٍ سواءٍ[٢] ومنزلةٍ واحدة ، وقِسمةٍ مُشاكلة ؛ إذْ كانوا في معنى الصَّمت بالجُثَّةِ واحدًا ، وفي معنى الكلام بالمنطق متباينًا[٢] .

ولذلك صارت الأَشياءَ مختلفةً في المعاني ، مؤتلفة الأَشكال ، إذْ كانت في أشكالِ خِلقتها متَّفقة بتركيب جواهرها ، وتأْليف أجزائها ، وكمال أبدانها ، وفي معنى الكمال متباينةً عند مفهوم نَغَمَاتها ، ومنظومِ ألفاظها وبَيانِ مَعَالِمِها وعَدْل شواهدها .

مع أَنى لم أُنكِر فضيلة الصَّمت ، ولم أُهجِّن ذِكرَه إلَّا أنَّ فضلَه خاصٌّ دون عامّ ، وفضلَ الكلام خاصٌّ وعام ، وأن الاثنين إذا اشتمل عليهما فَضْلٌ كان حظُّهما أكثر ، ونصيبهُما [أَوفر من] الواحد . ولعلَّه أن يكون بكلمة [واحدةٍ] [نجاةُ] خلقٍ ، وخلاصُ أُمَّة .

ومن أَكثر ما يُذكَرُ للسَّاكت من الفضل ، ويُوصف له من المَنقَبة أن يقال يسكُت ليتوقَّى به عن الإثم وذلك فضلٌ خاصٌّ دون عامّ .

ومن أقلِّ ما يُحتكَم عليه أن يقال غبيٌّ أو جاهل ، فيكون في ذلك لازمُ ذَنبٍ على التوهُّم به ، فيجتمع مع وقوع اسم الجاهِل [عليه] ما ورَّط فيه صاحبَه من الوِزْر .

---

(١) الشرع ، بالتحريك ، ويقال بالفتح أيضا : السواء ، يقال هذا شرع سواء وفي الحديث : « أنتم فيه شرع سواء » ، أي متساوون .

(٢) أي شيئا متباينا .

والذى ذُكِرَ من تفضيل الكلام ما يَنطِقُ به القرآن ، وجاءت فيه الرِّوايات عن الثِّقات ، فى الأَحاديث المنقولات ، والأَقاصيص المرويّات ، والسَّمَر والحِكايات ، وما تكلَّمت به الخطباءُ ونَطَقَتْ فيه البلغاءُ أكثرُ من أن يُبلَغ آخرُها ، ويُدرك أوَّلُها ، ولكنْ قد ذكرتُ من ذلك على قدْرِ الكِفاية ، ومن الله التوفيقُ والهِداية .

ولم ترَ الصَّمتَ — أسعدك اللهُ — أحمَدَ فى موضع إلّا وكان الكلامُ فيه أحمد ، لِتَسَارُعِ النَّاسِ إلى تفضيل الكلام ، لظهورِ عِلَّتِه ، ووضوح جليَّته ، ومَغَبَّةِ نفْعِه .

وقد ذكر الله عزَّ وَجَلَّ فى قِصَّةِ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ حين كَسَّرَ الأَصنامَ وجَعَلَها جُذاذًا ، فقال حكايةً عنهم : « قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ » . فكان كلامُه سببًا لنجاته ، وعِلَّةً لخلاصِه ، وكان كلامُه عند ذلك أحْمدَ من صمت غيرِه فى مثلِ ذلك الموضع ، لأنَّه عليه السَّلام لو سكت* عند سؤالهم إيَّاه لم يكن سكوتُه إلّا على بَصَرٍ وعِلم ، وإنَّما تَكَلَّم لأنَّه رأى الكلامَ أفضلَ ، وأنَّ من تكلَّم فأحسنَ قَدَرَ أن يسكُت فيُحسِن ، وليس من سكت فأحسَنَ لقَدَرَ أن يتكلَّم فيُحْسِن .

واعْلَمْ — حَفِظك الله — أنَّ الكلامَ سببٌ لإيجاب الفضل ، وهِدايةٌ إلى معرفة أهل الطَّوْل .

ولولا الكلامُ لم يكنْ يُعْرَفُ الفاضلُ من المفضول ، فى معان كثيرة ، لقول الله عزَّ وجَلَّ ، فى بيانِ يُوسف عليه السلامُ ، وكلامِه عند عَزيز

مصر ، لَمَّا كلَّمه فقال : « إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مكِينٌ أَمِينٌ » . فلو لم يكن يوسُفُ عليه السلامُ أظهرَ فَضْلَه بالكلامِ ، والإفصاحِ بالبيان ، مع فَضْله ، ولا بلغ تلك المنزلةَ لديه ، ولا حَلَّ ذلك المحلَّ منه ، ولا صار عنده بموضع الأَمانة ، ولكانَ فى عِدادِ غيرِهِ ومنزلةِ سِوَاهُ عند العزيز . ولكنَّ الله جعلَ كلامَه سببًا لرفع منزلته ، وعُلوِّ مرتبته ، وعِلَّةً لمعرفة فضيلته ، ووسيلةً لتفضيل العزيز إيَّاه .

ولم أر للصَّمت فضيلةً فى معنًى ولا للسُّكوت مَنْقُبةً فى شىءٍ إلَّا وفضيلة الكلامِ فيها أكثرُ ، ونصيبُ المنطقِ عندها أوفر ، واللَّفظُ بها أشهر . وكفى بالكلام فضلًا ، وبالمنطق منْقُبة أنْ جَعَلَ اللهُ الكلامَ سبيلَ تهليله وتحميده ، والدَّالَّ على معالم دينهِ وشرائع إيمانه والدَّليل إلى رضوانه . ولم يرضَ من أحدٍ من خلقه إيمانًا إلا بالإقرار ، وجعل مسلكَه اللِّسان ، ومجراه فيه البيان ، وصيَّره المعبِّرَ عمَّا يُضمره والمُبين عمَّا يُخبره ، والمنبئ عن ما لا يستطيع بيانَه إلا به . وهو ترجُمانُ القَلْبِ والقلب وعاءٌ واعٍ .

ولم يُحمَد الصَّمت من أحدٍ إلا توقِّيًا لعجزه عن إدراك الحقِّ والصَّوابِ فى إصابة المعنى ، وإنَّما قاتل النبىُّ صلَّى الله عليه وسلم المشركين عند جهلهم الله تعالى وإنكارهم إيَّاه ، ليُقِرُّوا به ، فإذا فعلُوه حُقِنَتْ دماؤُهم ، وحُرِّمت أموالُهم ، ورُعِيَتْ ذِمَّتُهم . ولو أنَّهم سكتوا ضنًّا بدينهم لم يكن سبيلُهم إلا العطَب .

فاعلم أنَّ الكلام من أسباب الخير لا من [أسباب] الشر .

والكلامُ – أبقاكَ الله – سبيلُ التمييز بين الناس والبهائِم ، وسببُ المعرفةِ لفضلِ الآدميّين على سائر الحيوان ، قال اللهُ عزَّ وجَلَّ : « وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِى آدَمَ وحَمَلْنَاهُمْ فى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » كرمهم باللسان وحملهم بالتدبّر .

ولو لم يكن الكلامُ لما استوجب أحدٌ النِّعمة ، ولا أقام على أداء ما وجب عليه من الشُّكرِ سببًا للزِّيادة ، وعلّةً لامتحان قلوبِ العباد .
والشكرُ بالإظهار فى القول ، والإنابةِ باللِّسان . ولا يُعرفُ الشكرُ إلا بهما

واللهُ تَعَالَى يقول : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » ، فجعل الشُّكر علّةً لوجوب الزِّيادة ، عند إظهاره بالقَوْلِ ، والحمدُ مفتاحًا للنِّعمة .

وقد جاء فى بعض الآثار : لو أنَّ رجلًا ذكَرَ الله تعالى وآخرَ يَسْمَعُ له كان المعدودُ للمستمِعِ من الأَجْر ، والمذكورُ له من الثَّواب واحدًا وللمتكلِّم به عشرةٌ أو أكثر .

فهل تُرَى – أبقاك الله – أنّه وجَبَ لصاحب العَشْرِ ذلك وفَضل به على صاحبه إلا عند استعماله بالنُّطق به لسانَه . ولم يلزم الصَّمتَ أحدٌ إلّا على حسب وقوعِ الجهلِ عليه . فأمّا إذا كان الرَّجُل نبيهًا مميَّزًا ، عالمًا مفوّهًا فالصَّمتُ مُهجِّنٌ لعلمِه وسائرِ لفضلِه . كالقدّاحةِ لم يستبن نَفْعُها دون تزنيدها[1] . ولذلك قيل : « من جهل عِلمًا عَادَاه »

(١) المراد بالتزنيد استعمال الزندين، والكلمة بهذا المعنى لم ترد فى المعاجم المتداولة

٢ - فصـــل منهـا

ولم أجِد الصَّامت مستعانًا به فى شىء من المعـانى ، ولا مذكورًا فى المحافل .

ولمْ يُذكَر الخطباءُ ولا قَدَّمَتْهم الوفودُ عند الخُلفاء إلَّا لِمَا عرفوه من فَضْلِ لسانِهم وفضيلةِ بيانهم . وإنَّ أصحَّ مايُوجد فى المعقول ، وأوضح مايُعَدُّ فى المحصول للعربِ من الفَضْل ، فصاحتُها وحسنُ منطقِها ، بَعْدَ فضائِلها المذكورة ، وأيَّامها المشهورة .

ولفضل الفصاحةِ وحُسْن البيانِ بعثَ اللهُ تعالى أفضلَ أنبيائِهِ وأكرم رُسُلِهِ من العرب ، وجعَلَ لسانَه عربيًّا ، وأنزلَ عليه قُرآنه عربيًّا ، كما قالَ اللهُ تعالى : «بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » . فلم يُخَصَّ اللسانُ بالبيان ، ولم يُحمد بالبرهان إلَّا عند وجود الفضل فى الكلام ، وحسن العبارةِ عندَ المنطق ، وحلاوةِ اللَّفظ عند السَّمع .

واعْلَم أنَّ الله تعالى لم يُرسِل رسولًا ولا بَعَثَ نبيًّا إلَّا مَن كان فضلُه فى كلامه وبيانِه كفَضْله على المبعوث إليه ، فكان النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم أفصَح العَرَبِ لسانًا ، وأحْسَنَهُم بيانًا ، وأسهلَهم مخارج لِلكلام وأكثرَهُم فوائدَ من المعانى ؛ لأنَّه كان من جماهير العَرَب ، مَولده فى بنى هاشم ، وأخوالُه من بنى زُهرة ، ورَضاعه فى بنى سعد بن بكر ومنشَؤُه فى قريش ، ومتزوَّجُه فى بنى أسد بن عبد العُزَّى ، ومهاجَرُهُ

إلى بنى عمرو [١] ، وهم الأوسُ والخزرج من الأنصار . وقد قال النبى صلّى الله عليه وسلم : (أنا أفصحُ العربِ بيْدَ أنّى من قريش ، ونشأتُ فى بنى سَعدِ بن بكر) .

ولو لم يكن ممّا عَدَدْنَا من هؤلاء الأحياء إلّا قريشٌ وحدها لكان فيها مستغنًى عن غيرها ، وكفايةٌ عن من سواها ، لأنّ قريشًا أفصح العرب لسانًا وأفضلُها بيانًا ، وأحضرُها جوابًا ، وأحسنها بديهة ، وأجمعها عند الكلام قلبًا .

ثم للعرب أيضًا خصالٌ كثيرة ، ومشاهدُ كثيرة ، ممّا يشاكل هذا الباب ، ويُضارع هذا المثال ، حذفتُ ذِكرَها خوف التطويل فيها .

٣ — فصل منها

فهذه كلُّها دلائل على دَحْضِ حُجَّتِك ونقضِ قضيّتك . وإنّما أرسلَ اللهُ تعالى رُسلَه مبشِّرينَ ومنذرين الأُمَم ، وأمَرَهُم بالإبلاغ ليُلزمهم الحجةَ بالكلام لا بالصّمت ، إذ لا يكون للرِّسالة بلاغٌ ولا للحُجَّة لُزُومٌ ولا للعِلّة ظهورٌ إلّا بالنُّطق .

---

(١) وعمرو هذا هو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد . والأوس والخزرج أبوهما حارثة بن ثعلبة بن عمرو هذا ، الملقب بمزيقياء .

٤ – فصــل منهــا

فى صفة من يقدر على الإنابة

وليس يَقوَى على ذلك إلَّا امرؤٌ فى طبيعته فضلٌ عن احتمال نحيزته[(١)] وفى قريحته زيادةٌ من القوَّة على صناعته ، ويكون حظُّه من الاقتدار المنطق فوقَ قِسطِهِ من التغلُّب فى الكلام ، حتَّى لا يضعَ اللَّفْظَ الحرَّ النبيل إلَّا على مثلِه من المعنى ،ولا اللَّفْظَ الشريفَ الفخمَ إلَّا على مثله من المعنى .وحتى يعطى اللَّفظَ حقه من البيان ويوفر على الحديث قسطه من الصواب ، ويجزل للكلام بحظه منَ المعنى ويضع جميعَها مواضِعَها ، ويصفَها بصفتها ، ويوفِّر عليها حقوقَها من الإعراب والإفصاح .

٥ – فصــل منهــا

وبعدُ ، فأىُّ شىء أشهر مَنْقَبةً وأرفعُ درجةً وأكمل فضلًا ، وأظهر نفعًا ، وأعظم حرمةً ، من شىء لولا مكانُه لم يثبُتْ للهِ رُبوبيَّة ولا لنبىٌ حجة ، ولم يُفصَل بين حُجَّة وشُبهة ، وبين الدَّليل وما يَتجلى فى صورة الدَّليل .

ثم به يُعرفُ فضلُ الجماعة من الفُرقة ، والشُّبهة من البدعة ، والشُّذوذ من الاستفاضة .

والكلام سبب التعرُّفِ حقائقِ الأَديان ، والقياس فى تثبيتِ الرُّبوبيَّة وتصديق الرسالة ، والامتحان للتَّعديل والتجوير والاضطرار والاختيار .

---

(١) نحيزه الرجل : طبيعته ، كالنحيتة أيضا .

(١) والتجوير : نسبة الجور أى الظلم إلى الله .

فتـــوح مصر وأخبارها

لأبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين
القرشى المصرى ت ٢٥٧ هـ

١ — ذكر سبب دخول عمرو بن العاص مصر

رجع إلى حديث عثمان بن صالح . قال : فلمّا كانت سنة ثمانى عشرة وقدم عُمر الجابية خلا به عمرو بن العاص فاستأذنه فى المسير إلى مصر ؛ وكان عمرو قد دخل مصر فى الجاهلية وعرف طرقها ورأى كثرة ما فيها. وكان سبب دخول عمرو إيّاها كما حدثنا يحيى بن خلد العدوىّ عن ابن لهيعة ويحيى بن أيوب عن خِلد بن يزيد أنه بلغه أن عمرًا قدم إلى بيت المقدس لتجارة فى نفر من قريش فإذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية قدم للصلاة فى بيت المقدس فخرج فى بعض جبالها يسيح وكان عمرو يرعى إبله وإبل أصحابه ، وكانت رِعْية الإبل نوبًا بينهم : فبينا عمرو يرعى إبله إذ مرّ به ذلك الشمّاس وقد أصابه عطش شديد فى يوم شديد الحرّ ، فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه عمرو من قِرْبة له ، فشرب حتى روى ، ونام الشمّاس مكانه وكانت إلى جنب الشمّاس حيث نام حُفْرة فخرجت منها حيّةٌ عظيمة فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها ، فلمّا استيقظ الشمّاس نظر إلى حيّة عظيمة قد أنجاه الله منها فقال لعمرو : ما هذه ؟ فأخبره عمرو أنه رماها فقتلها ، فأقبل إلى عمرو فقبل رأسه وقال : قد أحيانى الله بك مرّتين ؛ مرّةً من شدّة العطش ؛ ومرّةً من هذه الحيّة ، فما أقدمك هذه

البلادَ ؟ قال : قدمت مع أصحاب لى نطلب الفضل فى تجارتنا . فقال له الشمّاس : وكم تراك ترجو أن تصيب فى تجارتك ؟ قال : رجائى أن أصيب ما أشترى به بعيرا فإنى لا أملك إلا بعيرين ، فأملى أن أصيب بعيرًا آخر فتكون ثلاثة أبعرة . فقال له الشمّاس : أرأيتَ ديةَ أحدكم بينكم كم هى ؟ قال : مائة من الإبل . قال له الشمّاس : لَسْنَا أصحاب إبل ، إنما نحن أصحاب دنانير . قال : يكون ألف دينار . فقال له الشمّاس إنى رجل غريب فى هذه البلاد ، وإنما قدمتُ أُصَلى فى كنيسة بيت المقدس ، وأسيح فى هذه الجبال شهرًا . جعلت ذلك نَذْرًا على نفسى ، وقد قضيتُ ذلك وأنا أُريد الرجوع إلى بلادى . فهل لك أن تتبعنى إلى بلادِى ولك عهدالله وميثاقه أن أُعطيك ديَتَيْن ؛ لأن الله تعالى أحيانى بك مرتين . فقال له عمرو : أين بلادك ؟ قال : مصر ، فى مدينة يقال لها الإسكندرية ، فقال له عمرو : لا أعرفها ولم أدخلها قط . فقال له الشمّاس لو دخلتَها لعلمت أنَّكَ لم تدخل قط مثلها ، فقال عمرو : وتَفِى لى بما تقول وعليك بذلك العهدُ والميثاقُ ؟ فقال له الشمّاس : نعم لك الله علىّ بالعهد والميثاق أن أَفِىَ لك ، وأن أَرُدَّك إلى أصحابك . فقال عمرو : وكم يكون مَكْثى فى ذلك ؟ قال : شهرًا ، تنطلق معى ذاهبًا عشرا ، وتقيمُ عندما عشرا ، وترجع فى عشر ، ولك على أن أحفظك ذاهبًا ، وأن أبعث معك من يحفظك راجعًا . فقال له عمرو : أَنْظِرْنى حتى أشاور أصحابى فى ذلك . فانطلق عمرو إلى أصحابه فأخبرهم بما عاهده عليه الشمّاس ، وقال لهم : تقيموا على حتى أرجع إليكم ولكم علىّ العهد أن أُعطيكم شَطْر ذلك ، على أن يصحبنى رجل منكم آنَسُ به . فقالوا : نعم وبعثوا معه رجلًا منهم . فانطلق عمرو

وصاحبه مع الشمّاس إلى مصر حتى انتهى إلى الاسكندرية فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الأموال والخير ما أعجبه . وقال : ما رأيت مثل مصر قط وكثرة ما فيها من الأموال . ونظر إلى الإسكندرية وعمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها وما بها من الأموال فازداد عجبًا . ووافق دخول عمرو الإسكندرية عيدًا فيها عظيمًا يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم ، ولهم أُكرةٌ من ذهب مُكَلَّلَةٌ ، يترامى بها ملوكهم ؛ وهم يتلقّونها بأكمامهم وفيما اختبروا من تلك الأُكرة على ما وضعها من مضى منهم أنها مَن وقعت الأُكرة ، فى كُمِّه واستقرّت فيه لم يمت حتى يملكهم . فلمّا قدم عمرو الإسكندرية أكرمه الشمّاس الإكرام كلّه ، وكساه ثوب ديباج ألبسه إيّاه . وجلس عمرو والشمّاس مع الناس فى ذلك المجلس حيث يترامون بالأُكرة وهم يتلقّونها بأكمامهم . فرمى بها رجل منهم فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كمّ عمرو ، فعجبوا من ذلك وقالوا : ما كذبتنا هذه الأُكرة قط إلّا هذه المرّة . أترى هذا الأعرابىّ يملكنا هذا ما لا يكون أبدًا . وإن ذلك الشمّاس مشى فى أهل الإسكندرية وأعلمهم أن عمرًا أحياه مرّتين وأنه قد ضمن له ألفى دينار . وسألهم أن يجمعوا ذلك له فيما بينهم ، ففعلوا ، ودفعوها إلى عمرو . فانطلق عمرو وصاحبه ، وبعث معهما الشمّاس دليلًا ورسولًا وزودهما ، وأكرمهما حتى رجع وصاحبه إلى أصحابهما فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثره مالا فلمّا رجع عمرو إلى أصحابه دفع إليهم فيما بينهم ألف دينار ، وأمسك لنفسه ألفًا ، قال عمرو : فكان أوّل مال اعتقدته وتأثّلته .

أبو يزيد البسطامى

أبويزيد بن طيفور بن عيسى البسطامى ، كان جده مجوسيًّا وأسلم ، وكانوا ثلاثة إخوة : آدم ، وطيفور ، وعلى . وكلهم كانوا زهادًا عبادًا . وكان أبويزيد أجلهم حالًا ، قيل مات سنة إحدى وستين ومائتين ٢٦١ هـ ، وقيل أربع وثلاثين ومائتين ٢٣٤ هـ ، ولم تذكر كتب التراجم والطبقات سنة مولده ، وذكر أبوعبد الرحمن السلمى فى طبقاته أن أبايزيد أسند الحديث . وفى رسالة القشيرى ، ولمع السراج ، وطبقات الشعرانى ذكر لطائفة من أقوال البسطامى المشهورة ، ممَّا يدخل تحت مايعرف بالشطح الصوفى ، وقد ترجم له فريد الدين العطار فى تذكرة الأولياء ، وعبد الرحمن الجامى فى نفحات الأنس ، والهجويرى فى كشف المحجوب ، ولأبى يزيد ينسب كتاب « مسائل الرهبان » ، وأغلب الظن أنه منحول .

* * *

من مأثورات أبى يزيد البسطامى

كتب يحيى بن معاذ إلى أبى يزيد : « هاهنا من شرب من كأس المحبة لم يظمأ بعده » فكتب إليه أبو يزيد : « عجِبْتُ من ضعف حالك . ها هنا من يحتسى بحار الكون وهو فاغر فاه يستزيد ، واعلم أن كاسات القرب تبدو من الغيب ، ولا تدار إلا على أسرار معتقة ، وأرواح عن رق الأشياء محررة » .

حكى أن ذا النون المصرى بعث واحدًا من أصحابه إلى أبى يزيد لينقل إليه صفة أبى يزيد . فلما جاء الرجل إلى بسطام ، سأل عن دار أبى يزيد فدخل عليه ، فقال له أبو يزيد : ماتريد ؟ فقال : أريد أبا يزيد . فقال : من أبو يزيد ؟ وأين أبو يزيد ؟ فأنا فى طلب أبى يزيد . فخرج الرجل وقال : هذا مجنون . ورجع إلى ذى النون فأخبره فبكى وقال : أخى أبو يزيد ذهب فى الذاهبين إلى الله .

ومن مأثور قوله : كنت ثنتى عشرة سنة حدّاد نفسى ، وخمس سنين كنت مرآة قلبى ، وسنة أنظر فيما بينهما ، فإذا فى وسطى زُنّار ظاهر فعملت فى قطعه ثنتى عشرة سنة ، ثم نظرت فإذا فى باطنى زنار فعملت فى قطعه خمس سنين أنظرُ كيف أقطعه ، فكشف لى فنظرت إلى الخلق فرأيتهم موتى ، فكبرت عليهم أربع تكبيرات .

وقيل لأبى يزيد متى يكون الرجل متواضعاً ؟ فقال : إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالا ، ولا يرى أن فى الخلق من هو شر منه .

وقيل له بم وصلت إلى ما وصلت إليه ؟ فقال : جمعْتُ أسباب الدنيا فربطْها بحبل القناعة ، ووضعتها فى منجنيق الصدق ، ورمْيتُ بها فى بحرَ اليأس فاسترحْتُ .

أولياء الله تعالى عرائس الله ، وهم مخدرون عنده فى حجاب الأُنس لا يراهم أحد فى الدنيا ولا فى الآخرة .

حظوظ الأولياء مع تباينها من أربعة أسماء ، وقيام كل فريق منهم باسم منها ، وهو : الأول والآخر والظاهر والباطن ، فمن فنى عنها بعد

ملابستها فهو الكامل التام ، فمن كان حظه من اسمه تعالى « الظاهر » لاحظ عجائب قدرته . ومن كان حظه من اسمه « الباطن » لاحظ ماجرى فى السرائر من أنواره. ومن كان حظه من اسمه « الأول » كان شغله بما سبق ، ومن كان حظه من اسمه « الآخر » كان مرتبطاً بما يستقبله ، وكل كوشف على قدر طاقته ، إلا من تولاه الحق سبحانه ببره ، وقام عنه بنفسه .

وسئل أبو يزيد عن المعرفة فقال : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » .

ومن أقواله : المحبة استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك .

إن لله عبادًا لو حجبهم فى الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار .

مثل ما حصل للأنبياء عليهم السلام كمثل زقّ فيه عسل ترشح منه قطرة ، فتلك القطرة مثل مالجميع الأولياء .

ومن أقواله التى يغلب عليها الصحوة :

حركات الظواهر توجب بركات السرائر ، عرفتُ الله بنور صنعه ، وعرفت صنعه بنوره ، عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة ، فما وجدت شيئاً أشدّ علىّ من العلم ومتابعته .

وسئل أبو يزيد عن العارف فقال : لون الماء لون إنائه .

وسئل عن معنى قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير » فاطر / ٣٢ فقال :

السابق مضروب بسوط المحبة ، مقتول بسيف الشوق ، مضطجع على باب الهيبة ، والمقتصد مضروب بسوط الحسرة ، مقتول بسيف الندامة ، مضطجع على باب الكرم . والظالم مضروب بسوط الأمل ، مقتول بسيف الحرص ، مضطجع على باب العقوبة .

وذكر عنه أنه قال : رفعنى مرة فأقامنى بين يديه وقال لى : يا أبا يزيد إن خلقى يحبون أن يروك فقلت : « زينى بوحدانيتك ، وألبسنى أنانيتك ، وارفعنى إلى أحديتك ، حتى إذا رآنى خلقك قالوا رأيناك ، فتكون أنت ذاك ، ولا أكون أنا هنا .

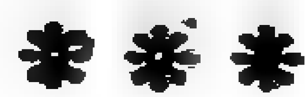
ومن أقواله التى يغلب عليها الشطح وهو عند الصوفية عبارة مستغربة فى وصف وجد فاض بقوته ، وهاج بشدة غليانه وغيبته :

أول ما صرت إلى وحدانيته ، فصرت طيراً جسمه من الأحدية : وجناحاه من الديمومية ، فلم أزل أطير فى هواء الكيفية عشر سنين ، حتى صرت إلى هواء مثل ذلك مائة ألف ألف مرة ، فلم أزل أطير إلى أن صرت فى ميدان الأزلية فرأيت فيها شجرة الأحدية ، فنظرت فعلمت أن هذا كله خدعة .

والمعنى كما فسره الجنيد وأورده السراج فى اللمع أن الالتفات والاشتغال بملاحظة الكون والمملكة خدعة عند وجود حقائق التفريد وتجريد التوحيد .

ومن شطحياته قوله : أشرفتُ على ميدان اللَّيْسيَّة فما زلتُ أطيرُ فيه عشر سنين ، حتى صرْتُ من ليس فى ليس بليس ، ثم أشرفْتُ على التضييع وهو ميدان التوحيد ، فلم أزل أطير بليس فى التضييع حتى ضعْتُ فى الضياع ضياعاً ، وضعْتُ فضيعْتُ عن التضييع بليس فى ليس ثم أشرقت على التوحيد فى غيبوبة الخلق عن العرف وغيبوبة العارف عن الخلق .

والمعنى العام لهذا الشطح عند الجنيد أنه تعبير عن الغناء والفناء عن الفناء) .



ابن عبد كان

(ت ٢٧٠ هـ)

هو أبو جعفر محمد بن عبد الله بن عبد كان . لم تذكر المصادر شيئاً عن مولده أو نشأته أو عمن تلقى عنهم العلم ، كما أن ظروف حياته مجهولة . وأول ما عرف عنه أنه كان والياً للبريد فى دمشق وحمص ، ولكننا لانعرف شيئاً عن كتاباته فى تلك الآونة غير المحددة ، كذلك وقد بدأ اسمه فى الظهور عندما أراد والى مصر أحمد بن طولون أن يكون له ديوان للإنشاء على غرار ديوان الإنشاء فى مقر الخلافة فى بغداد ، فاستقدم ابن عبد كان لهذا الغرض ، فكان أول من قام على هذا الديوان ، مرسخاً من خلاله تقاليد الكتابة الديوانية فى مصر .

وقد كتب ابن عبد كان لأحمد بن طولون ، ولابنه خمارويه من بعده ، وذاعت شهرته فى مجال كتابة الرسائل الديوانية والرسائل الإخوانية ، حتى إن القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء » يعول كثيراً على كتاباته فى استنباط أصول فن الترسل ويرد الفضل إليه فى تشقيق أصول هذا الفن .

وقد عالج ابن عبد كان فى رسائله الديوانية جملة من الموضوعات الحيوية ، فاكتسبت هذه الرسائل بذلك قيمة موضوعية ، إلى جانب قيمتها التاريخية والفنية .

رسالة كتبها ابن عبد كان على لسان أحمد بن طولون إلى ابنه العباس حين خرج عليه بالإسكندرية ، مؤنبًا له على فعلته ، ومنذرًا له إن هو استمر فى شق عصا الطاعة ، داعياً إياه إلى العودة إلى رشده ، والدخول فى طاعته :

« من أحمد بن طولون ، مَوْلى أمير المؤمنين ، إلى الظالم لنفسه ، العاصى لربه ، المُلِم بذنبه ، المفسد لِكَسْبه ، العادى لطوره (١) ، الجاهل لقدره ، الناقض على عقبه (٢) ، المركوس (٣) فى فِتْنَته ، المنحوس من حظ دنياه وآخرته .

سلام على كل مُنيب (٤) مستجيب ، تائب من قريب ، قبل الأخذ بالكَظم (٥) ، وحلول الفوت والندم .

وأحمَدُ الله الذى لا إلهَ إلّا هو حمدَ معترف له بالبَلَاءِ الجميل ، والطَّوْل (٦) الجليل ؛ وأسأله مسألةَ مخلِص فى رَجَائه ، مجتهد فى دُعائه ، أن يصلى على محمد المصطفى وأمينه المرتضى ، ورسوله المجتَبى ، صلّى الله عليه وسلّم .

(١) العادى لطوره : المجاوز لقدره .
(٢) الناقض على عقبه : المرتد .
(٣) المركوس : من ركس الشيء ، أى قلب أوله على آخره .
(٤) منيب : عائد إلى الحق ، مطيع .
(٥) الكظم : مخرج النفس .
(٦) الطول : الفضل .

أما بعد ، فإن مَثَلَك مثلُ البقرة تُثِير المُدْيةَ بقرنَيْها ، والنملة يكون حتفها[٧] فى جناحَيْها ، وستعلَمُ - هَبلتْك الهوابل[٨] ! أيها الأحمقُ الجاهل ؛ الذى ثَنَى على الغىِّ عِطفه[٩] ، واغتر بضِجاج المَواكب خلْفه - أىَّ مَوْرِدةِ هَلَكة بإذن الله تَوَرَّدْت[١٠] ، إذ على الله جلَّ وعزَّ تمرَّدْتَ وشرَدت ، فإنه تبارك وتعالى قد ضرَب لك فى كتابه مثلا : « قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » .

وإنا كُنَّا نُقَرِّبك إلينا ، ونَنْسُبك إلى بيوتنا ، طَمَعاً فى إنابَتِك ، وتأميلا لفَيْئتِك[١١] ، فلمَّا طال فى الغىِّ انهماكُك ، وفى غَمْرة الجَهْل ارتباكُك ، ولم نَرَ الموعظةَ تُلين كَبِدَك ، ولا التذْكِيرَ يُقيم أَوَدك[١٢] ، لم تكنْ لهذه النِّسبة أهلا ، ولا لإضافَتِك إلينا مَوْضِعاً ومَحَلاًّ ؛ بل لا نكنى بأبى العبَّاس إلا تكرُّهاً وطمَعاً بأن يَهَب الله منك خَلَفاً نُقَلِّده اسمك ، ونُكْنَى به دُونَك ونَعُدُّك كنتَ نِسْياً مَنْسِيا ، ولم تَكُ شيئاً مقضيا فانظُرْ ولا نَظَرَ بك إلى عارٍ نِسبتِه تقلَّدت[١٣] ، وسَخَط من قِبَلنا تعرَّضت ، واعلم أن البلاءَ بإذن الله قد أظَلَّك ، والمكروهَ إن شاء اللهُ قد أحاط .

---

(٧) حتفها : موتها .

(٨) هبلتك الهوابل : ثكلتك الثواكل ، دعاء عليه .

(٩) ثنى على الغى عطفه : أخذه الغرور .

(١٠) تورد الشىء : سعى إليه .

(١١) الفيئة : الرجوع .

(١٢) الأود : الأعوجاج .

(١٣) تقلدت : حملت .

بك ، والعساكرَ بحمد الله قد أتتْك كالسَّيْل فى الَّليل ، تُؤْذِنُك[١٤] بحرب وبِويْل ؛ فإنَّا نُقْسِم : ونرجُو أن لا نَجُورَ ونَظْلِم ، أن لانَنْثِى عنك عِنَانا[١٥] ، ولا نُؤْثِرَ على شانِك شَانا[١٦] ، ولا تتوقَّلَ[١٧] ذِرْوةَ جبل ، ولا تَلِجَ بطن واد ، إلا جعلْناك بحول الله وقُوته فيهما[١٨] ، وطلبناك حيثُ أَمَّمْت منهما ، مُنْفقين فيك كُلَّ مال خطير ، ومستصغرين بسببك كلَّ خَطْب[١٩] جليل ، حتَّى تَسْتَمِرَّ[٢٠] من طَعْم العيش ما استحْلَيْت ، وتستَدْفِع من البَلَايا ما استدْعَيْت ، حين لا دافِعَ بحول اللهِ عنك ، ولا مُزَحْزِحَ لنا عن ساحتِك ، وتَعْرِفَ من قَدْر الرَّخاء ما جَهِلت ، وتودَّ أنك هُبِلْتَ[٢١] ولم تكُنْ بالمعصية عَجِلْت : ولا رَأَىَ مَنْ أضلَّك مِنَ غُواتِك قَبِلْت ؛ فحينَئِذ يتفرَّى[٢٢] لك الليلُ عن صُبْحه ، ويُسْفِر لك الحقُّ عن مَحْضِه[٢٣] ، فتَنْظُر بعينين لاغِشاوةَ عليهما ، وتَسْمَع بأذنين لا وقْرَ[٢٤] فيهما ، وتعْلَم أنك كنت متَمسِّكاً بحبائل غَرَور ، مُتماديِاً فى مَقَابح أُمور : من عُقُوق لاينامُ طالِبُه ،

---

(١٤) تؤْذنك بحرب : تعلن الحرب عليك .

(١٥) نثنى عنك عنانا ـ تنصرف عنك .

(١٦) لا نؤثر على شأنك شأنا : لا نهتم لأمر دون أمرك .

(١٧) تتوقل : تصعد

(١٨) جعلناك . . . فيهما : لعله يعنى حاصرناك فيهما .

(١٩) الخطب : الأمر الخطير .

(٢٠) تستمر : تشعر بمرارة .

(٢١) هبلت : لمتت .

(٢٢) يتفرى : ينكشف .

(٢٣) الحق المحض : الحق الصرف والصراح .

(٢٤) الوقر : الصمم .

وبَغْى لا يَنْجُو هارِبُه ، وغَدْر لايَنْتعِش صَرِيعه ، وكُفْران لا يودَى قتيلُه[٢٥] ، وتَقِفَ على سَوءِ رَوِيَّتك[٢٦] ، وعِظَم جَرِيرتَك[٢٧] ، فى تَرْكِك قَبولَ الأَمان إذْ هو لك مبذُل ، وأنت عليه محمول ؛ وإذِ السيفُ عنك مَغْمُود ، وبابُ التوبة إليك مَفتُوح ؛ وتتلهَّف والتَّلَهُّفُ غيرُ نا فِعك ، إلا أن تكون أجبتَ إليه مُسْرعاً وأنقذتَ إليه مُنْتَصِحاً[٢٨] .

وإنَّ مما زاد فى ذنوبك عندى ماورد به كتابُك علَيّ بعد نفُوذى على الفُسْطاط من التَّمْويهات والأَعاليل[٢٩] ، والعِدَات بالأَباطيل ؛ من مَصِيرك – بزَعْمِك – إلى إصلاح ما ذكرت أنه فَسَد علىّ ؛ حتَّى مِلْتَ إلى الإسكندرية ، فأَقمتَ بها طُولَ هذه المدة . واستظهارًا عليك بالحُجَّة وقطعاً لمن عسى أن يتَعلَّق به معذرة علم بأَن الأَناة[٣٠] غير صادة ، ولا أنه خالَجَنى شكٌّ ولا عارضنى رَيْب فى أنك إنما أردْتَ النُزُوح[٣١] والاحتيال للهَرَب ، والنُزوع إلى بعض المواضع التى لعلَّ قصْدَك إيَّاها يُوديك[٣٢] ، ولعل مَصِيرَك إليها يَكْفِينيك ، ويُبَلِّغ إلىّ أكثرَ من الإرادة فيك ؛لأَنك إن شاء اللهُ لاتقْصِدُ موضعاً إلا تدَوِّنك[٣٣] ،ولا تأْتى

(٢٥) لا يودى قتيله : لا تكون له دية .

(٢٦) الروية : التدبر والتفكير .

(٢٧) الجريرة : الذنب .

(٢٨) منتصحا : آخذا بالنصيحة .

(٢٩) الأعاليل : ما يتعلل به الإنسان .

(٣٠) الأناة : التمهل .

(٣١) التروح : الابتعاد أو الانتقال إلى مكان آخر بعيد .

(٣٢) يوديك : يهلكك .

(٣٣) يكفينيك : يكفينى ما أريد أن ألحقه بك .

بلدًا إلا قفوتك[٣٤] ، ولا تلوذ بعصمة تظن أنها تنجيك إلا استعنت بالله عز وجل فى جدّ حبلها[٣٥] ، وفصم عروتها ، فإنّ أحدًا لا يؤوى مثلك ولا ينصره إلا لأحد أمرين من دين أو دنيا . فأما الدين فأنت خارج من جملته ، لمقامك على العقوق ، ومخالفة ربك وإسخاطه ؛ وأما الدنيا فما أراه بقى معك من الحطام الذى سرقته[٣٦] وحملت نفسك على الإيثار به ، ما يتهيأ لك مكاثرتنا[٣٧] بمثله ، مع ماوهب الله لنا من جزيل النعمة التى نستودعه تبارك وتعالى إياها ، ونرغب إليه فى إنمائها ، إلى ما أنت مقيم عليه من البغى الذى هو صارعك ، والعقوق الذى هو طالبك .

وأما ما منيتناه من مصيرك إلينا فى حشودك وجموعك ومن دخل فى طاعتك ، لإصلاح عملنا ، ومكافحة أعدائنا ، بأمر أظهروا فيه الشماتة بنا ، فما كان إلا بسببك . فأصلح أيها الصبى الأخرق أمر نفسك قبل إصلاحك عملنا ، وأحزم[٣٨] فى أمرك قبل استعمالك الحزم لنا ؛ فما أحوجنا الله — وله الحمد — إلى نصرتك ومؤازرتك ، ولا اضطررنا إلى التكثر بك على شقاقك ومعصيتك : « وما كنتُ متخذ المضلين عضدًا » .

---

(٣٤) تقفوتك : اقتفيت أثرك .

(٣٥) جد الحبل : قطعه .

(٣٦) الحطام الذى سرقته : المتاع والأموال التى سرقتها من خزينة الدولة .

(٣٧) مكاثرتنا : ادعاؤك أنك تملك أكثر مما نملك .

(٣٨) احزم فى أمرك : كن حازما مع نفسك .

وليت شِعْرى علىٰ مَنْ تُهوِّل بالجُنُود ، وتَمَخْرِقُ[٣٩] بذكر الجيوش؟ ومَنْ هؤُلاءِ المسخَّرُون لك ، الباذلون دِماءَهم و أمْوالَهُمْ وأديانهم دُونك دون رِزْق ترزقهم إيَّاه ، ولا عطاء تدِرُّه . عليهم ؟ فقد علمت – إن كانَ لك تمييز ، أو عندك تَحْصيل – كيف كانتْ حالك فى الوقعة التى كانتْ بناحية أَطْرابُلُس[٤٠] ، وكيف خَذَلك أو لياؤك والمرتَزِقة معك حتى هُزِمت فكيف تغتَرُّ بمَنْ معك من الجنود الذى لا اسم لهم معك ، ولا رِزق يجرى لهم علىٰ يَدِك ؟ فإن كان يَدْعُوهم إلىٰ نصْرتك هَيْبتُك والمداراة لك والخوفُ من سلطانك ، فإنهم لَيجْذِبُهمْ أضعاف ذلك مِنَّا ؛ ووجودُهم من البَذْل الكثير والعطاءِ الجزيل عندنا مالا يجِدُونه عندك ؛ وإنهم الأَحْرَى بخَذْلك ، والميل إلينا دُونَك . ولو كانُوا جميعاً معك ومقيمين علىٰ نُصْرتك ، لرجَوْنا أن يُمَكِّن اللهُ منك ومنهم ، ويجعلَ دائرةَ السَّوْء[٤١] عليك وعليهم ، ويُجْرينَا من عادته فى النَّصْر وإعراز الأَمر علىٰ مالم يَزَل يتفضَّلَ علينا بأَمثاله ، ويتطوَّلُ بأَشباهه ، فما دعانى إلىٰ الإرجاء لك[٤٢] والتسهيل من خِنَاقك[٤٣] ، والإطالة من عِنَانك ، طُولَ هذه المدة ،

---

(٣٩) تمخرق : تموه .

(٤٠) أطرابلس : هى طرابلس .

(٤١) دائرة السوء : الخذلان والبوار .

(٤٢) أرجأ له فى الأمر : يسر عليه فيه .

(٤٣) الخناق : الحبل يلف حول الرقبة للخنق .

إلا أمران : أغلبُهما كان عليّ احتقارُ أمرك واستصغاره ، وقلةُ الاحتفال والاكتراثِ به ، وإني اقتصرت من عقُوبتك على ما أخلقته[٤٤] بنفسك من الإباق[٤٥] إلى أقاصي بلاد المَغرب شريدا عن منزلك وبلدك ، فريدًا من أهلك وولدك ، والاخر أني علمتُ أن الوحْشة دعَتك إلى الانحياز إلى حيثُ انحزت إليه ، فأردتُ التمكينَ من نِفارك[٤٦] ، والطمأنينةَ من جَأشك[٤٧] ، وعمِلتُ على أنك تَحِنُّ إلينا حَنِينَ الوَلَد ، وتَتُوق إلى قُرْبنا تَوقانَ ذي الرَّحِم والنَّسَب ، فإن في رِفْقنا بك مايَعْطِفُك[٤٨] إلينا ، وفي تآخينا[٤٩] إيّاك ما يردُّك علينا . ولم يَسْمَع منا سامع في خَلاَء ولا مَلا انتقاصاً بك ، ولا غَضًّا منك ، ولا قَدْحاً[٥٠] فيك ؛ رِقّة عليك ، واستبقاء للسيّد عندك[٥١] ، وتأميلا لأن تكونَ الراجعَ من تِلْقاء نَفْسك ، والمُوَفَّقَ بذلك لرُشْدك وحظك . فأما الآن — مع اضطرارك إياي إلى ما اضطرَرْتني إليه من الانزِعاج نحوك ، وحَبْسِك رُسُلي النافذين

(٤٤) أخلقته بنفسك : اخترته لنفسك .

(٤٥) الإباق : الهروب .

(٤٦) نفارك : اضطرابك وتشتت نفسك .

(٤٧) الجأش : اضطراب القلب عند الفزع .

(٤٨) يعطفك علينا : يجذبك إلينا .

(٤٩) تآخينا إياك : اتخاذنا إياك أخالنا .

(٥٠) القدح : الذم .

(٥١) السيد عندك : لفضلنا عليك .

بعهد كثير إلى ما قِبَلك، واستعمالك المُواربةَ والخِدَاع فيما يجرى عليه تدبيرك – فما أنت بموضع للصِّيانه، ولا أهل للابقاء والمحافظة، بل اللعنةُ عليك حالَة، والذِّمة منك بريَّة، والله طالبُك ومُؤاخذك بما استعملتَ من العُقُوق والقطيعة، والإضاعة لرَحِم الأُبوَّة، فعليك من وَلَد عاقٍّ شاقٍّ[٥٢] لعنةُ الله ولعنة اللاعنين، والملائكةِ والناسِ أجمعين، ولاقَبِل اللهَ لك صَرْفاً ولا عَدْلاً[٥٣]، ولا تركَ لكَ مُنْقلَبا ترجع إليه، وخذَلك خِذْلانَ من لا يُؤْبَه له[٥٤]، وأثْكَلك ولا أمهلك، ولا حاطك ولا حَفِظك. فوالله لأَستعمِلَن لَعْنك فى دُبُر كلِّ صلاة، والدعاء عليك فى آناء[٥٥] الليل والنهار، والغُدُوّ والآصال، ولأكتبَن إلىٰ مِصْر، وأجناد الشامات والثُّغور، وقِنّسرينَ، والعَواصِم، والجَزِيرة، والحجاز، ومكَّةَ، والمدينةِ تُقْرأ علىٰ مَنَابِرِها فيك، باللَّعْن لك، والبراءةِ منك، والدلالة علىٰ عُقُوقك وقَطِيعتك، يتناقَلُها آخِرٌ عن أول، ويَأْثُرُها غابِرٌ عن[٥٦] ماضٍ، وتُخلَّد فى بطون الصحائف، وتحمِلها الرُّكبان[٥٧]، ويُتحدَّث

---

(٥٢) شاق : يقال شق فلان عصا الطاعة ، أى تمرد .

(٥٣) الصرف : التوبة . العدل : الفدية .

(٥٤) لا يؤبه له : لا يستحق الاهتمام به .

(٥٥) آناء : أوقات .

(٥٦) يأثرها غابر : يرويها حاضر .

(٥٧) الركبان : جمع ركب . والركب هم المسافرون على الإبل خاصة .

بها فى الآفاق ، وتُلْحِق بك وبأعقابك عارًا ما اطَّرد اللّيلُ والنهار ، واختَلَف الظَّلامُ والأَنوار .

فحينئذ تعْلَم أيُّهَا المخالفُ أمرَ أبيه ، القاطعُ رحِمَه ، العاصى ربَّه ، أىَّ جناية على نَفْسك جنيت ، وأىَّ كبيرة (٥٨) اقترفت واجتنيت وتَمَنَّى — لو كانتْ فيك مُسْكة (٥٩) ، أو فيك فَضْل إنسانِيَّة — أنك لم تكُنْ وُلِدت ، ولا فى الخلق عُرِفْت ؛ إلا أن تُرَاجِع من طاعتنا ، والإسراع إلىٰ ما قِبَلَنا ، خاضعاً ذليلا كما يلزمك ، فنُقِيمَ الاستغفارَ مُقَام اللعنة ، والرقَّة مقامَ الغِلْظة ؛ والسَّلامُ على من سَمِع الموعظة فوعَاهَا ، وذكر الله فاتَّقاه ، إن شاء الله تعالى .

***

(٥٨) الكبيرة : الإثم العظيم .

(٥٩) مسكة : ما يكفى لسد جوع المرء .

وكتب ابن عبد كان على لسان أحمد بن طولون رسالة عهد بقضاء برقة يقول فيها :

إنَّ أحقَّ مَنْ آثرَ الحقَّ وعمِل به ، وراقَبَ اللهَ فى سِرِّ أمره وجَهْره ، واحْتَرَس من الزَّيغ[(١)] والزَّلَل فى قوله وفعله ، وعمل لمَعَاده ورجْعتِه[(٢)] ، إلى دار فاقتِه وفقْره[(٣)] ومسكنته ، مَنْ جُعِل بين المسلمين حاكما ، وفى أمورهم ناظرًا ، فأراق الدماءَ وحقَنها[(٤)] ، وأحَلَّ الفروجَ وحَرَّمها ، وأعطى الحُقُوقَ وأخذَها ؛ ومَنْ علم أنَّ الله تبارك وتعالى سائلُه عن مِثْقال الذَّرَّة من عمله ، وأنه إنما يتقلَّب فى قَبْضتِه ، أيام مُدَّته ، ثم يخرج من دُنياه كخروجه من بطن أُمِّه ، إما سعيدًا بعَمَله ، وإما شقيا بسعْيِه .

وإنَّا لِمَا وَقَفْنا عليه من سَديد مَذْهَبك ، وقويم طَرِيقتك ، وجميل هَدْيك وحُسْن سِيرتِك ؛ ورجَوْناه فيك ، وقرَّرناه عندك ، من سُلُوك الطريقة المُثلى ، واقتفاءِ آثار أئمةِ الهُدَى ، والعمل بالحق لا بالهوى — رأينا تقليدَك[(٥)] القضاءَ بينَ أهل ثَغْر[(٦)] بَرْقَةَ ، وأمرناك بتقْوى الله الذى لا يُعجِزُه من طَلَب ، ولا يفُوته من هَرَب ، وبطاعته التى مَنْ آثرَها

---

(١) الزيغ : الميل مع الهوى والبعد عن الطريق المستقيم .
(٢) المعاد : يوم القيامة . والرجعة : الرجوع إلى الحياة يوم القيامة .
(٣) الفاقة : الحاجة والفقر
(٤) أراق الدماء : سفكها ؛ وحقن الدماء : حال دون سفكها .
(٥) تقليدك القضاء : تنصيبك قاضيا .
(٦) الثغر : مدينة على الحدود .

سعيد ، ومن عمل بها حُمِد ، ومن لزمها نجا ، ومن فارقها هَوى ، وأن تُواصل الجلوسَ لمن بِحَضْرتك من الخُصوم ، صابراً بنفسك على تنازُعهم فى الحقوق ، وتدافُعِهم فى الأُمور ؛ غيرَ بَرِم [(٧)] بالمراجَعات ، ولا ضجِر بالمُحاكمات ؛ فإنَّ من حاوَلَ إصابةَ فصل القضاء ، وموافقةَ حقيقةِ الحكم بغير مادّة من حِلْم ، ولا معونة من صبر ، ولا سُهْمَة من كَظْم [(٨)] ، لم يكُن خليقاً بالظَّفَر بهما ، ولا حقيقاً بالدَّرْكِ [(٩)] لهما ، وأن تَقْسمَ بينَ الخَصْمين إذا تقدّما إليك ، وجلسا بينَ يدَيك ، فى لَحْظك [(١٠)] ولَفْظك ، وتُوَفِّىَ كلَّ واحد منهما قِسْمه من إنصافك وعَدْلك ، حتَّى ييْأس القوىُّ من مَيْلك ، ويأْمَنَ الضعيفُ من حَيْفك [(١١)] : فإنَّ فى إقبالك بنَظَرك وإصغائك بسمعك إلى أحد الخصمين دُونَ صاحبه ما أضلَّ الآخَر عن حُجّته ، وأدخل الحَيرةَ على فكره ورَوِيَّته ؛ وأن تحضِر مجلسَ قضائِك من يُستظْهَرَ [(١٢)] برأيه ، ومَنْ يَرْجِع إلى دين وحجاً [(١٣)] وتقًى : فإن أَصبْتَ أيَّدك ، وإن نَسِيت ذَكَّرك ؛ وأن تقتدىَ فى كل ما تعْمل فيه رَويَّتك [(١٤)] ، وتمضى عليه حكْمَك وقضِيَّتك ، بكتاب الله الذى جعله صِراطًا مستقيمًا ، ونورًا مستبينًا ؛ فَشَرَعَ فيه أحكامَه ،

(٧) البرم : السأم والضجر .
(٨) السهمة : الحظ والنصيب . والكظم : ضبط النفس .
(٩) الدرك : الإدراك كالنيل .
(١٠) اللحظ : النظر بمؤخر العين من الجانبين .
(١١) الحيف : الظلم .
(١٢) يستظهر برأيه : يستعان به .
(١٣) الحجا : العقل الراجح.
(١٤) الروية : التفكير والتدبر فى الأمور .

وبيَّن حلالَه وحرامَه ، وأوضح به مشكلاتِ الأُمور ، فهو شفاءٌ لما فى الصُّدور . وما لم يكن فى كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ نَصُّه فانَّ فيما يُؤثَر عن النبىِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم حُكْمه ؛ وما لم يكن فى حديث رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم اقتفيْتَ فيه سبيل السَّلَف الصَّالح من أئمة الهدى رضى الله عنهم ، الذين لم يألوا [(١٥)] الناس اختبارًا ، ولاادَّخَرُوهم نصيحة واجتهادًا عالماً أنَّك أسعدُ بالعدل ممَّن تَعْدل عليه ، وأحظَى بإصابة الحق ممَّن تصيبه فيه . لما تتعجَّله من جميل أحدوثته [(١٦)] وذِكْره ، ويُذْخَر [(١٧)] لك من عظيم ثوابِه وأجره ، ويُصْرَف عنك من حُوب [(١٨)] ما تَتَقَلَّده ووزره ، وأنيكون الذين تحكم بشهادتهم من أهلِ الثقة فى أديانهم ، والمعروفينَ بالأمانة فى مُعامَلاتِهم ، والمَوْسُومين [(١٩)] بالصدْق فى مَقَالاتهم ، والمشهورين بالتقَدُّم فى عَدَالاتهم ؛ فانك جاعلهم بينَ الله وبينَك فى كل كلامٍ تصْدِره ، وحكمٍ تبْرمه ؛ وحقيقٌ بأن لاترضَى لنفسك منهم إلَّا بما يُرضى منك ، وتَعْلَمُ أنَّ ذلك هو الصدْقُ ، وأنَّكَ قد أبليتَ [(٢٠)] عُذرَك فى تَخَيُّرهم ، فانه يعلم أن ذلك هو الصدقُ من نِيَّتك ، والصحة من يقينك ، تحسُن عليه معونَتك ، ويحضُرك التوفيقُ فى جميع أقضيتك ؛ وأن يكونَ من تستعينُ به على المسألة عن أحوال هؤلاءِ الشهودِ ومذاهبِهم ، وما يُعرَفون

---

(١٥) يألو : يدخر .
(١٦) الأحدوثة : ما يتحدث به .
(١٧) يذخر : يجمع .
(١٨) الحوب : الوزر والإثم .
(١٩) الموسومين : المعروفين والمشهورين .
(٢٠) أبليت : اجتهدت .

به وينتسبون إليه في رحالهم ومساكنهم ، أهلَ الورع والأمانة ، والصدق والصيانة ؛ وأن تجدد المسألة[٢١] عنهم في كل مرة ، وتفحص عن خبرهم في كل قضية ؛ ثم لا يمنعك وقوفك على سقوط عدالة من تقدمت بتعديله من استقبال الواجب في مثله ، واستعمال الحق في أمره ؛ وأن تشرف على أعوانك وأصحابك ، ومن تجرى أمورك على يديه من خلفائك ، وأسبابك ، إشرافاً يمنعهم من الظلم للرعية ، ويقبض أيديهم عن المآكل الرَّدِيَّة[٢٢] ، ويدعوهم إلى تقويم أوَدِهم[٢٣] ، وإصلاح فاسدهم ، ويزيد في بصيرة ذوي الثقة والأمانة منهم ؛ فمن وقفت منه على امتثال لمذهبك وقبول لأدبك ، واقتصار فيما يتقلده[٢٤] لك ، أقررته وأحسنت مكافأته ومثوبته ، ومن شممت منه حيفاً في حكمه ، وتعدياً في سيرته ، وبسطاً ليده إلى ما لا يجب له ، تقدمت في صرفه ، وألزمته في ذلك ما يلزمه ؛ وأن تختار لكتابتك من تعرف سداد مذهبه ، واستقلاله بما يتقلده ، وإيثاراً لنرس (؟) من صحته ، ومن تقدر عنده تقدماً في نصيحتك فيما يجري على يديه ، وتوخياً لصدقك فيما يحضره وتغيب عن مشاهدته فإنك تأمنه من أمر حكمك على ما لا يؤتمن على مثله إلا الأمين ، وتفوض إليه من حجج الخصوم المرفوعين إليك ما لا يفوض إلا لذي العفاف والدين

---

(٢١) المسألة : السؤال .

(٢٢) الردية : الرديئة ، أي التي أخذت بغير حق .

(٢٣) الأود : الأعوجاج .

(٢٤) يتقلده : يتولاه .

وأن تتفقد مع ذلك أمره ، وتتصفح عمله ، وتشرف على ما تحت يديه مما يؤديك(٢٥) إلى إحكامه وضبطه ، ويؤمنك من وقوع خلل فيه ؛ وأن تختار لحجابتك(٢٦) من لا يتجهم الخصوم(٢٧) ، ولا يختص بعضها دون بعض بالوصول ؛ وتوعز إليه فى بسط الوجه(٢٨) ، ولين الكنف(٢٩) ، وحسن اللفظ ، ورفع المئونة(٣٠) ، وكف الأذى(٣١) .

فتقلد ما قلدناك من ذلك ، عاملا بما يحق عليك لله عز وجل ذكره ، ومستعينا به فى أمرك كله : فإنا قلدناك جسيما(٣٢) ، وحملناك عظيما ، وتبرأنا إليك من وزره وإصره(٣٣) ، واعتمدنا عليك فى توخى الحق(٣٤) وإصابته ، وبسط العدل وإفاضته(٣٥) ؛ واقبض لأرزاقك وأرزاق كتابك

(٢٥) يؤديك : يصل بك .

(٢٦) حجابتك : من يقف حاجبا ببابك .

(٢٧) يتجهم الخصوم : يقابلهم بوجه عابس .

(٢٨) بسط الوجه : البشاشة .

(٢٩) الكنف : الجانب .

(٣٠) المؤونة : القوت .

(٣١) كف الأذى : دفعه .

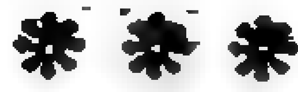
(٣٢) جسيما : أمرا خطيرا .

(٣٣) الإصر : الحمل الثقيل ، والمقصود هنا الذنب العظيم .

(٣٤) توخى الحق : القصد إليه .

(٣٥) إفاضته : نشره ومد ظلاله .

وأعوانك ومن يحجُبُك ولثمن قراطيسك وسائر مُؤنك في كل شهر أربعين دينارًا ، فقد كتبْنا إلى عامل الخَرَاج بإزاحة[٣٦] ذلك ، أوقات استحقاقك إياه ووجوبه لك ، وإلى عامل المدينة بالشد على يَدك[٣٧] ، والتقوية لأمْرك ؛ وضمّ العِدّة[٣٨] التى كانت تضم إلى القضاة من الأولياء إليك ، وهما فاعلان ذلك إن شاء الله تعالى .



(٣٦) الإزاحة : الإبعاد : ولا معنى للازاحة هنا إلا أن يكون المقصود تخصيص هذا المبلغ من بيت المال .

(٣٧) الشد على يدك : مؤازرتك ومعاونتك .

(٣٨) العدة : الجماعة .

ابن قتيبــة الدينورى

(ت ٢٧٦ هـ)

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة . ولد بالكوفة ، ولقب بالدينورى لأنه كان قاضى الدينور مدة . أخذ العلم عن إسحاق بن راهويه ، وأبى حاتم السجستانى وروى عنه ابن درستويه وغيره .

قال عنه ابن النديم فى الفهرست (١٢١) : « وكان صادقاً فيما يرويه عالماً باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه ، كثير التصنيف والتأليف » .

أما الأزهرى ، فيقول عنه فى تهذيب اللغة (٣١/١) : « وما رأيت أحداً يدفعه عن الصدق فيما يرويه عن أبى حاتم السجستانى ، والعباس ابن الفرج الرياشى ، وأبى سعيد المكفوف . فأما ما يستبد فيه برأيه من معنى غامض أو حرف من علل التصريف والنحو مشكل ، أو حرف غريب ، فإنه ربما زل فيما لا يخفى على من له أدنى معرفة » .

وقد توفى ابن قتيبة رحمه الله فى أول ليلة من رجب سنة ٢٧٦ هـ .

* * *

من كتاب (تأويل مشكل القرآن)

باب ذكر العرب وماخصّهم الله به
من العارضة والبيان واتساع المجاز

وإنما يَعْرف فضلَ القرآن مَنْ كثرُ نظرُهُ ، واتسع علمه ، وفهِمَ مذاهب العرب وافتنانَها فى الأساليب ، وماخصَّ الله به لغتها دون جميع اللغات ، فإنه ليس فى جميع الأمم أمةٌ أُوتِيتْ من العارضة ، والبيان ، واتسَاعَ المجال ، ما أُوتيَتْه العرب خِصيصَى من الله لما أرهصه فى الرسول ، وأراده من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب ، فجعله عَلَمَه كما جعل عَلَمَ كل نبي من المرسلين من أشبه الأُمور بما فى زمانه المبعوث فيه .

فكان لموسى فلْقُ البحر ، واليد ، والعصا ، وتفجُّر الحَجَر فى التيه بالماء الروَاء إلى سائر أعلامه زمن السحر .

وكان لعيسى إحياءُ الموتى ، وخَلْقُ الطير من الطين ، وإبراءُ الأكمه والأبرص ، إلى سائر أعلامه زمن الطب .

وكان لمحمد صلى الله عليه وسلم الكتابُ الذى لو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله لم يأتوا به ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا . إلى سائر أعلامه زمن البيان.

فالخطيب من العرب إذا ارتجل كلاماً فى نكاح أو حَمَالَة ، أو تحضِيض أو صلح أو ما أشبه ذلك ، لم يأتِ من وَاد واحد بل

يَفْتَنّ فيختصر تارةً إرادة التخفيف ، ويُطيل تارةً إرادة الافهام ، ويكرّر تارةً إرادةَ التوكيد ، ويُخفِى بعضَ معانيه حتى يغمض على أكثر السامعين ، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجميين ، ويشير إلى الشئ ويَكْنِى عَنِ الشئ . وتكون عنايَتُهُ بالكلام على حسب الحال ، وقدر الحفل ، وكثرة الحشد ، وجلالة المقام .

ثم لا يأتى بالكلام كله مهذّباً كل التهذيب ، ومصفًّى كلَّ التصفية بل تجده يمزُج ويشوب ، ليدل بالناقص على الوافر ، وبالغث على السمين ، ولو جعله كله نَجْرًا واحدًا لبخسه بهاءه ، ومَسلَبه ماءه .

ومثل ذلك الشهاب من القبس تبرزه للشعاع ، والكوكبان يفترنان فينقص النوران ، والسخَابُ يُنظم بالياقوت والمرجان والعقيق والعِقيان ، ولا يجعل كله جنساً واحدًا من الرّفيع الثمين ولا النفيس المصون ... (ص ١٠ ، ١١) .

. . . .

وللعرب المجازات فى الكلام ، ومعناها طرق القوْل ومأخذه . ففيها الاستعارة والتَّمْثيل والقَلْب ، والتَّقْديم ، والتَّأْخير والحَذف والتَّكْرار والاخفاء والاظهار والتَّعْرِيض والإفصاح والكناية والإيضاح ، ومخاطبة الواحد مخاطبةَ الجميع ، والجميع خطاب الواحد ، والواحِدِ والجميع خطابَ الاثنين ، والقصدَ بلفظ الخصوص لمعنَى العموم وبلفظ العموم لمعنَى الخصوص ، مع أشياء كثيرة ستَراها فى أبواب المجاز ، إن شاء الله تعالى .

وبكل هذه المذاهب نَزَل القرآن ، ولذلك لا يَقْدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شىء من الألسنة كما نقل الانجيل عن السريانية إلى الحبشيّة والرومية وترجمت التوراة والزبور ، وسائر كتب الله تعالى بالعربية ، لأن العجم لم تتسع فى المجاز اتساع العرب .

ألا ترى أنك لو أردتَ أن تنقل قوله تعالى : (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خيانَةً فانْبذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَواءٍ) لم تستطعْ أن تـأتىَ بهذه الألفاظِ مُؤدية عن المعنى الذى أُودِعَتْه حتى تَبْسُطَ مجموعَها ، وتَصِلَ مقطوعها ، وتظهر مَسْتُورَها فتقول : إن كانَ بينك وبين قوم ٍ هدنةٌ وعهد فخفتَ منهم خيانةً ونقضاً فأَعْلِمْهم أنك قد نَقَضْتَ ما شرطْت لهم ، وآذنهم بالحرب ، لتكون أنت وهم فى العلم بالنقض على استواء .

وكذلك قوله تعالى : (فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانهمْ فِى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا) إن أردتَ أن تنقلَهُ بلفظه لم يفهمْهُ المنقولُ إليه ، فإن قلت : أَنَمْنَاهُم سنين عددًا لكنت مترْجماً للمعنى دون اللفظ .

وكذلك قوله (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِم لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وعُمْيَانًا) إن ترجمته بمثل لفظه استغلق ، وإن قلت : لم يَتَغَافَلوا أَدَّيْتَ المعنى بلفظ آخر .

وقد اعترض كتابَ الله بالطعن ملحدون ولغَوْا فيه وهجروا ، واتّبعوا (مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ) بأفهام كليلة ، وأبصار عليلة ونظر مدخول فحرفوا الكلام عن مواضِعه ، وعَدَلوه عن سبله .

ثم قَضَوْا عليه بالتناقض والاستحالة فى اللّحن وفسادِ النَّظْم ، والاختلاف .

وادْلَوا فى ذلك بعلَل ربما أمالت الضعيفَ الغمَر ، والحَدَثَ الغر ، واعترضت بالشّبه فى القلوب ، وقدحَتْ بالشكوك فى الصدور .

* * *

ومن كتابه : الشعر والشعراء

قال أبو محمد عبدُ الله بن مُسْلِم بن قتيبة :

١ـ هذا كتاب أَلَّفته فى الشعراء ، أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم ، وأحوالهم فى أشعارهم ، وقبائلهم ، وأسماء آبائهم ، ومَن كان يُعْرف باللقب أو بالكنية منهم . وعمّا يُستحسنُ من أخبار الرجل ، ويُستجادُ من شعره ، وما أخَذَتْهُ العلماءُ عليهم من الغلط والخطاء[1] فى ألفاظهم أو معانيهم ، وما سَبَقَ إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخّرون ؛ وأخبرت (فيه) عن أقسام الشعر وطبقاته ، وعن الوجوه التى يُختار الشعرُ عليها ويُستحسن لها . إلى غير ذلك مما قدَّمته فى هذا الجزء الأوَّل .

٢ ـ قال أبو محمد : وكان أكثرُ قصدى للمشهورين من الشعراء ، الذين يعرفهم جُلُّ أهل الأدب ، والذين يَقَعُ الاحتجاجُ بأشعارهم فى الغريب ، وفى النحو ، وفى كتاب الله عزّ وجلّ ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣ ـ فأمّا مَن خَفِيَ اسمُه ، وقلَّ ذكرُه ، وكَسَدَ شعرُه ، وكان لا يعرفه إلّا بعض الخوَاصّ ، فما أقلَّ مَن ذكرت من هذه الطبقة . إذ كنت لا أعرف منهم إلاّ القليلَ ، ولا أعرف لذلك القليل أيضًا أخبارًا ، وإذْ كنت

(١) الخطاء : الخطأ .

أَعلمُ أَنَّه لاحاجةَ بك إلى أن أُسَمِّىَ لك أَسماءً لاأَدُلُّ عليها بخبر أَو زمان ، أَو نسب أَو نادرة ، أَو بيت يُستجادُ ، أَو يُستغرب .

٤ – ولعلَّكَ تظنُّ – رحمك الله – أَنَّه يجبُ على من أَلَّفَ مثلَ كتابنا هذا أَلَّا يدَعَ شاعرًا قديماً ولا حديثاً إلَّا ذكره ودلَّك عليه ، وتقَدِّرُ أَن يكون الشعراءُ بمنزلةِ رُواةِ الحديثِ والأَخبارِ ، والملوكِ والأَشرافِ ، الذين يَبْلُغُهم الإحصاءُ ، ويَجمعهم العددُ .

٥ – والشعراءُ المعروفون بالشعر عندَعشائرهم وقبائلهم فى الجاهلية والإسلام ، أَكثرُ من أن يُحِيطَ بهم مُحِيط أَو يقف من وراءِ عددِهم واقِفٌ ولو أَنفدَ عُمْرَه فى التنقيير[(١)] عنهم ، واستفرغَ مجهودَه فى البحثِ والسؤالِ . و أَحْسِبُ أَحدً من علمائنا إستغرقَ شعرَ قبيلة حتى لم يَفُتْه من تلك القبيلة شاعرٌ إلا عَرَفَه ، ولاقصيدةٌ إلا رَوَاها .

٦ – حدثنا سَهْلُ بن محمد[(٢)] ، حدثنا الأَصْمعى[(٣)] ، حدثنا كَرْدِينَ بنُ مِسْمَعٍ[(٤)] قال : جاءَ فِتْيَان إلى أَبى ضَمْضَم بعدَ العِشَاءِ ، فقالِ لهم : (ماجاءَ بكم ياخبثاءَ ؟ قالوا : جئناكنتحدث ، قال : كذبتم ،

---

(١) التنقير : البحث فى صبر

(٢) هو أبو حاتم سهل بن محمد السجستانى البصرى . إمام فى غريب القرآن واللغة والشعر أخذ عنأبى عبيدة والأصمعى وأبى زيد والأخفش. وأخذ عنه المبرد وابن دريد . توفى سنة٢٥٥هـ.

(٣) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى . أسد الشعر والغريب والمعانى ، كما وصفه المبرد ، مات سنة ٢١٦ هـ .

(٤) كردين اسمه مسمع بن عبد الملك بنمسمع البصرى . كان إخباريا. روى عنه أبو عبيدة معمر بن المثنى والأصمعى .

و لكنْ قلتم كَبِرَ الشيخ فَتَلَعَّبه[1] ، عسى أن نأخذ عليه سقطةً !!

فأنشدهم لمائةِ شاعرٍ ، وقال مرة أُخرى : لثمانين [شاعرًا] ، كلّهم اسمُه عَمْرو .

٧ - قال الأَصْمَعِيُّ : فعددت أنا وخَلَفٌ (الأَحمرُ)[2] فلم نقدِر على ثلاثين

٨ - فهذا ما حفظه أَبو ضَمْضَم ، ولم يكن بأَرْوى الناسِ ، وما أَقربَ أن يكونَ مَن لا يعرفه من المُسَمِّيْنَ بهذا الاسم أكثرَ ممن عرفه .

٩ - هذا إلى مَن سَقَطَ شعرُه من شعراءِ القبائل : ولمْ يحمله إلينا العلماءُ والنقَلَة .

١٠ - أخبرنا أَبو حاتم حدثنا الأَصْمَعِيُّ قال : كان ثلاثة إخوة من بني سَعْدٍ لم يأتوا الأَمصارَ ، فَذَهَبَ رجَزهم ، يقال لهم مُنْذِرٌ ونُذَيْرٌ ، ومُنْتَذِرٌ ، ويقال إن قصيدةَ رُؤْبةَ التي أَوّلها[3] :

* وقَاتِمِ الأَعْمَاقِ خَاوِي المُخْتَرَق * لِمُنْتَذِر

(١) أي نحاوره ونلعب بعقله .

(٢) هو خلف بن حيان الأحمر . قال ابوعبيدة : «خلف الأحمر معلم الأصمعي ومعلم أهل البصرة» مات في حدود سنة ١٨٠ هـ .

(٣) مطلع أرجوزة طويلة . انظر ديوان رؤبة (أهلورت) ٢ / ١٠٤ - ١٠٨ وأراجيز العرب ٢٢/٣٨ وخزانة الأدب ٣٨/١ - ٤٥

١١ – قال أبو محمد : ولم أعْرِضْ فى كتابى هذا لمن كان غَلَبَ عليه غيرُ الشعر . فقد رأينا بعض مَن ألَّفَ فى هذا الفن كتابًا يذكر فى الشعراء مَن لا يُعْرَفُ بالشعر ولم يُنقَلْ منه إلا الشَّذُّ[(١)] اليسيرَ ، كابن شُبْرُمَةَ القاضى[(٢)] ، وسُلَيْمَانَ بن قَتَةَ التَّيْمِى المحدثِ[(٣)] . ولو قصدْنَا لذكر مثل هؤلاءِ فى الشعر لذكرنا أكثرَ الناس ، لأنَّه قلَّ أحدٌ له أدْنَى مُسْكة من أدب ، وله أدنى حظٍّ من طَبْعٍ ، إلا وقد قال من الشعر شيئا . ولاحتجنا أن نذكر صحابةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجِلَّةَ التابعين وقوما كثيرًا من حَمَلَةِ العلم ، ومن الخلفاءِ والأشرافِ ، ونجعلَهم فى طبقات الشعراء .

١٢ – ولم أسْلكْ ، فيما ذكرته من شعر كلِّ شاعر مختارًا له ، سبيلَ مَن قَلَّد ، أو استَحْسَنَ باستحسانِ غيره . ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر (منهم) بعين الاحتقار لتأخُّره . بل نظرت بعين العدلِ على الفريقين ، وأعطيت كلاًّ حظَّه ، ووفَّرْت عليه حقه .

---

(١) الشذ : مصدر كالشذوذ . والشاذ الوصف .

(٢) هو عبد الله بن شبرمة القاضى الفقية . توفى سنة ١٤٤ هـ .

(٣) هو أول من رثى آل البيت . وانظر : تاريخ الطبرى ٨ / ٢٤٨ والأغانى ١٦٥/١٧

١٣ – فانى رأيت مِن علمائنا مَن يستجيدُ الشعر السخيفَ لتقدُّم قائله ، وَيَضَعهُ فى مُتَخَيَّره ، ويُرْذِلُ الشعرَ الرصينَ ، ولاعيبَ له عنده إلَّا أنَّه قيلَ فى زمانه ، أو أنَّهُ رأَى قائلَه .

١٤ – ولم يَقصُرِ اللهُ العلمَ والشعر والبلاغةَ على زمن دون زمن ، ولاخَصَّ به قومًا دونَ قوم ، بل جَعل ذلك مشتركًا مقسوما بين عبادِه فى كل دهر ، وجَعل كلَّ قديم حديثًا فى عصره ، وكلَّ شرف خارجيَّة(١) فى أوَّله ، فقد كان جَريرٌ والفرَزْدَقُ والأَخْطَلُ وأمثالهم يُعَدُّون مُحْدَثِينَ . وكان أَبو عَمرِو بن العَلاء يقول : لقد كَثر هذا المحدَث وحَسُنَ حتَّى لقد هممت بروايته .

١٥ – ثمَّ صارَ هؤلاء قُدَماءَ عندنا ببُعدِ العهدِ منهم ، وكذلك يكونُ من بعدهم لِمَن بعدَنا ، كالخُرَيميِّ والعَتَّابيِّ والحسن بن هانئ وأشباهِهم . فكلُّ مَن أتى بحسَنٍ من قول أو فعل ذكرناه (له) ، وأثنينا به عليه ، ولم يَضَعْهُ عندنا تأَخُّر قائله أو فاعلِه ، ولاحداثَةُ سِنه . كما أنَّ الردِيءَ إذا ورد علينا للمتقدِّم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرفُ صاحبه ولاتقدُّمُه .

١٦ – وكان حق هذا الكتاب أن أُودِعَه الاخبارَ عن جلالةِ قدر الشعر وعظِم خطره ، وعَمَّنْ رفعه الله بالمديح ، وعمن وَضعه بالهِجَاء وعمَّا أودعته العربُ من الأَخبار النافعة ، والأنساب الصحاح ، والحِكَم المضارِعَةِ(٢)

(١) الخارجى : الذى يخرج ويشرف بنفسه . من غير أن يكون له قديم . ومنه الخارجية وهى خيل لا عرق لها فى الجودة ، فتخرج سوابق ، وهى مع ذلك جياد .

(٢) أى المشابهة .

لحِكَم الفلاسفة ، والعلوم في الخيل، والنجوم وأنوائِها والاهتداءِ بها ، والرياح وما كان منها مبشراً أو جائلا والبروق وما كان منها خلباً أو صادقا ، و لسحابِ وما كان منها جهَاما أو ماطِراً ، وعمَّا يبعث منه البخيلَ على السماحِ ، الجبانَ على اللقاءِ والدَّنِّى على السُّمُوِّ .

١٧– غير أنى رأيت ما ذكرت من ذلك فى كتاب العرب [١] كثيرًا كافيا ، فكرهتُ الاطالة بإعادته . فمَن أَحبَّ أن يعرفَ ذلك ، ليستدلَّ به على حُلْو الشعرِ ومُره . نَظَرَ فى ذلك الكتاب ، إن شاءَ اللهُ تعالى.



(١) هو كتاب : « تفضيل العرب » المذكور فى العقد الفريد ٢/٨٨ وقد وجد الشيخ جمال الدين القاسمى رحمه الله قطعة من أول هذا الكتاب ، فنشرها فى مجلة : « المقتبس» ثم نشرها علامة الشام الأستاذ محمد كرد على فى مجموعة رسائل البلغاء ٢٦٩–٢٩٥ .

ومن كتاب : أدب الكاتب

قال أبو محمد عبدُ الله بنُ مُسْلِمٍ بن قُتَيْبَةَ — رحمه الله تعالى — :

أمّا بعدَ، حمداً لله بجميع محامده، والثناء عليه بما هُوَ أَهْلُهُ، والصلاةِ على نبيه المصطفى وآله، فإني رأيتُ أَكْثَرَ أهلِ زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه مُتَطَيِّرِينَ، ولأهله كارهين: أما النّاشِئ منهم فراغبٌ عن التعليم، والشّادِي تاركٌ للازدياد، والمتأدبُ فى عُنْفُوَان الشباب ناسٍ أو مُتَنَاسٍ، ليدخلَ فى جهلة المجدُودين، ويخرج عن جملة المحدودين[1] العلماءُ مَغْمُورونَ، وبِكَرَّةِ الجهلِ مَقْمُوعُونَ حين خوى نجمُ الخير، وكسدتْ سوقُ البِرِّ، وبارتْ بضائعُ أهله: وصار العِلْمُ عاراً على صاحبه، والفضلُ نقصا: وأموالُ الملُوك وَقْفاً على شهوات النُّفوس، والجاهُ الذى هو زكاة الشرف يُبَاع بيع الخَلَقِ، وآضتِ المُرُوءات فى زخارِف النَّجْد وتشييد البُنْيَان، ولَذَّاتُ النفوس فى اصطِفاق المَزَاهِر[2] ومُعاطاة النَّدْمَان. ونُبِذَتِ الصنائع، وجُهِلَ قَدْرُ المعروف، وماتتِ الخواطر، وسقَطَتْ هِمَمُ النفوس، وزُهِدَ فى لسان الصدق، وعَقْدِ المَلَكوت. فأبعدُ غايات كاتبنا فى كتابته أن يكون حَسَنَ الخط قَويمَ الحروف، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أَبْيَاتًا فى مدح قَيْنَةٍ أو وصفِ كأس: وأرْفَعُ درجات لطيفنا أن يطالع شيئا من تقويم

(١) المجدود : المحظوظ . والمحدود : المحروم .

(٢) يعنى : أصوات العيدان والآت الطرب .

الكواكب ، وينظر فى شيءٍ من القضاء وَحَد المنطق ، ثم يعترض على كتاب الله عزَّ وجلَّ بالطعن وهو لايعرف معناه ، وعلى حديثِ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتكذيب وهو لايدرى مَنْ نَقَلَهُ ، قد رَضِيَ عِوَضًا مِنَ الله تعالى ، ومما عنده بأن يقال : « فلان لطيف » و « فلان دقيق النظر » يذهب إلى لُطْفَ النظر قد أخرجه عن جملة الناس وبلغ به عِلْمَ ما جَهِلوه ؛ فهو يدعوهم الرعاع والغثاء والغثر ، وهو — لعمرُ الله — بهذه الصفات أَوْلى ، وهى به أَلْيَقُ ؛ لانه جَهِل وظَن أنْ قد عَلِمَ ، فهاتان جَهَالتان ؛ ولان هؤلاء جهلوا وعلموا أنَّهم يجهلون . ولو أن هذا المُعْجَب بنفسه ، الزارى على الاسلام برأيه ، نظر من جهة النظر لاحْيَاهُ الله بنورِ الهدى وثَلَج اليقين ، ولكنه طال عليه أن ينظر فى علم الكتاب ، وأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ، وعلوم العرب ولغاتها ، وآدابها ، فَنَصَب لذلك وعَادَاهُ وانحرف عنه إلى علم قد سَلَّمه له ولامثاله المسلمون ، وقلَّ فيه المتناظرون ، له ترجمة تروق بلامعنى ، واسم يهول بلا جسم ؛ فاذا سمع الغمْر[1] والحدَث الغِرُّ قولَه : الكَوْن والفساد ، وسَمْعَ[2] الكيانِ ، والاسماءَ المفردةَ ، والكيفيةَ والكميةَ والزمانَ ، والدليل والاخبارَ المؤلفة ؛ رَاعَهُ ما سمع ، فظنَّ أن تحت هذه الالقاب كلَّ فائدة وكل لطيفة ، فاذا طالعها لم يَحْلَ منها بطائل ، إنَّمَا هو الجوهر يقوم بنفسه ، والعَرَض لايقوم بنفسه ، ورأس الخط النقطة ، والنقطة لاتنقسم ، والكلام أربعة : أمرٌ ، وخبر ، واستخبارٌ ، ورغبةٌ ؛ ثلاثة لايدخلها الصدق والكذب ، وهى : الأمر ، والاستخبار ، والرغبة ،

(١) الغمر : الجاهل (٢) انظر : الاقتضاب ١٧ وشرح الجو البقى ٣٥

وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر ، والآن حد الزمانَيْنِ ، مع هذَيان كثير ، والخبر ينقسم على تسعة آلاف وكذا وكذا مائة من الوجوه فإذا أراد المتكلم أن يستعملَ بعض تلك الوجوه فى كلامه كانت وَبَالًا على لفظه ، وقَيْدًا للسانه ، وعِيا فى المحافل ، وعُقْلَةً(١) عند المتناظرين.

ولقد بلغنى أن قومًا من أصحاب الكلام سألوا محمد بنَ الجَهْم البرمكىَّ أن يذكر لهم مسألة من حد المنطق حسنة لطيفة ، فقال لهم : ما معنى قول الحكيم : « أولُ الفكرة آخرُ العمل ، وأولُ العمل آخر الفكرة » ؟ فسألوه التأويل ، فقال لهم : مثَلُ هذا كمثل رجل قال : « إنى صانع لنفسى كِنًّا » فوقَعَت فكرته على السقف ، ثم انحدر فعلم أن السقف لايقوم إلا على حائط ، وأن الحائط لايقوم إلّا على أُسّ ، وأن الأُس ، لايقوم إلّا على أصل ، ثم ابتدأ فى العمل بالأصل ، ثم بالأُس ، ثم بالحائط ، ثم بالسقف ؛ فكان ابتداءُ تفكره آخرَ عمله وآخرُ عملِهِ بدءَ تَفَكُّرِهِ ؛ قال : فأية منفعةٍ فى هذه المسألة ؟ وهل يجهل أحد هذا حتى يحتاج إلى إخراجه بمثل هذه الألفاظ الهائلة ؟ وهكذا جميع ما فى هذا الكتاب ؛ ولو أن مؤلفَ حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام فى الدين والفقه والفرائض والنحو لعد نفسه من البُكم ، أو يسمعَ كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته لأيقنَ أن للعرب الحكمة وفصلَ الخطاب .

---

(١) فى شرح الجواليقى : « وعقلة أى : حبسه . والعقل فى اللغة الحبس » (ص ٤١) .

فالحمد لله الذى أعاذ الوزير أبا الحَسَن [(١)] من هذه الرذيلة ، وأبَانَه بالفضيلة ، وحَبَاه بخِيم السلف الصالح ، ورداه رِداء الايمان ، وغشاه بنوره ، وجعله هُدًى من الضلالات ، ومصباحًا فى الظُّلمات ، وعَرفه ما اختلفَ فيه المختلفون ، على سُنن الكتاب والسُّنة ؛ فقلوبُ الخيار له مُعْتَلِقةٌ ؛ ونفوسُهم إليه صَبةٌ ، وأيديهم إلى الله فيه مَظان القبول ممتَدةٌ ، وألسنتهم بالدعاء له شافعة : يهجَع ويستيقِظون ، ويغفلُ ولايغفلون ؛ وحَق لمن قام لله مَقَامَهُ ، وصبر على الجهاد صَبْرَهُ ، ونَوَى فيه نِيتَهُ ، أن يُلبسه الله لباس الضمير ، ويُرَديَهُ رداء العمل الصالح ، وَيَصُورَ إليه مختلفات القلوب ، ويُسعده بلسان الصدق فى الاخرين .

فإنى رأيت كثيرًا من كتاب زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدعَةَ واستَوْطَؤُوا مركَبَ العجز ، وَأَعْفَوْا أنفسهم من كد النظروقلوبَهم من تعب التفكر ، حين نالوا الدرك بغير سبب ، وبلغوا البغية بغير آلَةٍ ؛ وَلَعمْرى كان ذلك فأين همة النفسِ ، وأين الأَنَفَة من مُجَانسة البهائم ؟ وأىُّ موقف أخزَى لصاحبه من موقفِ رجلٍ من الكتَّاب [(٢)] اصطفاه بعض الخلفاء [(٣)] لنفسه وارتضاه لسره ، فقرأ عليه يومًا كتابًا وفى الكتاب « ومُطِرْنَا مطرًا كثُرَ عنه الْكَلَأُ » فقال له الخليفة ممتحنا له : وما الكَلَأُ ؟ فترددَ فى الجواب وتعثَّر لسانه ، ثم قال : لاأدرى ؛ فقال : سَلْ عنه ؛

---

(١) فى شرح الجواليقى ٤٤ : « يعنى بالوزير : عبيد الله بن يحيى بن خاقان »

(٢) فى شرح الجواليقى ٥٠ : « هو أحمد بن عمار بن شاذى المذارى ويكنى أبا العباس وكان ولى المعتصم بعد الفضل بن مراون . ولم يكن وزيرا، إنما كان الفضل قد اصطنعه لنفسه

(٣) هو المعتصم .

ومن مقام آخرَ في مِثلِ حاله قرأ[١] على بعض الخلفاء[٢] كتابًا ذكر فيه « حاضرُ طَيِّئٍ » فصحَّفه تصحيفًا أضحك منه الحاضرين[٣] ، ومن قولٍ آخرَ في وصفِ بِرْذَوْنٍ أهداه « وقد بعثت به إليك أبيضَ الظهر والشفتين » . فقيل له لو قلت أَرْثَمَ أَلْمَظَ ، فقال لهم : فبياض الظهر ما هو ؟ قالوا : لا ندري ، قال : فإنَّما جهلتُ من الشفتين ما جهلتم من الظهر ؛ ولقد حضرتُ جماعة من وجوه الكتَّاب العمال العلماء بتحلب الفَيْءِ وقتل النفوس فيه ، وإخراب البلاد ، والتوفير العائد على السلطان بالخسران المبين ، وقد دخل عليهم رجلٌ من النَّخَّاسين ومعه جارية رُدَّت عليه بسنٍّ شاغية زائدة ، فقال : تبرأتُ إليهم من الشَّغَا ، فردُّوها عليَّ بالزيادة ، فكَمْ في فم الإنسان من سن ؟ فما كان فيهم أحد عَرَفَ ذلك ، حتى أدخل رجلٌ منهم سَبَّابته في فِيهِ يَعُدُّ بها عَوَارضه فسال لُعابُهُ ، وضَمَّ رجل فاه وجعل يعدّها بلسانه . فهل يَحْسُن بمن ائتمنه السلطانُ على رعيته وأمواله ورَضِيَ بحكمه ونظره أن يجهل هذا من نفسه ؟ وهل هو في ذلك إلَّا بمنزلة مَن جهل عَدَدَ أصابعه ؟ ولقد جرى في هذا المجلس كلام كثير في ذكر عيوب الرقيق ؛ فما رأيت أحدًا منهم يعرف فَرْقَ ما بين الوَكَعِ والكَوَعِ ، ولا الحَنَفَ من الفَدَعِ ، ولا اللَّمى من اللطع

(١) في شرح الجواليقي ٥١ : « هذا شجاع بن القاسم كاتب أو تامش التركي » .
(٢) هو المستعين بالله .
(٣) جعله : « جاء ضرطي » .

فلمّا رأيتُ هذا الشأنَ كلَّ يوم إلى نُقصانٍ ، وخشيتُ أن يذهب رَسْمُه ويعفُوَ أثره ؛ جعلتُ له حظًّا من عِنايتى ، وجزءًا من تاليفِى ؛ فعَمِلت لمُغفِل التأديب كُتُبا خفافًا فى المعرفة ، وفى تقويم اللسان واليد ؛ يشتمل كلُّ كتاب منها على فن ، وأعفيته من التطويل والتثقيل ؛ لأنشطه لِتَحفُّظِهِ ، ودراسته إن فاءت به همتهُ ، وأقيِّدَ عليه بها ما أضل من المعرفة ، وأستظهرَ له بإعداد الآلة لزمان الإدالة أو لقضاء الوَطَر عند تبيّن فَضل النظر ، وألحقه – مع كَلَال الحدّ ويُبْس الطينة – بالمُرْهَفِين ، وأُدخِله – وهو الكَوْدَن – فى مِضمار العِتاقِ .

وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلق من الانسانية إلا بالجسم ، ومن الكتابة إلا بالاسم ، ولمْ يتقدم من الأداة إلّا بالقلَم والدواة ، ولكنّها لِمَن شَدَا شيئًا من الاعراب ، فعرفَ الصَّدْرَ والمصدرَ ، والحالَ والظرفَ ، وشيئًا من التصاريف والأبنية ، وانقلابَ الياء عن الواو ، والألفِ عن الياء ، وأشباه ذلك .

ولابُدَّ له – مع كتبِنا هذه – من النظر فى الأشكال لِمساحة الأَرَضِين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية ، والمثلث الحادّ ، والمثلثَ المنفرجَ . ومساقِطَ الأَحجار ، والمربَّعات المختلفات ، والقِسِىَّ ، والمدورات ، والعَمودَين ، ويمتحن معرفته بالعمل فى الأَرَضِين لا فى الدفاتر ؛ فإنَّ المُخْبَرَ ليس كالمُعَايِنِ ، وكانت العجم تقول : « من لمْ يكن عالمًا بإجراء المياه ، وحَفْر فُرَضِ المَشارب ، وردْم المهاوى ، ومجارى الأيَّام فى الزيادة والنَّقْص ، ودَوَرَان الشمس ، ومطالع النجوم ، وحالِ القمر

فى استهلاله وأفعاله ، ووزنِ الموازين ، وذَرْعِ المثلث والمربَّع والمختلف الزوايا ، ونَصْبِ القناطر والجُسُور والدَّوَالِى والنَّوَاعير على المياه ، وحال أدوات الصُّنَّاع ودقائق الحساب كان ناقصًا فى حال كتابته » .

ولا بُدَّ له من النظر فى جُمَل الفقه ، ومعرفة أُصوله : من حديث رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وصحابته – عليهم السلام – ، كقوله : البينة على المُدَّعى واليمين على المُدَّعَى عليه ، والْخَرَاجُ بالضمان ، وَجُرْحُ العَجماءِ جُبَارٌ ، ولَا يَغْلَقُ الرهنُ ، والمِنحَةُ مردودة ، والعَارِيَّة مؤداة ، والزَّعيمُ غارِمٌ ، ولَاوصيةَ لوارثٍ ، ولَاقَطْعَ فِى ثَمَرٍ ولَا كَثَرٍ ، ولَا قَوَدَ إلَّا بحَدِيدة ، والمَرْأَة تعَاقِل الرَّجُلَ إلَى ثُلث دِيتِها ، ولَا تعْقِلُ العاقلةُ عَمْدًا ولَاعَبْدًا ولَاصُلْحا ولَااعترافًا ، ولَاطَلَاق فى إغلاق ، وَالبَيْعَانِ بالخِيَار ما لَمْ يَتَفرَّقا ، والجَار أحقُّ بِصَقَبه ، والطلاقُ بالرجال ، والعِدَّة بالنساء وكَنهْيهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلم فى البيوع عن المخابرة وَالمُحَاقَلة وَالمُزَابنة وَالمُعَاومة والثُّنْيا ، وعن ربح مالم يُضْمَنْ ، وعن بيع مالَمْ يُقْبَض وعن بَيْعَتَين فى بَيْعَة ، وعن شَرْطَين فى بيع ، وعن بيع وسَلَف ، وعن بَيْع الغَرَر وبيع المُوَاصَفَة ، وعن الكَالِئ بالكَالِئ ، وعن تلقى الركبان ، وأشباهٌ لهذا كثيرة ، إذا هو حفظها ، وتفهَّم معانيهَا وتدبرَها ؛ أَغْنَتْه بإذن الله تعالى عن كثير من إطالة الفقهاء .

ولَا بُدَّ له – مع ذلك – من دراسة أخبار الناس ، وتَحَفظِ عيون الحديث ؛ ليدخلَهَا فى تضاعيف سطوره مُتَمَثِّلًا إذا كتب ، ويَصِلَ بِهَا كلَامه إذا حَاوَرَ .

وَمَدَارُ الأَمر على القُطب ، وهو العقلُ وَجَوْدة القريحة ؛ فإن القليل معهما بإذن الله كافٍ ، والكثير مع غيرهما مقصِّر .

ونحن نستحبُّ لمَنْ قَبلَ عنَّا وائتمَّ بكتبنا أن يودب نفسه قبل أن يؤدبَ لسانه ، ويُهذبَ أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه ، ويصونَ مرُوءته عن دناءة الغِيبة ، وصناعَتَهُ عن شَيْن الكذب ، ويجانب — قبل مجانبته القحن وخَطَل القول — شنيعَ الكلام وَرَفَثَ المَزْح . كان رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم — ولنا فيه أُسْوَةٌ حسنةٌ — يمزح ولا يقول إلَّا حقًّا ، ومازَحَ عجوزًا فقال : « إن الجنة لَا يدخلها عجوز » . وكانت في عليٍّ عليه السلام دُعَابةٌ ، وكان ابن سِيرِينَ يمزح ويضحك حتى يسيل لُعابه ، وسئل عن رجلٍ فقال : توفى البارحة ، فلمَّا رأى جَزَعَ السائل قرأ : « اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالتِي لَمْ تمُتْ فِي مَنَامِهَا »[1] ، ومازح معاوية الأَحْنَفَ بن قيس فما رُئِيَ مازحان أَوْقَرَ منهما ، قال له معاوية : يا أَحنفُ ، ما الشيءُ المُلَفَّفُ فى البِجَادِ ؟ قال له : السَّخِينَةُ يا أمير المومنين ؛ أراد معاوية قولَ الشاعر :

إذَا مـا مَـاتَ مَيْتٌ من تَمِيمِ فَسَرَّكَ أَن يَعِيشَ فجيءْ بزاد
بخبزٍ ، أَو بتَمْر ، أَوْ بِسَمْنٍ أَو الشَّيءِ المُلفَّفِ فى البِجَادِ
تَـراهُ يُطَـوِّف الافاقَ حِرْصا ليأْكلَ رأْسَ لقْمَانَ بنِ عَادِ[2]

(١) سورة الزمر — ٤٢ .

(٢) تنسب الأبيات لأبى المهوش الأسدى فى شرح الجواليقى ٩٧ والأقتضاب ٤٨ ؛ ٢٨٨ وليزيد بن عمر و بن الصعق الكلابى فى الكنايات للجرجانى ٧٣ والأقتضاب ٢٨٨ وهى بلا نسبة فى عيون الأخبار ٢-٢٠٣ والحيوان ٣-٦٦ والبيان والتبيين ١-١٩٠ والعقد الفريد ٢-٤٦٢

« المُلَفَّف فى البِجَاد » : وَطْبُ اللَّبن . وأراد الأحنف أنَّ قريشا كانت تعيَّرُ بأكل السَّخِينة ، وهى حِسَاء من دقيق يُتَّخذ عند غلاء السعْر ، وعَجَف المَال ، وكَلَب الزمان ؛ فهذا وما أشبهه مَزْحٌ الأشراف وذوى المُرُوءات ؛ فأمَّا السِّبَاب وشَتْمُ السَّلَف وذِكرُ الأعراض بكبير الفَوَاحش ؛ فمَا لا ترضاه لِخِسَاسِ العبيد وصِغَارِ الولدان .

ويُسْتَحَبُّ لَهُ أن يَدَعَ فى كلامه التَّقْعِيرَ والتَّقْعِيبَ[١] ، كقول يحيى ابن يَعْمُر لرجل خَاصَمَتْهُ امرأتهُ عنده : « أإنْ سَأَلَتْكَ ثَمَنَ شكْرِهـا وشبْرِك ، أَنْشأْت تَطُلُّها وتَضْهلهَا »[٢] ، وكقول عيسى بن عمر - ويوسفُ بن عمرَ بن هُبَيرة يضربه بالسياط - « والله إنْ كانت إلَّا اثيَابًا فى اسَيْفَاطٍ قبَضَهَا عَشَّارُوكَ » .

فهذا وأشباهه كان يُسْتثقل والأدبُ غَضٌّ والزمان زمان ؛ وأهله يَتَحَلَّوْنَ فيه بالفصاحة ، ويتنافسون فى العِلْم ، ويرونه تِلْوَ المِقدار فى دَرَك ما يطلبون وبلوغ ما يؤمِّلون ، فكيف به اليومَ مع انقلاب الحال ، وقد قال رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : « إنَّ أَبْغَضَكُم إلىَّ الثرْثَـارُونَ المُتَفَيْهِقُونَ المُتَشدِّقون » ؟؟!!

ونستحبُّ لهُ - إن استطاع - أن يَعْدِلَ بكلامه عن الجهة التى تُلزِمه مستثقَلَ الإعراب ؛ ليَسْلم من اللَّحْنِ وقباحة التقعير ؛ فقد كان وَاصِلُ

---

(١) التقعير فى الكلام : التشدق فيه . والتقعيب مثله .

(٢) انظر تفسيره فى الجواليقى ١٠١ والكامل ١-٧٢ - ٧٣ والخبر فى إنباه الرواة ٤-٢١

ابن عَطَاءٍ سامَ نفسَه لِلثْغِهِ إخراجَ الراءِ من كلامه ، ولم يزل يَرُوضُها حتَّى انقادت له طِبَاعُه ، وأطاعه لسانُه ؛ فكان لا يتكلم فى مجالس التناظُرِ بكلمةٍ فيها راءٌ ، وهذا أشَدُّ وأعسر مَطْلَبًا مما أردناه .

وليس حُكم الكِتَابِ فى هذا الباب حُكْمَ الكلام ؛ لأن الإعرابَ لا يَقْبُحُ منه شيءٌ فى الكِتَابِ ولا يَثْقُلُ ، وإنما يُكره فيه وَحْشِيُّ الغريب ، وتعقيد الكلام . كقول بعض الكُتَّاب فى كتابه إلى العامل فوقه « وأنَا مُحْتَاجٌ إلى أن تُنْفِذَ إلَيَّ جيشاً لَجِباً عَرَمْرَماً » ، وكقول آخر[1] فى كتابه « عَضَبَ عَارِضُ أَلَمٍ أَلَمَّ فأنْهيتُه عُذْرًا » وكان هذا الرَّجُل قد أدرك صدرًا من الزمان ، وأُعْطِيَ بَسْطةً فى العلم واللسان ، وكان لا يُسأل فى فى كتابته إلا بتَرْكِهِ سَهْلَ الألفاظ ومستعمَلَ المعانى ، وبلغنى أنَّ الحسنَ ابن سَهْلَ أيام دولته رآه يكتب وقد ردَّ عن هاءِ « الله » خطًّا من آخر السطر إلى أوله ، فقال : ماهذا ؟ قال : طُغْيَانٌ فى القلم . وكان هذا الرجل صاحب جِدٍّ ، وأخا وَرَعٍ ودين ، لم يمزحْ بهذا القول ، ولا كان الحَسَنُ أيضاً عنده مِمَّنْ يُمَازَحُ .

ونستحبُّ له أنْ يُنزل ألفاظه فى كتبه فيجعلها على قَدْرِ الكاتب والمكتوب إليه ، وألاَّ يعطيَ خسيسَ الناس رفيعَ الكلام ، ولا رفيعَ الناس خسيسَ الكلام ؛ فإنى رأيت الكُتَّاب قد تركوا تَفَقُّدَ هذا من أنفسهم ، وخلَّطوا فيه ؛ فليس يَفرُقُونَ بين من يكتب إليه : « فرَأيَكَ

---

(١) فى شرح الجواليقى ١٠٧ : « هو أحمد بن شريح ، من أهل مرو »

فى كذا » وبين مَنْ يكتب إليه « فإنْ رأَيت كذا! » ، و « رأْيك » إنما يُكْتَبُ بها إلى الأَكفاء والمتساوين ولا يجوز أن يكتب بها إلى الرؤُساء والأُستاذِينَ ؛ لأَن فيها معنى الأَمر ، ولذلك نُصِبَتْ ؛ ولا يفرِّقون بين من يُكْتَبُ إليه : « وأنا فعلْت ذلك » وبين من يُكْتَبُ له « ونحن فعلنا ذلك » ، و « نحنُ » لا يُكْتَبُ بها عن نفسه إلا آمِرٌ أو نَاه ، لأَنها من كلامِ الملوك والعلماء ، قال الله جَلّ ثناؤُه : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ »[1] ، وقال : « إنا كُلَ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ »[2] ، وعلى هذا الابتداء خوطبوا فى الجواب ، فقال تعالى حكاية عَنْ مَنْ حضره الموت : « رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحاً »[3] ولم يقل رَبِّ ارْجِعْنِ . وربَّما صدَّر الكاتب كتابه بـ « أكرمك الله وأبقاك » فإذا توسَّطَ كتابه . وعدَّد على المكتوب إليه ذنوباً له ، قال : « فَلَعَنَكَ اللهُ وَأَخْزَاكَ » فكيف يكرمه الله ويلعنه فى حال ؟؟ !! وكيف يُجْمَعُ بين هذين فى كتاب ؟ وقال أَبْرَوِيزُ لكاتبه فى تنزيل الكلام : « إنما الكلام أربعةٌ : سؤَالُكَ الشيء ، وسؤَالُك عن الشيء ، وأَمْرُك بالشيء ، وخبرُك عن الشيء » ؛ فهذه دعائم المقالات إن التُمِسَ إليها خامِسٌ لم يُوَجَدْ ، وإنْ نَقَصَ منها رابع لم تَتِمَّ ؛ فإذا طَلَبْتَ فأَسْجِحْ ، وإذا سألت فأَوْضِحْ ، وإذا أَمَرْتَ فأَحْكِمْ ، وإذا أَخْبَرْتَ فَحقق ، وقال أيضاً : « واجْمَعِ الكثيرَ مِمَّا تريدُ فى القليل مما تقولُ » يريد الايجازَ ، وهذا ليس بِمحمود فى كل موضع ، ولا بمُختار

(١) سورة الحجر — ٩

(٢) سورة القمر — ٤٩

(٣) سورة المؤمنون — ٩٩—١٠٠

فى كل كتاب ، بل لكل مَقام مَقالٌ ، ولو كان الايجازُ محمودًا فى كل الأحوال لجرَّده الله تعالى فى القرآن ، ولم يفعَلِ الله ذاك ، ولكنّه أطال تارةً للتوكيد ، وحَذَفَ تارةً للايجاز ، وكَرَّر تارةً للإفهام ، وعِلَلُ هذا مستقصاةٌ فى كتابنا المؤلف فى « تأويل مُشْكِلِ القرآن » وليس يجوز لمن قام مقاماً فى تحضيضٍ على حرب أو حَمَالة بدم أو صلحٍ بين عشائرَ أن يُقَلِّلَ الكلامَ وَيَخْتَصِرهُ ، ولا لمن كتب إلى عَامَّة كتاباً فى فتحٍ أو استصلاحٍ أَنْ يُوجِزَ . ولو كتب كاتبٌ إلى أهل بلد فى الدعاء إلى الطاعة والتحذير عن المعصية كِتَابَ يَزِيدَ بنِ الوليدِ إلى مَرْوَان حين بلغه عنه تَلَكُّؤُهُ فى بيعته أمّا بعدُ فإنى أَرَاكَ تُقَدمُ رِجْلا وتُؤَخرُ أُخرَى ، فَاعْتَمِدْ على أيهما شئتَ . والسلام » ؛ لم يَعْمَلْ هذا الكلام فى أَنْفُسها ولكنَّ الصوابَ أَنْ يُطِيلَ ويُكَرر ، ويُعِيدَ ويُبْدِىءَ ، ويُحَذرَ ويُنْذِرَ .

هذا مُنْتَهى القولِ فيما نختارُه للكاتب ؛ فمن تَكَامَلَتْ له هذه الأَدواتُ وأَمدَّه الله بـآداب النفس من العَفَاف ، والحلم ، والصَّبر ، والتواضع للحق ، وسكُونِ الطائر ، وخفْضِ الْجَنَاح ؛ فذلك المُتَنَاهِى فى الفضل ، العالى فى ذُرَى المجد ، الحاوى قَصَبَ السبق ، الفَائِزُ بخير الدارين ، إن شاء الله تعالى .

* * *

أبو العباس المـــبرد

(ت : ٢٨٥ هـ)

هو أبو العباس محمد بن يزيد المبرِّد ، بكسر الراء ، كما ذكر هو عن نفسه ، ونقل ذلك عنه فى وفيات الأعيان لابن خلكان ، عن كتاب مفقود لابن الجوزى ، يسمى « الألقاب » .

وتكاد المصادر التى ترجمت له تجمع على أنه ولد يوم الاثنين فى ذى الحجة ، ليلة عيد الأضحى ، سنة ٢١٠ هـ ، روى ذلك تلميذاه : « ابن السّراج » و « الصَّغار » . وأغلب المصادر على أنه توفى يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذى الحجة ، سنة ٢٨٥ هـ ، ذكر ذلك تلميذاه « محمد بن يحيى الصولى » و « الصَّغار » .

ويذكر ياقوت وحده البصرة مكانا لمولده . أما مكان وفاته ، فقد حدده أكثر من مصدر ، بأنه كان فى بغداد ، ودفن بمقبرة باب الكوفة فى دار اشتريت له .

وقد اتصل أبو العباس المبرد بالخليفة المتوكل ، وهو فى سن السادسة والثلاثين ، وظل معه عاماً واحدًا ، إلى أن قتل المتوكل ، فرحل المبرد إلى بغداد ، واتصل بمحمد بن عبد الله بن طاهر ، وبقى بها إلى أن مات .

وتلقى المبرد علومه على كبار علماء عصره وأدبائها ؛ مثل : الجاحظ ، والجرمى ، وأبى حاتم السجستانى ، وعمارة بن عقيل ، والمازنى . كما تلقى عليه العلم كثير من التلامذة النابهين ؛ مثل : الأخفش الصغير وابن درستويه ، وأبى عمر الزاهد ، والزجاج . وابن السراج ، وابن كيسان ، ونفطويه ، وغيرهم .

وقد وصف المبرد فى بعض المصادر بأنه كان من العلم ، وغزار الأدب ، وكثرة الحفظ ، وحسن الإشارة ، وفصاحة اللسان ، وبراعة البيان ، وملوكية المجالسة ، وكرم العشرة ، وبلاغة المكاتبة ، وحلاوة المخاطبة ، وجودة الخط ، وصحة القريحة ، ووضوح الشرح ، وعذوبة المنطق ؛ على ماليس عليه أحد ممن تقدمه أو تأخر عنه .

وكانت بينه وبين أبى العباس ثعلب ، ما يكون بين المتعاصرين من الخصومات والأحقاد. ومن أشهر ما وصل إلينا من مؤلفات المبرد التى نيفت على الخمسين : التعازى والمراثى ، والفاضل ، والقوافى ، والكامل ، والمذكر والمؤنث ، والمقتضب ، ونسب عدنان وقحطان .

* * *

رســـالة

أحمد بن الواثق إلى أبي العباس المبرد

يسأله عن أفضل البلاغتين شعراً أم نثراً وجواب أبي العباس عنها

بسم الله الرحمـن الرّحـيم

كتب « أحمد بن الواثق » إلى « أبي العباس محمد بن يزيد الثمالى النحوى » :

« أطال الله بقاءك ، وأدام عزك . أحببت – أعزك الله – أن أعلم ، أى البلاغتين أبلغ ، أبلاغة الشعر ، أم بلاغة الخطب ، والكلام المنثور والسجع ؟ وأيتهما عندك – أعزك الله – أبلغ ؟ عرفنى ذلك إن شاء الله » .

فكتب إليه :

أطال الله بقاءك ، وأدام عزك . سألت – عزك الله – عن البلاغتين ، فى الشعر المرصوف ، والكلام المنثور ، أيتهما أولى بأن تكون المقدمة ، وأحق أن تكون على الكمال مشتملة ؟

والذى سألت عنه – أعزك الله – من مسائل العقلاء الفضلاء . وكل ذلك ، فأنت ذروته وسنامه فزادك الله ، ولا نقصك ، وأعلاك ولا وضعك .

الجواب فيما سألت : أن حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى ، واختيار الكلام ، وحسن النظم ؛ حتى تكون الكلمة مقاربة أُختها ، ومعاضدة شكلها ، وأن يقرّب بها البعيد ، ويحذف منها الفضول .

فإن استوى هذا فى الكلام المنثور ، والكلام المرصوف ، المسمى « شعراً » ؛ فلم يفضل أحد القسمين صاحبه ، فصاحب الكلام المرصوف أحمد ؛ لأنه أتى بمثل ما أتى به صاحبه ، وزاد وزناً وقافية ، والوزن يحمل على الضرورة ، والقافية تضطر إلى الحيلة . وبقيت بينهم واحدة ، ليست مما توجد عند استماع الكلام منهما ، ولكن يرجع إليهما عند قولهما ؛ فينظر أيهما أشد على الكلام اقتداراً ، وأكثر تسمحاً ؛ وأقل معاناة وأبطأ معاسرة : فيعلم أنه المقدم .

وقد كانت البلغاءُ تتفقد ماهو أقل من هذا . فمن ذلك أن « الجمحى »[1] خطب خطبة ، فأحسنها وأجادها ، وكان بين ثنيتيه فَرْقٌ ، وكان يصفر إذا تكلم . فأجابه « زيد بن على بن الحسين » بكلام فى وزن كلامه ، وحسن نظامه ، غير أنه تقدمه فى السمع بالسلامة من ذلك الصفير ؛ فقال « عبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر » :

قَلَّتْ قوادحها وتم عَديدُها فله بذاك مزيَّة لا تُنكر[2]

---

(١) فى الكامل للمبرد ٥٤٨ : « وخطب الجمحى ، وكان متروع إحدى الثنيتين ، وكان يصفر إذا تكلم . فأجاد الخطبة ، وكانت لنكاح ، فرد عليه زيد بن على بن الحسين كلاما جيدا ، إلا أنه فضله بتمكن الحروف وحسن مخارج الكلام » وانظر كذلك : البيان والتبيين للجاحظ ١-٥٨ .

(٢) البيت فى الكامل ٥٤٨ والبيان للجاحظ ١-٥٩ .

وسأضرب لك مثلا مما جاء فى البابين ، يبين لك ما بعده ، إن شاء الله :

قال « الأعشى » :

وتبرُد برْد رِداءِ العــــرو ... سِ بالصَّيف رقرقت فيه العَبيرَا
وتسخُن ليــلة لا يستطيـ ... ـع أن ينبح الكلبُ إلا هريرًا [٣]

فتقُبل هذا الكلام ، واستحسن . ثم قيل فى عيبه : إنه أتى به فى بيتين وطوّل به الخطاب .

وأجود منه قول « طرفة » :

يطردُ البَرد بحَرٍّ ساخنٍ ... وعَكِيكَ القيظِ إنْ جاءَ بقُرّ [٤]

وقيل : هذا أجمع وأخصر .

وعيب على « طرفة » قوله :

أسْدُ غيلٍ فإذا ماشربوا ... وَهبُـوا كلَّ أمُـون وطِمِرّ
ثم راحوا عَبَقُ المسك بهم ... يَلْحفُون الأرضَ هُدّابَ الأُزُرْ [٥]

---

(٣) البيتان فى ديوانه ص ٦٩ والأغانى ٧٩/٨ ونور القبس ٢٧١ وحماسة الخالديين ١١٤/٢ والحيوان للجاحظ ٣٨/١ وجمهرة أشعار العرب ٣٠ والعقد الفريد ه - ٢٨٧

(٤) البيت فى ديوانه ص ٦١ والأغانى ٧-٧٨ ومختارات ابن الشجرى ٣٤/١ وشرح القصائد السبع ٤٧ وجمهرة أشعار العرب ٣٠

(٥) البيت فى ديوانه ص ٦٢ ومختارات ابن الشجرى ٣٦/١ والبديع لأسامة بن منقذ ٢٢٣ والعقد الفريد ٣٥٩/٥

فقيل : إنَّمَا يهب هؤلاء القوم إذا تغيرت عقولهم ، وإنما الجيد ما قال «عنترة» :

فإذا شربتُ فإننى مستهلكٌ ما لِى وعِرضِى وافرٌ لم يُكْلَم

وإذا صحوتُ فما أُقصِّر عن ندى
وكما علمتِ شمائلى وتكرُّمى[6]

فخبر أن جوده باق ، وأنه لا يبلغ من الشراب ما يثلم عرضه .

ثم قالوا : هو حسن جميل ، إلاَّ أنه أتى به فى بيتين ؛ هلا قال كما قال «امرؤُ القيس» :

سماحة ذا وبِرّ ذا ووفاءِ ذا ونائل ذا إذا صحا وإذا سَكِرْ[7]

فهذا معنى يكثر ، وقد أتينا منه على جملة ؛ فأمّا الكلام المنثور والموزون ، فسأخبرك بما جاء منهما فى معنى ، وفضل أحدهما بما رسمنا أولا على صاحبه :

قال قائل «للربيع بن خثَيم[8]» عندما رئى من اجتهاده وإغراقه فى العبادة ، وانهماكه فى الصوم والصلاة وسائر سبل الخير : قتلتَ

---

(٦) البيتان فى ديوانه ص ٤٧ وسمط اللآلى ٢/٦٣٥ وشرح المعلقات للزوزنى ١٨٦ والبديع لأسامة بن منقذ ٢٠٤ والعقد الفريد ٥/٣٦٠

(٧) البيت فى ديوانه ص١١٢ والصناعتين ٤٠١ والبديع لأسامة بن منقذ ١١٤ والحماسة البصرية ١/١١٩

(٨) انظر ترجمة الربيع فى غاية النهاية لابن الجزرى ١-٢٨٣ رقم ١٢٦٣

نفسك ؛ فقال : راحتها أطلب . فهذا كلام محيط بالمعنى ، لا فضل فيه عنه .

وقال أحد الشعراء لأهله فى هذا المعنى :

سأطلب بُعْدَ الدار منكم لتقربوا وتَسْكُبُ عيناى الدموع لتجمدا[٩]

يقول : أغترب فأكسب ما يطول به مقامى معكم ، وقربى منكم ؛ فهذا أحسن ، والأول أوضح .

ومثل ذلك قول الأول :

تقول سليمى لو أقمتَ لَسَرَّنا ولم تَدْرِ أنى للمقام أطَوِّف[١٠]

وهذا الثانى واضح حسن ، وهو أبين من البيت الأول .

وقيل « لرَوْح بن حاتم بن قبيصة[١١] » ، وهو واقف على باب المنصور فى الشمس ؛ فقال : ليطول وقوفى فى الظل . فهذا كلام مكشوف واضح ، كانكشاف كلام « الربيع » .

وأملح ما جاء فى هذا المعنى وأحسن قول « أبى تمام حبيب بن أوس الطائى » :

(٩) البيت للعباس بن الأحنف فى ديوانه صفحة ١٠٦ والوساطة ٢٣٤ والموازنة ٦٢ والكامل للمبرد ١١٥ والصناعتين ٢١٩ ومعجم الأدباء ١٣٤/٥

(١٠) البيت لعروة بن الورد فى الكامل للمبرد ١١٥ والأغانى ١٩٤/٢

(١١) توفى سنة ١٧٤ هـ . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ٦٤/٢

أ آلفة النحيب كم افتراق أظل فكان داعية اجتماع
وليست فرحة الأوبات إلا لموقوف على تَرَح الوداع (١٢)

فهذا مليح حسن ، والأصل ما ذكرنا .

ومما أذكره لتقارب معانيه قول « الحسن (١٣) » : إن امرءا لا يعد بينه وبين آدم أباً حيًّا ، لَمُعْرَقٌ له فى الموت . فهذا قريب أخذه من قول « لبيد » :

فإن أنت لم ينفعك عِلْمُك فاعتبر لعلك تُسْليك القرون الأوائل
فإن لم تجد من دون عدنان والدا ودون معد فلترعك العواذل (١٤)

وكلام « الحسن » أخصر ، وكلام « لبيد » أوزن .

وأول هذا المعنى قول « امرىء القيس » :

فبعضَ اللوم عاذلتى فإنى سيكفينى التجاربُ وانتسابى
إلى عرق الثرى وشجَت عروقى وهذا الموت يسلبنى شبابى (١٥)

---

(١٢) البيتان فى ديوانه ج ٢ ص ٢٣٦ والكامل ١١٦ والتمثيل والمحاضرة ٩٥ والصناعتين ٢٢٠ ونهاية الأرب ٣/٩٥

(١٣) هو الحسن البصرى الناسك المشهور . توفى سنة ١١٠ هـ . انظر خلاصة تذهيب الكمال ٦٦

(١٤) البيتان فى ديوانه ص ٢٨ وخزانة الأدب ١/٣٣٩ وأمالى المرتضى ١ / ١٧١ ومحاضرات الأصفهانى ١/٢١٦

(١٥) البيتان فى ديوانه ص ٩٧ — ٩٨

«عرق الثرى» : آدم عليه السلام . وقوله «سيكفيني انتسابي» : أي أنتسب ، فأجد آبائي وأجدادي موتى ، فأعلم أني ميت لامحالة .

فهذا كلام عربي محض . وهذا – أعزك الله – مفاضلة بين الأشكال والنظراء ، فإذا جاء قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – رأيته من كل منطق بائناً ، وعلى كل قول عالياً ، ولكل لفظ قاهرا .

فمن ذلك أنهم قالوا في باب تصرف الزمان ، وتصرم الآجال ، أقاويل معناها واحد ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنفهم مسافة ما بين الكلامين ، واتضاع الأقاويل عن قوله عليه الصلاة السلام : [وإن كانت غايات من قول غيره . قال «لبيد بن ربيعة» .

كانت قناتي لا تلين لغامز   فألانها الإصباح والإمساء
ودعوت ربي بالسلامة جاهداً   ليصحني فإذا السلامة داء[16]

يقول : تقربني من أجلي . ومثله قول «النمر بن تولب» :

يسر الفتى طولُ السلامة والغنى   فكيف ترى طول السلامة يفعل
يود الفتى بعد اعتدال وصحة   ينوءُ إذا رام القيام ويحمل[17]

(١٦) البيتان لبيد كذلك في التمثيل والمحاضر ة ٦١ ونهاية الأرب ٣ – ٧٠ ويرويان للنمرين تولب في الفاضل للمبرد ٧٠ وعيار الشعر ٨٠ ولعمرو بن قميئة في زهر الآداب ٢٠١/١

(١٧) البيتان في الكامل ١٢٤ والصناعتين ٣٨ وسمط اللآلى ٥٣١/١ وزهر الآداب ١/ج٢٠ وحماسة البحترى ١٣٧

وقال «حميد بن ثور» :

أرى بَصِرَى قد خاننى بعد صحَّة وحسبُكَ داءً أن تصِحَّ وَتَسْلَمَا
ولا يلبث العصران يوماً وليلةً إذا طلبا أن يُدْرِكَا ما تيمَّما[18]

وفى هذا المعنى قال «أبو الحسن[19]» : قيل لأعرابى : مات فلان أصحّ ما يكون ؛ فقال : أوصحيحٌ منْ فى عنقه الموت !

وقال غيره :

إذا بلَّ من داءٍ به ظن أنه نجا وبه الداءُ الذى هو قاتله[20]

ويقال إن «سيبويه» كان يتمثل بهذا[21] .

فكل هؤلاء محسن مجمل . والفضل منهم لأوزنهم كلاماً ، وأسبقهم إلى المعنى . ولكن أين هذا كله من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كفى بالسلامة داءً[22]» !

---

(١٨) البيتان فى ديوانه ٧–٨ والكامل للمبرد ١٢٥ والوحشيات ٢٨٨ والتمثيل والمحاضرة ٥٢ ونهاية الأرب ٣/٦٥ وزهر الآداب ١–٢٢٣

(١٩) لعله أبو الحسن على بن سليمان الأخفش تلميذ المبرد ، فقد تعودنا منه أن يضيف إلى كتب المبرد بعض الحواشى والتعليقات عند روايته لها . انظر مثلا كتاب الكامل فى أكثر من موضع . وعلى ذلك تكون هذه الفقرة من إضافات الأخفش إلى كتاب البلاغة .

(٢٠) البيت فى جمهرة اللغة ١/٢٧ وإصلاح المنطق ١٩٠ ومقاييس اللغة ١/١٨٩

(٢٢) البيت الذى تمثل «سيبويه» به وهو مريض ، هو (معجم الأدباء ١٦/٢٤):
يسر الفتى ما كان قدم من تقى إذا عرف الداء الذى هو قاتله

فانظر إلى هذا الكلام ، الذى لا زيادة فيه ولا نقصان ، لا يطول المعنى ، ولا يقصر عنه . وانظر إلى فخامته وجزالته ، يقول : « كفى بالسلامة داءُ » . فأى كلام أوعظ ، أو زجر فى القلب أوقر ؟ إن هذا الكلام لَيَجِلُّ عن أن يبلغه وصف ، أو يحيط بكنهه قول .

فإذا جاء أمر القرآن نظرت إلى الشيء الذى هو أوحد ، والقول الذى هو مُثْبَتٌ ؛ ألا أن الله جعله الحجة والبيان ، والداعى والبرهان ؛ وإنما وضع السراج للبصير المستضيء ، لا للأعمى والمتعامى .

قال أحد الشعراء فى وصف قوم يحملون الشعر ولا يفهمونه ، قولا أجاد فيه ، وتقدم كلام كثير من المخلوقين ؛ فقال :

زوامل للأشعار لا علم عندهم ... بجيدها إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا ... بأوساقه أو راح ما فى الغرائر (٢٤)

فهيهات هذا من قول الله تعالى : « مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَم يَحْمِلُوهَا ، كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا » (٢٥) .

---

(٢٣) انظر الكامل ١٢٤ ؛ ٥٠٦ والمصون ١٤٩ والصناعتين ٣٨ وفى خاص الخاص ٧٩ :« النمر بن تولب ، وحميد بن ثور ، والنابغة ، أنهم اجتمعوا فى الجاهلية على معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم : كفى بالسلامة داء ؛ فتناهبوه بحسن ألفاظهم ، وكأنما رموا عن قوس واحدة . . . . . » .

(٢٤) البيتان لمروان بن أبى حفصة فى الكامل ٥٠٨ والمزهر ٣١١/٢ والمصون ١١

(٢٥) سورة الجمعة ٦٢-٥

وقالت الخنساءُ ترثى أخاها صخرا :

ولولا كثرة الباكين حـولى على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسِّى [٢٦]

وقال الله عزَّ وجلَّ للمشركين : « وَلَن يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ » [٢٧] ، أى ما نزل بكم أجل من أن يقع معه التأسى ، ونظرُ بعض إلى بعض .

قال « أردشير بن بابك » فى عهده : « وقد قال الأولون منا : القتل أقل للقتل » [٢٨] ، يقول : إذا قُتِلَ القاتل امتنع غيره من العرض للقتل . فهذا أحسن الكلام من كلام مثله ، وقد اضطره لعلم الفهم ما يعنى . ولو اعترض معترض ، فقال : من القتل ما يهيج القتل ، ويبعث عليه ، لكان ذاك له ، وإن لم يكن ما قصد له القائل .

فإذا جاء قوله جلَّ وعزَّ : « وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِى الْأَلْبَابِ » [٢٩] جاء مالا اعتراض عليه ، ولا معارضة له . وقوله : « يا أولى الألباب » خطر ثان ، فتبارك الله الذى ليس كمثله شىء .

---

(٢٦) البيتان فى ديوانها ص ٥٠ والكامل ٩ وأمالى القالى ٢-١٦٣ والبديع لأسامة ابن منقذ ٥٦ وحماسة الخالديين ٢/٣٣٠ والصناعتين ٢٢١
(٢٧) سورة الزخرف ٤٣-٣٩
(٢٨) من عهد أردشير إلى من يخلفه من بعده . انظر تجارب الأمم لابن مسكويه ١/١٢١ ونثر الدر فى المحاضرات ٧/٧٥٠ وبديع القرآن لابن أبى الاصبع ١٩٢-
(٢٩) سورة البقرة ٢/١٧٩

محمد بن وضاح القرطبي

(ت : ٢٨٧هـ)

فقيه ومحدث أندلسي ، أخذ العلم عن كبار فقهاء الأندلس ، ورحل إلى المشرق فى سنة ٢١٨ (٨٣٣) حيث تتبع أخبار الزهاد والصلحاء كما تتلمذ على شيوخ الحديث من أمثال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وسعد بن منصور ، وعاد إلى الأندلس ، ثم قام برحلة ثانية اهتم فيها بجمع الحديث النبوى وتواريخ رواته ، وكانت عدة الأساتذة الذين درس عليهم فى المشرق مائة وخمسة وسبعين ما بين بغداد بين ومكيين ومصريين وشاميين وقيروانيين ، ويعد محمد بن وضاح هو وزميله بقى بن مخلد القرطبي الذى شاركه فى رحلته وفى أساتذته هما مدخلى علم الحديث إلى الأندلس بعد أن كان العلم الدينى فى هذه البلاد مقصوراً قبلهما على الفقه ، وكان إلى جانب ذلك حافظاً لأخبار الأندلس وتراجم أمرائها وعلمائها وفقهائها ، وإليه يرجع الكثير من هذه الأخبار مما حفظته لنا كتب التاريخ التالية .

* * *

لوحة إنسانيـــة

قال الفقيه ابن وضاح :

احتجب الأمير عبد الرحمن بن الحكم عن الناس قبل موته مدة من ثلاثة أعوام أو نحوها من أجل علة أصابته طالت به واشتدت عليه ، فحمته الحركة وهدت قوته وأحدثت عليه رقة فى نفسه ، ووحشة فى خاطره ، وشدة أسف على ما نُغِّص عليه من عصارة ملكه .

فذكر أنه قال يوماً لأكابر خدمته الخاصة ، وقد حفوه ، وفيهم سعدون زعيمهم الذى اختصه بعد مهلك حظيه نصر ومن يليه :

– يا بَنِىَّ – وبذلك كان يخاطبهم مستلطفاً لهم ومرفقاً بهم لقد اشتقت أن أعاين ضوء الدنيا وفسحة الأرض ، إذ قد حميت عن الخروج إليها ، فلعلنى أعلو مرقبة يسافر بصرى فيها فأتسلى بالنظر إلى بسيطها ، وجسمى منزع ، فهل سبيل إلى ذلك ؟

فقالوا له :

– نعم يا مولانا .

وابتدر أكابرهم إنفاذ أمره ، فأخذوا سرير خيزران لطيفاً وثيق الصنعة ،من أسِرَّة الخلافة ووضعوا فوقه فراشاً خفيفاً وثيرا حشوه الريش أجلسوه فوقه ، واحتملوه على أعناقهم ، فصعدوا به إلى العلية على هيئته التى كانت من بنيان الأمير على باب الجنان من أبواب القصر

القبلية ، ثم هبطوا كذلك ، فعانوا ذلك مرات يسوقون به (فراش) الأمير فى تعاريج درجة الدائرة حتى استوى لهم ذلك كما أرادوه ، وأمنوا على الأمير المشقة فيه . فوضعوا الأمير عبدالرحمن عند ذلك فوق ذلك الفراش ، وشدوه من جهاته ، واستوثقوا من اضطرابه ، وصعدوا به هَوْناً حتى صيروه بأعلى تلك العلية ، فأجلسوه صدرها ، وأدلوه إلى الباب الأوسط منها ، فأشرف على صحراء الربض قدام باب القصر ، وسرح بصره فيها ، ورآها إلى كدى القنبانية ، ونظر إلى النهر أمامه والسفن تجرى فيه صاعدة ونازلة ، فاستروحت نفسه ، وانشرح صدره وشكر لخدمه ما تجشموه من إدنائه من مسرته .

وقال لهم :

ـ يا أولادى ! اجلسوا الآن حولى ، وأنّسونى بكلامكم ، ومتعونى بأحاديثكم ، ولا تنقبضوا عنى بشىء مما تتحدثون به بينكم إذا انفردتم كيما أشتغل بذلك عما أقاسيه من علتى ! ...

ففعلوا ، وأنس هو بذلك وانبسط ، وقطع أكثر نهاره فى تلك العلية ، ودنا المساء ، فدعوه إلى النزول إلى مجلسه ، فبيناه يتهيأ لذلك إذ وقعت عينه فى الصحراء قدامه على قطيع شاء وهى ترعى فى منحدرها ، ولم يُرَ معها راعٍ يسوقها .

فقال لهم :

ـ يا أولادى ! ما بال هذه الغنم مهملة ولا راعى لها ؟

فتأملوا ، فقالوا :

– يا مولانا ، هاك راعيها قاعد إلى جانبها مستريح فى فيىء جنان طروب تجاهه يتملّى عليها فى انحدارها .

فقال :

– لعما !

ثم أثبت بصره فى تلك الغنم ، فتنفس الصعداء ، وأرسل عبرته حتى أخضل لحيته ، قال :

– وددت والله أن أكون مكان ذلك الراعى ، ولا أنشب فيما نشبت من الدنيا ، ولا أتقلد من أمور الناس ما تقلدت .

ثم استغفر الله كثيرا ودعاه ، ونزلوا به إلى مهاده ، فلم تطل فيما بعد نهاره هذا حياته .

(المقتبس لابن حيان ، تحقيق د . محمود مكى ، بيروت ١٩٧٣ ص ١٨– ٢٠) .

* * *

أبو العباس ثعلب

(ت : ٢٩١ هـ)

هو إمام الكوفيين فى النحو واللغة ، أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن يساره المعروف بثعلب .

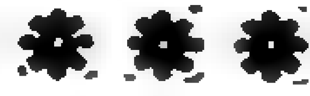
ولد سنة ٢٠٠ هـ ؛ يروى أنه قال : « رأيت المأمون لما قدم من خراسان فى سنة أربع ومائتين ، وقد خرج من باب الحديد ، وهو يريد قصر الرصافة ، والناس صفَّان فى المصلى . قال : وكان أبى قد حملنى على يده ، فلما مر المأمون رفعنى وقال لى : هذا المأمون ، وهذه سنة أربع ، فحفظت ذلك عنه إلى الساعة . وكان سنى يومئذ أربع سنين » .

وقد تلقى العلم على مشهورى عصره ، كمحمد بن سلام الجمحى ، ومحمد بن زياد الأعرابى ، وعلى بى المغيرة الأثرم ، وسلمة بن عاصم ، والزبير بن بكار ، وغيرهم .

كما أفاد من علمه نخبة ممتازة من العلماء ، كمحمد بن العباس اليزيدى ، وعلى بن سليمان الأخفش ، ومحمد بن عرفة المعروف بنفطويه وأبى بكر بن الأنبارى ، وأبى موسى الحامض ، وأبى عمر الزاهد المعروف بغلام ثعلب ، وغيرهم .

وكان ثعلب ثقة حجة ، صالحاً دَيِّناً ، مشهورا بالحفظ وصدق اللهجة ، والمعرفة بالغريب ورواية الشعر القديم ، ويكفى أن يشهد له خصمه أبو العباس المبرد بقوله : « أعلم الكوفيين ثعلب » .

وقد مات أبو العباس ثعلب رحمه الله تعالى ، لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الأُولى سنة ٢٩١ هـ . ودفن فى مقبرة باب الشام ، وقبره هناك ظاهر معروف .



من كتاب : المجالس

لأبى العبّـاس ثعلب

حـدثنا أبو العبّاس أحمـد بن يحيى النحوى ثعلب قال : قال ابنُ الأعرابىّ : حدثنى شيخٌ عن محمد بن سعيد الأموى [1] ، عن عبد الملك ابن عمير قال : كنت عند الحجّاج بن يوسف ، فقال لرجُلٍ من أهل الشام : هل أصابك مطرٌ ؟ قال : « نعم ، أصابنى مطر أسالَ الإكام ، وأدْحَض التلاع [2] ، وخَرَّق الرجع [3] ، فجئتك فى مثل مَجَرِّ الضَّبُع [4] » ثم سأل رجلًا من أهل الحجاز : هل أصابك مطر ؟ فقـال : « نعم سقَتْنى الأسميَةُ [5] ، فَغيبَت الشِّفار [6] ، وأُطفئت النار ، وتشكت

---

(١) هو محمد بن سعيد بن أبان بن سعيد بن العاص الأموى ، كوفى سكن بغداد ، وحدث بها عن عبد الملك بن عمير ، وهشام بن عروة ، وإسماعيل بن أبى خالد وغيرهم ، وروى عنه ابن أخيه سعيد بن يحيى الأموى . توفى سنة ١٩٣ . انظر تاريخ بغداد ٢٨١٣ وأنساب السمعانى ٤٨ — ٤٩

(٢) أدحض التلاع : أزلقها . والتلاع : جمع تلعة ، وهى مجرى الماء من أعلى الوادى إلى بطون الأرض . وفى اللسان (٩ : ٨) : « وفى حديث الحجاج : فدحضت التلاع ، أى جعلتها مزلقة » .

(٣) الرجع ، بالفتح : الغدير يتردد فيه الماء .

(٤) فى اللسان (٥ : ١٩٥) : « وقال شمر : سمعت ابن الأعرابى يقول : جئتك فى مثل مجر الضبع . يريد السيل قد خرق الأرض فكأن الضبع جرت فيه » .

(٥) الأسمية : جمع سماء بمعنى المطر . وفى اللسان (٥ : ٢٠٠) : « تتابعت علينا الأسمية »

(٦) الشفار : جمع شفرة ، وهى السكين العريضة العظيمة . قال ابن دريد : « قـوله غيبت الشفار ، يريد أخصبت الناس ولم يذبحوا الغنم والإبل » . انظر كتاب صفة السحاب لابن دريد ص ٣٧ طبع ليدن . وفى اللسان : « حتى منعت السفار » . وكذا فى المخصص (١٠ : ١٨٢) .

النِّساء[١] ، وتظالمت المِعْزَى[٢] ، واحتلِبَت الدِّرَّة بالْجِرَّة[٣] » . ثم سأَل رجلًا من أَهل فارس فقال : « نعم ، ولاأُحسِنُ كما قال هؤلاء ، إلَّا أنِّى لم أَزَلْ فى ماءٍ وطينٍ حتى وصلت إليك » .

وسئل أعرابىٌّ عن المطر فقال : « مُطِرنا بعَراقِىِّ الدِّلَاء[٤] ، وهى مِلَاءٌ » .

قال أبو العباس ثعلب : وقال أبو الحسن المدائِنِىُّ : سئل أعرابىٌّ عن المطر فقال : « أَصابنا مطرٌ نقعَ فى الأَرض فشرِبت منه الغَنَمُ ، فحَسُنتْ أصواتها ، ولانت أصوافُها » .

وسئل أعرابىٌّ عن المطر فقال : « لقِيَنى مَن أَمْطَرها بموضع كذا وكذا ، ثم دفعها وراءه ، فانقطعَ خَبَرى ولم ينقطع المطر » .

---

(١) تشكت ، أى اتخذن الشكاء لمخض اللبن . والشكاء : جمع شكوة بالفتح ، وهو وعاء كالقربة الصغيرة ، وهو كناية عن كثرة اللبن . أى كثر اللبن حتى صارت المرأة يفضل لها لبن تحقنه فى شكوتها . وقيل هو كناية عن قلة اللبن . والوجه الأول أولى وأوفق . انظر اللسان (١٩ : ١٧٢ س ١٢) مع الأزمنة والأمكنة (٢ : ١٤٠) والخبر نقله السيوطى فى المزهر (١ : ١٤٧ – ١٤٨) .

(٢) تظالمت المعزى : تناطحت مما سمنت وأخصبت . انظر اللسان (١٥ : ٢٦٨) .

(٣) معناه أن المواشى تتملأ ثم تبرك أو تربض ، فلا تزال تجتر إلى حين الحلب . وفى اللسان : « اجتلبت » بالجيم . وما فى المخصص يطابق ما هنا .

(٤) عراق الدلاء : جمع عرقوة ، بفتح العين وضم القاف ، يقال للخشبتين اللتين تعترضان على الدلو كالصليب العرقوتان . والخبر فى الأزمنة والأمكنة (٢ : ١٣٨) والمخصص (١٠ : ١٧٦)

قال أبو العباس : وسأَل سليمان بنُ عبدِ الملك أَعرابيًّا عن المطر ، فقال : « أَصابنا مطرٌ انعقَد منه الثرى ، واستوشل منه العِرْق[١] ، ولم نَرَ واديًا دارئًا[٢] » .

وكان أعرابيٌّ ضريرٌ تقوده ابنته وترعى غنيمات لها ، فرأَتْ سحابة فقالت : يا أَبَهْ ، جاءتكَ السماءُ . فقال : كيف تَرَيْنها ؟ فقالت : كأَنها فرسٌ دَهْماءُ تَجُرُّ جِلَالها . قال : ارعَيْ غُنَيماتِك . فرعَتْ مَلِيًّا ثم قالت : يا أَبَهْ ، جاءتْكَ السماءُ . قال : كيف ترَيْنَها ؟ قالت : كأَنها عين جملٍ طريف[٣] . قال : ارعَيْ غُنَيماتِك . فرعَتْ مَلِيًّا ثم قالت : يا أَبَهْ ، جاءتكَ السماءُ . فقال : كيف ترَيْنَها ؟ قالت : سُطِحَتْ[٤] ، وابيضت . قال : أَدخِلِي غُنَيماتك . فجاءت السماءُ بشيءٍ شطَأَ له الزرعُ[٥] وأَينَع ، وخَضِرَ ونَضِرَ .

(١) العرق بأراد جذور النبات .

(٢) فى اللسان : « جاء الوادى درءاً » بالضم : إذا سال بمطر واد آخر » .

(٣) الطريف : المطروف العين فهو يحرك عينه ولا تزال تدمع ، صور بذلك ومض البرق وبلو المطر . وانظر تفسير ابن دريد .

(٤) سطحت : سوى سطحها . وفى الأصل : « شطحت » تحريف . وليس من هذه المادة فى المعاجم إلا قولهم « شطح » وهو زجر العريض من أولاد المعز . ذكره صاحب القاموس . وفى المخصص (٩ : ١٠٣) : « أراها استوت وابيضت ودنت من الأرض » . وقد جاءت العبارة على الوجه الذى أثبت فى كتاب صفة السحب لابن دريد طبع ليدن سنة ١٨٠٩ ص ٣٨ .

(٥) شطأ الزرع يشطأ شطوءاً وشطأً : أخرج شطأه ، وهى فراخه .

وقال أعرابىٌّ من طيِّئٍ : بعث قومٌ رائدًا فقالوا : ما وراءك ؟ فقال : عُشْب وتعاشِيب ، وكَمْأَةٌ متفرِّقة شِيب ، تَقْلعها بأَخْفَافها النِّيبُ[1] .

حدثنا أبو العبَّاس قال : قال أبو الحسن المدائِنى : بعث يزيد ابن المهلب ، سَريعًا[2] مولى عمرو بن حريث[3] ، إلى سليمان بن عبد الملك فقال سريع : فعلمتُ أنَّه سيسأَلنى عن المطر ، ولم أكن أرْتُق بين كلمتين[4] ، فدَعَوْتُ أعرابيًّا فأَعطيته درهمًا ، وقلت له : كيف تقول إذا سُئِلْت عن المطر ؟ فكتبت ما قال ، ثمَّ جَعلته بيني وبين القَرَبُوس حتى حفِظْتُه ، فلما قدمت قرأَ كتابى ثمَّ قال : كيف المطر ؟ فقلت : « يا أمير المؤمنين ، عقد الثرى ، واستأْصلَ العرق ، ولم أرَ واديًا دارئًا » . فقال سليمان : هذا كلامٌ لستَ بأَبى عُذرِهِ[5] . فقلت : بلَى . فقال : اصدُقنى . فصدَقْتُه فضحك حتى فحص برجليه ، ثم قال : لقيتَه والله ابنَ بَجدتِها[6] ، أى عالمًا بها .

---

(١) التعاشيب : العشب النبذ المتفرق ، لا واحد له . والشيب : البيض الكبار ، وهى أردأ الكمأة . كما فى كتاب المطر ص ٤٥ مخطوطة دار الكتب . والنيب : الإبل المسان واحدها ناب . والخبر وتفسيره فى اللسان (١ : ٤٩٤ : ٩١) والخبر بقية فى الأزمنة والأمكنة (٢ : ١٣٩) . وفيه « تندسها » بدل « تقلعها » وتندسها : تضربها .

(٢) ورد فى هذا الجزء بالشين المعجمة فى هذا الموضع وتاليه . لكن ورد فى كتاب المطر ص ٣٨ طبع ليدن ، بالسين المهملة ولم أجد له ترجمة .

(٣) عمرو بن حريث بن عمرو بن عثمان بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشى ، له ولأبيه صحبة ، ولى إمرة الكوفة لزياد ولابنه عبيد الله بن زياد ، وتوفى سنة ٨٥ . انظر الإصابة ٥٨٠٣ وتهذيب التهذيب .

(٤) أى أجمع بينهما . رتق يرتق من بابى نصر وضرب .

(٥) يقال هو أبو عذر هذا الكلام وأبو عذرته ، أى أول من قاله .

(٦) يقال هو ابن بجدتها ، للعالم بالشئ المتقن له المميز له .

قال : وقيل لرجل : كيف كَلأُ أرضِك ؟ قال : أصابتنا دِيمة بعدَ دِيمة ، على عِهاد غير قديمة[1] ، فالنَّابُ تَشبَعُ قبل الفطيمة[2] .

وقال أبو العباس : قال ابنُ الأعرابىّ : أحسنُ ما تكون المرأة غِبَّ نفاسها ، وغِبَّ بنائِها ، وغِبَّ السَّماء وغِبَّ النَّوم . وأحسنُ ما تكون الفرسُ غبَّ نتاجها .

وقيل لابنة الخُسّ : ما أحسنُ شىء ؟ قالت : « غَادية فى إثر سارية فى نَبْخاءَ قاوية[3] » . وقد قالوا : « نفخاءَ رَابية » . قالوا : ليس بها رمل ولا حجارة ، الجمع نَفاخَى . ونبتُ الرابية أحسن من نَبْتِ الأودية : لأن السَّيل يصرع الشجر فيقذفه فى الأودية ويلقى عليه الدِّمْنَ[4] . وقال : النَّبات فى موضع مُشْرِف أحسن .

وقالت أيضًا : « أحسن شىء سارية فى إثر غادية ، فى روضة أُنُف قد أُكِل منها وترك » . كذا كان عندها أحسَنَ .

---

(١) العهاد : الحديثة من الأمطار . والخبر فى اللسان (٤ : ٣٠٨) والمخصص (٩: ١٢٢)

(٢) فى اللسان : « فسره ثعلب فقال : معناه هذا النبت قد علا وطال فلا تدركه الصغيرة لطوله ، ويبقى منه أسافله فتناله الصغيرة » .

(٣) النبخاء : الأكمة أو الأرض المشرفة المرتفعة ، وهى أحسن النبات . والقاوية : التى ليس بها أحد . والخبر فى اللسان « نبخ ، نفخ » . والأزمنة والأمكنة (٢ : ١٣٢) والمخصص (١٠ – ١٤٣) .

(٤) الدمن : بالكسر : البعر والسرقين .

وقيل لأعرابىّ : أىّ مطرٍ أصابك ؟ قال : « أصابنا مُطيرٌ كسَيْلِ شِعاب السَّخْبر[١] فروّى التَّلْعَةَ المُحِلَّة » . شِعاب السَّخبر : عرضُها ضيّقٌ وطولُها قدر رميةٍ بحجر . والتَّلْعَةُ المُحِلَّة : التى تُحِلُّ بيتًا أو بيتين .

ويقال : قد حنأتِ الأرض تحنأً ، وهى حانئةٌ : اخضرّت والتفّ نبتها . فإذا أدبر المطر تغيّر نبتها وقيل : اصحامّت فهى مُصحامّةٌ .

وقال أبو داوُد الأعرابىّ : تركنا بنى فلان فى ضَغِيغَةٍ من الضغائغ[٢] – وهى العُشب والكلأ الكثير – وتركناهم فى خافية من الكلأ – فى أرض خافيةٍ منكَرة لا يتوارى ثراها[٣] ، تَقِىءُ الماءَ قَيْئًا .

ويقال بقل رابجٌ : ممتلئ ندًى وماء . وقال : هميان بن قحافة :

رعتْ من الصَّمَّانِ بَقْلاً آرجًا[٤] وصِلِّيانا ونَصِيًّا رابِجا[٥]

---

(١) السخبر : شجر إذا طال تدلت رؤوسه وانحنت . والشعاب ، بالباء ، وفى الأصل «شعار» صوابه فى اللسان (١٣ : ١٧٥) والأزمنة والأمكنة (٢ : ١٣٣) قال ابن منظور : « ويروى سيل شعاب السخبر » . وفسر شعاب السخبر بأنها منابته .

(٢) فى اللسان (١٠ : ٢٣٦) : « من ضغاضغ » محرفة ، والعبارة وردت محرفة أيضا فى الأزمنة والأمكنة (٢ : ١٣٣) . وجاءت على الصواب فى المخصص (١٠ : ١٧٣) .

(٣) الثرى : الندى .

(٤) الصمان : بفتح الصاد وتشديد الميم : أرض فيها غلظ وارتفاع . وفيها قيعان واسعة وخبارى تنبت السدر عذبة ، ورياض معشبة ، وهى لبنى حنظلة متاخمة الدهناء . و آرج : ذو الرائحة الطيبة . وفى اللسان (٣ : ١٠٣) : « روضا آرجا » .

(٥) بعده فى اللسان :

* ورغلا باتت به لواهجا *

ويقال : رعينا رِقَة الطَّرِيفة ، وهى الصِّلِّيَان والنَّصِىّ . والرِّقَة : أوّل خروجِ نباتها رَطْبًا .

وقالت اليَنَمة[١] : « أنَا اليَنَمة ، أَغْبُقُ الصَّبِىّ قبل العَتَمة[٢] ، وأَكُبُّ الثُّمال فوق الأَكمة[٣] » . الثُّمال : كهيئةِ زَبَد الغنم[٤] .

وقال أبو العباس : قيل لأعرابىّ : هل لك فى البادية ؟ قال : « أمّا دامَ السَّعْدانُ مستلقيًا فلا » . وهو أبدًا مستلق . كَرِه البادية[٥] .

مجلس

قال أبو العباس أحمد بن يحيى : « ما يعجبنى أن يقوم إلّا زيد » قال مثل هذا كثيرٌ فى القرآن ، وهو بمعنى غير . قال : والعرب تقول : « ما كائنٌ إلّا قائمًا » تذهب به مذهب غير .

---

(١) الينمة : عشبه طيبة إذا رعتها الماشية كثر رغوة ألبانها فى قلة .

(٢) الغبوق : شرب العشى . وفى اللسان (١٦ : ١٨٥) « بعد العتمة » صوابه فى مادة (ثمل ص ٩٩) والأزمنة والأمكنة (٢ : ١٣٣) . تقول : درى يعجل للصبى ؛ لأن الصبى لا يصبر .

(٣) الثمال ، بالضم : جمع ثمالة ، وهى رغوة اللبن إذا حلب .

(٤) زبد اللبن ، بالتحريك : رغوته ؛ والزبد أيضا : اللغام الأبيض تتلطخ به مشافر الدواب . وفى اللسان (١٣ : ٩٩) « وزعم ثعلب أن الثمال رغوة اللبن. فجعله واحداً لا جمعاً » .

(٥) الخبر فى الأزمنة والأمكنة (٢ : ١٣٣) .

وأنْشَد :

لقينـا بهم أطفـالَهم وكُهولَهم عَلَيهمْ سَرابِيلُ الحديدِ المسرَّدُ [١]

حدثنا أبو العبَّاس ، ثنا عمر بن شبّة ، ثنا ابنُ عائشةَ قال : سمعتُ أبي يقول : قيل ليحيي بن الحكم بن أبي العاص : ما بالُ عمرَ بن عبد العزيز ، ومولدُه مولدُه ، ومنشؤه منشؤه ، جاء على ما رأيت ؟ قال : إنَّ أباه أرسلَه وهو شابٌّ إلى الحجاز سُوقةً يُغضِب النَّاس ويغضبونه ، ويخَصُّهم ويخَصُّونه . والله لقد كان الحجَّاج وما عربيٌّ أحسنَ منه أدبًا ، فطالت وِلايته ، وكان لا يسمع إلّا ما يُحِبّ ، فمات وإنَّه لأحمق سَيِّئُ الأدب [٢] .

قال أبو العبَّاس : حدثنا ابن شبَّة ، ثنا ابن عائشة قال : سمعتُ أبي يقول : كتب عبدُ العزيز بنُ مروان إلى ابنة عمر : أن تزوَّجْ بنت إبراهيم بن محمد بن طلحة . قال : فتزوَّجَها ، فكتب بذلك إلى أبيه . فكتب إليه : تزوَّج بنتَ عمِّها وأنت أنت . قال : فخطب إلى عمِّها . ابن معمر [٣] بنته فزوَّجه . قال : وكان إبراهيم يدخل بين الخصوم ، فقال عمر لبنته : قولي لأبيك يكفَّ عن الدخول . قال : فكان لا يكفُّ عن ذلك . قال : فدخل على ابنته . فقال : كيف زَوجُك ؟ قالت :

(١) المسرد : المصنوع حلقة . وفى الأصل : « المسود » .

(٢) ورد هذا الخبر فى تاريخ دمشق لابن عساكر (٣١ : ٤٩٩) من مخطوطة التيمورية .

(٣) كذا ورد هذا الاسم وجاء ما قبله مطموسا . وهو لا يتفق مع سبق ذكره من أنه عم بنت إبراهيم بن محمد بن طلحة .

بخير . قال : فكيف عيشُك ؟ قالت : تـأتينى مائدةٌ غُدوةً أصيب منها أنا ومَن حَضَرنى ، وأُخرى عشِيّةً أصيبُ منها أنا ومَن حَضَرنى . قال : أَوَمالكِ خِزانةٌ تعوّلين عليها إن لم يك مسلم[1] بأضعاف ذلك ؟ قالت : لا . فأرسلَ إليها ما يحمله الرجال أولهم عندها وآخرُهم فى السوق . فسأل عمرُ عن ذلك فأخبرَته ، فملأ خِزانتَها بعد .

حدثنا أبو العباس قال : ثنا عمر بن شبة قال : ثنا ابن عائشة قال : حدثنى سعيد بن عامر ، ثنا جُويريَة بن أسماء ، قال : كان نافع إذا حدَّثَنا عن أسلم قال : حدثنا أسلم مولى عمر ، الأسودُ الحبشى[2] أما والله ما به عيب ، وإن كان لرجُلًا صالحا ، ولكن بلغنى أن بَنِيه ادَّعَوا[3] .

حدثنا أبو العباس ، ثنا عمربن شبة ، ثنا ابن عائشة ، قال : حدثنى سعيد بن عامر . عن جويرية قال : اقتسم عبد الله وعُبيد الله ابنا عبّاس دارًا ، فقال عبدُ الله : يا غلامُ إنَّ أخِى قد ترك لى ذراعًا فأَقِمْ حبْلَك .

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) أسلم ، حبشى بجاوى ، ماشتراه عمر بن الخطاب سنة١٢ وتوفى فى خلافة عبد الملك بن مروان وهو ابن أربع عشرة ومائة سنة ، وهو كثير الرواية عن عمر ، كما أن ابنه زيد ابن أسلم كثير الرواية عن أبيه . انظر المعارف ٨٢ والإصابة ١٣٠ ، ٤٤٦ وتهذيب التهذيب (١ : ٢٦٦) .

(٣) ورد هذا الخبر فى تاريخ ابن عساكر (٥ : ٤٥٤) مخطوطة التيمورية . وفى رواية أخرى عند ابن عساكر : « لا والله ما أريد غيبةبنيه ، بلغنى أنهم يقولون (هم) عرب » . وفى رواية ثالثة عنده : « وقد زعم لى بعض أهل العلم بالنسب أن أهل بيت أسلم يزعمون أنهم من الأشعريين » .

فقال عبيدُ الله : دَعْ لأَخى ذراعين . فقال : يا غلامُ ، إنَّ أخى قد تركَ لى ذراعين ، فأقِم حَبْلَك . فقال : يا أخى كأنَّك تحبُّ أن تكون الدّار كلها لك ؟ قال : نعم . فقال : هى لَك.

حدثنا أبو العبّاس [ثنا] عمر بن شبَّة ، حدَّثنى ابن عائشة قال : سمعت أبى يقول : كانت دار محمد بن سليمان لرجل من بنى مخزوم ، فوفد إلى هشام فقال : يا أمير المؤمنين إنَّ دار عبد الله بن نافع بن الحارث فى وجْه دارى ، فائْذَنْ لى أن أُقدِّم دارى حتّى تستوىَ بها . فقال : وأين دارُك ؟ قال : فى مِرْبد البصرة . قال : لا والله ، ولا تُشترَى .

حدَّثنا أبو العبَّاس ، ثنا عُمر بن شبَّة ، حدَّثنى ابن عائشة ، حدثنى أبى قال : كان حرب ، وابن جُدْعان ، وهشام بن المغيرة يُجلسُون دائمًا حربًا بينهم ، فمات أوَّلُهم وقعد أبو سفيان مقعدَ أبيه . فسكت عبد الله ابن جُدعان . قال هشام : إنَّ أباك لم يَقْعُد بينا [إلَّا لِـ [1]] أنَّه كان خيرنا . فوالله ما عاد .

وأنشد :

* حتّى إذا أشرف فى جَوْفٍ جَبا *

قال : وكان أنشده القرَّاءُ وقد أخطأ فى إنشاده على الإضافة ، إنما « فى جوفٍ جَبا » يصف حمارًا . جبأ : رجع . وجوف : اسم وادٍ .

(١) تكلة يقتضيها الكلام .

ويقال : بعيرٌ ذَبٌّ[1] ، إذا كانَ لايتقارُّ فى موضعٍ إذا دخل الريف.

وأنشَـد :

وكأنَّنـا فيهمْ جِمـالٌ ذَبَّـةٌ أُدْمٌ طَلاهُنَّ الكُحيل وقَارُ[2]

ويقال : ما بها كَنِيع[3] ، ولادِبيج[4] ، ولالَاعِى قَرْو[5] . والكانع : الدّانِى الثابت ؛ وكنع : دنا .

وأنشدنا أبو العبَّاس عن ابن الأَعرابىِّ :

ومَوْضِع زَبْنٍ لَا أُرِيـدُ مَبِيتَهُ كأَنِّى بهِ مِنْ شِدَّةِ الرَّوعِ آنِسُ[6]

قال أبو العبَّاس : فقال له شيخٌ عنده : ليس كذا أنشدتَنا يا أبا عبد الله ! قال : كيف أنشدتك ؟ قال : «وموضع ضِيقٍ» . قال : يا سُبحان الله ، تصحَبُنَا منـذ كذا وكذا ، لاتَعْـلَمُ أنَّ «زَبْن» و «ضِيق» واحد .

---

(١) ويقال أيضا : «ذب الرياد» ورياده : أتنه التى ترود معه .

(٢) أنشده فى اللسان (١ : ٣٦٧) . والكحيل : شىء تطلى به الإبل ، وقيل هو النفط

(٣) فى اللسان : «وما بالدار كنيع أى أحد ، عن ثعلب . والمعروف كتيع» ، أى بالتاء لا اللون .

(٤) فى اللسان : «ابن الأعرابى : ما بالدار دبيح ولا دبيج ، بالحاء والجيم ، والحاء أفصحهما» . وفى مادة (دبج) من اللسان : «ووجدت بخط أبى موسى الحامض : ما فى الدار دبيج ، موقع بالجيم ، عن ثعلب . وفى الأصل : «ذبيج» تحريف .

(٥) فى اللسان (٢٠ : ١١٦) : «وما بالدار لاعى قرو ، أى ما بها أحد . والقرو : الإناء الصغير ، أى ما بها من يلحس عسا ، معناه ما بها من أحد» .

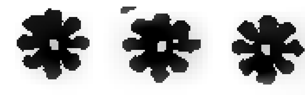
(٦) البيت من قصيدة المرقش الأكبر فى المفضليات (٢ : ٢٤ — ٢٧) وروايته فى المفضليات : «ومنزل ضنك» . وقد جاءت برواية ثعلب فى اللسان (١٧ : ٥٦) .

المِدْمَاك : الدَّرجة سَافًا بعد مساف[١] .

أجرته إجازة وأقمته إقامة ، جاءُوا بالهاء عوضًا مِمَّا أَلْقَوْا .

ويقال لُذْت به لِيَاذًا ، إذا احتصنت به[٢] ، ولاوَذته لواذًا ، إذا حِدت عنه .

وقال الفرَّاء : قال لى أعرابىٌّ يمنى[٣] : « آلقِصَارُ أحبُّ إليك أم الحَلْق[٤] » فجاء به على الأصل[٥] .



(١) كل سطر من اللبن والطين فى الجدار ساف ومدماك .

(٢) فى القاموس : اللوذ بالشىء : الاستتار والاحتصان به » . وفى اللسان : « وقال ثعلب : لذت به لواذا احتضنت » وصواب الكلمة الأخيرة فى اللسان : « احتصنت » . وفى الأصل هنا : « لذت منه لياذاً إذا اتصلت به » . والوجه ما أثبت .

(٣) الذى فى معانى القرآن للفراء : « قال لى أعرابى منهم على المروة » ، ويريد بكلمة منهم » من اليمن .

(٤) القصار ، بكسر القاف وتخفيف الصاد : تقصير الشعر . وبعده فى معانى القرآن « يستفتينى »

(٥) أى على الشائع فى وزن المصادر . لكن ذكر الفراء فى معانى القرآن الورقة ٢٠٩ أن اليمن يقولون كذبت به كذاباً وخرقت القميص خراقاً. ثم قال : « وكل فعلت فصدرة فعال فى لغتهم مشدد » .

وقد روى هذا الخبر فى اللسان (٦ : ٤٠٧) بلفظ : « قلت لأعرابى يمنى » ، وهذا تحريف .

أبو بكر الرازى

من كتاب : (١) الطب الروحانى :

الفصل الأول : فى فضل العقل ومدحه .

الفصل الثانى : فى قمع الهوى وردعه وجملة من رأى فلاطن الحكيم .

(٢) من كتاب : السيرة الفلسفية .

هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازى ، فيلسوف ، اشتهر فى الطبّ والكيمياء وجمع بينهما ، وظل حُجَّة الطب فى أُوربا حتّى القرن السابع عشر الميلادى ، وهو فى نظر المؤرخين من أَعظم أَطباء القرون الوسطى ، ولد فى الرى سنة ٢٥١ هـ – ٨٦٥ م وتعلَّم بها ، فَدَرَس الرياضيات والفلك والمنْطَق والأَدب والكيمياء ، ثم عكف على الطب والفلسفة ، فنبغ واشتهر. وذكر ابن النديم أنَّ الرازى تتلمذ فى الفلسفة على رجل يُلَقَّب بالبلخى ، وكان رجلًا حسن المعرفة بالفلسفة والعلوم القديمة. وتولَّى الرازى تدبير مارستان الرى ثم انتقل إلى بغداد بعد سنّ الثلاثين ، واتصل بالخليفة العباسى عضد الدولة ، وتولى الرازى رئاسة الأَطباء فى البيمارستان العضدى. ولم ينعم بالاستقرار فى حياته نظرًا لتقلب أهواء الأُمراء واضطراب الأَوضاع السياسية على أيَّامِه .

وكان الرازى يتبع فى الطب مذهب أبقراط وجالينوس ، أما آراؤه الفلسفية فقد تركت أعمق الأثر فى بيئات الشيعة . وللرازى مؤلفات كثيرة سمى ابن أبى أصيبعة منها (٢٣٢) كتابا ورسالة وأكبر مؤلفاته الطبية « الحاوى » وقد ترجمت الأجزاء الباقية منه إلى اللاتينية . ومات الرازى ببغداد ، واختلف المؤرخون فى تاريخ وفاته ، وذكروا أنها كانت سنة ٣١١ أو سنة ٣٢٠ هـ وأخيرًا نشر روسكا Ruska مقالًا عن البيرونى ، ترجم فيه فقرات من « فهرست كتاب الرازى » الذى وضعه البيرونى ، وفيه تعيين وفاة الرازى فى الخامس من شعبان سنة ٣١٣ هـ .

* * *

من كتاب

« الطب الروحانى »

الفصل الأول

فى فضل العقل ومدحه

إن البارئ عزّ اسمه إنما أعطانا العقل وحبانا[1] به لننال ونبلغ به من المنافع العاجلة والآجلة غاية ما فى جوهر مثلنا نيله وبلوغه ، وإنه أعظم نعم الله عندنا وأنفع الأشياء لنا وأجداها علينا . فبالعقل فضلنا على

(١) حبانا : خصنا .

الحيوان غير الناطق حتى ملكناها وسسناها[1] وذللناها وصرفناها فى الوجوه العائدة منافعُها علينا وعليها ، وبالعقل أدركنا جميع ما يرفعنا ويحسنُ ويطيبُ به عيشُنا ونصل إلى بغيتنا ومرادنا .

وبالجملة فإنه الشىء الذى لولاه كانت حالتُنا حالة البهائم والأطفال والمجانين . والذى به نتصور أفعالَنا العقليَّة قبل ظهورها للحس فنراها كأنْ قد أحسسناها ثم نتمثل بأفعالنا الحسية صورها فتظهر مطابقة لما تمثلناه وتخيَّلنَاه منها . وإذا كان هذا مقداره ومحله وخطره وجلالته ، فحقيقٌ علينا أن لا نحطه عن رتبته ، ولا ننزلهُ عن درجته ، ولا نجعله وهو الحاكم محكومًا عليه ، ولا وهو الزمامُ مزمومًا ، ولا هو المتبوع تابعًا ، بل نرجع فى الأمور إليه ، ونعتبرها به ، ونعتمد فيها عليه ، فنمضيها على إمضائه ، ونوقفها على إيقافه ، ولا نسلط عليه الهوى الذى هو آفته ومكدره ، والحائدُ به عن سننه[2] ومحجته وقصده واستقامته ، والمانعُ من أن يصيبَ العاقل به رشده ، وما فيه صلاح عواقب أمره ، بل نروضه[3] ونذلله ونحمله ونجبره على الوقوف عند أمره ونهيه ، فإنَّا إذا فعلنا ذلك صفا لنا غاية صفائه ، وأضاء لَنَا غاية إضاءته ، بنا نهاية قَصْد بلوغنا به ، وكنا سُعَدَاء بما وهَبَ الله لنا منه ومنَّ علينا به ،

---

(١) سسناها : تولينا قيادتها .

(٢) سننه : طريقته ومثاله .

(٣) نروضه : تذلله .

فى قمع الهوى وردعه وجملة

من رأى فلاطن الحكيم

« أما على إثر ذلك فإنا قائلون فى الطب الروحانى الذى غايته إصلاح أخلاق النفس وموجزون غاية الإيجاز فنقول : إن أشرف الأصول وأجلّها وأعونها على بلوغ غرض كتابنا هذا قمع[1] الهوى ، ومخالفة ما يدعو إليه الطباع فى أكثر الأحوال ،وتمرين النفس على ذلك وتدريجها إليه ، فإن أول فضل الناس على البهائم هو هذا . أعنى ملكة الإرادة ، وإطلاق الفعل بعد الرويّة[2] . وذلك أن البهائم غير المؤدبة واقفة عندما يدعوها إليه الطباع ، عاملة به غير ممتنعة عنه ولا مروية فيه فإنك لا تجد بهيمة غير مؤدبة[3] ، تمسك عن أن تروث أو تتناول ما تغتذى به مع حضوره وحاجتها إليه ، كما تجد الإنسان يترك ذلك ويقهر طباعه عليه لمعانٍ عقلية تدعوه إلى ذلك ، بل تأتى منها ما يبعثها عليه الطباع غير ممتنعة عنه ولا مختارة عليه .

وهذا المقدار ونحوه من الفضل على البهيمة فى زمّ[4] الطبع هو لأكثر الناس وإن كان ذلك تأديبًا وتعليمًا ، إلا أنه عام شامل وقريب

---

(١) قمع الهوى : منعه وكفه .

(٢) الروية : التفكير والنظر فى الأمور .

(٣) مؤدبة : مروضة .

(٤) زم الطبع : مأخوذ من الزمام وهو الحبل الذى يشد به البعير .

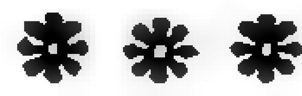
واضح يعتاده الطفل وينشأ عليه ، ولا يحتاج إلى الكلام فيه ، على أن فى ذلك بين الأمم تفاضلًا كثيرًا وبونًا بعيدًا . وأما البلوغ من هذه الفضيلة أقصى مايتهيأ فى طباع الإنسان فلا يكاد يكمله إلّا الرجل الفيلسوف الفاضل . وبمقدار فضل العوامّ من الناس على البهائم فى زمّ الطبع والملكة للهوى ينبغى أن يكون فضلُ هذا الرجل على العوام .

ومن ها هنا نعلم أنّ منْ أراد أن يزيّنَ نفسَهُ بهذه الزينة ويكملَ لها هذه الفضيلة فقد رام أمرًا صعبًا شديدًا ، ويحتاج أن يوطنّ نفسه على مجاهدة الهوى ومجالدته ومخالفته ولأنّ بين الناس فى طباعهم اختلافًا كثيرًا وبونًا بعيدًا ، صار يسهلُ أو يعسُرُ على البعض دون البعض منهم اكتسابُ بعض الفضائل دون بعض ، واطّراح بعض الرذائل دون بعض . وأنا مبتدئ بذكر كيفية اكتساب هذه الفضيلة — أعنى قمع الهوى ومخالفته — فأقول : إن الهوى والطباع يدعوان أبدًا إلى اتباع اللّذات الحاضرة وإيثارها[1] من غير فكر ولاروية فى عاقبة ، ويحثّان عليه ، ويُعجلان إليه ، وإن كان جالبًا للألم من بعدُ ومانعًا من اللذة ما هو أضعاف لما تقدم منها . وذلك أنهما لايريان إلّا حالتهما فى الذى هما فيه لاغير ، وليس بهما إلّا اطراح الألم المؤذى عنهما وقتهما ذلك ، كإيثار الطفل الرّمِد حكّ عينه وأكلَ التمر واللعب فى الشمس .

---

(١) إيثارها : تفضيلها .

ومن أجل ذلك يحق على العاقل أن يردَعَهما[1] ويَقْمَعَهما ولا يُطْلقَهما إلّا بعد التَثَبُّت والنظر فيما يعقبانه ، ويمثلَ ذلك ويزنَهُ ثم يتّبعَ الأرجحَ لئلا يألم من حيث ظنّ أنه يلتذ ، ويَخْسَر من حيث ظنّ أنه يربح . فإن دخلت عليه من هذا التمثيل والموازنة شبهة لم يطلق الشهوة لكنْ يقيم على ردْعها ومنْعها. وذلك أنه لا يأمن من أن يكون فى إطلاقها من سوء العاقبة ما يكون إيلامُه واحتمالُ مؤونته[2] أكثر من احتمال مؤونة الصبر على قمعها أضعافًا مضاعفة ، فالحزم إذًا فى منعها .



من كتاب « السيرةُ الفلسفية »

وقد ورد ذكره فى فهارس مؤلفات الرازى ، واختلف القدماء فى عنوانه فسماه أبو الريحان البيرونى كتاب السيرة الفلسفية ، وسماه القفطى وابن النديم « كتاب فى السيرة الفاضلة » .

« إنه لما كان الناس مختلفين فى أحوالهم فمنهم غذِىّ[3] نعمة ومنهم غذِىّ بؤس ، ومنهم من تطالبه نفسه بالشهوات مطالبة أكثر كالغرمين بالنساء أو بالخمر أو حب الرياسة ونحو ذلك من الأمور التى

(١) يردعهما . : يكفهما .

(٢) مؤونته : مؤونته ، ومان القوم احتمل قوتهم ومأن للأمر اتخذ عدته وأهبته .

(٣) غذى نعمة وغذى بؤس : من تربى فى النعمة ومن تربى فى البؤس .

فيها بين الناس تفاوت كثير ، صار الألم الذى يقع بهم من قمع شهواتهم مختلفًا اختلافًا كثيرًا بحسب اختلاف أحوالهم . فصار المولود من الملوك والناشئ فى نعمهم لا تحتمل بشرته خشن الثياب ولا تقبل معدته بشع الطعام بالإضافة إلى ما يقنع به المولود من العامة ، لكنْ يتألّم من ذلك ألماً شديداً ، أو المعتادون أيضًا إصابة لذة من اللّذات يتألمون عند المنع منها وتكون المؤونة عليهم متضاعفة وأبلغ وأشدّ ممن لم يعتدْ تلك اللذة ، ومن أجْل ذلك أنه لا يمكن أن يكون تكليفهم كلهم تكليفًا سواءً بل مختلفًا بحسب اختلاف أحوالهم . فلا يُكلّف المتقشّف من أولاد الملوك أن يلزمَ من الطعام والشراب وسائر أمور معايشه ما يكلّف أولادُ العامة إلّا على تدريج إن دعتْ ضرورةٌ . لكن الحدّ الذى لا يمكن أن يتجاوز هو أن يمتنعوا من الملاذ التى لا يمكن الوصول إليها إلّا بارتكاب الظُّلم والقتل وبالجملة بجميع ما يُسخطُ اللهَ ولا يجبُ فى حكم العقل والعدل . ويباحُ لهم ما دون ذلك . فهذا هو الحدُّ من فوق ، أعنى فى إطلاق التنعم .

وأما الحدُّ من أسفلَ أعنى فى التقشُّف والتقلُّل فأنْ يأكلَ الإنسانُ ما لا يضرُّه ولا يمرض عليه ، ولا يتعدى إلى ما يستلذّه غايةَ الاستلذاذ ويشتهيه فيكون القَصْدُ إليه للذّة والشّهوة لا لسد الجوع . ويلبس ما تحتمله بشرتُه من غير أذى . ولا يميل إلى الفاخر والمُنقّش من اللباس ويسكن ما يقيه من الحرارة والبَرْد المفرطيْن ، ولا يتعدى إلى المساكن الجليلة البهيّة المنقوشةِ المزخرفةِ إلّا أن يكون له من سعة المال ما يمكنْ أن يتسعَ معه فى مثل هذه الأُمور من غير ظلم ولا تعدٍّ ولا إجْهادٍ لنفسه فى الاكتساب .

لذلك يُفضل فى هذا المعنى المولودون من الآباء الفقراء ، والناشئون فى الأحوال الرَّثة [٢] لأن التَعلُّلَ والتقَشُّفَ على أمثال هؤلاء أسهل ، كما كان التقلل والتقشف على سقراط أسهلَ منهما على أفلاطون . وما بين هذين الحدَّيْن فمُباح لا يخرج به مستعملهُ من اسم الفلسفة بل يجوز أن يُسمى بها ، وإنْ كان الفضْلُ فى الميْل إلى الحدّ الأسفل دون الأعلى ، وكانت النفوس الفاضلة وإن كانت مصاحبةً لأجساد غُذيتْ فى نعمة تأخذ أجسادها بالتدرّج إلى الحدّ الأسفل . فأما مجاوزةُ الحدّ الأسفل فخروجٌ عن الفلسفة إلى مثل ما ذكرنا من أحوال الهند والمنانيّة [٣] والرهبان والنُّسّاك ، وهو خروج عن السيرة العادلة ، وإسخاط الله تعالى. بإيلام النفوس باطل ، واستحقاق للإخراج عن اسم الفلسفة . وكذلك الحالُ فى مجاوزة الحد الأعلى ، نسأل الله واهبَ العقل ، وفارجَ الغم ، وكاشفَ الهم ، توفيقنا وتسديدنا ومعونتنا على ماهو الأرْضَى عنده والأزْلَفُ [٤] لنا لديه .

وجملة أقول : إنّه لما كان البارئ عزّ وجلّ هو العالمَ الذى لا يَجْهَلُ ، والعادلَ الذى لايجورُ ، وكان العلمَ والعدْلَ والرحمةَ بإطلاق ، وكان لنا بارئاً ومالكاً ، وكنا له عبيدًا مملوكين ، وكان أحبُّ العبيد إلى مواليهم آخذَهُمْ بسيرهم ، وأجْراهمُ على سَنَنهم ، كان أقربَ عبيد الله

(١) الأحوال الرثة : أى الأحوال المهينة من رث الثوب وأرث قدم وبلى .

(٢) أحوال الهند والمنانية : يقصد مذاهب الهند ومذهب مانى الفارسى فى الزهد والتقشف

(٣) الأزلف : أى الأقرب .

إليه أعلمهُم وأعدلُهم وأرأفُهم. وكل هذا الكلام مُرادُ قول الفلاسفة جميعاً « إن الفلسفة هي التشبه بالله عز وجلَّ بقدْر مافى طاقة الإنسان »، وهذه جملة السيرة الفلسفية فأَما تفصيلها فعلى مافى كتاب « الطب الروحانى » فإنَّا قد ذكرنا هناك كيف تنتزع الأَخلاقُ الرديئةَ عن النفس، وكم مقدارُ ما ينبغى أن يُجْرَى عليه المتفلسف أمرَهُ فى الاكتساب والاقتناء والإنفاق وطلب مراتب الرياسة .

وإذْ قدْ بينَّا ما أَردْنا بيانَهُ فى هذا الموضوع فنرجعُ ونبيِّن ما عنْدنا ونذكر الطاعنين عليْنا ، ونذكر أنا لم نسِرْ بسيرة إلى يومنا هـذا – بتوفيق الله ومعونته – نستحقُّ أن نخرجَ بها عن التسمية فيلسوفاً وذلك أن المستحقَّ لمحو اسم الفلسفة عنه مَنْ قصرَّ فى جزءىْ الفلسفة جميعاً – أعنى العلْمَ والعملَ – بجهْل ما للفيلسوف أن يعلمَهُ ، أو سار بما ليس للفيلسوف أن يسيرَ به ونحن بحمد الله ومَنّه وتوفيقه وإرشاده بُرآءُ من ذلك .

أما فى باب العلم فمِنْ قِبلَ أَنَّا لو لم تكن عندنا منه إلا القوةُ على تأْليف مثْلِ هذا الكتاب لكان ذلك مانعاً عن أن يُمْحَى عنا اسم الفلسفة فضلاً عن مثل كتابنا « فى البرهان » و « فى العلم الالهى » و « فى الطب الروحانىّ » وكتابنا « فى المدخل إلى العلم الطبيعى » الموسوم « بسمع الكيان » ومقالتنا « فى الزمان والمكان والمُدّة والدهر والخلاء » و « فى شكل العالم » و « سبب قيام الأَرض فى وسط الفلك » و « سبب تحرك الفلك على استدارة » ومقالتنا « فى التركيب » و « أن للجسم

حركةً من ذاته وأن الحركة معلومة » ، وكتبنا فى النفس ، وكتبنا فى الهيولى ، وكتبنا فى الطبّ كالكتاب « المنصورى » ،وكتابنا « إلى من لا يحضره طبيب » ، وكتابنا « فى الأدوية الموجودة » والموسوم « بالطب الملوكى » ، والكتاب الموسوم « بالجامع » الذى لم يسبقنى إليه أحد من أهل المملكة ، ولا احتذى فيه أحد بعدُ احتذائى وحذوى ، وكتبنا فى صناعة الحكمة التى هى عند العام الكيميا ، وبالجملة فقُرابةُ مائتى كتاب ومقالة ورسالة خرجتْ عنى إلى وقت عملى هذه المقالة فى فنون الفلسفة من العلم الطبيعىّ والإلٓهى . فأما الرياضياتُ فإنى مُقرٌّ بأنى إنما لا حظتُها ملاحظةً بقدْر مالم يكنْ لى منها بُدٌّ ولم أُفْنِ زمانى فى التمهرُّ بها بالقصْد منى ذلك لا للعجْز عنه ، ومن شاء أوضحْت له عُذْرى فى ذلك بأن الصوابَ فى ذلك ما عملتُه لا ما يعملهُ المُفْنون لأعمارهم فى الاشتغال بفضول الهندسة من الموسومين بالفلسفة : فإن لم يكن مبلغى من العلم المبلغَ الذى استحقُّ أن أُسمَّى فيلسوفاً فَمنْ هو ليت شعرى ذلك فى دهرنا هذا ؟ .

وأما الجزءُ العملىُّ فإنى بعون الله وتوفيقه لم أتعدَّ فى سيرتىّ الحدّيْن اللذيْنِ حدّدْتُ ، ولم يظهر من أفعالى ما استحققتُ أن يُقال إنَّه ليست سيرتى سيرةً فلسفية . فإنى لم أصحب السلطانَ صحْبةَ حاملِ السلاح ولا متولّى أعماله ، بل صحبتُه صحبةَ متَطَبب ومنادم يتصرّف بيْن

أمرين : أمّا فى وقت مرضه فعلاجُه وإصلاح أمر بدنه ، وأمّا فى وقت صحة بدنه فإيناسُه والمشورةُ عليه -يعلم الله ذلك منى- بجميع مارجوْتُ به عائدة صلاح عليه وعلى رعيّته . ولا ظهر منى على شرَهٍ فى جمْع مالٍ وسَرف فيه ، ولا على منازعات الناس ومخاصماتهم وظلمهم ، بل المعلومُ منى ضدّ ذلك كلّه والتجافى عن كثير من حقوقى . وأما حالتى فى مطعمى ومشربى ولهْوى فقدْ يعلم مَنْ يُكثرُ مشاهدة ذلك منى أنّى لم أتعدّ إلى طرف الإفراط ، وكذلك فى سائر أحوالى ممّا يشاهده هذا من ملبس أو مركوب أو خادم أو جارية .

فأما محبتى للعلم وحرصى عليه واجتهادى فيه فمعلومٌ عند من صحبنى وشاهد ذلك منى أنى لم أزلْ منذ حداثتى وإلى وقتى هذا مُكبًّا عليه حتى إلى متى اتفق لى كتابٌ لم أقرأه أو رجل لم ألقه لم ألتفتْ إلى شغل بتّةً -ولو كان فى ذلك علىّ عظيمُ ضرر- دون أن آتى على الكتاب وأعرف ما عند الرجل ؛ وإنه بلغ من صَبْرِى واجتهادى أنى كتبْتُ بمثل خط التعاويذ[1] فى عام واحد أكثر من عشرين ألف ورقة ، وبقيْتُ فى عمل الجامع الكبير خمس عشرة سنة أعملُ الليْلَ والنهارَ حتى ضعف بصرى وحدثَ علىَّ فسْخٌ فى عَضَل يدى[2] ، يمنعاننى فى وقتى هذا عن القراءة

(١) خط التعاويذ : يقصد الخط الذى تكتب به التعاويذ فى نمنمته ودقته وصغر حجمه

(٢) فسخ فى عضل اليد : أى ضعف واسترخاء فى عضل اليد .

والكتابة ، وأنا على حالى لا أدعهما بمقدار جهدى وأستعين دائماً بمن يقرأ ويكتب لى .

فإن كان المقدارُ الذى أنا عليه من هذه الأُمور عند هؤُلاء القوم يُحطّنى عن رتبة الفلسفة فى العمل ، وكان الغرضُ من حَذْو سيرة الفلسفة عندهم غيْرَ ما وصفنا فليُثْبتوه لنا مشاهدةً أو مكاتبةً لنقبلَهُ منهم إن جاءوا بفضل علمٍ ، أو نردّه عليهم إن أثبتْنا فيه موضعَ خطأً أو نقص .

وَهَبْ أنى قد تساهلْتُ عليهم وأقررْتُ بالتقصير فى الجزء العملىّ ، فما عسى أن يقولوا فى الجزء العلمىّ ؟ فإن كانوا استَنْقصُونى فيه فليُلْقوا إلىّ ما يقولونه فى ذلك لننظر فيه ونُذعن من بعدُ بحقهم أو نرُدَّ عليهم غلطهم . فإن كانوا لا يستنقصوننى فى الجزء العلمىّ فأُولى الأَشياء أن ينتفعوا بعلمى ولا يلتفتوا إلى سيرتى ليكونوا على مثل ما يقول الشاعر :

اعمَلْ بعلمى فإن قصّرْتُ فى عملى ينفعْكَ علمى ولا يَضْرُرْكَ تقصيرى

فهذا ما أردنا أن نودعَ فى هذه المقالة . ولواهب العقل الحمْدُ بلانهاية كما هو أهله ومستحقُّه وصلى الله على المُصْطَفَيْن من عباده والخيِّرات من إمائه .

* * *

ابن طباطبا

محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت ٣٢٢ هـ)[١]

ولد بأصبهان فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، ويتصل نسبه بالحسن بن على بن أبى طالب ، فهو من الأشراف العلويين . ونشأ بمدينة أصبهان ، وأخذ العلم والأدب على بعض مشاهير علمائها وأدبائها واشتهر بالذكاء ، والفطنة ، وصفاء القريحة ، وصحة الذهن ، وجودة المقاصد على قول ياقوت فى معجم الأدباء :

أحب العلم ، وجد فى طلبه ، واهتم بعلم النجوم ، كما برع فى الإنشاء ونوه بمقدرته على القول بهذه العبارة التى رويت عنه :

« والله أنا أقدر على أبى الكلام من واصل بن عطاء » . ويروى أنه نظم قصيدة على لسان رجل كان لايحسن إخراج حرفين ، فتحاشى فيها كل لفظ وردا فيه على ما فعل واصل فى خطبته المشهورة التى تجنب فيها ذكر الراء .

وأما شعره ، فقد أشاد العلماء بمقدرته فيه ، وبأنه كان سريع الخاطر ينشد على البديهة .

(١) تراجع فى ترجمته : معجم الأدباء لياقوت الحموى ج ١٧ ، والمحمدون من الشعراء وشعراء الشيعة وخاص الخاص للثعالبى .

وكانت له مع بعض شعراء عصره مطارحات ومحاوبات منهم من كان ببلده أصبهان ومنهم من كان خارجها كابن المعتز الشاعر المشهور والأمير والخليفة ليوم واحد ببغداد .

وكان ابن المعتز يقول عنه أنه ليس فى ولد الحسن بن على من يشبهه فى الشعر إلى عصره . وكان لهجاً بشعره ، مقدماً له على سائر أهله من الحسنيين .

قال ياقوت : وكان أبو الحسن – ابن طباطبا – طوال أيامه مشتاقاً إلى عبد الله ابن المعتز متمنياً أن يلقاه أو يروى شعره ،فأما لقاؤه فلم يتفق له لأنه لم يفارق أصبهان قط ، وأما ظفره بشعره فإنه اتفق له فى آخر أيامه » .

وقد تراسل الشاعران لإعجاب كل منهما بصاحبه ، وذكرت بعض كتب الأدب نماذج من مراسلاتهما شعراً ونثراً .

واتصل ابن طباطبا بابن فارس اللغوى المعروف ، وروى عنه هذا العالم بعضاً من شعره . وتوفى أبو الحسن سنة ٣٢٢ هـ بعد حياة حافلة بالعلم والأدب وقول الشعر ، وأعقب فى أصبهان ، وكان من عقبة علماء وأدباء ونقباء مشاهير .

* * *

من كتاب عيار الشعر :

الشـــعر وأدواته

الشعرُ – أسعدك الله – كلام منظوم ، بائن عن المنثور الذى يستعمله الناس فى مخاطباتهم ، بما خُصّ به من النظم الذى إن عُدِلَ عن جهته مجّتهُ الأسماعُ ، وفسَد على الذّوق . ونظمُه معلومٌ محدودٌ ؛ فمن صحّ طبعُه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانةِ على نظم الشعرِ بالعَرُوضِ التى هى ميزانُه ، ومن أضطرَبَ عليه الذوقُ لم يَستَغْنِ عن تصحيحه وتقويمه بمعرفةِ العُرُوضِ والحِذق به ، حتى تعتَبَرَ معرفتُه المستفادةُ كالطّبعِ الذى لاتكلُّف معه .

وللشعر أدواتٌ يجبُ إعدادُها قبل مِراسِه ، وتكلُّفِ نظمه . فمن تعصّتْ عليه أداة من أدواته ، لم يكمل له ما يتكلفه منه ، وبان الخلل فيما ينظمه ، ولحقته العيوبُ من كلّ جهة .

فمنها : التوسّع فى علم اللغة ، والبراعة فى فهم الإعراب ، والرواية لفنون الآداب ، والمعرفة بأيام الناس وأنسابهم ، ومناقبهم ومثالبهم ، والوقوف على مذاهب العرب فى تأسيس الشعر ، والتصرف فى معانيه وفى كل فن قالته العرب فيه ؛ وسلوك سُبُلها ومناهجها فى صفاتها ومخاطباتها وحكاياتها وأمثالها ، والسنن المستدلة منها ، وتعريضها وتصريحها ، وإطنابها وتقصيرها ، وإطالتها وإيجازها ، ولطفها وخلابتها وعذوبة ألفاظها ، وجزالة معانيها وحسن مباديها ، وحلاوة مقاطعها ،

وإيفاء كل معنى حظه من العبارة ، وإلباسه ما يشاكله من الألفاظ حتى يبرز فى أحسن زى وأبهى صورة . واجتناب ما يشينه من سفساف الكلام وسخيف اللفظ ، والمعانى المستبردة ، والتشبيهات الكاذبة ، والاشارات المجهولة ، والأوصاف البعيدة ، والعبارات الغثة ، حتى لا يكون متفاوتاً مرقوعاً بل يكون كالسبيكة المفرغة ، والوشى المنمنم والعقد المنظم واللباس الرائق ، فتسابق معانيه ألفاظه ، فيلتذ الفهم بحسن معانيه كالتذاذ السمع بمونق لفظه ، وتكون قوافيه كالقوالب لمعانيه ، وتكون قواعد للبناء يتركب عليها ويعلو فوقها ، فيكون ماقبلها مسوقاً إليها ، ولا تكون مسوقة إليه ، فتقلق فى مواضعها ، ولا توافق ما يتصل بها ، وتكون الألفاظ منقادة لما تراد له ، غير مستكرهة ، ولا متعبة ولا عسرة الفهم بل لطيفة الموالج ، سهلة المخارج .

وجمّاع هذه الأدوات كمال العقل الذى به تمييز الأضداد ، ولزُوم العَدْلِ وإيثارُ الحسْنِ ، واجْتِنابُ القُبْحِ ، ووضْعُ الأشياء مواضِعَها .

صناعة الشـــعر

فإذا أرَادَ الشَّاعرُ بناء قَصيدة مخَضَ المَعْنَى الذى يُريد بناء الشعرِ عليه فى فِكرِهِ نثراً ، وأعدَّ لهُ ما يُلبِسُهُ إيَّاهُ من الألفاظ التى تطابِقه ، والقَوافِى التى توافِقه ، والوزْنَ الَّذِى يُسلسُ له القَوْلَ عليه ، فإذا اتَّفقَ لهُ بيتٌ يُشاكِلُ المعْنَى يرُومُه أثبتَه ، وأعمل فِكْرَه فى شَغْل القوافِى بما تَقْتَضِيه من المعانى على غيرِ تَنْسِيقٍ للشعر أو ترتيب لفُنون القَوْل فيه ؛ بلْ يُعلِّقُ كلَّ بيتٍ يتَّفقُ لهُ نظمُه ، على تفاوتِ ما بينَه

وبيْنَ ما قبلَه . فاذا كمُلَتْ لهُ المعَانِيَ ، وكثُرتْ الأَبياتُ ، وفّقَ بينها بأَبيات تكُون نِظامًا ، وسلْكاً جامِعاً لما تَشتَّت منها . ثم يتأَمَّلُ اما قد أَدَّاهُ إِليهِ طبعُه ، ونتَجَتْهُ فِكرتُه ، فيسْتَقْصِي انتقَاده ، ويَرُمُّ ما وَهَى منه ، ويبدِّلُ بكل لفظة مُستكْرهة لفظةً سهلةً نقيةً وإن اتَّفقَتْ لهُ قافِيةٌ قدْ شغَلها فى مَعْنًى من المعَانى ، واتَّفقَ له معنًى آخرُ مضادٌّ للمَعْنَى الأَوَّلِ ، وكانت تلكَ القافِيةُ أَوقَع فى المعْنَى الثَّانى مِنْها فى المعْنى الأَوَّل ، نقَلها إلى المعنَى المخْتارِ الذى هو أَحسَنُ ، وأَبطلَ ذلكَ البيْت أو نَقَضَ بعضَه ، وطَلَب لمعناه قافيةً تشاكله .

ويكون كالنسَّاجِ الحاذِقِ الَّذِى يُفَوِفُ وشْيَه بأَحْسَنِ التَّفويفِ ويُسدِّيه ويَنَيره[(١)] ، ولا يُهلهِلُ شيئاً منه فيَشينُه ، وكالنَّقاشِ الرَّفيق الذى يضَعُ الأَصْبَاغَ فى أَحسَنِ تَقَاسِيم نقشه ، ويُشْبِع كلَّ صِبغٍ منها حتَّى يتضاعفَ حُسنُه فى العَيانِ ، وكناظِمِ الجوْهَرِ الذى يؤلِّفُ بين النَّفيس منها والثَّمين الرَّائق ، ولا يشِينُ عقُودَهُ ، بأن يُفاوِتَ بين جوَاهِرها فى نَظْمِها وتَنْسِيقها .

وكذلك الشَّاعرُ إذا أَسَّسَ شِعْرَهُ على أنْ يأْتِى فيه بالكلام البَدَوىِّ الفَصِيح ، لم يخلِطْ به الحضَرِىَّ المَولَّد . وإذَا أَتى بلفظة غريبة اتبعَها أخواتِها ، وكذلكَ إذا سهَّل أَلفَاظَهُ ، لمَ يخْلِطْ بها الأَلفاظَ الوحْشِيَّة ، النَّافِرةَ ، الصَّعْبَةَ القِياد . ويقفُ على مَراتِب القَوْلِ والوَصْفِ

---

(١) النير بالكسر القيد ، والخيوط إذا اجتمعت وعلم الثوب ونيّره جعل له نيرا .

فى فنٍّ بعدَ فنّ ، ويتعمَّدُ الصدْقَ والوفْقَ فى تشبيهاتِه ، وحكاياتِه ، ويُحضر لبَّهُ عند كل مخاطبةٍ ووصفٍ، فيخَاطَبُ الملوك بما يستَحقُّونَه من جَليل المخَاطَبات ، ويتوقَّى حطَّها عن مرَاتبها ، أو أن يخلطَها ، بالعامَّة ، كما يَتوقَّى أن يرفَع العَامَّة إلى درَّجاتِ المُلوك ، ويُعِدُّ لكلِّ معنًى ما يليق به ، ولكل طبقةٍ ما يشاكلها ، حتى تكون الاستفادة من قوله فى وضْعِه الكلامَ مواضِعَه أكثرَ من الاستفادة من قوله فى تحسين نَسْجِه وإبدَاع نَظْمِه .

ويسلكُ مِنهاجَ أصْحاب الرَّسائِل فى بلاغَاتهم ، وتصرُّفِهم فى مُكاتَباتِهم ، فإن للشعْرِ فصُولًا كفصُولِ الرسائِل ، فيَحتاجُ الشاعِرُ إلى أن يَصِل كلامَهُ على تصرُّفه فى فنونه صلةً لطِيفةً ، فيتخلَّصُ من الغزَلِ إلى المديحِ ، ومن المديحِ إلى الشَّكوَى ، ومن الشَّكوَى إلى الاستِماحَةِ ، ومن وصْفِ الدِّيارِ والآثارِ إلى وصف الفيَافِى والنُّوق ، ومن وصْفِ الرُّعود والبُرُوقِ إلى وصْف الرياضِ والرُّوَّادِ ، ومن وصفِ الظُّلمانِ ، والأعيار ، إلى وصفِ الخَيْلِ والأسلِحةِ ، ومن وصْفِ المفَاوِزِ ، والفيافِى ، إلى وصْف الطَّرْد والصَّيدِ ، ومن وصفِ اللَّيلِ والنُّجوم إلى وصفِ الموارِدِ ، والمياهِ ، والهواجِرِ ، والآل ، والحرابىِّ والجنَادِب . ومن الافتخارِ إلى اقتِصاصِ مآثر الأسلافِ ومن الاستكانة والخضوع إلى الاستعتاب والاعتذار ومن الإِباء والاعْتياصِ إلى الإجَابةِ والتَّسَمُّح ، بألطَفِ تخلصٍ وأحسنِ حكايةٍ ، بلا انْفصَالٍ للمعْنَى الثانى عما قبله ، بل يَكُونُ متَّصلا به وممتزجاً معه ، فإذا استَقْصَى المعنَى وأحاطَه بالمرَاد الذى إليه يَسُوق القَولَ بأيْسَرِ وصْفٍ وأخَف لفْظٍ لم يحتَجْ إلى تطْويله وتكريره .

والشِّعرُ على تحصيلِ جنسِه ومعرفةِ أسمه مُتشابِهُ الجملة ، متفاوت التَّفْصيل ، مختلفٌ كاختلافِ النَّاسِ فى صُوَرِهم ، وأَصْواتِهم ، وعُقُولهم وحظوظِهمْ وشمَائلهم ، وأَخْلاقِهم ، فهم مُتَفَاضِلونَ فى هذِه المعَانِى ؛ وكذلكَ الأَشعَارُ هِىَ متفَاضِلةٌ فى الحسْنِ ، على تَساويها فى الجِنْس ؛ ومواقِعُها من اخْتيار النَّاس إياها كمواقِعِ الصُّوَر الحسَنةِ عندَهم ، واختيارُهم لما يَسْتحسِنُونَه منَها . ولكلٍّ اختيارٌ يوثرُه ، وهوًى يتَّبعه ، وبُغيةٌ لا يستَبدِلُ بها ، ولا يُؤْثِرُ سواها .

وقد جَمعنا ما اختَرْناهُ من أَشعارِ الشُّعراءِ فى كتاب سمَّيناهُ « تهذيبُ الطَّبعِ » يَرتاض من تَعَاطِى قولَ الشِّعر بالنَّظرِ فيه ، ويسلكُ المِنهاجَ الذى سلكه الشعراء ، ويتناول المعانِىَ اللَّطِيفَةَ كتناوُلِهم إيَّاها ، فيحتَذِى على تِلك الامْثِلة فى الفنونِ التى طرَّقوا أقوَالَهم فيها ، واقتصرْنا على مااختَرنَاه من غير نفْى لما تركناهُ ، بل لاستحسانٍ له خصَصْنَاهُ به دُونَ ما سِوَاهُ ، وقد شَذَّ عنا الكثيرُ مما وجَب اختيارُه وإيثارُه ، وإذا استَنفَدْناهُ ألحقْناهُ بما اختَرْناهُ إنْ شاءَ الله تعالى .

فمن الأَشعار أَشعارٌ محكمةٌ متقنةٌ أَنيقة الأَلفاظِ حكيمةُ المعانِى ، عجيبةَ التَّأْلِيفِ إذا نُقِضَتْ وجُعلِت نثرًا لم تبطُل جودةُ معانيها ، ولم تفقد جزالةَ أَلفاظِها . ومنها أَشعارٌ مموَّهةٌ ، مُزخرفةٌ عذبةٌ ، تروق الأَسماعَ والأَفهامَ إذا مرّت صفحاً ، فإذا حُصِّلت وانتُقِدتْ بُهرِجَتْ معانيها ، وزُيِّفتْ أَلفاظها ، ومجَّت حلاوتها ، ولم يصلُح نقضُها لبناءٍ يستأْنفُ منه ، فبعضها كالقصُورِ المشيَّدة ، والأَبنيةِ الوثيقة ، الباقيةِ على مَرِّ

الدُّهُورِ ، وبعضها كالخيام الموتَّدةِ ، التى تزعْزِعُهَا الرياح ، وتوهيها الأَمطار ، ويُسرع إليها البِلى ، ويُخشى عليها التقوُّض .

المعـانى والألفـاظ

وللمعانى أَلفاظٌ تشاكِلُها ، فتَحْسُنُ فيها وتَقْبُح فى غَيرها ، فهى لها كالمعْرِضِ للجارية الحسْناء ، التى تزْدَادُ حُسناً فى بعضِ المَعَارِضِ دونَ بعضٍ . وكم مِن معنًى حسنٍ قد شِينَ بمعرضه الذى أُبرز فيه ، وكم من معرِضٍ حسنٍ قد ابتُذِل على معنى قبيح أُلبِسَه ، وكم من صارمٍ عَضْبٍ قد انتضاه من وددت لو أنه انتضاه فهزّه ثم لم يضرب به ، وكم من جوهرةٍ نفيسةٍ قدشِينَتْ بقرينةٍ لها بعيدة منها ، فأُفرِدَتْ عن أَخواتها المشاكلاتِ لها ، وكم من زائفٍ وبهرج قد نفَقا على نقَّادهما ، ومن جيد نافقٍ قد بُهرجَ عندالبصير بنقْدِه فنفَاهُ سَهْوًا ، وكم من زُبرٍ للمعانى فى حشوِ الأَشعارِ لايُحسنُ أَنْ يُطلعَها غيرُ العلماءِ بها ، وكالصَّياقِلةِ للسيوف المطبوعة منها ، وكم من حكمة غريبةٍ قد أَزدُرِيتْ لرثاثةِ كُسوتها ، ولو جُلِيتْ فى غير لِباسها ذاكَ لكثُر المشيرُون إليها ، وكمْ من سقيمٍ من الشعر قد يئِسَ طَبيبُه من بُرئِه ، عولج سقَمُه فعاودتْه سلامتُه . وكم من صحيحٍ جُنِيَ عليه فأَرداه حينُه .

وليس يخلو ما أُودعناه اختيارَنا المسمّى « تهذيب الطبع » من بناء إن لم يصْلُح لأَنْ تَسكُنَ الأَفهَامُ فى ظِلِّه لم يبطلْ أَن يُنتَفَعَ بنقْضِه ، فبعض البناء يحتاجُ إليه .

شـــعر المولدين

وستعثر فى أشعار المولدين بعجائب استفادوها ممن تقدمهم ، ولطفوا فى تناول أصولها منهم ، ولبسوها على من بعدهم . وتكثروا بأبداعها . فسلمت لهم عند إدعائها ، للطيف سحرهم فيها ، وزخرفتهم لمعانيها .

والمحنة على شعراء زماننا فى أشعارهم أشد منها على من كان قبلهم لأنهم قد سبقوا إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح ، وحيلة لطيفة ، وخلابة ساحرة . فإن أتوا بما يقصر عن معانى أولئك ، ولا يربى عليها لم يتلق بالقبول وكان كالمطرح المملول . ومع هذا فإن من كان قبلنا فى الجاهلية الجهلاء ، وفى صدر الإسلام ، من الشعراء كانوا يؤسسون أشعارهم فى المعانى التى ركبوها على القصد للصدق فيها مديحاً وهجاء ، وافتخارا ، ووصفاً ، وترغيباً ، وترهيباً ، إلا ما قد احتمل الكذب فيه فى حكم الشعر : من الإغراق فى الوصف ، والإفراط فى التشبيه . وكان مجرى ما يوردونه مجرى القصص الحق ، والمخاطبات بالصدق ، فيحابون بما يثابون ويثابون بما يحابون .

والشعراء فى عصرنا إنما يثابون على ما يستحسن من لطيف ما يوردونه من أشعارهم ، وبديع ما يغربونه من معانيهم ، وبليغ ما ينظمونه من ألفاظهم ومضحك ما يروونه من نوادرهم ، وأنيق ما ينسجونه من وشى قولهم ، دون حقائق ما يشتمل عليه من المدح ، والهجاء ، وسائر الفنون التى يصرفون القول فيها . فإذا كان المديح ناقصاً عن الصفة التى ذكرناها

كان سبباً لحرمانِ قائِله ، والمتوسّل به . وإذا كانَ الهجاءُ كذلك أيضاً كان سبباً لاستهانة المهجوّبه وأمنه من سيره ، وروايةِ الناس له ، وإذ عتهم إياه وتفكههم بنوادرِه لاسيما وأشعارُهم متكلفةٌ غيرُ صادرة عن طبع صَحيح ، كأشعارِ العرَب التى سبيلُهم فى منظومِها ، سبيلُهم فى منثورِ كلامِهم الذى لا مشقّةَ عليهم فيه .

فينبغِى للشّاعر فى عصْرنا أن لا يُظهر شعرَه إلا بعد ثِقتِه بِجودْتِه وحُسْنِه ، وسلامَتِه من العُيوب التى نُبِّه عليها ، وأُمر بالتحرّزِ منها ، ونُهى عن اسْتعمال نظائِرها ،ولا يقعُ فى نفسِه أن الشِّعرَ موضِعُ اضْطِرارٍ ، وأنَّه يَسلُكُ سبيلَ من كانَ قبله ، ويحتجّ بالأَبياتِ التى عيبَتْ على قائِلِها ؛ فليسَ يُقتَدى بالمسِيء ، وإنما الاقتداءُ بالمحْسِن ، وكُلٌّ واثِقٌ فيه مُجلٌّ لهُ إلّا القليلَ .

ولا يُغِيرُ على معانِى الشِّعر فيودِعُها شعرَه ، ويخرجُها فى أوزان مخالفة لأوزانِ الأشعار التى يتناول منها ما يتَناولُ ، ويتوهّم أن تغييرَ الألفاظ .

عيـار الشـعر

(علة حسن الشعر)

وعيارُ الشِّعرِ أن يُورَد على الفَهم الثّاقب فما قَبِلَهُ واصْطفَاهُ فهو واف ، وما مجّهُ ونفَاه فهو ناقِصٌ .

والعلة فى قَبول الفهْم النافِد للشعر الحسن الذى يَردُ عليه ، ونفيُه للقبيح منه ، واهتزازه لما يقبله ، وتكرُّهُهُ لما ينفيه ، أنَّ كلَّ حاسة من حواسِّ البدَنَ إنما تتقبَّلُ ما يتَّصِلُ بها مما طبعَتْ له إذا كانَ وُرُودُه عليها وروداً لطيفاً باعتدال لاجورَ فيه ، وبموافقة لامضادَّةَ معها ، فالعينُ تألفُ المرْأى الحسَنَ وتقْذَى بالمرْأى القبيحِ الكَريه ، والأنفُ يقبلُ المشمَّ الطيِّبَ ويتأذَّى بالمنتِن الخبيث ، والفمُ يلتذُّ بالمذاقِ الحلو ، ويمُجُّ البشِعَ المرَّ ، والأُذنُ تتشوَّف للصوتِ الخفيضِ السَّاكن ، وتتأذَّى بالجهيرِ الهَائِل ، واليدُ تنعَمُ بالملْمَس اللَّينِ النَّاعم ، وتتأذَّى بالخشن المؤْذِى . والفهمُ يأْنَسُ من الكلام بالعدْلِ الصَّوابِ الحق ، والجائزِ المعْرُوفِ المأْلوفِ ، ويتشوَّف إليه ، ويتجلَّى لهُ . ويستوحِش من الكلام الجائر ، والخطأ ، والباطلِ ، والمحالِ ، والمجهُولِ المنكرِ ، وينفِرُ منه ، ويصدأُ له . فإذا كانَ الكلامُ الواردُ على الفهم منظوماً ، مصفًّى من كدر العىِّ ، مقوَّماً من أَوَدِ الخطَأْ واللَّحنِ ، سالماً من جَوْرِ التأْليف وموزوناً بميزانِ الصواب لفظاً ومعنًى وتركيباً اتَّسعَتْ طُرُقه ، ولطفتْ موالِجُه ، فقبِلَهُ الفَهْم وارتَاحَ لهُ ، وأَنِسَ به . وإذا ورَد عليهِ على ضِدِّ هذه الصفة ، وكانَ باطلا مُحالًا مجهولًا ، انسدَّتْ طُرُقه ، ونفاهُ واستوْحَشَ عندحِسه به ، وصَدِىءَ لهُ ، وتأذَّى به ، كتأذَّى سائرِ الحواسِّ بما يخالِفُها على ما شرَحْنَاهُ .

وعلةُ كل حسَنٍ مقبولِ الاعتدالُ ، كما أنَّ علَّة كل قبيح منفِى الاضطرابُ . والنفسُ تسكُنُ إلى كلِّ ما وَافقَ هواها ، وتقلَقُ مما يُخالِفُه

ولها أحوالٌ تتصرَّف بها، فإذا ورَد عليها فى حالة من حالاتِها ما يُوافِقُها اهتزَّتْ له، وحدَثتْ لها أَرْيحيَّة وطربٌ، فإذا ورَد عليها ما يخالفها قَلِقتْ، وأستَوْحشَتْ.

والشعر الموزُونِ إيقاعٌ يَطرَبُ الفَهْمُ لِصوَابه، وما يَردُ عليه من حُسْنِ تَركيبهِ واعتدالِ أَجْزائِه. فإذا اجتمع للفَهم مع صِحَّةِ وزْنِ الشعرِ صحةُ المعنى وعذوبةُ اللفظ، فصفَا مسمُوعُه ومعقُوله من الكدَر تمَّ قُبولُه له، واشتمالُه عليه، وإن نقصَ جزءٌ من أَجزائِه التى يعمل بها وهى: اعتدال الوزن، وصوابُ المعنى، وحسنُ الأَلفاظ، كان إنكارُ الفهمِ إِياه على قدْر نُقصانِ أجزَائِه. ومثالُ ذلك الغناءُ المُطْرِبُ الذى يتضاعفُ له طَرَبُ مُسْتمِعه، المتفهم لمعناه ولفظِه مع طِيبِ ألحانِه. فأَمَّا المقتصر على طيبِ اللَّحن منه دونَ ما سواهُ فناقِصُ الطَّرب. وهذه حالُ الفَهْم فيما يردُ عليه من الشعر الموزُونِ مفْهُوماً أَو مجهُولاً.

والأَشعار الحسَنةِ على اختلافها مواقعُ لطيفةٌ عند الفَهْمِ لا تُحدُّ كيفيَّتُها؛ كمواقِعِ الطُّعوم المركبة الخفيَّةِ التَّركيب اللَّذيذَةِ المذَاق؛ وكالأَرايِيحِ الفائحةِ المختَلفةِ الطيب والنَّسيم، وكالنُّقوشِ الملوَّنةِ التَّقاسِيم والأَصْبَاغ، وكالإِيقاع المُطْرِب المختِلف التأْلِيف، وكالملامِس اللَّذيذَةِ الشهيَّة الحِسَ؛ فهى تلائمُه إذَا ورَدت عليه - أعنى الأَشعار الحسنةَ للفَهمْ -، فيتلتذُّها ويقْبَلُها، ويرتشِفُها كارتِشاف الصَّديانِ للبارِدِ الزُّلال؛ لأَن الحكمةَ غِذاءُ الرُّوح، فأَنجعُ الأَغْذِيةِ أَلْطَفُها. وقد

قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إن من الشعر حكمةً »[(١)] ، وقال عليه السلام : « ما خرَجَ من القَلْبِ وَقَع فى القَلْب ومَا خرج من اللسان لم يتعدَّ الآذَانَ » فإذا صدَقَ ورودُ القول نثرًا ونظماً « على الفَهم) أثَلج صدْرَه . وقال بعضُ الفلاسفة : « إن للنَّفسِ كلماتٍ روحانيةً من جنسِ ذاتها » ، وجعل ذلك برهاناً على نفع الرُّقى ونَجْعِها فيما تُستعمل له

فإذا ورد عليك الشعر اللطيفُ المعنى ، الحلوُ اللَّفظِ ، التامُّ البَيان ، المعتدِلُ الوزن ، مازجَ الرُّوحَ ولاءَمَ الفَهْمَ ، وكان أنفذَ من نفْثِ السحرِ ، واخفَى دبيباً من الرُّقى وأشدَّ إطراباً من الغِناء ، فسلَّ السخَائِمَ ، وحلَّلَ العُقَد ، وسخَّى الشَّحيحَ ، وشجَّع الجَبانَ ، وكان كالخمرِ فى لُطْفِ دبيبه وإلهائه ، وهزهِ وإثَارَتِه . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : (إن من البيَان لِسحْرًا) .

[علة أُخرى]

ولحسنِ الشعر وقبولِ الفَهْم إياهُ علةٌ أُخرى وهى موافَقَتُهُ للحالِ الَّتى يعدُّ معناهُ لها : كالمدْحِ فى حالِ المفَاخَرةِ ، وحضُورِ من يُكبتُ بإنشَاده من الأعداء ، ومن يُسرُّ به من الأوْلياء . وكالهجاء فى حالِ مُباراةِ المهَاجِيَ ، والحظُّ منهُ حيث يُنكَى فيه استماعُه له . وكالمَراثى فى حَالِ جزَعِ المُصَابِ ، وتذكُّرِ مناقبِ المفْقُودِ عند تأبينهِ ، والتَّعزيةِ عنهُ ، وكالأعتذارِ والتنصُّلَ من الذَّنبِ عند سل سخيمةِ المجنِى عليه المعتَذرِ

---

(١) « إن من الشعر حكمه » بخارى ٧ / ١٠٠ ، شرح القسطلانى ، – ١٠٦ شرح القسطلانى ١٠ / ٤٤٦ .

إليه . وكالتَّحريضِ على القتال عند التقاءِ الأقْرانِ ، وطلَب المغالبة . وكالغزَلِ والنَّسيب عند شكوَى العَاشِق ، واهتياج شوْقِهِ وحنينِه إلى من يَهْواهُ .

فإذا وافقت هذه المعانى هذه الحالات ؛ تضاعفَ حُسنَ موقِعها عند مُستَمِعها ؛ لاسيَّما إذا أُيِّدت بما يجذِبُ القلوبَ من الصدق عن ذاتِ النَّفسِ بكشف المعانى المختلِجةِ فيها ، والتَّصريح بما كان يُكتمُ منها ، والاعترافُ بالحق فى جميعها .

والشعرُ هو ما إن عَرِىَ من مَعْنًى بديع لم يَعْرَ من حُسْنِ الديباجة . وما خالفَ هذا فليسَ بشعر .

ومن أحسنِ المعانى والحكاياتِ فى الشعر وأشدها استفزازًا لمن يسمعُها الابتداءُ بذكر ما يعلَمُ السَّامِعُ له إلى أى معنًى يُساق القولُ فيه قبلَ استتْمامِه ، وقبلَ توسُّطِ العِبارَةِ عنه . والتَّعريضُ الخَفِىُّ ؛ الذى يكونُ بخفائِه أبلغَ فى معناهُ من التَّصريحِ الظاهِرِ الذى لا سِتْرَ دُونَهُ ، فموضع هذينِ عند الفَهْمِ كموقع البشرى عند صاحبها لثقة الفهم بحلاوَة ما يَرِدُ عليه من معناهما .

* * *

أحمـــد بن يوسف

(ت : ٣٣٠ هـ)

تاجر وزوجته

وحدثنى أحمد بن أيمن كاتبُ أحمد بن طولون ، قال :

« دَخلت بالبصرة إلى تاجر ذَهَب عنى اسمُه ، فرأيت بين يديه ابنين له فى نهاية من النظافة ، فلمَّا رآنى أقْبِل بنظرى إليهما ، قال لى : « أُحِبّ أن تعوذَهما » ، ففعلت ، وقلت له : « استجدْتَ الأمَّ فحسُنَ نَسْلك ! » ، فقال : « ما بالبصرة أقبحُ من أمهما ، ولا أُحبُّ إلىّ منها . ولها معى خبر عجيب » ، فسألته أن يُحدثنيه ، فقال :

« كنت أنزل الأُبُلَّةَ[1] وأنا مُتَعَيِّش[2] ، فحملت منها تجارةً إلى البَصْرة فربحتُ ، وحَمَلْت من البصرة إلى الأُبُلَّةِ فربحت ولم أزلْ أحمل من هذه إلى هذه فأربَح ولا أخسَر ، حتى كثرَ مالِى ، وتَعالَم الناس إقبالى[3] ، وآثَرْت السُّكنَى بالبصرة ، وعلمت أنه لا يحسن بى المُقَام بها بغير زوجة ، ولم يكن بها أجلُّ قدرًا من جَدّ هذين الغلامين . وكانت له بنت

---

(١) الأبلة : (بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها) بلدة على شاطىء دجلة أقدم من البصرة .

(٢) المتعيش : الذى يتكلف أسباب المعيشة بالقليل من العمل والتجارة .

(٣) إقبالى : حسن حظى .

قد عَضَلَها (١) ، وتعرَّض لعداوَة خطَّابها . فحدَّثتنى نفسى بلقائِه فيها ، فجئته على خَلْوَة ، وقلت له : « يا عَم ! أنا فلان بن فلان التاجر » ، فقال : « ما خَفِىَ عنى محلُّك ومحلُّ أَبيك ! » ، فقلت : « قد جئتك خاطبًا لابنتِك » ، فقال : « والله ما بى عنك رَغْبةٌ ، ولقد خطبها إلى جماعةٌ من وجوه البصرة وما أجبْتهم ، وإنى لكارهٌ من إخراجِها عن حِضْنى إلى من يُقَوِمها تقويم العَبيد » (٢) . فقلت : « قد رفعها الله عن هذا الموضع ، وأنا أسألك أن تدخلنى فى عَدَدِك ، وتَخْلِطَنى بشَمْلك (٣) » ، فقال : « ولابُدَّ من هذا ! » ، قلت : « لابُدَّ ، وهو زائدٌ فى فضلك علىَّ ، واصطناعك إيَّاىَ » ، فقال : « اغْدُ علىَّ برِجالك » .

فانصرفت عنه إلى مَلأٍ من التجار ذوى أَخْطار (٤) ، فسألتهم الحضورَ معى فى غد ، فقالوا : « إنَّك لتحَركنا إلى سَعْى ضائع » ، قلت : « لابُدَّ من ركوبكم معى » . فركبوا على ثِقَة من أنَّه يردُّهم ، وغدوْنا عليه فأَحسنَ الإجابةَ وزوَّجنى ، وأَطعمَ القوم ونَحَر لهم ، وانصرفوا .

ثم قال لى : « إن شئت أن تَبيتَ بأَهلِك فافعل ، فليس لها ما يَحْتاج إلى التلوُّم عليه (٥) » ، فقلت : « هذا يا سَيدى ما أُحبُّه » .

---

(١) عضل المرأة : حبسها ومنعها الزوج .

(٢) قوم السلعة والعبد : قدر قيمتها فى الشراء والبيع .

(٣) بشملك : أهلك .

(٤) الملأ : الرؤساء وأشراف القوم ووجوههم . والأخطار : جمع خطر ، وهو القدر والمنزلة الرقيعة .

(٥) تلوم على الشىء : انتظر وتلبث .

فلم يزل يحدثني بكل حَسَنٍ حتى كانت المغربُ ، فصلَّاها بي ، ثم سَبَّح وسبَّحت ، ودَعَا ودَعَوْت ، إلى أن كانت العَتَمة فصلَّاها[(١)] بي ، وأخذ بيدي . فأدخلنى إلى دارٍ قد فرشت بأحسن فَرْشَة ، بها خَدَمٌ وجَوارٍ في نهاية من النَّظافة ، فما استقرَّ بي الجلوس حتى نَهَضَ ، وقال : « أستودعك الله ، وقدَّم الله لكما الخِيرَة ، وأحرَزَ التَّوفيق » . واكتنفتني عجائزُ من شَمْله ، فجلَوْنَ ابنته عليَّ[(٢)] . فما تأمَّلت طائلاً[(٣)] .

وأرْخَتِ الستورَ علينا ، فقالت : « يا سيدي ! إني سرٌّ من أسرار والدي ، كتمه عن سائر الناس وأفضى به إليك ، ورآك أهلاً لستره عليه ، فلا تخفِرْ ظنَّه فيك ولو كان الذي يُطْلَب من الزوجة حُسْنُ صورتها دون حسن تدبيرها وعفافها . لعظمت محنتي . وأرجو أن يكون معي منهما أكثر مما قصَّر[(٤)] بي في حُسْن الصورة » ، ثم وثبت فجاءت بمالٍ في كيس ، فقالت : « يا سيدي ! قد أحلَّ الله لك معي ثلاثَ حرائرَ وما آثرته من الإماء[(٥)] ، وقد سَوَّغتك تزوجَ الثلاث وابتياع الجواري من مال هذا الكيس ، فقد أوقفته على شهواتك ، ولست أطلب منك إلَّا سَتْري فقط » .

---

(١) العتمة : ثلث الليل الأول بعد غيبوبة الشفق ، وهو وقت صلاة العشاء . وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن عن تسمية صلاة العشاء العتمة .

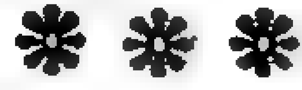
(٢) جلا العروس على بعلها يجلوها : زينها وصقلها وأدخلها عليه ، وذلك جلوة العروس

(٣) فما تأملت...أي فما رأيت شيئا له فضل أو مزية ، يريد أنها كانت خلوا من الجمال

(٤) قصر بي لم يوصلني إلى الغاية .

(٥) الحرائر : جمع حرة ، وهي المرأة التي لم يجر عليها الرق ، فتكون أمة ، وهي المملوكة ، وجمعها إماء .

فقال لى أحمد : « فحلفَ لى التاجرُ إنها ملكت قلبي مِلْكا لم تصل إليه حَسَنَةٌ بحُسْنها » : فقلت لها : جزاءُ ما قدَّمتِيه ما تسمعيه منى ، والله لا أصبت من غيرك أبدًا ، ولأجعلنَّك حظى من دنياى فيما يُؤْثِره الرجلُ من المرأة ! » ، وكانت أشفقَ النساء ، وأضبطَهم ، وأحسنَهم تدبيرًا فيما تتولاه بمنزلى ، فتبيَّنت وقوعَ الخِيرَة(١) فى ذلك ولحقتنى السنُّ(٢) ، فصارت حاجتى إلى الصواب أكثرُ منها إلى الجماع . وشكرَ الله لى ما تلقَّيت به جميلَ قولها ، وحُسْنَ فعلها ، فرزَقنى منها هذين الابنين الرائعين لك ، ونحن منقطعون إلى جُودِه فينا ، وإحسانِه إلينا »



---

(١) الخيرة : حسن الاختيار .

(٢) لحقتنى السن : أى كبرت .

ابن المدبر ومتقبل

وحدثني سهل بن شنَيْف ، قال :

« رجعت [مَرَّةً] مع أَحمد بن محمد بن مدبر إلى داره ، فاستقبلته امرأةٌ فقالت : أيها السيد ! نحن مائة عَيل على فلانٍ المتقبل[1] ، وقد ضاعَ شَملُه لحبسه ، فاتّقِ دعوةً تعرُجُ إلى الله مِنّا فِيك ! » ، فقال وهو متهزئٌ : « إذا عزمتم على هذا ، فليكن الدعاءُ في السَّحَر فإنه أَنجعُ له »! وقال لي سهل : « فارتعت من الكلمة ، فما مضى له شهر حتى تَقلد محمد ابن هلال الخراجَ وصرفه عنه ، واجتمعا عند أَحمد بن طولون ، فاهتدى محمَّد بن هلال إلى ما لم يَظنَّ أَنَّه يقف عليه ، لأَنه أول ما ناظره قال : « رزقُ الخراج : كذا وكذا ، وأَرزاق الدواوين[2] المضافة إليه : كذا وكذا ، فهل قبضتَ جملةَ هذه الأَرزاق ؟ » ، قال ابن المدبر : « نعم ! ما حضرني كتاب أَمير المؤمنين بإطلاق جميع الرزق لك ؛ لأَنه يجوز أَن يكون استعملك على جميع الأَعمال بـ رِزْق الخراج وحده » . فانقطَع[3]

(١) المتقبل : هو الذي يتقبل عملا أو تأدية مال السلطان في مقابل أجر معين والعيل : الذي يحتاج إلى من يعوله ويتكفله

(٢) أرزاق الدواوين : يراد بالدواوين أنواع الضرائب الأخرى غير خراج الأرض

(٣) أي محمد بن هلال

[إلى] ابن المدبر ، وطالَبَه بالمال ، فقال : « مايلزمنى ؟ » . ورُدَّ[1] إلى يد محمد بن هلال ، فأُلبس جُبَّةً كانت على بعض السَّاسَة[2] ، وأُقيم فى الطريق على كُناسة ، وختِمَت[3] الجُبَّة فى عُنقه .

« فكان أوَّلَ من وافاه المرأة التى قال لها : « يكون دعاؤك فى السَّحَر هو أنجَع له » ، فقالت : « جزاك اللهُ يا أبا الحسن خيرًا ، فقد نفعتنا بأكثر ممَّا ضَرَرْتَنَا ، لأننا جرَّبنا ما أشرتَ به فوجدنَاه أنجعَ شىء يُلْتَمَس [به] » . فبكى ومن حولَه من المُوَكَّلين به ، وانصرفت المرأة داعيةً له » .

* * *

(١) ورد : أى ابن المدبر إلى ابن هلال مره أخرى

(٢) الساسة : خدام الخيل ونحوها

(٣) ختمت : ربما كانوا يختمون المجرمين آنئذ بخاتم خاص

الخيزران أم الرشيد وإمرأة هشام

وحدثني يوسف بن إبراهيم (والدى). قال حدثني إبراهيم بن المهدى:

«أنه دخل على الخيزران[1] أم الرشيد، فوجدها جالسةً فى الدار المعروفة بها – وصارت إلى أم محمد بنت الرشيد بعدها – على نَمَط أرميني[2] والنمط على بساط أرميني، وعن يمين النمَط ويَسارِه نَمارق أرمينيّة[3]، وعلى أعلى نمْرُقَة منها زينبُ بنت سليمان بن على، وعلى يَسار النّمارق أمّهات أولادِ المنصور ونسوةٌ من نساء بنى هاشم، إذ وقفت امرأةٌ على طَرَف البساطِ فسلّمت ثم قالت: «يا زوج أمير المؤمنين! أنا مُزَيَّة زوج هشام بن عبد الملك، ثم مروان بن محمد من بعده، نكبَها الزمن، وزَلّت بها النَّعل[4]. حتى أصارها إلى عارية ما تَستتِر[5] به مما عليها، فتبينت الدموعَ تدورُ فى عين الخيزُران. وخافت زينبُ

(١) الخيزران: زوج المهدى العباسى وأم الهادى والرشيد، أخذت العلم عن الأوزاعى وتوفيت فى عهد الرشيد عام ١٨٣ هـ

(٢) نمط أرمينى: النمط ظهارة الفراش. والنسبة إلى أرمينية على القياس لا على السماع وإلا قال أدمنى

(٣) نمارق: جمع النمرق والنمرقة: وسادة صغيرة

(٤) زلت به النعل: زلق ووقع وافتقر بعد استواء المال والنعمة.

(٥) ما تستتر: الذى تستتر به من الثياب ممزق خلق صيرها كالعارية

أن تدخلها رقّةٌ ، فقطعت على مُرَيَّة الكلام بأن قالت : « يا أمَّ أمير المؤمنين ! اتّقِى الله أن تَدْخلَك رأفةٌ بهذه الملعونة ، فتتبوّئى مَقْعَدَك من النار » .

ثم التفتت إلى مُرَيَّة فقالت لها : « بِلكِ فَدَامِ ما أنتِ فيه يامُرَيَّة ! كأنّكِ نسيتِ دخولى عليك بحرّان[(١)] ، وأنت جالسة بصحنِ دار مروان على هذا النمط ، وتحته هذا البساط ، وعن يمينِ نمطك ويساره هذه النمارق ، وعليها أُمّهات أولاد جَبَابرتكم ، وقد مَثَلْتُ فى مثل هذا المكان الذى أنتِ فيه ماثلة[(٢)] ، وأنا أسألك وأتضرّعُ إليك فى استيهاب جُثة إبراهيمَ[(٣)] الإمامِ من مروان لئلاّ يُمثل به ، وقولَك وأنت كالحة[(٤)] فى وجهى : « ما للنساء والدخولَ فى أُمور الرجالِ ؟ » ، ثم أمرتِ بإخراجى من دارك بغِلْظَةٍ . فلجأتُ إلى مروانَ فوجدته على حال أشدَّ تعطُّفاً على رَحِمِهِ منك ، وقال لى : « لقد ساءتْنى وفاة ابن عمى وما دبّرت المُثْلَةَ (به)[(٥)] » . وقد خيَّرنى بين إطلاقى تجهيزه له ، وبين تسليمه إلىّ ، فاخترتُ تسليمه ، وأمر له بجهازٍ فقبلتهُ منه »

---

(١) حران : مدينة فتحت أيام عمر بن الخطاب .

(٢) مثل بين يديه مثولا : انتصب قائماً

(٣) هو ابراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس : زعيم الدعوة العباسية انتشرت دعوته ووجه أبا مسلم الخراسانى واليا على شيعته بخراسان ، ثم قبض عليه مروان بن محمد وسجنه بحران وقتله فى الحبس .

(٤) كالحة : عابسة .

(٥) المثلة : التنكيل بالميت أو الحى والتشويه . مثل به تمثيلا

« قال إبراهيم : « فالتفتت مُرَيَّةُ إلى زينبَ فقالت لها : « كأنك يابنت سليمان حَمِدْتِ لى عاقبةَ أمرى فى قطيعتى رحمى ، فأردت أن تُرينى قطيعة الرَحِم لأُمّ أمير المؤمنين ! » ، ثم التفتت إلى الخيزُرَان فقالت : « صدقت زينبُ فيما ذكرتْ عنى ؛ وذلك الفعلُ منى أحلَّنى هذا المحلَّ . والسعيدُ من اتعظ بغيره » ، وانصرفت ؛ فبعثتْ إليها الخيزران ما أعاد إليها (أحالها) ، وكيفَ اختلالها .



قابلة أولاد خمارويه وأمتها

وحدثتنى أمُّ آسية – قابلةُ أولاد خُمَارويه بن طولون ، وكان لها دِينٌ ومذهب جميلٌ ، ومحلٌّ لطيفٌ من خُمَارويه . وقد تذاكرنا لُطْفَ الله عز وجَلَّ فى أرزاق عباده : وحُسْن الدفاع عنهم – : أنه تزوَّجها وأُخْتَها أَخَوَان . فأَقبلتْ حَالُ زوج أُختها وأَدْبرت حال زوجها - قالت : وتُوفِّى زوجُها بأَسوإ حالة ، وخلَّف لها بنات ، وتعذَّر عليها تجهيزُه من اختِلاله . وتُوفى زوج أُختها ، وقد خلَّف[1] من العَيْن والمَساكن والأَوانى لوَلَد أُختها :

قالت : « فكنتُ أُجاهدُ فى مؤُنة وَلَدى ، وإذا وَقَف أمرى ، صِرْت إلى أُختى فقلت : « أَقرضينى كذا وكذا » ، استحياءً من أن أقول لها : « هَبِى لى ... » . ودخل شهر رمضان ، فلمَّا مضى نصفه ، اشتَهوْا[2] علىَّ صبيانى حَلْوًا فى العِيد ، فصرت إلى أُختى فقلت لها : « أَقرضينى دينارًا أَعمل به للصبيان حَلْوًا فى العيد » ، فقالت : « يا أُختى ! تَغِيظِينى بقولك : « أقرضينى » ، وإذا قرضتُك من أَين تُعْطينى ؟ أَمِن غَلَّةُ دُورِك أَو بُسْتانك[3] ؟ لو قلت : « هَبِى لى » كان أَحسن » . فقلت لها : « أَقْضيك من لُطْف الله تعالى الذى لا يُحْتَسَب[4] ، وجُودِه الذى

(١) خلف : المفعول به محذوف وتقديره كثيراً أو نحوها .

(٢) اشتهوا على صبيانى : لهجة والأصل اشتهى كذا

(٣) الغلة : الدخل الذى يغله العقار

(٤) يحتسب : يظن ويقدر

يأتى من حيث لا يُرْتَقَب ! » . فتضاحكت وقالت : « يا أُختى ! هذا والله من المُنَى ، والمُنَى بَضَائِعُ النَّوْكَى ! »[١] . فانصرفتُ عنها أَجرُّ رِجْلى إلى منزلى .

« وكان فى جوارنا خادم أسود لبنتِ اليتيم امرأةِ خُمَارويه ، فلما بلغتُ حارتنا قال لى : « فى جوارنا امرأة تُطْلَق[٢] قد أَوجَعَتْ قلبى ادخلى إليها فليس لها قابلةٌ »[٣] . قالت أُمُّ آسية : « ووالله ما عانَيْت مخوضةً قطُّ[٤] فدخلت إليها ، فمسحتُ جوفَها ، وأَجلستُها كما كان القوابلُ يُجْلسننى فى طَلْقى ، فولدت من ساعتها . فلما أَمسَك[٥] صياحُها ، جاء الخادم يسأل عنها ، فقلت : « قد ولَدَتْ ! » ، فعجب من سُرْعة أَمرها ، وظَنَّ أَن هذا شيئاً قد اعتمدته[٦] بحِذْقِ صِناعةٍ ، ولطف فى مِهْنة . فمضى إلى سِتِّه[٧] بنتِ اليتيم — وكانت مُقرِباً[٨] بأوّل ولدٍ حُمِل لأبى الجيش ، وقد عُرِض عليها قوابلُ استثقلتهنَّ — ، فقال : « فى جِوارِنا قابلةٌ أحضرناها لمرأةٍ فى حارتنا تُطْلَق ، فوضعت يدَها على جَوْفِها فسقَط ولدُها ! » ، ووصفنى بما لا يُوجد

(١) النوكى : جمع أنوك : وهو الأحمق الذى لاعقل له .
(٢) طلقت المرأة (بالبناء للمجهول) : إذا أدركها المخاض ووجع الولادة .
(٣) القابلة : هى التى تتلقى الولد من بطن أمه (المولدة) .
(٤) المخوضة : هى الماخض ، وهى المرأة إذا ضربها الطلق ووجع الولادة
(٥) أمسك : امتنع واحتبس
(٦) اعتمدته : قصدته .
(٧) سته : سيدته وهى مولدة ، وأدل ما وجدت الكلمة فى هذا العصر .
(٨) مقربا : قربت ولادتها .

فى قدرة أحد إلا بالله عزّ وجل ! فقالت للخادم : « إذا كان غدٌ فجئنى بها » ، فأتى الغُلام ودَعَانى إلى مولاته ، فأَجبتُ بانشراح صدر وثقة بالله تعالى . فاستخفت رُوحى وقالت : « إلى التّمام[١] تقديرِ الله تبارك وتعالى » . ثم شكت مَغَساً[٢] تجده المُقرِب ، فأَدخلْت يدِى فى ثِيابها ومَسَحْت جوفَها ، وعَجَجْت[٣] إلى الله تعالى فى يسرى بتوفيقى[٤] ، وكنت أدعو - ومَنْ حَضَرَ من أهلها يتوهم أنى أرْقِى - فسكنَ ما وجدَتْهُ وتبرَّكَت بى . ودخل إليها خمارَويه وقال : « ما وَجَدْتِى » فقالت : « مَغَساً فى جوفى » ، فوضعت قابلةٌ أردتُها[٥] يدَها عليه ، فزال ما أجده ! » ، وأخرجنى إليه - وكان قريباً من حُرَمِهِ - ، فقال لى : « أرجو أن يُخَلِّصها الله عز وجل ببركتك » .

قالت أم آسية : « ودخلنا فى العَشْر الأَواخِرِ من شهر رَمَضَان ، وقد تمسَّكتُ من الإخلاص لله عز وجل بما لا يَصِلُ إليه من ساحَ فى الجبال[٦] ، خوفاً من شماتة أُختى بِى . فلم تمض إلا ثلاثة أيام حتّى

(١) إلى التمام : الوصول إلى تمام الولادة .
(٢) المغس ويحرك : كالمغص بالصاد ، وجع فى البطن .
(٣) عججت : الأصل فى العج رفع الصوت وضمنه معنى الاتجاه .
(٤) بتوفيقى : أى داعية بتوفيقى .
(٥) أردتها : اخترتها .
(٦) وقد تمسكت .. ! اعتصمت بمالايصل إليه من ساح فى الجبال . تريد بذلك الزهاد والعباد والذين هجروا الدنيا حباً لله ورغبة فى رضاه من الإخلاص .

مَخِضَت[١] فأَجلستُها على كرْسِيّ الولادة – وكان مقدار طلقِها ساعتين فولدت ابنا أَسهلَ وِلادةٍ ، وأَبو الجيش يقوم ويقعُد ، ويذهَبُ ويَجِيءُ فلما ولدت – وكانت تتوقع من الوِلادة أَمرًا عظيما – فلما أَلْقَتْهُ قالت لى : « هذا الطَّلق ؟ » . قلت : « نعم ! » فَقَبَّلت – يَعلمُ الله – عَيْنَىَّ من الفَرَح . وصاح خمارويه : « أَخبريِنى يا مُبارَكة بخبرها » ، فقلت « وحَياةِ الأَمير إنها فى عافيةٍ ، وقد ولدت غلاماً سَوِىَّ الخَلْق بحمدِ الله » . فوجه إلىّ بأَلفِ دينار ، وأَلحَّ أَبو الجيش فى النَّظر إليها لفَرْط إشفاقِه عليها ، فاستوقفتُه إلى أَنْ نقلتُ حَوَائج الوِلادة وقلت لها : « ياسيدتى ! اضحكِى فى وَجْهه كما تَريه »[٢] . فلما دخل إليها ضحكت فى وجهه ، فتقدّم بصدقة بمال كثير عنها وعن ولده » .

وقالت لى أُمُّ آمية : « لما كان يوم الأُسْبوع – ووقع قبل العيد بيوم واحد ، أَمرت لى بخمس مائة دينار ، وحصل من أَتباعها أَلفُ دينار ، فحصل لى أَلفان وخمس مائة دينار . وخلعت علىَّ وسائرُ حَشَمِها أَكثر من ثلاثين خِلْعةً ، وحُمِل إلىّ مما أُعِدّ للعيد ثلاث موائد خاصّة . وانصرفت إلى منزلى ، فأَرسلتُ إلى أُختى مائدةً ، ووافتنى مهنئة ، وقد تقاصرَ طولها[٣] ، فأَرَيْتُهَا ما حَصَل لى من المال والخِلَع والطيب ،

---

(١) مخضت : أخذها الطلق .

(٢) كماتريته : عندما ترينه واستخدم « كما » لهجة آنذاك .

(٣) تقاصر طولها : أى تواضعت ويمكن القراءة بفتح الطاء والسكون بعدها بمعنى بمعنى الفضل والقدرة .

وقلت لها : « يا أُختى ! أَنكرتى علىّ قولى : « أَقرضينى » ومن هذا كنْتُ أَقضيك[1] . فلا تستصغرى من كان اللهُ مادَّته ، وعليه مَدَارُ ثقتِه وتعويضِه » .

واكتسبت هذه المرأة بمحلِّها من أَبى الجيش مالا كثيرًا ، وقضت لجماعةٍ من وجوه البلد حوائجَ خطيرة .

* * *

(١) ومن هذا كنت ... ! أى وكانت نيتى أن أقضى دينى من هذا الذى كنت أرجوه من فضل الله وكرمه .

أبو بكر الشبلي

هو أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي ، بغدادى المولد والمنشأ ، ، وأصله من « أسروشنة » ، وقدصحب الجنيد ومن فى عصره ، وكان شيخ وقته حالاً وظرفاً وعلماً ، وهو مالكى المذهب . عاش سبعاً وثمانين سنة ، ومات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ٣٣٤ هـ وقبره ببغداد ، ولم يذكر القشيرى تاريخ مولده ، والأغلب أنه ولد حوالى سنة سبع وأربعين ومائتين ٢٤٧ هـ . وقبره ببغداد – ذكر السلمىّ أنه دفن فى مقبرة الخيزران ، وقد تاب فى مجلس « خير النساج » وصحب الجنيد ومن فى عصره من المشايخ ، وكتب الحديث ورواه ، وعده السلمى فى الطبقة الرابعة من طبقات الصوفية . ويقال إن الموفق ولاه دنيا وقد بالقرب من الرّى ولما ارتاب أمير الرى فى أحواله صرفه عن عمله ، مما جعله ينشد طريق الصوفية ، وقد صحب الحلاج وزاره فى سجنه ، ولما قتل الحلاج خشى على نفسه فتظاهر بالجنون وأُدخل المارستان ، ثم خرج منه وتفرغ للوعظ ، وذاع صيته وقصده الطلاب والصوفية من أنحاء البلاد .

من نثر الشبلى وشعره

من مأثور رسائل الشبلى هذه الرسالة التى كتبها إلى الجنيد :

« يا أبا القاسم ، ماتقول فى حالٍ علا فظهر ، وظهر فقهر ، وقهر فبهر ، فاستناخ واستقر : فالشواهد منطمسة ، والأوهام خنسة ، والألسن خرسة ، والعلوم مندرسة ، ولو تكاثفت الخليقة على من هذا حاله ، لم يزده ذلك إلا توحشاً . ولو أقبلت الخليفة إليه تعطفاً ، لم يزده ذاك إلا تبعدا ، فالحاصل فى هذا الحال ، قد صُفِّد بالأغلال والأنكال ، وغلبه على عقله فحال ، وحادَّ الحق بالحق ، وصار الخلق عقالا » وكتب تحتها هذين البيتين :

يا هلال السما لطرف كليلى فإذا ما بدا أضا طرفيه
كنتُ أبكى علىَّ منه فلما أن تولَّى بكيْتُ منه عليه

ومن مأثور كلامه :

ـ الأرواح تلطفت فتعلقت عند لذعات الحقيقة ، فلم تر غير الحق معبوداً يستحق العبادة ، فأيقنتْ أن المحدث لايدرك القديم بصفات معلولة ، فإذا صفاه الحق أوصله إليه ، فيكون الحق أوصله إليه لا وصل هو .

التصوف ضبط حواسك ، ومراعاة أنفاسك ، التصوف التآلف والتعاطف .

— « أنتم » منكم مخفوضة ، و « أنا » منى منصوبة . الزهد تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء .

— من عرف الله خضع له كل شيء . يقمع الهوى برياضات الطباع وكشف القناع . ليس يخطر الكون يبالى وكيف يخطر الكون ببال من عرف المكون ؟ . لو قبلنى العالم بمن فيه لكانت مصيبة علىّ ، إذ لو لم يكن شربهم شربى ، وذوقهم ذوقى لم يقبلونى . أعمى الله بصرا يرانى ولا يرى فىّ آثار القدرة ، فأنا أحد آثار القدرة ، وأحد شواهد العزة ، لقد ذللت حتى عز فى ذلى كل ذل ، وعَزَزْتُ حتى ما تعزز أحد إلا بى أو بمن تعززت به وما افترقنا .

ومن لطائف كلامه :

— ليكن همك معك لايتقدم ولا يتأخر. من عرف الله لايكون له غم أبدًا . الفرح بالله أولى من الحزن بين يدى الله . قلوب أهل الحق طائرة إليه بأجنحة المعرفة ومستبشرة بموالاة المحبة . الحرية هى حرية القلب لاغير. ليس من احتجب بالخلق عن الحق كمن احتجب بالحق عن الخلق ، وليس من جذبته أنوار قدسه إلى أنسه ، كمن جذبته أنوار رحمته إلى مغفرته .

أحبك الخلق لنعمائك وأنا أحبك لبلائك . كيف يصح لك التوحيد وكلما ملكت شيئاً ملكك ، وكلما أبصرت شيئا أسرك ؟ .

سمع سائلا وقف على حلقته يقول : يا الله ياجواد فتأوه الشبلى وصاح فقال : كيف يمكننى أن أصف الحق بالجود ومخلوق يقول فى شكله ، ثم أنشد أبيات زهير :

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائلهُ

هو البحر من أى النواحىَ أَتَيْتَهُ

فلُجَّتهُ المعروف والجود ساحله

ثم بكى وقال : بلى يا جواد فإنك أوجدت تلك الجوارح ، وبسطت تلك الهمم ، ثم مننْتَ بعد ذلك على أقوام بعز الاستغناء عنهم وعما فى أيديهم بك ، فإنك الجواد كل الجواد ، لأنهم يعطون عن محدود ، وعطاؤك لا حد له ولا صفة ، فيا جواد يعلو كل جواد ، وبه جاد كل من جاد .

وقال الدمشقى : كنتُ يوماً فى حلقته فسمعته يقول : الحق يفنى بما به يبقى ، ويبقى بما به يفنى : يفنى بما فيه بقاء ، ويبقى بما فيه فناء ، فإذا أفنى عبدًا عن إياه أوصله به وأشرفه على أسراره ثم بكى وأنشد على أثره :

لها فى طرفها لحظات بشر تميت بها وتحيى من تريدُ

وتسبى العالمين بمقلتيها كأن العالمين لها عبيدُ

ألاحظها فتعلم ما بقلبى وألحظها فتعلم ما أريدُ

وسئل : هل يتحقق العارف بما يبدو له ؟ فقال : كيف يتحقق بما لا يثبت ؟ وكيف يطمئن إلى ما لا يظهر ؟ وكيف يأنس بما يخفى ؟ فهو الظاهر الباطن ، الباطن الظاهر ثم أنشأ يقول :

فمن كان فى طول الهوى ذاق سلوة
فإنى من ليلى لها غير ذائق

وأكثر شىء نلته من وصالها
أمانى لم تصدق كلمحة بارق

وقال له رجل : هل شاهده أحد بحقيقته ؟ فقال : الحقيقة بعيدة ولكنْ ظنون وأمانى وحسبان وأنشد :

كذبت طرفى فيك والطرف صادق
وأسمعت أذنى منك ما ليس تسمعُ

ولم أسكن الأرض التى تسكنونها
لكيلا يقولوا إننى بك مُولَعُ

فلا كبدى تهدا ولا لك رحمةٌ
ولا عنك إقصاءٌ ولا فيك مطمعُ

وقال : ليس من استأنس بالذكر كمن استأنس بالمذكور ، وأنشد فى الذكر :

ذكرتك لا أنى نسيتك لمحة
وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى

وكدت بلا وجد أموت من الهوى
وهام علىّ القلبُ بالخفقاق
فلما أرانى الوجدُ أنك حاضرى
شهدتك موجوداً بكل مكان
فخاطبت موجوداً بغير تكلم
ولا حظْتُ معلوماً بغير عيان

وقال – يا قوم هذا مجنون بنى عامر ، كان إذا سئل عن ليلى يقول أنا ليلى : فكان يغيب بليلى عن ليلى حتى يبقى بمشهد ليلى ، ويغيب عن كل معنى سوى ليلى ، ويشهد الأشياء كلها بليلى : فكيف يدعى محبته وهو صحيح مميز ، يرجع إلى معلوماته ومألوفاته وحظوظه ؟ فهيهات أنى ذلك ولم يزهد فى ذرة منه ، ولا زالت عنه صفة من أوصافه ؟.

وكان الشبلى ينشد فى مجلسه قول أبى صخر الهذلى :

فيا حبها زدنى جوى كل ليلة
ويا سلوة الأيام موعدك الحشرُ
وعينان قال الله كونا فكانتا
فعولان بالألباب ما تفعلُ الخمرُ

ثم يقول : لست أعنى العيون النجل ولكنى أعنى عيون القلوب ذوات الصدور ، فطوبى لمن كان له عين فى قلبه ، وأذن واعية ، وألفاظ مرضية .

ومن كلامه المشكل الذى يسلك فى الشطح وغلبة الأحوال والواردات أنه قال يوماً لأصحابه : ياقوم أمرّ إلى مالا وراء فلا أرى إلا وراء ، وأمر يميناً وشمالا إلى مالا وراء ، فلا أرى إلا وراء ، ثم أرجع فأرى هذا كله فى شعره من خنصرى . والمعنى كما ذكره السراج فى اللمع أنه أشار إلى الكون فليس وراءه ولا تحته تحت، وأن قدرة القادر فى خلقه وفى خلق شعرة واحد .

وكان يقول : كتبتُ الحديث والفقه ثلاثين سنة حتى أسفر الصبح فجئت إلى كل من كتبْتُ عنه فقلت : أريد فقه الله تعالى : فما كلمنى أحد . وكان يقول : أنتم أوقاتكم مقطوعة ووقتى ليس له طرفان . وربما كان يشطح ويقول : أنا الوقت ، وقتى عزيز ، وليس فى الوقت غيرى ، وأنا مَحْق .

* * *

أبو حنيفة الدينورى

(ت ٢٨٢ هـ)

هو أحمد بن داود أبو حنيفة الدينورى . أخذ عن البصريين ، والكوفيين ، وأكثر أخذه عن ابن السكيت وأبيه . وكان نحويا لغوياً مهندسًا منجمًا حاسبًا ، راوية ثقة فيما يرويه ويحكيه . وكان له كتاب فى لحن العامة لم يصل إلينا ، أما كتابه فى « النبات » و « الأخبار الطوال » ، فهما خير شاهد على سعة علمه واطلاعه ودقته وضبطه .

***

من كتابه : الأخبار الطوال

وثيقة التحكيم بين على ومعاوية

قالوا : اجتمع أهل العراق وأهل الشام وأتوا بكاتب ، وقالوا : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين » . فقال معاوية : « بئس الرجل أنا إن أقررت بأنه أمير المؤمنين ثم أقاتله » . قال عمرو : « بل اكتب اسمه واسم أبيه » . فقال الأحنف ابن قيس : « يا أمير المؤمنين ، لا تمح اسم إمرة المؤمنين ، فإنى أخاف إن محوتها لم ترجع إليك أبدًا ، ولا تجبهم إلى ذلك » .

فقال على : الله أكبر ، سُنَّةٌ بسنَّة ، أما والله لقد جرى على يدى نظير هذا – يعنى القضية – يوم الحُدَيْبِيَة [1] ، وامتناعُ قريش أن يُكْتَب محمد رسول الله ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم للكاتب : اكتب محمد ابن عبد الله ، فكتبوا .

« هذا ما تقاضى عليه على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، وشيعتهما فيما تَرَاضَيَا به من الحُكْم بكتاب الله وسُنَة نبيه صلى الله عليه وسلم ، قضية علىّ على أهل العراق شاهدهم وغائبهم ، وقضية معاوية على أهل الشام شاهدهم وغائبهم ، إنَّا تَرَاضَيْنَا أن نقف عند حكم القرآن فيما يحكم من فاتحته إلى خاتمته ، نُحْيِى ما أحيا ، ونميت ما أمات ، على ذلك تقاضيا وبه تراضيا ، وإن عَلِيًّا وشيعته رضوا بعبد الله بن قَيْس ناظرا وحاكمًا ، ورضى معاوية وشيعته بعمرو بن العاص ناظرًا وحاكمًا ، على أنَّ عَلِيًّا ومعاوية أخذا على عبد الله بن قَيْس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه ، وذِمَّته وذِمَّة رسوله أن يتخذا القرآن إمامًا ، ولا يعدُوَا به إلى غيره فى الحكم بما وجداه فيه مسطورا ، وما لم وما لم يجداه فى الكتاب رداه إلى سُنَّة رسول الله الجامعة ، لا يتعمدان لها خلافًا ، ولا يبغيان فيها بشبهة » .

« وأخذ عبد الله بن قَيْس وعمرو بن العاص على علىّ ومعاوية عهد الله وميثاقه بالرِّضَى بما حَكَمَا به ممَّا فى كتاب الله وسُنَّة نبيه ، وليس لهما أن ينقضا ذلك ، ولا يخالفاه إلى غيره ، وهما آمِنَانِ فى حكومتهما على دمائهما وأموالهما وأشعارهما وأبشارهما وأهاليهما وأولادهما ما لم يعدوَا

(١) قرية قريبة من مكة ، سميت ببئر فيها ، وقد ورد ذكرها فى الحديث كثيراً .

الحق ، رضِىَ به راض أو سخطه ساخط ، وأن الأُمة أنصارهما على ما قضيا به من الحق مما هو فى كتاب الله ؛ فإن توفى أحد الحَكَمَيْن قبل انقضاء الحكومة ، فلشيعته وأصحابه أن يختاروا مكانه رجلًا من أهل المعدلة والصلاح على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق ، وإن مات أحد الأميرين قبل انقضاءِ الأجل المحدد فى هذه القضية فلشيعته أن يولوا مكانه رجلًا يرضون عدله ، وقد وقعت القضية بين الفريقين والمفاوضة ورفع السلاح ، وقد وجبت القضية على ما سمينا فى هذا الكتاب من موقع الشرط على الأميرين والحَكَمَيْن والفريقين ، والله أقرب شهيد ، وكفى به شهيدا ، فإن خالفا وتعدّيا فالأُمَّةُ بريئة من حكمهما ولا عهد لهما ولا ذِمَّة ، والناس آمِنُونَ على أنفسهم وأهاليهم وأولادهم إلى انقضاءُ الأَجَل ، والسلاح مَوْضُوعَة والسُّبُلُ آمِنَة ، والغائب من الفريقين مثل الشاهد فى الأمر ، والحكمين أن ينزلا منزلًا متوسطًا عدلًا بين أهل العراق وأهل الشام ، ولا يحضرهما فيه إلّا مَنْ أَحَبَّا عن تَرَاضٍ منهما ، والأَجَلُ إلى انقضاء شهر رمضان ، فإن رأى الحكمان تعجيل الحكومة عَجَّلَاها ، وإن رأيا تأخيرها إلى آخر الأَجَل أخراها ، فإن هما لم يحكما بما فى كتاب الله وسُنَّة نبيِّه إلى انقضاء الأَجَل ، فالفريقان على أمرهم الأول فى الحرب ، وعلى الأُمَّة عهد الله وميثاقه فى هذا الأمر ، وهم جميعًا يَد واحدة على من أراد فى هذا الأمر إلحادًا أو ظُلْمًا أو خِلَافًا » .

« شهد على ما فى هذا الكتاب الحسن والحسين ابنا علىّ بن أبى طالب وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، والأشعث

ابن قيس ، والأشتر بن الحارث ، وسعيد بن قيس ، والحُصَيْن والطُّفَيْل ابنا الحارث بن عبد المطلب ، وأبو سعيد بن ربيعة الأنصاريّ ، وعبدالله ابن خبّاب بن الأرت ، وسهل بن حُنَيْف ، وأبو بِشْر بن عمر الأنصارى وعَوْف بن الحارث بن عبد المطلب ، ويزيد بن عبد الله الأسْلَمِى ، وعقْبة بن عامر الجُهَنِىّ ، ورافع بن خديج الأنصاريّ ، وعمرو بن الحمق الخُزاعىّ ، والنعمان بن العَجْلان الأنصارى ، وحُجر بن عَدِيّ الكندِيّ ، ويزيد بن حُجَيّة النُّكرِىّ ، ومالك بن كعب الهمدانىّ ، وربيعة بن شُرَحْبِيل ، والحارث بن مالك ، وحُجر بن يزيد ، وعَلْبة بن حُجَيّة .

ومن أهل الشام : حبيب بن مَسْلَمَة الفِهرىّ ، وأبو الأعور السُّلَمى وبُسْر بن أرْطَاة القرَشِىّ ، ومعاوية بن خُديج الكندىّ ، والمُخارق ابن الحارث ، ومسلم بن عمرو السَّكْسَكِيّ ، وعبد الرحمن بن خالد ابن الوليد ، وحَمْزَة بن مالك ، وسُبَيْع بن يزيد الحَضْرَمِىّ ، وعبد الله ابن عمرو بن العاص ، وعَلْقَمَة بن يزيد الكلبىّ ، وخالد بن الحُصَيْن السَّكْسَكِيّ ، وعَلْقَمَة بن يزيد الحَضْرَمِىّ ، ويزيد بن أبْجَر العَبْسِىّ ، ومَسْرُوق بن جَبَلة العَكّىّ ، وبُسْر بن يزيد الحِمْيَرِىّ ، وعبد الله بن عامر القُرَشِىّ ، وعقبة بن أبى سفيان ، ومحمد بن أبى سفيان ، ومحمد ابن عمرو بن العاص ، وعَمّار بن الأحْوَص الكلبىّ ، ومَسْعَدَة بن عمرو العُتْبىّ ، والصَّبّاح بن جُلْهُمَة الحِمْيَرِىّ ، وعبد الرحمن بن ذى الكَلاع ، وثُمامَة بن حَوْشَب ، وعَلْقَمَة بن حكم

« وكُتِبَ يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين » .

[الخلاف بعــد التحكيم]

وإن الأشعث أخذ الكتاب فقرأه على الفريقين ، يمر به على كل راية راية ، وقبيلة قبيلة ، فيقروه عليهم ، فمرّ برايات عَنَزَة ، وكان مع علىّ منهم أربعة آلاف رجل ؛ فلما قرأه عليهم قال أخوان منهم اسمهما جَعْد ومَعْدَان : « لا حُكْمَ إلّا لله » ثم شدّا على أهل الشام ، فقاتلا حتى قُتِلا ، وهما أول من حكَّم .

ثم مرّ على رايات مراد ، فقرأه عليهم ، فقال صالح بن شَقِيق ، وكان من أفاضلهم « لَاحُكْمَ إلا لله ، وإن كَرِهَ المُشْرِكُونَ » ؛ ثم مرّ به على رايات بنى راسِب ، فتنادوا « لَايحكِّم الرجال فى دين الله » ، ثم مرّ به على رايات بنى تميم ؛ فقالوا مثل ذلك ؛ : فقال عُرْوَة بن أُدَية « أتُحَكِّمونَ فى دين الله الرجال ، فأين قتلانا يا أشعث ؟ » ثم حمل بسيفه على الأشعث ، فأخطأه ، وأصاب السيف عجز دابته ؛ فانصرف الأشعث إلى قومه ، فمشى إليه سادات تميم ، فاعتذروا إليه ، فقبل وصفح .

وأقبل سليمان بن صُرد إلى علىّ مضروبًا فى وجهه بالسيف ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، أما لو وجدت أعوانًا ما كتبت هذه الصحيفة » . وقام مُحرز بن خنَيْس بن ضَليع إلى علىّ ، فقال ، : « يا أمير المؤمنين أمَا إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل ، فوالله إنى لخائف أن يُورِّثَكَ ذُلاًّ ؟ » . قال علىّ : « أبعد أن كتبناه ننقضه ؟ هذا لايجوز » .

ثم إن عليًّا ومعاوية اتَّفَقا على أن يكون مجتمع الحكمين بدَوْمة الجَندل ، وهو المنصف بين العراق والشام . ووجه علىّ مع أبى موسى شُرَيح بن هانئ فى أربعة آلاف من خاصَّته ، وصيَّر عبد الله بن عباس على صلاتهم ، وبعث معاوية مع عمرو بن العاص أبا الأعور السُّلمى فى مثل ذلك من أهل الشام .

فساروا من صفين حتى وافَوْا دَوْمَة الجَنْدَل ، وانصرف علىّ بأصحابه حتى وافى الكوفة ، وانصرف معاوية بأصحابه حتى وافى دِمَشْق ، ينتظران ما يكونُ من أمر الحَكَمَيْن .

وكان علىّ إذا كتب إلى ابن عباس فى أمر اجتمع إليه أصحابه ، فقالوا : « ما كَتَبَ إليك أمير المؤمنين ؟ » فيَكْتُمُهم ، فيقولون : « لِمَ كتمتنا ؟ وإنما كتب إليك فى كذا وكذا » ، فلا يزالون يزكنون (١) حتى يَقِفُوا على ما كَتَب . وتأتى كُتب معاوية إلى عمرو بن العاص ، فلا يأتيه أحد من أصحابه ، يسأله عن شيء من أمره .

قالوا : وكتب معاوية إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وإلى عبد الله ابن الزُّبَيْر ، وإلى أبى الجَهْم بن حُذَيْفَة ، وإلى عبد الرحمن بن عبد يَغُوث « أمَّا بعد ، فإنَّ الحربَ قد وَضَعَتْ أوزارها ، وصار هذان الرجلان إلى دَوْمَة الجَنْدَل ، فاقْدِمُوا عليهما إن كنتم قد اعتزلتم الحرب ، فلم تدخلوا فيما دخل فيه الناس ، لتشهدوا ما يكون منهما ، والسلام » .

---

(١) زكن الخبر زكناً بالتحريك علمه ، وقيل الزكن : التفرس والظن الذى هو كاليقين .

فلمَّا أتاهم كتابه ساروا جميعًا إلى دَوْمَة الجَنْدَل ، فأقاموا ينتظرون مايكون من الرجلين ، وحضر معهم سعد بن أبى وقَّاص ؛ وسار المغيرة ابن شُعْبَة ، وكان مُقيمًا بالطَّائف لم يشهد شيئًا من تلك الحروب حتى أتى دَوْمَة الجَنْدَل ، فأقام ينتظر مايكون منهما ؛ فلمَّا طال مقامه سار من هناك حتى أتى معاوية بدمشق ، فقال له معاوية : « أشِرْ علىَّ بما تَرَى » فقال له المغيرة : « لو أشَرْتُ عليك لَقَاتَلْتُ معك ، ولكنى قد أتيْتُك بخبر الرجلين » .

قال : « وما خَبَرُهُما ؟ » .

قال : « إنى خَلَوْت بأبى موسى لأبْلُوَ ما عنده » : فقلت : « ماتقول فيمن اعتزل عن هذا الأمر ، وجلس فى بيته كَرَاهِيَةً للدِّماء ؟ » ، فقال : « أولئك خِيار الناس ، خَفَّت ظهورهم من دماء إخوانهم ، وبطونهم من أموالهم » .

قال : « فخرجت من عنده ، وأتيت عمرو بن العاص » ، فقلت : « يا أبا عبد الله ، ماتقول فيمن اعتزل هذه الحروب ؟ » ، فقال : « أولئك شِرَار الناس ، لم يعرفوا حقًّا ، ولم ينكروا باطلًا » . وأنا أحسب أبا موسى خالِعا صاحبه ، وجاعِلها لرجل لم يشهد ، وأحسب هَوَاهُ فى عبد الله بن عمر بن الخطاب . وأمَّا عمرو بن العاص فهو صاحبك الذى عرفته ، وأحسب سيطلبها لنفسه أو لابنه عبد الله ، ولا أراه يظن أنَّك أحَقّ بهذا الأمر منه » . فأقلق ذلك معاوية .

[مداولة الحكمين]

قالوا : ثم إنَّ عمرو بن العاص جعل يُظْهر تبجيل أبي موسى وإجْلاله وتقديمه فى الكلام وتوقيره ، ويقول : « صحبتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلى ، وأنتَ أكبَر سِنًّا منِّى » . ثم اجتمعا لِيَتَنَاظَرَا فى الحكومة ، فقال أبو موسى : « يا عمرو ، هل لك فيما فيه صَلَاح الأُمَّة ورِضَى الله ؟ » .

قال : « وما هو ؟ » .

قال : « تُولى عبد الله بن عمر ، فإنه لم يدخل نفسه فى شىء من هذه الحروب » .

قال له عمرو : « أين أنتَ من معاوية ؟ » .

قال أبو موسى : « ما معاوية موضعًا لهما ، ولا يستحقها بشىء من الأُمور » .

قال عمرو : « ألستَ تعلَم أنَّ عثمان قُتِلَ مظلُومًا ؟ » .

قال : « بلَى » .

قال : « فإنَّ معاوية وَلِىّ عثمان ، وبيته بعدُ فى قريش ما قد عَلِمْتَ ، فإنْ قال الناس : لِمَ وُلِّىَ الأمر وليست له سابِقَة ؟ فإنَّ لك فى ذلك عُذراً ، تقول : إنى وجدته وَلِى عثمان ، والله تعالى يقول : (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا) وهو مع هذا أخو أم حَبِيبَة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وهو أحد أصحابه » .

قال أبو موسى : « اتقِ الله يا عمرو ، أمّا ما ذَكَرْتَ من شَرَف معاوية فلو كان يُسْتَوْجَب بالشَّرَف الخلافة ، لكان أَحَقّ الناس بها أَبْرَهة بن الصَّبَّاح ، فإنه من أبناءِ ملوك اليمن التَّبَابِعَة الذين مَلَكُوا شرق الأرض وغربها ، ثم أىّ شَرَف لمعاوية مع علىّ بن أبى طالب ؟ ، وأمّا قولك إن معاوية وَلِىّ عثمان ، فأَوْلَى منه ابنه عمرو بن عثمان ، ولكن إنْ طَاوَعْتَنى أَحْيَيْنَا سنَّة عمر بن الخطاب وذِكْرَه بتَوْلِيَتنا ابنه عبد الله الْحَبْر (١) » .

قال عمرو : « فما يمنعك من ابنى عبد الله مع فَضْله وصَلَاحه وقديم هجْرَته وصُحْبَته ؟ » .

فقال أبو موسى : « إنّ ابنك رجل صِدْق ، ولكنك قد غمسته فى هذه الحروب غمسا ، ولكن هَلُمّ نجعلها للطَّيِّب ابن الطَّيِّب عبد الله ابن عمر » .

قال عمرو : « يا أبا موسى ، إنه لا يصلُح لهذا الأمر إلّا رجل له ضِرْسان ، يأْكل بأحدهما ، ويُطعم بالآخر » .

قال أبو موسى : « وَيْحكَ يا عمرو ، إنّ المسلمين قد أَسْنَدُوا إلينا أمرًا بعد أن تَقَارَعُوا بالسُّيوف وتَشَاكَوا بالرِّماح ، فلا نَرُدّهم فى فِتْنَة » .

قال : « فَمَا تَرَى ؟ » .

---

(١) الرجل العالم الصالح ، وجمعه أحبار .

قال : « أرَى أن نخلَع هذين الرجلين ، عَلِيا ومعاوية ، ثم نجعلها شُورَى بين المسلمين ، يختارون لأنفسهم مَنْ أحبُّوا » .

قال عمرو : « فقد رضيت بذلك ، وهو الرأيُ الذى فيه صلاح الناس » .

* * *

قال : فافترقا على ذلك ، وأقبل ابن عباس إلى أبى موسى ، فخَلا به ، وقال : « وَيْحَكَ يا أبا موسى ، أحسب والله عَمْرًا قد اختدَعكَ ، فإن كنتما قد اتفقتما على شىء فقدمه قبلك ليتكلم ، ثم تكلَّم بعده ، فإن عَمْرًا رجل غدَّار ، ولست آمن أن يكون قد أعطاك الرِّضَى فيما بينك وبينه ، فإذا قمت به فى الناس خالفك » ، قال أبو موسى : « قد اتفقنا على أمر لا يكون لأحدنا على صاحبه فيه خلاف إن شاء الله » .

[إعلان الحكم]

فلمَّا أصبحوا من غد خرجوا إلى الناس ، وهم مجتمعون فى المسجد الجامع ، فقال أبو موسى لعمرو : « اصعد المنبر ، فتكلم » .

فقال عمرو : « ما كنت أتقدَّمك وأنت أفضل منى فَضْلًا ، وأقدم هِجْرَة وسِنًّا » .

فبدأ أبو موسى ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيُّهَا الناس ، إنا قد نظرنا فيما يجمع الله به أُلْفَة هذه الأُمَّة ويصلح أمرها ، فلم نَرَ شيئًا هو أبلغ فى ذلك من خلع هذين الرجلين ، علىّ ومعاوية ، وتصييرها شُورَى ليختار الناس لأنفسهم من رَأَوْهُ لها أَهْلًا ،

وإنى قد خلعت عَلِيًّا ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وولّوا عليكم من أحببتم ، ثم نزل .

وصعد عمرو ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن هذا قد قال ما سمعتم ، وخَلَعَ صاحبه ، ألا وإنى قد خلعت صاحبه كما خَلَعَه ، وأثْبَتُّ صاحبى معاوية ، فإنه وَلِىُّ أمير المؤمنين عثمان والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه » .

فقال له أبو موسى : « مالك ، لا وَفَّقَكَ الله ، غَدَرْتَ وفَجَرْتَ ، وإنما مَثَلُكَ مَثَلُ الكَلْبِ ، إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ » . فقال له عمرو : « وَمَثَلُكَ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا » .

* * *

وحمل شُرَيْح بن هانئ على عمرو فقنَّعَه[1] بالسَّوْط ، وحَجَرَ الناس بينهما ، وكان شُرَيْح يقول : « ما نَدِمْتُ على شىء قط كَنَدَامتى ألّا أكون ضربته مكان السَّوْط بالسيف ، أتى الدَّهرُ فى ذلك بما أتى » .

وانْسَلَّ أبو موسى ، فركب رَاحِلَته ، وهرب ، حتى لحق بمكة ، فكان ابن عباس يقول : « لَحَا الله أبا موسى ، لقد نبهته فما انتبه ، وحذَّرته بما صار إليه فما انحاش[2] » . وكان أبو موسى يقول : « لقد حَذَّرنى ابن عباس غَدْرَ عمرو ، فاطمأننت إليه ، ولم أظن أنه يُؤْثِر شيئا على نصيحة المسلمين » .

---

(١) علاه به . (٢) ما ينحاش لشىء أى ما يكترث له .

فهـرس

القسـم الأول

صفحة

صفحة

القســم الثانى

صفحة

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة

رمزى السيد شعبان

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٩٠٠٨ — ١٩٩١ — ١٠٠٠٠